وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ

يونس وموسى وهارون

عليهم السلام

الجزء الثاني

حقوق الطبع محفوظة

الطَّبْعَة الأُولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية او اي جهة حكومية اخرى

دار عمار للنشر والتوزيع

عمّان - ساحة الجامع الحسيني - سُوق البتراء - عمارة الحجّيري

تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمّان ١١١٩٢ الأردن

dar_ammar@hotmail.com

وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ

يونس وموسى وهارون

عليهم السلام

الجزء الثاني

الشيخ نافع بن خالد العلواني

المتوفى سنة ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

رحمه الله

دار عمار

بسم الله الرحمن الرحيم

موسى وهارون
عليهما الصلاة والسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام

الحمد لله الذي لا نِدَّ له فيُبارى، ولا ضدَّ له فيُجارى، ولا شريك له فيُدارى، ولا مُعترِضَ له فيُمارى، ابتعث الرُسل والأنبياء، ونصَبَ لهم في أدلَّتِهِ مناراً: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا﴾ [طه].

نحمده سبحانه وتعالى سِراً وجِهاراً، ونُصلي ونُسلم على محمد عبده ورسوله الذي أصبحَ وادي النبوة برسالته مِعْطاراً، أما بعد:

نحن الآن أمام نبي من المُرسلين الكِبار، الذين هم أُولوا العزم: «إبراهيم، نوح، وموسى، وعيسى، ومحمد» صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قال العلماء: أخذت قصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم مساحةً كبيرةً، لم تأخذْها قصة نبي آخر، وسبب ذلك أنَّ الله عز وجل أراد تثبيتَ النبي محمد ﷺ في دعوته لقومه، لأنه سيتعرض لمواقف وشدائد يحتاج معها إلى تثبيتٍ ومُواساةٍ، فكلما حصل بينه وبين قومه أمرٌ، قال الله له: اذكر موسى حين فعل كذا وكذا، وأنت عظيمُ الأنبياء، فلا بُدَّ أن تتحمل وتصبر، ولو نزلت هذه القصة مرة واحدة، وبلونٍ واحد، لكان التثبيتُ بها لنبينا ﷺ مرة واحدة، ولكنَّ الأحداث التي يمر بها الدُعاة كثيرة، ولذلك فهم يحتاجون إلى وقفات كثيرةٍ ليحصل لهم هذا التثبيتُ، ثم إن ذكر قصة موسى في كثير من السور ليست تكراراً كما يظن بعض من كان قاصراً عن فهم القرآن الكريم، وإنما هي لوحاتٌ مُختلفة لموضوع واحد، لكل لوحةٍ منها موقع وحاجة، فإذا جاء موقِعُها ومكانُ الحاجة لها جاءت ونزلت، فكل لقطةٍ تتحدث عن حال وعن مرحلة في القصة.

نحن أمام نبيٍّ مُرسل، قال الله عز وجل فيه: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١﴾ [مريم].

جاء ذكره في هذه السورة بعد ذكر إبراهيم ويعقوب؛ لأنه أشرف نبيٍّ من ذرية إسحق ويعقوب كما قال ابن عاشور.

قرأ جمهور القُراء قوله تعالى: ﴿مُخْلِصاً﴾، بالكسر، أي من الإخلاص، وقرأ حمزة وعاصم الكسائي، وخلف: ﴿مُخْلَصاً﴾ بفتح اللام.

والمُخلِصُ: هو الذي يأتي بالعمل غير مشوب بتقصير ولا تفريط، ولا هوادَةٍ، والـمُراد هنا الإخلاصُ بالرسالة.

والمُخلَصُ: مأخوذ من قولهم أخلَصَهُ إذا اصطفاه، وموسى جمع المعنييْن، فهو «مُخلِصٌ» لأنه أخلصَ بالدعوة إلى الله تعالى، فاستخفَّ بأعظم جبار، وهو فرعون، وجادله مُجادلةَ الأكفاءِ، ثم كان الإخلاصُ في أداء أَمانة الله ودعوته ميزَتَهُ، وقد قصَّ الله تعالى علينا ما قاله موسى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧﴾ [القصص].

وهو مُخلَص؛ لأن الله اصطفاه لكلامه مُباشرةً، قبل أن يُرسَلَ إليه المَلَكُ بالوحي، فكان مُخلَصاً بذلك، أي مُصطفىً، ولذلك قال تعالى عنه: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ٤١﴾ [طه].

والمُخلَصُ عند أهل التربية: هو الذي يقف بغرائزه عند حدِّها، لا يتعداها، ويُـخلِّصُها من الشوائب التي تحوط بها: غريزة الطعام عند الحيوان والإنسان، وغريزة الجنس عند الحيوان والإنسان، وغريزة الاستطلاع.

وهذه الصفة: إما أنْ يُكرم الله بها العبد من البداية، فيُخلِّصهُ من أول مرة من هذه الشوائب، وهذا الأمر لا يكون إلا للأنبياء والرُسل، وإما أن

يجتهد الإنسان ليُخَلِّصَ نفسه من هذه الشوائب باتباع المنهج الرباني، والتزام الطاعات، والبُعدِ عن المُخالفات، ولذلك قالوا:

من الناس من يصل بطاعة الله إلى كرامة الله تعالى.

ومن الناس من يصل بكرامة الله إلى طاعة الله تعالى، وهم الأنبياء، لأن الله تعالى جعل الأنبياء مُخلَصين من بدايتهم ليكونوا جاهزين لهداية البشر، ولا يُضيِّعون أوقاتهم في تخليص أنفسهم من شوائب الحياة وتجارُبها، فالرسول محمد ﷺ بقيَ ثلاثاً وعشرين سنة يُعلِّمُ الناس، فلو كان عليه الصلاة والسلام في حاجة ليُخَلِّصَ نفسه من الشوائب فمتى يُعَلِّمُ الناس؟

ولمكانة هؤلاء المُخلَصين ومنزلتهم عند الله تعالى، لم يجرؤْ إبليس على الدنوِّ منهم، تقرأ ذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ﴾ - أي إبليس -﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[ص]، وأقسَمَ بِعزة الله لقيامه بالإغواء دون تخلُّف.

قال السعدي في «تفسيره»: وأجَلُّ حالةٍ يوصف بها العبدُ: هي الإخلاص منه، والإستخلاصُ من ربه، وهكذا كان موسى كما رأينا.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ ﴾ [مريم]: أي جمع الله تعالى له بين الرسالة والنبوة.

فالرسالة: تقتضي تبليغ كلام المُرْسِلِ، وتبليغَ كل ما جاء به الشرع، دِقَّه وجُلَّه - دِقِّهْ و جُلِّهْ -، وكان رسولاً إلى بني إسرائيل والقبط.

والنبوةُ: تقتضي تخصيصه بإنزال الوحي إليه، فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق.

وموسى عليه الصلاة والسلام، خصَّهُ الله تعالى بأجَلِّ أنواع الوحي

وأفضلِها وهو: تكليمُهُ تعالى له، وتقريبُهُ مُناجياً، وبهذا اختُصَّ من بين الأنبياء بأنه كليمُ الرحمن، ولذلك قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢﴾ [مريم]، وجمهور المفسرين على أنَّ المُراد: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾: أي بالنسبة لموسى عليه السلام وهو مُقبل على الجبل حين حرَّكه القدرُ ليعود من مدْيَنَ إلى مصر بلده، وشوَّقهُ إلى أمه ووطنه، وذلك حين أراد الله له الرسالة، قال تعالى: ﴿..فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ٤٠﴾ [طه].

والطور: هو جبل سيناء، لما أقبل موسى عليه، نودِيَ من الشجرة، وكانت في جانب الجبل عن يمين موسى، وذلك حين ذهب يبتغي من النار جذوةً.

وقيل: ﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾: مأخوذ من اليُمن والبركة.

وقوله تعالى: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾: أي كلَّمناه بدون وحي، ولا واسطة.

والمُناجي: هو الذي يُسِرُّ القولَ إلى صاحبه، ومنه الحديث: «إذا كنتم ثلاثةً، فلا يتناجى اثنان دون الثالث، فإن ذلك يُحزنه»، فالله عز وجل أسمعَ كلامَهُ لموسى وأخفاهُ عن غيره فكان مُناجاةً، وكان هذا الكلام، وهذه المُناجاةُ ليلة الجمعة كما ذكر القرطبي.

وأخرج ابن أبي حاتم عن «عمرو بن معدِ يكرب» قال: لمّا قرَّبَ الله موسى نجيّاً بطورِ سيناء، قال: يا موسى: «إذا خلقتُ لك قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وزوجةً تُعين على الخير، فلم أخزنْ عليك من الخير شيئاً، ومَنْ أُخْزِنُ عنه هذا، فلم أفتح له من الخير شيئاً».

وبعد جمع هذه الخِصال لموسى من الله تعالى، زاده هِبَةً أُخرى تقرؤها في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣﴾ [مريم].

قال ابن عباس: كان هارون أكبر من موسى عليهما السلام، فوهبَ الله لموسى نبوتَهُ لا شخصه استجابةً لدعائه حين قال: ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [طه].

وطلبُ موسى ذلك، يدل على أدبٍ رفيعٍ؛ ذلك لأن موسى يريد أن يقوم بالرسالة على الوجه الأكمل، لذلك أَراد أَنْ يُكمل ما فيه من نقصٍ بأخيه ليُعينه على تبليغ الرسالة، ولو أراد الاستئثار بالرسالة لما طلب هذا الطلب، ولكن حاجة الناس بعضهم لبعض قائمةٌ، ولكلٍّ من الناس مُهمةٌ يقوم بها، ولذلك كان من كلام «كسرى أنوشروان»: إياكم أن تفهموا أنَّ أحداً منا يستغني عن أحدٍ، فلكل واحدٍ منا مُهِمَّتُهُ.

وقد أوضح موسى سبب هذا الطلب، وقد قصَّهُ الله علينا ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ [القصص ٣٤]، وهكذا تكامل الاثنان.

كما أن هناك صفاتٍ أُخرى يمتازُ بها هارون على موسى، فقد كان فيه حِلْمٌ ولينٌ، وكان موسى حادّاً، فكان الأول للّينِ، وموسى للشدة.

قال العلماء: ويستجيب الله لموسى دُعاءه فقال عز وجل: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [طه]، وقال تعالى: ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ [القصص ٣٥].

والسؤال: المسؤول، كالخبز، أي المخبوز.

قال بعض السلف: ما شفَعَ أحدٌ في أحدٍ شفاعةً في الدنيا أعظَمَ من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبياً، وقالوا: واستجابة الله عز وجل لموسى في ذلك دليل على أنَّ موسى بمكانٍ عظيم عند الله عز وجل.

قال صاحب «التأويلات» في قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ ﴾ [مريم]: وهذا يُشير إلى أنَّ النبوة ليست بالكسب، بل هي هِبَةٌ من الله تعالى، يَهَبُ لمن يشاءُ النبوة، ويَهَبُ لمن يشاء الرسالة، من رحمته وفضله، لا بِجَدِّهم واجتهادهم.

نسب موسى عليه السلام:

هو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم الخليل، عليهم صلوات الله تعالى وسلامه.

وأمه هي «يوخابذ أو أياذخت» كما ذكر السُهيلي، وولدتْ لعمران ولدين هما هارون وموسى.

مولده:

كان مولده أيام فرعونِها وحاكِمِها «رعمسيس الثاني» وهو من حُكام الأسرة الثامنةَ عشرةَ الذين طردوا الهكسوس - ملوك الرُعاة - الذين حكموا مصر أيام يوسف عليه السلام، «الوليد بن الريان»، قبل يوسف وبعده كان حُكام مصر يُلقبون «فراعنة» وهم من أهل مصر، والهكسوس «أهل بني إسرائيل» حكموا مصر قبل عهد يوسف، أغاروا على مصر وانتصروا على الفراعنة وحكموا سنوات، ثم تجمَّعَ الفراعنةُ وطردوهم من مصر.

كان يوسف وإخوته قد أثروا في مصر بدعوتهم إلى التوحيد، وأسلَمَ كثير من أهلها، وبخاصة في المكان الذي مات فيه يوسف في أرض «جاسان» التي أعطاها الملكُ في حينها ليعقوب وأولاده، وهي منطقة شمال بَلْبَيس، ومن مُدُنها «سفط المحنة».

ثم دار الزمان، وجاء الطاغية «أُحمس الأول»، وهو أول ملوك الأسرة

الثامنة عشرة، وطرد الهكسوس ملوكَ الرُعاة الذين كانوا حاكمين لمصر، ثم جاء بعده «رعمسيس»، فأعادوا الوثنية إلى مصر، وفرضوها بالقوة، وادعى هؤلاء الفراعنة الرُبوبية.

يقول مؤلف كتاب «أنبياء الله»: ثم عادت مصر إلى عقيدة تعدد الآلهة مرة أُخرى، بعد أن كان التوحيد قد ظهر أيام يوسف عليه الصلاة والسلام، ثم قال: وأغلب الظن أنَّ هذه العودة إلى تعدد الآلهة، كانت بكيد من الأسرة الحاكمة، والطبقات المُترفة، حيث شعرت في ظل التوحيد أنه لا ميزات لها، فكان من مصلحتها أن يعود نظام فرعون المُدَّعي للرُبوبية.

قال صاحب كتاب «النبوة والأنبياء» الصابوني: ولد موسى في عهد الطاغية الأكبر «فرعون، رعمسيس الثاني»، وكلمة فرعون تُطلق على حُكام مصر ومُلوكها، كما تُطلق كلمة «كسرى» على حُكام فارس، كما تُطلق كلمة «قيصر» على حكام الروم، ويكفي أن تعلم أنه كان طاغية جباراً من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [القصص].

قال القاسمي في شرح هذه الآية: كان من المُتمكنين في الإفساد، وقهر العباد.

وقال البروسوي: تجرّأ على قتل كثير من المعصومين.

وقال الجُنيد في قوله تعالى: ﴿ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾: أي ادّعى ما ليس له وهو الرُبوبية والألوهية.

قال المؤرخون: جعل فرعون أهل مصر فِرقاً وأصنافاً، جعل قومه جنوداً يملكون كل شيء، وهم شيعةُ الكرامة، واستضعف بني إسرائيل وجعل

منهم خدماً، فصِنْفٌ منهم يبنون، وصنفٌ يزرعون، وصنفٌ يتخدَّمون.

قال ابن كثير: وكان بنو إسرائيل في ذلك الوقت خيارَ أهل زمانهم، على التوحيد، وتسلَّطَ عليهم حاكم عنيد، كان يستعمِلُهم في أخسِّ الأعمال، وقسَّمهم إلى فِرَقٍ، كل فرقةٍ تعمل في ناحية، ومن لا يعمل يفرضُ عليه جزية بقدر العمل، ثم كان يقتل كل ذكر يولد لهم، ويترك النساء إهانةً واحتقاراً، وللخدمة كذلك.

قال وهب: قتل القِبْطُ في طلب موسى تسعين ألفاً من بني إسرائيل.

هنا يأتي سؤال: قد يقول قائل، لماذا كان يقتل الذكور؟

والجواب عن هذا السؤال، للمؤرخين فيه أقوال: فمن ذلك ما قاله العلماء، أنه كانت هناك بشارةٌ مشهورة في بني إسرائيل، وكان بنو إسرائيل يتناقلون ويتدارسون بينهم سِراً قَولَ إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام عندما أتى إلى الديار المصرية مع زوجه سارة، وحصل ما حصل لهما هناك، وكيف نجَّاهُما الله، وكان إبراهيم من جُملةِ ما أَسَرَّ به، وبشَّرَ به، أنَّ ولداً سيولد له من صُلبه يكون هلاك فرعون على يديه.

وصلت هذه البِشارة التي كان بنو إسرائيل يتناقلونها سِراً إلى أسماع فرعون عن طريق أمير من أُمراء القِبْط، كان يَسْمُرُ مع فرعون، وكان هذا الأمير قد نقلها له أحد أفراد بني إسرائيل، ما إن سمِعها هذا الأمير حتى أسرع لإخبار فرعون بذلك تقَرُّباً إليه.

وهناك فريقٌ من المؤرخين يقولون غير ذلك في سبب قتل فرعون للذكور، فقد روى السُّدّي عن أبي صالح وعن أبي مالك، عن ابن عباس، وابن مسعود، وعن بعض أصحاب النبي ﷺ: أنَّ فرعون رأى رؤيا، رأى كأن

ناراً قد أقبلت من ناحية بيت المقدس، فأحرقت دور مصر، وجميعَ القِبْط، ولم تضُرَّ بني إسرائيل، فخاف فرعون من هذه الرؤيا، فجمع أهل التعبير وقصَّها عليهم، فَفُسِّرت له بِغُلام يخرج من بني إسرائيل، ويكون هلاكُ القِبط على يديه، عندها أمر فرعون بقتل الغلمان، وترك النساء - الإناث - ولكن كما قال العلماء: لن ينفع حَذَرٌ من قَدَر، لأنه لكل أجل كتاب، ولأن أجل الله إذا جاء لا يُؤَخّر.

وقال أهل الكتاب: إنَّ سبب قتله للذكور، خوفه من أن يكثر العِبرانيون، وأن يُعاونوا أعداءه من الهكسوس - ملوك الرُعاة - فيما لو قامت حرب معهم.

قال صاحب كتاب «حياة الأنبياء»: جمع فرعون القوابِلَ، وقال لهُنَّ: لا يسقط على أيديكُنَّ غُلامٌ من بني إسرائيل إلا قُتل، ولا جارية إلا تُرِكت، وأقام الحُراسَ والوكلاء على ذلك، وخاطب شعبه قائلاً: كل ابنٍ يولد للإسرائيليين يُطرح في النهر، وكل بنت تستحيونها.

وورد في أخبار أهل الكتاب: أنه كان للعبرانيات قابلتان، وهما: «شِفرةٌ، وفوعةٌ»، فاستدعاهُما فرعون، وأوصاهُما، فقال: حينما تولِّدان العبرانيات، إن كان ذكراً فاقتُلاه، وإن كانت بنتاً فتحيا، ثم أمر الجنود بتعذيب الحُبالى حتى يُسقِطن، وهذا هو سوء العذاب الذي قصَّه القرآن الكريم علينا: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة].

ونقرأ في [سورة إبراهيم] قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن

رَبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٦ ﴾. و﴿ وَإِذۡ ﴾: أي اذكروا وقتَ نَجَّيناكم، ونُلاحظ أن الآية الأولى ورد فيها الفعل «نجّى»، وفي الآية الثانية الفعل «أنجى»، لماذا؟

ففي الفعل الأول ﴿ نَجَّيۡنَٰكُم ﴾ تكون وقت نزول العذاب.

وكلمة ﴿ أَنجَىٰكُم ﴾ تدل على منع العذاب عنهم من فرعون نهائياً.

ففضلُ الله عليهم كان على مرحلتين:

الأولى: أنه عز وجل خلَّصهم من عذابٍ واقع.

الثانية: أنه أبعدهم عن آل فرعون، فمنعَ عنهم العذاب، فالكلام من الآية الأولى من الله، والآية الثانية: هي كلام موسى يقُصه الله عز وجل علينا.

وقوله تعالى: ﴿ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ ﴾.

والسُّوءُ: هو المُشتمل على ألوانٍ من العذاب، كما قال المفسرون، كالسُّخرةِ، كانوا يؤخذون أُجراءَ في الأرض ليحرثوا، وفي الجبال ليقطعوا الصخور وينحتوا، وفي المنازل ليخدموا، ثم هناك الجلدُ والعمل بالأشغال الشاقة.

والسّوْم: يُقال: سامَ زيدٌ خصمه: أي أذَلَّهُ، وأرهقه، ومعنى ذلك أن حياتهم كلها ذُلٌّ وعذاب، أي كانوا متروكين على هذا الحال، كقولهم: سامَ الماشية: أي تركها ترعى.

ونُلاحظ أن الآية قالت: ﴿ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ ﴾، ولم يقل بناتكم بدلاً منها، لماذا؟

والجواب كما قال المفسرون: ليُبيِّنَ لنا أن المقصود عند فرعون وآله هو إبقاءُ عنصر الأُنوثة يتمتع بهنَّ آلُ فرعون، لذلك لم يقل بنات، ولكنه قال:

نساء، أي أنهم – فرعون وقومه – يريدونهنَّ للمُتعة، وذلك زيادةً في التنكيل ببني إسرائيل، لأن أشدَّ أمرٍ يقتل رجولةَ الرجلِ، هو أنْ يرى الفاحشة تُصنع في نسائه.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾، والبلاء لا يكون بالشر فقط، وإنما يكون بالشَّرِ والخير، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾ [الأنبياء].

إذن هناك بلاء بالخير، وبلاء بالشر، والبلاءُ لا يُخيف، ولكن الذي يُخيف هو نتيجة هذا البلاء، لأن البلاء اختبار، فإن نجحت فيه كان خيراً، وإن لم تُؤَدِّهِ كان وبالاً عليك، قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ [البقرة ١٢٤].

قال الصباحي في كتابه «حياة الأنبياء» وغيرُه: لَمّا اشتد الأمر على بني إسرائيل، وأخذ الفناءُ يدِبُّ في ديارهم من ذبح الذكور، تنبَّهَ خُبراء الاقتصاد في مملكة فرعون، فقالوا لفرعون: إنَّ استمرار الأمر على هذا الحال، بهلاكِ الكبار من بني إسرائيل موتاً، وللصغار ذبحاً وإغراقاً، سيؤدي إلى فقدان اليد العاملة، وضياع ثروةٍ بشرية، واقترحوا عليه خطة جديدة أفضل من سابقتِها، وهي:

أن يقتل الذكور في عام، ويتركهم في العام الذي يليه، حتى لا يهلِكَ الجميع، وأعجبت فرعون هذه الفكرة فنفذها، وكان بتقدير الله تعالى أَنَّ هارون وُلِدَ في السنة التي لا ذبحَ فيها، فوضعتهُ أمه وهي مطمئنةٌ، ثم وُلِدَ موسى في السنة المُقرر فيها الذبح للمواليد الذكور، وهاهو المولود الذي على يديه سيكون القضاء على فرعون ومُلكه قد وُلِدَ، ليقوم المُستضعفون من بني إسرائيل بوراثة ذلك المُلك، ولتُكشف الغُمَّةُ عنهم، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن

نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص].

قال المفسرون: انتبه - يا عبد الله - إلى غضبةِ الحق في هذه الآيات على الظَلَمَةِ، ولاحظ غيْرَتهُ على المؤمنين والمُستضعفين: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [القصص]، إنه عطاءٌ وهِبَةٌ من الله تعالى، ونُصرةٌ منه عز وجل لأهل طاعته، وللحق الذي معهم؛ لأن الله تبارك وتعالى لا يُسلِمُ الحق، ولكن يتركه ليبلُوَ غيرةَ الناسِ عليه، فإذا لم يغاروا عليه، غارَ هو عليه كما قال، والله عز وجل - كما يقول أئمة التفسير - حينما يغار على الذين استضعفوا، يرفَعُ عنهم الظُلمَ أولاً؛ لأنه تبارك وتعالى كتبَ ألّا يُفلِحَ ظلومٌ، وألّا يموتَ ظَلومٌ حتى ينتقم للمظلوم منه، ويُرِيَهُ فيه عاقبةَ ظُلمه، حتى أنَّ المظلوم رُبما رحِمَ ظالَمَهُ، وحسبُكَ من بلاءٍ ما أعظَمَهُ حين ترى حاسديه بالأمس، راحمين له اليوم، ولذلك قيل: يوم الـمظلومِ على الظالم، أشد من يوم الظالمِ على المظلوم، وقالوا: الظُلمُ يجلِبُ النِقَمَ، ويسلُبُ النِعَمَ.

وكان بعض السلف يقول: دعوتان، أرجو إحداهُما، كما أخشى الأُخرى:

دعوة مظلومٍ أعنتَهُ، يرجو الإنسانُ ثوابَها الكبير.

ودعوة ضعيفٍ ظلمته، وهذه تُخيفُ لوخامَةِ عاقبة الظلم.

وورد في بعض الآثار: «أعجل الشر عقوبةُ البغي»: أي الظُلم.

ومما يُروى في هذا الصدد - صدد الظُلمِ - أنَّ «أحمد بن طولون» قبل أن يستقيم على العدل، كان ظالماً، حتى استغاثَ الناس من ظُلمه، وفي يوم

من الأيام توجَّهَ الناسُ إلى بيت «السيدة نفيسة»، وكانت قد أقامت في مصر، واشتكوا إليها ظُلمَ ابن طولون، فقالت لهم: متى يركبُ؟ قالوا: في الغد، فكتبت رُقعةً، ووقفت على الطريق عن بُعْدٍ، فلما مرَّ قالت: يا ابن طولون، فلما رآها عرفها وترجَّلَ عن فرسه، ودفعت إليه الورقة، فقرأها، فإذا فيها: «ملكتم فأسرتم، وقدَرْتم فقهرْتم، وخُوِّلتم فعسفتُم، ومُدَّتْ عليكم الأرزاق فقطعتم هذا، وقد علمتم أنَّ سِهامَ الأسحارِ نافذةٌ، لاسيّما من قلوبٍ أوجعتُموها، وأجسادٍ أعَرَّيتُموها، اعملوا ما شئتم فإنا صابرون، وجوروا، فإنا بالله مُستجيرون، واظلِموا، فإنا منكم مُتَظلِّمون، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلبٍ ينقلبون».

قال المؤرخون: فتحول من ساعته، وانقلب عادِلاً.

قال المؤرخون: وقد تحقق هذا الوعد من التمكين لبني إسرائيل، ووقع ما كان يخافه فرعون، ورآه بعينه.

الحمل بموسى وولادته:

قال ابن كثير: لمّا حملت أم موسى به، احترزتْ من أول الحمل، ولم يظهر عليها علاماتُ الحبل.

وقال البروسوي في تفسيره: لمّا حَبِلت أم موسى بموسى، لم يظهر بها أثر الحَبَلِ من نُتوءِ بطن، وتغيير لون، ثم قال: وذلك شيء ستره الله تعالى، لمّا أراد أن يُنقِذَ بني إسرائيل على يديه، حتى ولدتهُ في ليلة لا رقيبَ، ولا قابلةَ، ولم يطلع عليها من قوابِلِ فرعون المُوَكّلات بحُبالى بني إسرائيل، ولم تره إلا أختُه.

قال النيسابوري: اشتدَّ حُزنُ أم موسى عندما قَرُبَ زمن الوضع،

فأوحى الله إليها ما ذكره القرآن الكريم: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص].

ما هو هذا الوحي؟

قال الرازي: لم تكن أم موسى من الأنبياء والرُسل، لأن الله لم يبعث امرأةً نبية، وهذا صريح في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[النحل].

والإجماع مُنعقدٌ على أنَّ الله لم يبعث رُسُلاً من النساء، إذاً: فالوحي هنا: وحي إلهامٍ وإرشاد، وعزيمةٍ جازمةٍ.

قال القرطبي: هو ما يخلُقه الله في القلب ابتداءً من غير سبب ظاهر، فهو إعلامٌ بطريق خفيٍّ، فكان هنا إلهاماً أو نفثاً في الرّوعِ.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ﴾، قال القاسمي: أوحينا إلى أمه إثرَ ولادته في تلك الشدةِ أن أرضعيه.

وقوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ ٱلْيَمِّ أي إذا خفتِ عليه من أولئك الذبّاحين الذين يحمِلون الشِفارَ المُرهَفَةَ العاملةَ في تلك الأنفُسِ الذكية البريئة ذبحاً، أو خفتِ من الجيران، أو من أعيُنِ الجواسيس، فألقيه في اليم - أي نهر النيل -، واليم: البحر.

قال ابن جُريج: أرضعتهُ أربعةَ أشهر في بُستان، فلما خافت عليه أن يُكشَفَ أمره، صنعت له التابوب وألقته في اليم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِى﴾: أي عليه أن يضيع، أو لا تخافي عليه شِدَّةً من عَدَمِ رضاعه في سنِّ الرضاع - كما قال الآلوسي - ولا تخافي عليه الغرق

كذلك.

وقوله: ﴿ وَلَا تَحۡزَنِيٓ ﴾ لمُفارقته لك.

ولكن ما الفرق بين الحُزن والخوف؟

والجواب: الخوف: غَمٌّ يلحق الإنسان لشيء مُتوقع سيأتي.

والحُزن: غمٌّ يلحق الإنسان لشيء حاصل واقع.

وقوله: ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ ﴾: أي عن قريب، بحيث تأمنين عليه، وتكونين أنت المُرضعَةَ له.

وقوله: ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾: أي لأهل مصر والشام.

قال البروسوي: ولمّا أَلَحَّ فرعون في طلب المواليد، واجتهدت العيون في تفحُّصِها، ألقتْهُ في اليَمِّ في تابوت مطلي بالقارِ ليلاً.

قال بعض المفسرين: فمن مِن النساء تقبل إن خافت على ولدها أن تُلقِيَهُ في اليم، مَنْ ترضى أن تُنجيه من موت مظنون إلى موت مُحقق، وقد جعل الله عاطفة الأمومة تتلاشى أمام واردِ الإلهام الإلهي الذي لا يؤثر فيه واردُ الشيطان، كل ذلك بتدبير الله تعالى وقُدرته.

قال العلماء: وقد بلغت هذه الآية أعلى مراتب الفصاحة، فقد حُكِيَ عن الأصمعي، أنه سَمِعَ جارية أعرابية تقول:

أستغفر الله لذنبي كلِّه ... قبَّلتُ إنساناً بغيرِ حِلِّهْ

مثل الغزال ناعِماً في دِلِّه ... فانتصفَ الليل ولم أُصلهْ

فقال لها: قاتلك الله ما أفصحكِ؟

فقالت: أوَ تَعُدُّ هذه فصاحةً مع قوله تعالى: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ

أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [القصص]، فقد جمع في آية واحد: أمرين ونَهْيَين وخَبرين وبِشارتين.

قال النسفي: أُمِرَتْ أم موسى بشيئين، ونُهِيت عن شيئين، وبُشِّرتْ ببشارتين.

وقال عز وجل: ﴿ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾ ﴾[طه].

والمِنَّةُ: العطاء بلا مُقابل، والجزاءُ: هو العطاءُ مقابل عمل.

وعبارة: ﴿ مَا يُوحَىٰٓ ﴾: أي أمراً عظيماً مُهماً، يستحق أن يُوحَى به، ثم جاء بيانه بقوله تعالى: ﴿ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ - بقوله -: أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ ﴾.

قال المفسرون: في هذه الآية ثلاثة إلقاءات لموسى:

إلقاء الرحمة والحنان من الأم في التابوت، وإلقاء التابوت في اليم تنفيذاً لإلهام الله، وإلقاءُ اليم للتابوت عند قصر فرعون، وفي مكان تَنَزُّهِهِ مع أهله.

قال الدكتور أحمد بهجت، في كتابه «أنبياء الله»: لم يكد إلهامُ الله تعالى ووحيه لأم موسى ينتهي، حتى استجابت من فورها لهذا النداء الرحيم المُقدَّس، فأمرت بصُنع صندوق صغير لموسى، ووضعتهُ فيه بعد أن أرضعتهُ، وذهبت به إلى شاطئ النيل، وألقتهُ هناك في الماء.

قال مُقاتل: صنعَ لها التابوت مؤمن آل فرعون، واسمه «حزقيل»، وكان الصندوق من خشب الجُمَّيز، وحزقيل هذا كان نجاراً.

قال الماوردي: إن النجار «حزقيل»، بعد أن صنع التابوت، شكَّ في الأمر، وكان في حينها على غير الإيمان، فأراد أن يوصِلَ الخبرَ إلى فرعون، فما كاد يمشي خُطواتٍ حتى أُصيبَ بعمىً مؤقت، فأدرك أنَّ هذا الغَلام هو الذي على يده سيكون هلاكُ فرعون، وتحرير بني إسرائيل، فأسرعَ في الإيمان، وكتَمَ أمره.

قال القرطبي: اتخذت تابوتاً، وجعلت فيه نِطْعاً - نَطْعاً -، ووضعت فيه موسى وقَيَّرتْ رأسه وخِصاصَهُ - شُقوقَهُ - ثم ألقته في النيل، وزاد بعض الرواة، أنها وضعت في التابوت قطناً محلوجاً.

قال يحيى بن سلام: جعلت الصبي في تابوت طولة خمسة أشبار وعرضه خمسة أشبار، وجعلت المفتاح مع التابوت.

هنا سؤال: الإلقاء في اليم خطر، وهو قريبٌ من الإهلاك على يد فرعون، فكيف يجوز الإلقاء؟

والجواب: إنها كانت مضطرةً لركوب أحد الخطرين، فرأت السلامة في الإلقاء في البحر أقربَ، وهو أهونُ الخطرين، وخيرُ الشرَّيْن:

إذا لم يكن إلا الأسِنَّةُ مَرْكِباً فما حيلةُ المضطر إلا رُكوبُها

قال المفسرون: قد يقول قائل: ما الحكمة من إلقاء موسى دون غيره في البحر؟

والجواب عندهم: إنَّ الله نجاه من البحر في الابتداء، ليكون عزمُه في الإقدام على البحر ثانياً في الانتهاء؛ وذلك لإغراق فرعون بالماء، وليعلَمَ العبادُ أنَّ الشيء الذي يَتيقَّنونَ أن فيه التلفَ، قد يكون وسيلةً للنجاة عند الله تعالى، فلسانُ الحال يقول لها: «ألقيه في التَلَفِ، لأُنجيَهُ بالتَلَفِ من التَلَفِ،

سلّميه لنا صبياً، نُسلمْهُ لك نبياً».

وفي أثر ورد عن ابن عباس قال: لمّا ألقت التابوت، وتوارى عنها، ندَّمها الشيطان، فقالت في نفسِها: «لو ذُبِحَ عندي، فكفَّنتُهُ، وواريتُهُ التُراب، لكان أحبَّ إليَّ من إلقائه في البحر»، ولكن الوارِدَ الرباني على قلبها كان أقوى من كل وساوس الشيطان، فاستسلمت لوعد الله لها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: وجاء الأمر الرباني من أرحم الراحمين إلى نهر النيل، أن يحمِلَ موسى بهدوء ورِفْق، حتى يجعله أمام قصر فرعون، ثم قال: ولا عجبَ في ذلك، فالله الذي أصدر أمره إلى النار أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم، قادر على أن يجعل الأمواج تنقُله بهدوء ورأفةٍ.

قال العلماء: اتخذت أمه تابوتاً، ثم ألقته في الماء - النيل - وكان يتفرع من النيل نهر يمرُّ من دار فرعون، فدفعه الماء إليه، فأتى به إلى بركةٍ في البُستان، حيث كان فرعون مع زوجه «آسية بنت مُزاحم»، فأمر الخدم والجواري بإخراج الصندوق، فأخرجْنَهُ، ثم أمر بفتحه فَفُتِحَ، فإذا صبي من أصبَح الناس وجهاً، وذلك قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨﴾ [القصص]، ونقرأ في [سورة طه ٣٩] التي نحن بصددها: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ﴾.

قال علماؤنا: وقف بعض أتباع المُستشرقين، وقالوا: هذا تكرار، ولكن الحقيقة ليست تكراراً، وإنما يقولونَ ذلك، لعدم إدراكهم دقيقَ معاني القرآن، والمُتأمل في الآية الأولى يُلاحظ، أنَّ العداوة في الآية الأولى من جانب موسى لفرعون: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ﴾، مثل حُزناً.

أما العداوة الثانية، فهي من جانب فرعون لموسى ولرب موسى: ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾: فالعداوة – كما يقول العلماء – مُتَبادلة من الطرفين، وهذا يضمن أن العداوة ستستمر، وستكون شَرِسَةً، وهذا مُراد القصة، لأن العداوة في قضيةٍ لا تقبل المُساومة، قضية في القمة – كما قال علماؤنا – وهي قضيةُ العقيدة والتوحيد، ولذلك كانت العداوة من الطرفين، إذ لو كانت العداوة من جانب واحد، والجانب الآخر لا عداوة عنده للطرف الآخر، لكان هناك مجال للتسامُح من الطرف غير المُعادي، وعندها من الممكن أن يخجل الطرف المُعادي فتؤول الأمور إلى المُصالحة، أما بين موسى وفرعون، فالعداء مُتبادل من الطرفين، فهي عداوةٌ في القمة في التوحيد.

ونُلاحظ أن مجيء موسى على هذا الحال، لم يلفت انتباه فرعون، ولم يسأل عن حكايته، ومن أين أتى، كل ذلك لم يحصل، لماذا؟

قال العلماء: إنها إرادة الله الذي لا يُعجزه شيء، فهو عز وجل حوَّلَ قلب فرعون، وأدخَلَ فيه محبَّةَ موسى لتمرير هذه المسألة، وهي: تربية موسى في بيت عدوه، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [طه ٣٩]، وقال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال ٢٤].

قال ابن عباس: أحبه الله، وحَبَّبه إلى خَلْقِهِ، فلا يلقاه أحدٌ من مؤمن أو كافر إلا أحبَّهُ.

وقال القاسمي: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾: أي محبةً خلقتُها وزرَعتُها في قلب من يراك، ولذلك أحبَّكَ فرعون فسَلِمْتَ من شره، وأحبتك «آسية» فتبنَّتْكَ كما قال ابن زيد.

قال الرازي في تفسيره: وأحبتْهُ زوج فرعون حُبّاً شديداً، ولذلك قالت لزوجها فرعون فوراً ما حكاه الله عنها: ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ

عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾ [القصص].

وقولها: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ﴾: أي مبعَث سُرورٍ لي ولك، لأن فرعون لم يكن يولد له إلا البنات، وقُرَّةُ العين: ثَباتُها، وهذا الثباتُ إما حِسِّياً، وإما معنوياً.

والثباتُ المعنوي: استقرار العين على منظر يُغنيكَ عن النظر لغيره، ولذلك يُسمون الشيء الجميل الذي يجلبُ النظر «قيدُ النظر»، ومنه قول الشاعر:

سمَّرتُ عيني في القمر ... فنال مني من نظر
يا ليتَ لائمي عَذَرْ ... فحُسنُهُ قيدُ النظر

أما الثباتُ الحِسِّي: فمعناه جمَّدها بالعمى.

وقد ورد عن ابن عباس: أنها لما قالت له: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ﴾، قال فرعون: يكون لكِ ذلك، أما أنا فلا حاجةَ لي فيه، وقد ورد في أثر عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي يُحلَفُ به - أي والله - لو أقرَّ فرعون أن يكون قُرَّةَ عين له كما أقرَّت زوجه آسيةُ، لهداه الله كما هداها».

قال الرازي: هذه المحبة لموسى المُلقاة في قلوب من يراه، هي من خلق الله، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ [مريم]، هذه محبة جعلها الله للمؤمنين فضلاً منه وتكرُّماً، لا بسبب من أسباب المَودةِ الدُنيوية المعروفة، إنها محبَّةٌ إيمانية، وليست ناشئة عن قرابة، أو صداقة، أو مصالح مُتبادلة من أمور الدنيا، ولذلك قال «هرَمُ ابن حيان»: ما أقبلَ أحد على الله بقلبه إلا أقبَلَ الله تعالى بقلوب أهل الإيمان

إليه حتى يرزُقه مَودَّتهم، وهَرَمٌ هذا مات في يوم شديد الحر، فلما نفضوا أيديهم من دفنه جاءت سحابة فأمطرت، ونبتَ العُشبُ من يومه، وكان عامِلاً لعمر ابن الخطاب.

ثم تأتي المِنَّةُ العظيمة بعد إلقاء المحبةِ عليه، وهي قوله تعالى: ﴿ وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾ [طه].

قال القاسمي: أي لتُربى بيد العدو على نظري بالحِفظ والرعاية.

وقال صاحب «الظلال»: إن موسى سيذهب لمواجهة أقوى ملوك الأرض في حينها، وأطغى جبار، سيذهبُ لخوضِ معركة الإيمان مع الطُغيان، ولخوضِ مُشكلاتٍ كبيرة حتى مع بني إسرائيل الذين أَذَلَّهم الاستعباد الطويل، وأفسَدَ فطرتهم، فأخبره ربه أنه لن يذهب بلا استعداد للمُهمة، وأن الله صنعه على عينه منذ زمن، ودُرِّبَ على المشاقِّ وهوطفل، ورافقتهُ العِناية وهو ضعيف صغير.

قال العلماء: وهكذا التقطه آل فرعون بالتابوت ليكون لهم عدواً وحزناً، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ٨ ﴾ [القصص].

قال القاسمي: لَمّا كان فرعون ومَنْ معه آثمين مجرمين كافرين، عاقبهم الله بأن ربّى عدوَّهم على أيديهم، ثم بدأ أهل فرعون وجواريه يتداولون في أمر تسميته، فقالوا: ماذا نُسميه؟ وكان اقتراح «آسية» بتسميته «موشى» هو المقبول، وقالت: إنه وُجِدَ بين الماء، والماءُ «مو» بلغةِ القِبط، و«شىٰ» الشجر، فيكون ذلك موافقاً لمكان وجوده.

قال المفسرون: وكانت «آسية» زوج فرعون تضع في ذهن زوجها أن

هذا الولد ليس من أولاد بني إسرائيل، فقال لها مرة: وما يُدريك؟ فقالت: إن نساء بني إسرائيل من أحرص الناس على الولد، فكيف يُظنُّ بوالدةٍ تُلقي بولدِها في اليم، وكانت تقول له كثيراً: إنَّ هذا الولد كبير، وهو مولود قبل هذه المُدة التي أخبروك بها، ثم استوهبتهُ من فرعون، فوَهَبَهُ لها، ولا عجبَ في ذلك، فقد كانت مؤمنة، وكان الزوج كافراً.

وقوله تعالى لموسى: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾[طه ٣٩].

ذكر القرطبي: أن بعض القوابِلِ المُوكلات بِحُبالى بني إسرائيل، كانت صديقة مُصافيةً لأم موسى، فقالت أم موسى لها: لينفعني حُبُّك اليوم، فعالجتها، فلما وقع المولود إلى الأرض، هالها نورٌ بين عينيه، وارتعشَ كلُّ مِفصلٍ منها، ودخل حبه قلبها، ثم قالت لأم موسى: ما جئتُ إلا لأقتُلَ مولودكِ، ولكن وجدتُ لابنك حُبَّاً ما وجدتُ مثله قط، فاحفظيه.

قال المفسرون: وكذلك كان لفرعون بنت مبروصة، كانت قد رأت رؤيا، أن شِفاءها سيكون بشيء يخرج من البحر، تدهَنُ بَرَصها فيشفى، فلما رأت موسى تذكرت رؤياها، فأخذت من ريقه ودهنت جلدها فشُفيت، فتعلَّقت به البنت أيضاً.

قال الشعراوي: وهكذا اجتمع لموسى محبة الزوجة، ومحبة البنت، وهما أصحاب الكلمة المسموعة عند فرعون، بحيثُ لا يرُدُّ لهما طلباً، ولا شك أن تأثير الزوجة والأولاد على الرجل قوي لا يُنكر، ولذلك يروي أهل الأدب قصة عن حادثة وقعت بين الرشيد، وأبي نُواس، وهي: أن رجلاً وسَّطَ أبا نواس ليشفعَ له عند الرشيد في قضية، وكلَّمَ أبو نواس الرشيد، فلم يرُدَّ عليه، وانتظر الرجل زمناً دون جدوى، ففكرَ صاحب الحاجة بوسيلة أُخرى، حتى

توصل إلى وساطةٍ أُخرى عن طريق زُبيدة زوجة هارون الرشيد، فكلَّمت زُبيدةُ زوجها، فأسرع في تنفيذ ما طلبت، وغضبَ أبو نواس، ومع ذلك لم يُعِرْهُ الرشيد أُذُناً صاغيةً، فقال أبو نواس:

ليس الشفيعُ الذي يأتيك مؤتَزِراً

مثل الشفيعِ الذي يأتيكَ عُريانا

قال المفسرون: وقد حاول بعض العلماء، إحصاء المطالب التي طلبها موسى من ربه عز وجل فوجدها ثمانية مذكورة في [سورة طه]: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ ﴾.

ثم وجد العلماء أن الله تعالى أعطاه ثمانية أُخرى دون سؤال منه: ﴿ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ٣٨ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ٤٠ ﴾ [طه].

وهكذا جمع الله له بين العطاء بالسؤال، والعطاء تكَرُّماً من غير سؤال، لأنك إن سألت الله فأعطاك، دلَّ على قُدرته عز وجل إلى إجابة طلبك، ولكنه تعالى عندما يُعطيك بلا سؤال منك، دلَّ على محبته لك، وهكذا كان شأن موسى عليه السلام: ﴿ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي ﴾.

حال أم موسى بعد وقوع التابوت في يد فرعون:

قال جمهور المفسرين: لمّا وقع التابوت في يد آل فرعون، أصبحَ قلبُ الأم لا يشغله إلا أمر واحد، وهو ماذا سيجري لولدها، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص]، كان ذلك في صباح يوم الإثنين من الأسبوع.

وقوله: ﴿ فَٰرِغًاۖ ﴾: أي خالياً من ذكر كل شيء في الدنيا، إلا ذكرَ ولدها موسى، كما قال ابن مسعود، وابن عباس، والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك.

قال النحاس: هذا أصحُّ الأقوال في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ ﴾، لأن الذين قالوا هذا القول أعلَمُ بكتاب الله عز وجل، ممن قال غير ذلك، ممن قالوا: ﴿ فَٰرِغًاۖ ﴾: أي خالياً من التعَقُّلِ، وصفراً فيه، لما أصابها من الحزن عندما سمعت أن التابوت وقع في يد فرعون.

قال الصاوي: ﴿ فَٰرِغًاۖ ﴾: أي وسوس لها الشيطان: إنك كرهتِ أن يقتله فرعون، فيكونَ لك أجرٌ وثواب، وتوليتِ أنت قتله فأغرقتيه في اليم، فحزنتْ لهذه الوساوس، وانحَصَرَ قلبُها وهمُّها عنده.

وورد عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أنها كادت أن تقول: «وا ابناه»، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ ﴾: أي كادت تصرخ بذكره حين مُفارقته، وأن تقول إنه ولدي، وأنا ألقيتُهُ في النيل، ولكن الله تعالى ألقى الصبر في قلبها، وإلى هذا أشار قوله تعالى: ﴿ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾: أي المُصدِّقين بوعد الله: ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ ﴾، لأن الإيمان هو الذي يجلب لك النفع، ويدفع عنك الضارَّ، فأم موسى في هذا الموقف قد

منعها إيمانُها من إظهار شهوة الأمومة وحنانها لأن هذه الشهوةَ هنا يتبعُها ضرر كبير، وهو قتل الولد عندما يعلمون حاله.

وعد الله يتحقق:

في غمرة هذه الانفعالات النفسية من الأم، تتجه إلى ابنتها «كلثوم» أخت موسى، «وقيل مريم»، والراجح الأول؛ - لأنه ورد في أثر رواه «الزُبير بن بكار»، أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: «أشعرت أن الله زَوَّجني معكِ في الجنة، مريم بنت عمران، وكلثوم أخت موسى، وآسية امرأة فرعون»، فقالت خديجة: آلله أخبرك بهذا؟ قال ﷺ: «نعم»- قائلةً لها: اخرُجي، فاستخبري خبرَ ولدي، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [القصص].

كلمة: ﴿ قُصِّيهِۖ ﴾: أي اطلبي أثره، هل هو حي أم ميت، وراقبي سيره إلى أين ذهب، وماذا فُعِلَ به؟ لأنها سمعت كلاماً من الناس أن فرعون أصاب صبياً في تابوت.

قال المفسرون: وسارعت الأخت إلى التنفيذ، يدلُّك على هذه السرعة مجيءُ الفاء الدالة على التعقيب، وسُرعة الاستجابة لطلب أمها: ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾، تذهب أخته، وتُراقب الأمر عن بُعْدٍ وتُظهِرُ اللامُبالاة؛ لئلا ينتبهوا إليها، وهذا من مُنتهى الحكمة والذكاء عند الأخت؛ لأنها قامت بمُهمتها على الوجه الأكمل دون أن تُكلِّفها أمها بالحيطة، فقالت الأم: ﴿ قُصِّيهِۖ ﴾، ولم تَلْفِتْ نظرها إلى الحذر، وهذا يدل على نباهَةِ المُرسلِ، وهي الأخت هنا، ولذلك يقول الشاعر:

إذا كنت في حاجةٍ مُرسِلاً فأرسلْ حكيماً ولا تُوصِهِ

وإنْ بـابُ أمـرٍ عليكَ التوى فـشـاوِرْ خـبـيراً ولا تَعصِهِ
وإن نـاصِـحٌ منك يوماً دَنَـا فـلا تَـنْـأَ عنه ولا تُقصِهِ

وقوله تعالى: ﴿عَن جُنُبٍ﴾: أي عن بُعدٍ، لا مواجهة، يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء ٣٦].

فالجار ذو القربى: القريبُ منك في الجِوار أو النسب.

والجار الجُنب: البعيد عنك في الجِوار أو النسب، ومنه الجُنُبُ: البعيد عن الصلاة.

ألا ترى إلى إبراهيم عليه السلام ماذا قال في دُعائه: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ [الحج].

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أي لا يشعرون أنها تقُصُّه، أو أنها أُخته، أو لا يشعرون بهدفها، ولا بِغرضِها.

البُكاء والإرضاع:

قال المفسرون: ويبكي الطفل جوعاً، وتعرف «آسية» أنه جائع، ويصدر الأمر من القصر بإحضار المراضع.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: أحضَروا مُرضعةً إلى القصر، وثانية وثالثةً وعاشرةً، فلم يقبل ثديَ واحدة منهُنَّ، وعمَّ الحُزن نسوةَ القصر، الولد لم يرضع، وهو في بكاء مستمر، وذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ

مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [القصص].

وقوله: ﴿ وَحَرَّمۡنَا ﴾: أي منعنا موسى أن يرضع من غير لبن أمه، فالتحريم هنا: المنعُ، وليس معناه أنه ليس حلالاً، لأنه لا معنى للتحريم على صبي غير مُكلف، وذلك أن الله أحدثَ في الصبي كراهة ثدي النساء، والنِّفارَ عنها من قبل أن تقُصَّ أخته أثره، ومن قبل أن نرُدَّهُ على أمه، أو في القضاء السابق.

و﴿ ٱلۡمَرَاضِعَ ﴾: جمعُ مُرضِعٍ، وهي المرأة التي تصلح للإرضاع، أما المُرضِعَةُ: فهي المرأة التي تُباشرُ الإرضاع، والولد يلتقم ثديها، وهذه هي التي تَذهلُ عن طفلها من هول يوم القيامة: ﴿ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ ﴾ [الحج ٢].

قال أهل التفسير: لمّا رأت أُخته التي ما زالت في تتبُّعِ أثره، اهتمامَ القصر والحاشية بإرضاع الولد، ورأت ولاحظت أو سمعت عدم أخذه ثدي امرأة ممن أُحضِرْنَّ إلى القصر ولاحظت سؤال الحاشية عمّن يعرفُ مُرضعة غير الموجودات لعله يأخذ ثديها، عندها قالت ما قصَّه الله علينا: ﴿ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [القصص].

يروي صاحب تفسير «روح البيان»: أنها لمّا قالت ذلك، قالوا لها: من يكفُلُ؟ قالت: أمي، قالوا: ألِأمك لبنٌ؟ قالت: نعم، لبنُ هارون، وكان هارون قد وِلِدَ في سنة لا قتلَ فيها للذكور، فقالوا: صدقت.

وقد ورد عن ابن عباس، كما ذكر ابن كثير، وعن البروسوي كذلك، أنها لمّا قالت: ﴿ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ

﴿١٢﴾، ونُقِلت هذه العِبارةُ إلى هامان، الذي شكَّ في أمرِها، وقالوا لها: وما يُدريكِ بنُصحِهم له وشفقَتهم عليه؟ قالت: إنما أردتُ أنهم ناصحون للملكِ يطلبون سروره ورضاه رجاء حُبه لهم، وإجزال المنفعة عليهم، فقال هامان: صدقت، وأمر فرعون بإحضار المرأة، وحضرت، فدَفعَ إليها الولد بيده، وقيل بيد زوجه «آسية»، والولد يبكي، فلما شمَّ ريحها استأنسَ، والتقمَ ثديها، فقال فرعون: مَنْ أنتِ منه؟ فقد أبى كل ثدي إلا ثديَكِ؟ فقالت: إني امرأة طيبةُ الريح، طيبَةُ اللبن، لا أوتى بصبي إلا قَبِلني، فدفعه إليها، وأجرى عليها أُجرتها كل يوم ديناراً من الذهب، قالوا: وهذا من العِلَّةِ لا من الأُجرة، ثم هو مال حربي.

وقد ذكر المُفسرون: أن فرعون قال لأم موسى لمّا أخذ ثديها: امكُثي عندنا وأرضعيه، فقالت: لا أستطيع ترك بيتي، فإن شئتم فهاتوه، وإلا فلا أريده، وأظهرت أنها زاهدةٌ فيه، وهكذا ردَّهُ الله تعالى إليها، وهذا أوانُ تحقيق الوعد الأول، وهوبشارةٌ بتحقيق الوعد الثاني: ﴿**فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٣**﴾[القصص].

﴿**تَقَرَّ عَيْنُهَا**﴾: أي تُسَرَّ.

﴿**وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ**﴾: أي علم مُشاهدةٍ لا خلاف فيه، بعد أن عَلِمتهُ خبراً كما قال النسفي.

وقوله: ﴿**فَرَدَدْنَٰهُ**﴾: يدلك على أن الأسباب بيد المُسبب سبحانه، فالله يقول: نحن الذين رددناه، لا فرعون، ولا أُخته، ولا غيرهم، كي تقرَّ عينُها بولدها، ولا تحزن على فِراقه.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾: أن وعد الله حق، أو لا يعلمون سِرَّ القضاء.

قال صاحب كتاب «حياة الأنبياء وأخلاقهم»: وعندما تمت مُدةُ الرَّضاع أرجعته أمه إلى بيت فرعون حسب الاتفاق، فتولى القصر الفرعوني تربيته.

قال أحمد بهجت في كتابه «أنبياء الله»: وهاهو موسى يتربى في أعظم قصور الأرض بحفظ الله وعنايته، ثم قال: وكان البيت يضم أعظمَ المُربين والمُدرسين في ذلك الوقت؛ لأن مصر في حينها كانت أعظمَ دول الأرض، وكان فرعون أقوى ملوكِ الدنيا، فمن الطبيعي أن يضُمَّ قصره وبلاطه النُخبةَ من العلماء والمُربين، والمُدرسين، ثم قال أحمد بهجت: وكَبِرَ موسى في بيت فرعون، وتعلم الحساب والهندسة واللغات والكيمياء، أما في وقت دروس الدين الذي يُقَرِّرُهُ الكهنة، فكان ينام فيه؛ لأنه ما كان يقبل هذا الكلام الفارغ الذي يُقَرَّرُ فيه أن فرعون إله، وإن حضر إلى حصص الدين، واستمع إلى كلام الكهنة أحياناً، فإنه كان يسخر في نفسه من كلامهم، وزعمِهم أن فرعون إله، فهو يعيش في بيت فرعون، ويعلم يقيناً أن فرعون إنسان كسائر البشر، ولذلك أجمع العلماء على أن الله تعالى حفظه من هذه الأفكار التي كان يطرَحُها الكهنة، وأنه لم يتعلم منهم شيئاً يمَسُّ التوحيد في قلبه.

يقول الصباحي عوض الله في كتابه «حياة الأنبياء»: ولمّا كبرَ موسى في بيت فرعون واشتد عوده، عَلِمَ أنه من بني إسرائيل، وعرفَ مَنْ أمه، ومن أبوه، وكان يُشاهد اضطهاد فرعون وأتباعه لبني إسرائيل قومه، فعزَمَ على العمل لإنصافهم بما له من المكانة في القصر الفرعوني، لذلك سوف نرى أن فرعون لمّا جاءه موسى بالرسالة الربانية بعد عودته من مديَنَ، كان من جُملةِ ما ذكره لموسى، ومَنَّ عليه به قوله: ﴿ قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا

﴿ مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨ ﴾ [الشعراء].

قال الرازي: وكان لموسى شيعة من بني إسرائيل يستمعون إليه عندما كَبر، وكان يُصرّحُ لهم أنَّ فرعون على الباطل، وكان يعلم الكثير عن دين آبائه وأجداده، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ١٤ ﴾ [القصص].

قال ابن عباس: الأشُدُّ: ما بين الثماني عشرة سنة إلى الثلاثين، ومن الثلاثين إلى الأربعين يبقى سواءً من غير زيادة ولا نقص، وبعد الأربعين يأخذ في النقص.

قال الرازي: الأشُدُّ: هو كمال القوة البدنية، والاستواء: كمال القوة العقلية.

وقال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾: استواء الخَلْق والخُلُق.

وقوله: ﴿ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾: أي حكمةً قبل النبوة، والعِلمَ بما في دين آبائه.

قال القرطبي: كان له تسعة من بني إسرائيل يسمعون منه، ويقتدون به، ويجتمعون إليه، وذلك قبل النبوة.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾: أي كما جزينا موسى وأمه، نجزي المُحسنين على إحسانهم، وفي الآية تنبيه على إحسان موسى وأمه، فقد كانا مُحْسِنَيْنِ في عَمَلِهما، مُتَّقِيَيْنِ في عُنفوان شبابِهما، فمن أدخل نفسه في زُمرةِ أهل الإحسان، جازاه الله بأحس الجزاء، البروسوي.

واعلم – يا عبد الله – أنه لا بد من الشكر على الإحسان:

فشكرُ الإله بطول الثناء، وشكر أُولي الأمرِ بصدق الولاء، وشكر النظير بِحُسن الجزاء، وشكر مَنْ دونك ببذل العطاء، كما قال العلماء.

وقد أجمع المفسرون والمؤرخون على أن موسى كان قوي الجسم، وافِرَ القوة، وسيَدُلُّك على قوته، أن وكزَةً واحدة من يده، كانت كافية للقضاء على القِبطي.

يقول الصباحي عوض الله في كتابه «حياة الأنبياء»: وعُرِفَ موسى عند المصريين وعند الإسرائيليين بالبأس والقوة، وانتصاره للحق، وإنصاف المظلوم، فهابه المصريون، واشتدَّ به ساعِدُ الإسرائيليين.

قتل موسى للقبطي، وهربه إلى مَدْيَن:

بدأت كلمات موسى تصل إلى سمع الناس، من كونه يذم عبادة فرعون، وعبادة الأصنام.

وذكر القرطبي وغيره، أن فرعون ركِبَ يوماً وسار إلى مدينة من مدائن مصر يُقال لها «مَنْف» أو «منفيس» عند ابن عاشور، قال ياقوت في «معجمه»: هي اسم مدينة فرعون بمصر، وهي المُرادَةُ بقوله تعالى: ﴿ **وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا** ﴾ [القصص ١٥]، وهي قاعدة مصر الشمالية، أصل اسمها بلغة القِبط «مافه»، فعُرِّبت، فقيل: «مَنْف»، ومعنى «مافه»: ثلاثون بلغة القِبط، ذلك أنها أول مدينة عُمِّرت بعد غرق قوم نوح، سكن فيها «بيصر بن حام بن نوح»، ومعه أولاده وأهله، وكانوا ثلاثين، فسُميت «مافه»: أي ثلاثون.

قال المؤرخون: وكان من عادة فرعون أن يتردد بين عين شمس ومنف، وكان في قُرْنَةِ جبل المُقطم موضع اسمه «المرقب»، فإذا أراد فرعون الركوب من عين شمس إلى منف، أوقدَ صاحِبُ المرقبِ في عين شمس ناراً، فيرى النار صاحِبُ مرقبِ جبل المُقطم، فيوقد هذا ناراً يراها مرقبُ منفٍ، فيتأهب المسؤولون عندها لاستقبال فرعون، وهكذا إذا أراد فرعون الذهاب إلى عين

شمس، ولذلك سُمي المرقَبُ، وموضعه «تنور فرعون»، وبنى ابن طولون مسجداً عند المَرقب عُرِفَ باسمه.

قال الهمذاني: ذكر لي شيخ صدوق قال: رأيتُ بمنفٍ دار فرعون، ودُرتُ في مجالِسها ومسارِبها وغُرَفِها وصِفافِها، فإذا جمعُ ذلك حجرٌ واحد منقور، فإن كان قد هَنْدَموه، ولا حاكوا بينه حتى صار في المُلامسةِ بحيث لا يستبين فيه مجمَعُ حجرين، ولا مُلتقى صخرتين، فهذا عجيب، وإن كان جميع ذلك حجراً واحداً نَقَرَتْهُ الرجال بالمناقير حتى خرقت تلك المخاريقُ في مواضِعِها إنه لأعجب.

قال ابن زولاق: وذكر بعضهم أن ما بين مصر و«منف» يُقدر بثلاثين ميلاً، وكانت البيوت مُتصلة، وفيها بيت فرعون قطعة واحدة، سقفه وفرشه - أي أرضيته - وحيطانه حجر واحد أخضر.

قال ياقوت: وسألتُ بعض عُقلاء مصر عن ذلك فصدَّقه، إلا أنه قال: يكون مقداره خمسةَ أذرع في خمسةِ أذرع حَسْبُ، أي فقط.

وذكر بعض عُقلاء مصر قال: دخلت «منف»، فرأيتُ «عثمان بن صالح» عالمَ مصر - في القرن السابع الهجري - وهو جالس على باب كنيسة «بمنف»، فقال: أتدري ما مكتوب على باب هذه الكنيسة؟ قلتُ: لا، قال: مكتوب عليها: «لا تلوموني على صِغرها، فإني اشتريتُ كل ذراع بمائتي دينار ذهباً لشدَّةِ العِمارة».

قال «عثمان بن صالح»: وعلى باب هذه الكنيسة وَكَزَ موسى عليه السلام الرجل فقضى عليه، و«بمنفٍ» كان منزل يوسف الصدِّيق عليه الصلاة والسلام.

قلنا: إن فرعون ركِبَ وسار إلى «منف»، وعَلِمَ موسى بركوب فرعون ومسيره إلى ذلك البلد، فركِبَ موسى وتَبِعَهُ، وكان وصول موسى إلى المدينة في وقتٍ يستريح فيه الناس، فالطريق خالٍ، والوقت وقتُ القيلولة، وذلك قوله تعالى في سورة [القصص ١٥]: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾.

قال سعيد بن جبير وقتادة: كان دخول موسى المدينة وقت الظهيرة، والناس نيام، حيث كان اليومُ قائظاً من أيام الصيف، كان الوقت ساعة القيلولة، والشوارع خالية، فوجد موسى رجلين يختصمان ويتضاربان، أحدُهما إسرائيلي من شيعة موسى، والآخر قبطي كافر مُشرك بالله تعالى.

قال ابن كثير: فاستغاث الإسرائيلي بموسى على القبطي؛ لأن موسى كانت له صولةٌ بديار مصر، لكونه نُسِبَ إلى فرعون بالتبني، وتربى عنده، وصار بنو إسرائيل يفتخرون بموسى لكونهم أرضعوه فهم أخواله من الرضاع.

قال قتادة: وسبب الخصومة بين الرجلين، أن القبطي أراد أن يُسَخِّرَ الإسرائيلي ليحمِلَ عليه حطباً لمطبخِ فرعون، فأبى الإسرائيلي عليه، فَقَسَا القبطي عليه، ووافق ذلك مرور موسى، واستنجدَ به الإسرائيلي، فتقدم موسى ونهى القِبطي عن الظُلم، فلم ينتهِ، بل تمادى على موسى فقال له: لقد همَمْتُ أن أحمِلَ الحطبَ عليك، عندها اشتدَّ غضب موسى.

قال الغرناطي: وكان موسى قد أُوتيَ قوةً فَوَكَزَهُ فمات، وقد ذكر الكتاب الكريم ذلك: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ

﴿١٥﴾ [القصص].

والمُراد بالرجل الذي من شيعته: أنه رجل من بني إسرائيل.

وبالذي من عدوه: رجل من القِبط قوم فرعون.

والوَكزُ: الضرب بجمْعِ الكفِّ على الصدر، فجاءت نهاية القِبطي وأجله مع هذه الضربة.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: وأما وكزُ موسى للقبطي فلم يكن إلا انتصاراً للحق على جميع التقادير.

قال القاسمي: كان القِبطي ظالماً، والإسرائيلي مظلوماً، وإغاثة الملهوف واجِبَةٌ، فوجبت إغاثته من جهتين، ونُصرةُ المظلوم دينٌ في المِلَلِ كلها، وفرضٌ في جميع الشرائع، كما قال صاحب «أيسر التفاسير».

قال العلماء: صار المعنى: فوكزهُ موسى فقضى عليه، أي مات القِبطي وكان هذا قتلَ خطأٍ، صادفَ الوَكزُ مقتلَ القِبطي، ولم يُرِدْ موسى قتله، ولكنها وكزَةٌ وافقت أجلاً، وكثيراً ما تحدث هذه المسألة في خصومة بين اثنين، فيضربُ أحدُهما الآخرَ فيقَعُ ميتاً، وبالتشريح يظهر أنَّ الموت كان بسبب آخر.

كان القِبطُ يكرهون الإسرائيليين ويعذبونهم، فلما قتل موسى القِبطي زاد غضبُهم وكراهيتُهم لبني إسرائيل؛ لذلك أَحَسَّ موسى أن ذلك من الشيطان الذي أوقدَ غضبه حتى بالغ في شدَّةِ الوَكزِ، إذ لولا وسوسةُ الشيطان لاقتَصَرَ على زجرِ القِبطي وكفِّهِ عن الاعتداء على الرجل الذي من شيعة موسى.

قال الصباحي عوض الله: وبُهِتَ موسى لما حصل، وتولاه الندم، فقد أراد زجرَ الرجل فقط وإذا به يموت، ثم نظر إلى ما فعل، وتأسَّفَ وقال:

﴿ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [القصص ١٥]: أي إن الشيطان عدو للإنسان، يُبعِده عن طريق الخير بوسوسته، عداوَتُهُ واضحة ظاهرة.

قال القرطبي: وكان قتله للقِبطي خطأً؛ لأن الوكزةَ في الغالب لا تقتل، فنَدِمَ على ذلك، ثم حمَله الندم على الخضوع لله تعالى، والاستغفار من ذنبه؛ لأن موسى يعلم أنَّ قتل النفس مُستقبَحٌ في الشرائع كُلها، وأنَّ حفظ النفس المعصومة من أُصول الأديان كلها، وموسى يعلم دين آبائه في هذا، ومما يدل على أنَّ قتله للرجل كان خطأً، ما روى «سالم بن عبدالله بن عمر»، - والحديث في صحيح مسلم - أنه قال: يا أهل العراق، ما أسألُكم عن الصغيرة، وأَرْكَبُكم للكبيرة، سمعتُ أبي - عبد الله بن عمر - يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الفتنةَ تجيءُ من ههنا - وأومأ إلى الشرق - من حيث يطلُعُ قرنا الشيطان، أنتم بعضُكم يضربُ رقابَ بعض، وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأً، فقال تعالى: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًاۚ ﴾ [طه ٤٠].

قوله: ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ ﴾، قال الصاوي: نسَبَ موسى العمل إلى الشيطان؛ لأن الشيطان يسعى إلى تحريك الغضب، ولأنه تبيَّن لموسى أن قتله خلاف الأولى، لما يترتب على ذلك من الفتن، والشيطان تُفرِحُهُ الفتنةُ، ولذلك أسرع موسى إلى القول: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ [القصص].

وقوله: ﴿ ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ سَمَّى موسى فعله ظُلماً لنفسه، لأنه أولاً تجاوز الحدَّ في عقاب القِبطي، ثم هو بذلك قد ظلمَ نفسه أيضاً؛ لأنه تسبَّبَ لنفسه في مضرَّةِ إضمار القِبط قتله، في وقت كان يستطيع أن يملِكَ غضبه.

قال ابن عاشور: وقد اهتدى موسى إلى هذا كله بالإلهام، أو أن يكون قد عَلِمَهُ مما تلقاه من أمه وقومِها من تديُّنٍ ببقايا دينِ إسحق ويعقوب.

قال المفسرون: هنا درس عظيم نستفيده من موسى، وهو أن الإنسان عندما يفعل الذنب، عليه أن يعترف بذنبه وظلمه لنفسه، ثم يُبادر بالاستغفار، والتوبة: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾.

من هنا يتبيَّنُ لك الفرق بين معصية آدم عليه السلام ومعصية إبليس عليه لعائنُ الله، آدم عصى فاعترف: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف]، أما إبليس فقد ردَّ الحُكم على الله فقال: ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء٦١]، وقال: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [ص]، فرَدَّ أمر الله عز وجل فهلكَ.

ثم عاهَدَ موسى ربه أنه لن يستعمِلَ نِعَمَهُ التي أنعَمَ بها عليه، من المعرفة، والحكمةِ، والتوحيد، والقوة والعزة والمكانة في مُساعدة المجرمين.

قال ابن عاشور: أراد موسى أن يجعل شكره لله على نِعَمِهِ، أن ينتصر للحق، وأن يقمعَ الباطل، لذلك قال: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [القصص]، لأنه إذا لم يُغير المُنكرَ والباطل، وسكتَ عنهُما، فقد وافَقَ مَنْ فعلَهما، ولذلك قال: سيكون شُكري يا رب أن أنصُرَ الحق وأهله، وأقمعَ الباطل وأهله.

قال الرازي: وهذا يدلك على أنَّ إقدام موسى على قتل القبطي كان طاعةً لا معصية؛ لأن القِبطي مُشرك، والآخر موَحِّد.

وقوله: ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾، بأن أُعاون فرعون، أو أُصاحبه، أو أُكثِّرَ سواده.

قال الناصر: لقد تبرأ موسى من أمر عظيم: ﴿ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴾، لأن معاونة المجرمين تجعل الإنسان شريكاً لهم.

وقد جعل جمهور كبير من السلف هذه الآية، دليلاً وحُجة على منع إعانة أهل الجور والظلم في شيء من أمورهم.

قال القاسمي: وقد ورد في الأخبار، أنه يُقال يوم القيامة: أين الظَلَمة وأعوانُ الظَلَمة؟ فيؤتى بهم حتى بمن لاقَ لهم لِيْقَةً - أي أصلح لهم مِدادَ الدواة - أو بَرَى لهم قلماً، فيُجعلون في تابوت من حديد، ثم يُقلى بهم في النار.

قال الرازي: وفي الآية دليلٌ على أنه لا يجوز مُعاونة الظَلَمة والفَسَقة، وفي الحديث: «من مشى مع مظلوم ليُعينه على مظلَمَتِهِ، ثَبَّتَ الله قدميه على الصراط يوم القيامة، يوم تزِلُّ فيه الأقدام، ومن مشى مع ظالم ليُعينه على ظُلمه، أزَلَّ الله قدميه على الصراط يوم تدحَضُ فيه الأقدام».

قال القرطبي: والمشي مع الظالم لا يكون جُرماً وإثماً إلا إذا مشى معه ليُعينه على الظُلم؛ لأنه يكون بذلك مُخالفاً لقوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ ﴾ [المائدة ٢].

وأخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن حنظلة الضَّبِّي الكاتب قال: قال رجـل لعامر: يا أبا عمرو، إني رجل كاتب أكتب ما يدخل وما يخرج، آخذُ رزقاً أستغني به أنا وعيالي، قال: فلعلكَ تكتب في دم يُسفك، قال: لا، قال: فلعلك تكتب في مال يُؤخذ، قال: لا، قال: فلعلكَ تكتب في دار تُهدم، قال: لا، قال: أسمِعتَ بما قال موسى عليه السلام؟ ﴿ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴾، قال الكاتب: أبْلَغْتَ إليَّ يا أبا عمرو، والله عز وجل لا أخُطُّ لهم بقلمٍ أبداً، فقال أبو عمرو: والله تعالى لا يدَعُكَ سبحانه بغير رزق أبداً.

قال الآلوسي: ومما يقصِمُ الظهرَ، ما رويَ عن بعض الأكابر أن خياطاً سأله فقال: أنا أُخيطُ للظَلَمَةِ – ثيابهم – فهل أُعَدُّ من أعوانهم؟

فقال الشيخ الصالح: لا، أنت من الظلَمَةِ أنفُسهم، وإنما من أعوان الظَلَمة من يبيعُكَ الإبرة والخيط، ويختِمُ الآلوسي هذه القصة بقوله: فلا حول ولا قوة إلا بالله تعالى العلي العظيم، ولا حسرتا على من باع بدينه دُنياه.

قال القرطبي: ولم يعلم أحد بقتل القِبطي غير الإسرائيلي وموسى، ولذلك كان موسى بعدها حذِراً يترقب ما يُقال ليكون مُستعداً للاختفاء أو الخروج من المدينة؛ لأن خبرَ قتل القبطي لم يفشُ في المدينة بعد، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ [القصص ١٨]، مدينة «منف» العاصمة الفرعونية.

قال ابن كثير: وكان خوف موسى من فرعون ومَلَئِهِ أن يعلموا أنَّ هذا القتيل، إنما قتله موسى دفاعاً ونُصرةً لأحد بني إسرائيل المُكلفين بالسُّخرة، وعندئذ يعلمُ فرعون أن موسى من بني إسرائيل، ويترب على ذلك أمرٌ عظيم، ولذلك صار من صبيحتِها يسير خائفاً في المدينة، وبينما هو كذلك، إذا بالرجل الإسرائيلي الذي ساعده بالأمس، يُقاتل قبطياً آخر يريد أن يُسخِّره، يستغيثُ بموسى مرة أُخرى بأعلى صوته طالباً نُصرته، فأقبل موسى عليه ليُخلِّصه قائلاً للإسرائيلي: «إنك خائب؛ لأنك تُخاصم مَنْ لا تقدرُ على خصومته»، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص ١٨].

وقوله تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [القصص]: أي أن موسى عليه السلام بعد قتله للقبطي يترقب الأحداث، وماذا تُسفر عنه، وكل خوفه أن

يعلم فرعون ومَلَؤه أن موسى هو القاتل، فيترتب على ذلك خطر كبير.

﴿ فَإِذَا ﴾: هنا للمُفاجأة أي مُفاجأةُ الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه اليوم، والاستصراخ: المُبالغة في الصُراخ والنداء، ومنه: قول سلامة بن جندل الشاعر:

كنا إذا ما أتانا صارخٌ فزِعٌ كان الصُراخُ له قرعَ الظَنابيبِ[1]

قال المفسرون: فنظر إليه موسى، وأقبلَ عليه ليُخلِّصه قائلاً له: ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾: أي خائب سيِّئ التقدير، لأنك تُخاصم من لا تقدر على خصومته، ثم تُريد الغَوثَ مني يوماً بعد يوم، وليس المُراد من قوله: ﴿ لَغَوِيٌّ ﴾: الفساد أو الظُلم، لأنه لو كان كذلك لما ساعده على عدوِّه، أو يكون المعنى: أتريد أن تُغوِيَني بأن أقع في ورطة أُخرى.

وهَمَّ موسى مرة أُخرى بنُصرة الإسرائيلي، والبطش بالقبطي، والبطشُ: هو الأخذ بعُنف، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۝١٩ ﴾[القصص].

هنا سؤال: من الذي قال هذا الكلام لموسى؟ هل هو القبطي، أم الإسرائيلي؟

والجواب: أن بعض أهل التفسير قالوا: إن القائل لموسى: ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى ﴾ هو القبطي، وكان ذلك من باب الظن والفراسة وبخاصةٍ عندما سَمِعَ من موسى قوله للإسرائيلي: ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾، وهذا منقول عن الحسن البصري.

---

(١) قرعُ الظَنابيب: كنايةٌ عن سرُعة الإجابة، والظُنبوب: مسمار يُثبت به سِنان الرُمح.

وقال الأكثرون: إن القائل لموسى: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي﴾، هو الإسرائيلي، فقد ورد عن سعيد بن جبير قال: أراد موسى أن يبطش بالقبطي، فتوَهَّمَ الإسرائيلي أنه يُريده؛ لأن موسى وبَّخه كما مرَّ معنا، فسمِعَ القبطي ما قاله الإسرائيلي: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾، فعَلِمَ أن القاتل للقبطي الأول هو موسى، وكان الأمر خافياً على الناس، فنقل القبطي الخبر إلى قصر فرعون، وكان من موظفيه، فاجتمعَ رجال القصر، وقرروا أمراً، وكان فرعون على رأس المؤتمرين.

وقوله: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ١٩﴾ [القصص]: أي تتصرف بالانتقام والشِدَّةِ ولا تُحاول أن تسعى بالصُلح بين المُتخاصمين.

والجبار: هو من يُقْدِمُ على القتل والضرب ولا ينظر في العواقب.

قال الشعبي: من قتل رجلين بغير حق فهو جبار، ثم تلا هذه الآية:﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ١٩﴾ [القصص].

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: هنا وقف موسى، وتذكر حادثة اليوم السابق، فهدأ، ثم استدار ومضى.

قال الصباحي عوض الله في كتابه «أنبياء الله»: انتشر الخبر في المدينة أن القاتل للقبطي هو موسى، وأمر فرعون بإحضار موسى والشهود، وقال: إن ثبتَ أن القاتل موسى، يُقتل به، وتحركت الشرطة بعد تعيين القاتل.

قال الطبري: لمّا عَلِمَ فرعون أن القاتل موسى، أرسلَ الذَّبَّاحين يطلبونه، وكان موسى قد سلك الشارع العام في سيره، ولكن الله سخَّرَ له رجلاً مؤمناً من قرابة فرعون، كان قد استمع إلى ما قرَّرَهُ فرعون ومَلَؤُه من قتل موسى،

فأسرع في طريق مُختصرة قريبة، وأبلغ موسى بالمؤامرة عليه، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [القصص].

قال ابن كثير: أسرعَ رجل ناصح محبٌّ لموسى من طريق قصير، غير الطريق الرئيسي الذي سلكه الجنود لإلقاء القبض على موسى.

قوله: ﴿ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾: هو جهة قصور فرعون وناحيتُها، فإنَّ عادة الملوك السُكنى في أطراف المُدن توقِّياً للثورات والغارات، لتكون مساكِنهم أسعد بالخروج عند الخوف كما يقول صاحب «التحرير والتنوير».

وهذا يدلك على أنَّ الرجل كان يعرف موسى، وأنه جاء من مكان هو منازل عِلية القوم، ويدلك على حُبه لموسى قوله تعالى: ﴿ يَسْعَىٰ ﴾: أي يسير بسرعة ليُنقِذَ موسى.

وقوله: ﴿ فَٱخْرُجْ ﴾: أي اخرج من حدود المملكة.

فَهِمَ هذا المؤمن الناصح لموسى أن القتل كان خطأ، والقتل الخطأ لا يُعاقب عليه بالقتل، فلماذا حكمَ فرعون وملؤه على موسى بالقتل وبيَّتوا ذلك؟

هنا سر كشفه هذا المؤمن الصالح: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾، إذاً هناك مؤامرة عليه، فالجريمة عادية، فما الداعي لقتل موسى؟

والجواب كما قاله المؤرخون: أن الملأ أدركوا أن موسى من بني إسرائيل، وأن وضعه بالتابوت وهو رضيع، كان خطة مُدبَّرة، ومكيدة مُتقنة، وكم اقترح مسؤول الشرطة على فرعون أن يقتل هذا الطفل، ولكن فرعون تراجع عن ذلك أمام ميله القلبي الذي خلقه الله فيه نحو موسى، وأمام إرادة الزوجة.

قال أحمد بهجت: وهكذا طار كل من يكره موسى من رجال قصر فرعون فرحاً بقرار قتله، ولكن الله بعثَ له ذلك القبطي المصري القريب من فرعون ليُحذره وينصحه بالفرار من وجه الظالمين.

من هنا تعلم أنه إذا تعلقت إرادته عز وجل بشيء هيأ له أسبابه بقُدرته تبارك وتعالى، فأبرزَ ذلك الشيء على أتقن تدبير، وهكذا نجا موسى، ولكنه أصبح مُطارَداً، وذلك قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢١﴾ [القصص]، ووصف موسى فرعون وقومه بالظُلم؛ لأنهم مشركون، ولأنهم قصدوا قتله قِصاصاً على قتل وقع خطأ، وذلك ظُلم؛ لأن الخطأ في القتل لا يقتضي الجزاء بالقتل في نظر العقل والشرع.

قال الغرناطي: امتثلَ موسى لما أمره به ذلك الناصح، وخرج من مصر، وقد أفلَتَ من طالبيه - الشُّرَط - فسلكَ مجهلاً لا يعرف إلى أين يوصله، واثقاً بالله تعالى، داعياً إلى ربه طالباً منه أن يُنجيه، والخوف هنا خوفٌ طبيعي لا يُلامُ عليه.

سار موسى في طريق لا يعلم أين يوصله، ولم يكن قد خرج من مصر سابقاً، وإذا بهذا الطريق يوصلُ إلى «مَدْيَنَ» بلدِ شُعيبٍ عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢﴾ [القصص].

قال ابن عباس: خرج موسى ولا عِلمَ له بالطريق إلا حُسْنَ ظنه بربه.

قال الصاوي: توجه موسى إلى مَدْيَنَ بإلهام من الله؛ لأن أرض مَدْيَنَ لا تسلُّطَ لفرعون عليها، ولأنَّ أهل مَدْيَنَ من ذريةٍ إبراهيم، فبينهم وبين موسى قرابة، أراد موسى مَدْين فمشى مُسلِّماً أمره إلى الله؛ لأنه لا يعرف الطريق إلى مَدْيَنَ.

قال ابن عباس: سلَّمَ نفسه إلى الله، وأخذ يمشي من غير معرِفةٍ، فأوصله الله إلى مَدْيَنَ، الذي هو ابن إبراهيم.

قال ابن عاشور: وهذه هجرة نبوية تُشبه هجرة إبراهيم عليه السلام، حين قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [العنكبوت ٢٦]، وفي مَدْيَنَ وجدَ نبياً بَصَّرَهُ بآداب النبوة.

ثم قال ابن عاشور: وأرض مَدْيَنَ واقعة على الشاطئ الغربي من البحر الأحمر، وسلَكَ موسى طريقاً غربيةً جنوبيةً بريةً تمرُّ به على أرض العمالقة، وتُقدر المسافة بثمانمائة وخمسين ميلاً تقريباً، ولمّا كان موسى راجلاً، فمعنى ذلك أنه يحتاج إلى خمسةٍ وأربعين يوماً حتى يصل، وكان يبيتُ في البرية لا محالةَ، وكان رجلاً جَلْداً، وقد ألهمهُ الله سواء السبيل، فلم يَضِلَّ في سيره.

والسواءُ: المستقيم، وقد ألهمَهُ الله هذه الدعوة التي تَنُصُّ في طيَّاتها على الدين الحق، فالطريق الأول مادي، والثاني معنوي.

قال القرطبي: خرج موسى فاراً بنفسه مُنفرداً، فلا زاد، ولا راحلةَ، ولا حذاء، ورأى حاله هذا، إضافة إلى جهله بالطريق، فأسندَ أمره إلى الله بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص].

قال الصاوي: وكان لمديَنَ ثلاث طُرق، فأخذ موسى الطريق الأوسط، وجاء الطلبُ في إثره، فسار الجُند في الطريقين الآخريْن، قائلين: إن الفارَّ لا يأخذ الطريق الوسط الواضح خوفاً على نفسه، بل يأخذ الأطراف، فشرعوا فيها.

والمفسرون قالوا: إنه بقِيَ ثمانية أيام في الطريق، فقد ورد عن سعيد بن جبير قوله: خرج موسى من مصر إلى مدْيَنَ، وبينهما مسيرة ثمانِ ليالٍ، على

نحو ما بين البصرة والكوفة، ولم يكن له طعامٌ إلا ورق الشجر، فلما وصل إلى مدْيَنَ حتى وقع خُفُّ قدمه، أي انسلخَ جلد قدميه، وصل موسى أولاً إلى بئر المدينة العظيم، وهو على بُعد ثلاثة أميال من المدينة، أو أقل من ذلك بقليل، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾ [القصص ٢٣].

والغريب، إذا جاء ديارَ قوم، ناسبَهُ أن يقصِدَ الماء؛ لأنه مجمَعُ الناس، فهنالك يُمكن أن يتعرف لمن يُصاحبه أو يضيِّفُهُ.

والمُراد بالورودِ هنا: الوصول إليه، ومنه قول زهير، يُشير إلى الوصول ولا تدل على الشُرب ضرورةً:

فلما وردْنَ الماءَ زُرقاً جِمامُهُ وضعْنَ عِصيَّ الحاضِرِ المُتخيّمِ

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ [مريم ٧١]: أي ذاهبون إليها، ونراها، وليس المعنى مباشرةَ حَرِّها أو دخولها.

وجد موسى على البئر جماعة كثيرة من الناس يسقون أغنامهم ومواشيَهم، وكان هؤلاء يتبادلون الوُرودَ نفراً بعد نفر، ووجد قبل مكان الناس ومن الجهة التي وصل منها إلى البئر امرأتين، رآهما قبل وصوله إلى الماء، قال تعالى: ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾ [القصص ٢٣].

وقوله: ﴿تَذُودَانِۖ﴾: مأخوذ من الزَّوْد - الزَّوْدِ: وهو الحبس والمنع، ومنه قول الشاعر:

أبيتُ على بابِ القوافي كأنما أزودُ بها سِرباً من الوحشِ نُزَّعا[١]

وقد يدل الزَّوْدُ على الطرد والدفع، ومنه قول جرير يهجو الفرزدق:

(١) أي أهَذِّبُ شِعري وأُنَقِّحهُ، والشاعر هو «سويد بن كراع».

لقد سَلبتْ عصاكَ بنو تميمٍ فما تدري بأي عصاً تذودُ[1]

قال القرطبي لمّا رأى موسى ذلك منهُما: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾؟[القصص ٢٣] واستعمالُ هذا التعبير - وهو السؤال بلفظ الخطب - إنما يكون في استفهام عن أمرٍ فيه شر، أو مُصاب، أو اضطهاد، أو إشفاق، فأخبرتاهُ الخبرَ: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص].

قال القاسمي: أي لا نسقي حتى يصرِفَ الرِعاءُ مواشيهم عن الماء، حَذَراً من مُخالطةِ الرجال، وضعفاً منهما، ووالِدُنا أضعفهُ الكِبَرُ، فاضطرنا الحالُ إلى ما ترى.

قال الغرناطي: في كلام المرأتين: ﴿لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾، فيه اعتذارٌ لموسى عن مُباشرَتِهما السقيَ بأنفُسِهما، وتنبيهٌ على أن أباهُما لا يقدر على ذلك لشيخوخته، وفيه استعطافٌ لموسى بإعانتهما.

قال الرازي: دلت الآية على أنَّ السقيَ للرجال، والنساء يَضْعُفنَ عنه، كما تدل على انتظارِهما لما يبقى من الماء، وتدل على أن الأب كبير ولو كان قادراً لحضرَ.

ثم تابع الرازي كلامه فقال: عندئذ تقدَّمَ موسى وسقى لهما، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص].

قال العلماء: معَنا في هذه القصة أحكامٌ ثلاثةٌ تُنظم عملَ المرأة في المجتمع الإسلامي، وما يجب على المجتمع الإسلامي اتجاه المرأة إذا اضطرت للعمل.

فقوله تعالى: ﴿لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ﴾، وهذا إشارة إلى كلام

---

(١) تذودُ: أي تطرد وتدفع.

البنتين، يدلك على أنَّ السَقيَ من عمل الرجال، وقولُهما: ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾: يدلك على أن المرأة لا تخرج للعمل إلا إذا اضطرت، أو عَجِزَ الرجل: ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾: يدلنا ويُعلِّمُنا على أنَّ المرأة إذا خرجت للعمل فمعنى ذلك أنه ليس لها رجل يقوم بمُهمتِها، وأن على المُجتمع مُساعدتها. ويذكر الشعراوي حادثة تدل على أنَّ هذا الحُكم - مساعدة المجتمع لها - لا زال قائماً في بعض مناطق المملكة العربية السعودية، ويروي قصة حصلت له، يقول: سافرت سنة «١٩٥٠» إلى السعودية، وركبتُ في سيارة أحد الأصدقاء، بينما نحن نسير في الطريق إذا بالصديق ينزل من سيارته ويتقدم إلى باب أحد المنازل، كان أمام هذا المنزل طاولة خشبية مُغطاة بقطعة من القماش فأخذها ووضعها في السيارة، ثم تابع سيره، فسألته: ماذا فعل وما هذا الشيء المُغطى الذي أخذه؟ فقال الرجل: إن من عاداتنا إذا رأيت مثل هذه الطاولة على باب المنزل، فهذا إشارة إلى أن صاحب البيت غير موجود، وأن ربةَ الأسرة قد أعدت العجين، وتريد من يخبزه، فإذا مرَّ أحدُنا أخذه فخبزه، وأعاد الطاولة إلى مكانها.

وقوله تعالى: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾، رُبَّ قائل يقول: كيف سقى لهما؟

للمفسرين روايتان في هذا الموضوع:

الأولى: أنه عليه السلام طلب السماح من القوم فسمحوا له.

الثانية: وهي الراجحة، أن الرجال كانوا بعد السقي يضعون حجراً كبيراً على فم البئر لا يحمِلُها إلا سبعة رجال، أو عشرة رجال، فجاء موسى فرفعها وحده مع تعبه، وجوعه، وجِراحة قدمه.

ورجحانُ هذا القول لورود أثرٍ عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، أخرجه ابن أبي شيبة، وأخرجه الحاكم وصححه، أن عمر بن الخطاب قال: إن موسى عليه السلام لمّا وردَ ماء مديَنَ وجد عليه أمة من الناس يسقون، فلما فرغوا، أعادوا الصخرة إلى فم البئر، ولا يطيقُ رفعها إلا عشرةُ رجال، فإذا موسى بامرأتين، قال: ما خطبُكما؟ فحدَّثتاهُ، فأتى الصخرة فرفعها وحده، ثم استقى ودعا بالبركة، فلم يستقِ إلا دلواً واحداً حتى شبعت الغنم.

قال ابن كثير: هذا الأثر صحيح، ويدلك على صحتِهِ: أن المرأة حين عادت إلى والدها، وصفت موسى له بالقوة، فلا بُدَّ أنها رأت شيئاً غير عادي قد صدر منه يدل على تلك القوة.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾: أي جلس في ظل شجرة قريبة.

قال ابن عباس: كانت شجرةً من شجر «السَّمُرِ»، وهذا يدل على أن السِقاية كانت في وقتٍ شديد الحرِّ.

قال ابن مسعود: رأى شجرة خضراء تَرِفُّ.

وقال البروسوي: جلس موسى في ظل شجرة وهو جائع، ولمّا أوى إلى الظلِ، ووجد برده، واستراح، رأى في هذا الظل نِعمةً ذكَّرَتهُ بِنِعَمٍ سابقة أسداها الله إليه، فقد نجَّاه الله عز وجل من القتل، وخلَّصه من تبعَةِ قتل القبطي، وأوصله إلى أرضٍ معمورة بعد سفرٍ شاق، وآتاه الله الحِكمة والعلم، لمّا تذكر هذه النِعَمَ كلها، جاء بِجُمْلة جامعةٍ للشُكر والدعاء، والثناء على الله، وقد ذكرها القرآن على لسان موسى وهي قوله: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القصص].

فقول موسى: ﴿ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾: شكرٌ على نِعَمٍ سلفت

وثناءٌ على الله بأنه هو مُعطي الخير.

والخيرُ: كلمة تُطلق على كل ما ينفعك في أمر الدنيا، أو أمر الآخرة، فالمالُ من الخير، والقوة من الخير: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [العاديات]، ﴿ أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ ﴾ [الدخان ٣٧].

ويُطلق على الطاعات: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ [الأنبياء ٧٣]. ويُطلق على الطعام كما في الآية: ﴿ لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴾ [القصص ٢٤].

ولا شك أن موسى أراد بهذا الخير نوعيْه، ما ينفع في الدنيا و الآخرة، فقد آتاه الله الحِكمةَ والعِلمَ، وحفظه من العقائد الباطلة، وجعل نُصرةَ قومه على يديه، ويَسَّرَ له التَعَرُّفَ على بيت نبي.

قال ابن عباس: سار من مصر إلى مدْيَنَ لم يأكل إلا البَقْل، وورق الشجر، وكان حافياً، وجلس في الظل - وهو صفوةُ الله من خلقه - وإنَّ بطنه لاصقٌ بظهره من الجوع، وإنه لفقير - أي محتاج - إلى شِقِّ تمرة.

وقد أجمع المفسرون على أن طلب موسى ودُعاءه بهذه الآية: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القصص]، على أنه طلب شيئاً يأكله.

قال ابن عطاء: افتقارُ موسى: افتقارُ العبد إلى مولاه في جميع أحواله، نظرَ من العبودية إلى الربوبية فخشعَ وخضعَ، وتكلَّمَ بلسان الافتقار، لما ورد على قلبه من الأنوار - أنوار الربوبية -.

قال ابن عاشور في قوله: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ ﴾، قال: وأحسنُ خيرٍ للغريب: وجود مأوى يأكل فيه ويبيتُ، وزوجة يأنس إليها ويسكن، فكانت الاستجابة سريعة من ربه عز وجل له، حيث ألهمَ

الله شُعيباً أن يُرسِلَ وراءه ليُنزِلَهُ عنده، ويُزوجه ابنته كما دلت على ذلك «فاء التعقيب»: ﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ ﴾ [القصص ٢٥].

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: عادت الفتاتان إلى أبيهما الشيخ، حيث أخذه العجب من مجيء البنتين سريعاً على غير عادةٍ، فسألَهُما عن ذلك، فأخبرتاه، قالت الكبرى: يا أبتاه، أعاننا اليوم رجل كريم وسقى لنا غنمنا، فقال الأب: الحمد لله، ثم انبرت الصغرى قائلة للوالد: كأنه يا أبتِ غريبٌ، وقادم من سفر، وقد بدا عليه الإجهادُ رُغمَ قوته.

وقد ذكر البروسوي صاحب تفسير «روح البيان»: أن موسى لمّا جلس في الظل ودعا بدعوته: ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤ ﴾، سمعتهُ هذه، فنقلت العبارة إلى والدها شُعيب، فقال شُعيب: يا ابنتي، هذا رجل جائع، اذهبي إليه، وقولي: إن أبي يدعوك ليُكافئَكَ على إحسانك، وإلى هذا أشارت الآية: ﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ ﴾ [القصص ٢٥].

والاستحياءُ: حالةٌ تعتري الشخص تحمِلُهُ على تجنُّبِ الرذائل.

قال عمر بن الخطاب: جاءته ساترةً وجهها بِكُمِّ درعِها، وهي رواية صححها الحاكم، وهذا زيادةٌ في الحياء، قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ ﴾ [النور ٣١].

قال أبو بكر بن طاهر في قوله تعالى: ﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ ﴾، وذلك لتمامِ إيمانها، وشرفِ عُنْصُرِها، وكَرَمِ نَسَبِها، وفي الحديث: «الحياء من الإيمان»، ولأنها لم تعتدْ الخروج، واستحيتْ كذلك من دعوته للمُكافأة؛ لأن الأصل أن تكون الدعوة لا لإحسانٍ سبقَ.

قال عمرو بن ميمون: لم تكن الفتاة سَلْفعاً - الجريئة والسليطة - من النساء، خَرَّاجةً ولّاجة، فلم تكن مُتبخترةً، ولا مُتَثَنيةً، ولا مُظهِرَةً لزينة.

قال أعرابي: لا يزال الوجه كريماً ما غَلَبَ حياؤه.

ولا يزال الغصنُ نضيراً ما بَقِيَ لِحاؤه.

قال ابن كثير: صرَّحت البنتُ لموسى بدعوة أبيها له؛ لكي يُكافئه على ما قدَّمَ لهما من خدمةِ السِقاية، ولم يكن طلبُها مُطلقاً - مثل: تفضَّلْ إلى بيتنا - لئلا يوهِمَ كلامُها ريبَةً، ثم قال ابن كثير: وهذا من تمام صِيانَتِها.

قال الدكتور طبارة في كتابه «مع الأنبياء»: ﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِى عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ ﴾، قال: ما أجمل هذه العبارة، وما أعذبها، وهي تدل على أنَّ خير ما في الفتاة حياؤها.

وقولها: ﴿ لِيَجۡزِيَكَ ﴾: للمُبادرة بالإكرام.

والجزاء: المُكافأة على عمل حسن أو سيء بشيء مثله في الحُسن أو الإساءة كما قال ابن عاشور.

قال تعالى: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾[الرحمن ٦٠].

وقال في حق الكافرين: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ ﴾ [سبأ ١٧].

ثم قال: وكان فعل موسى معروفاً محْضاً لا يطلُبُ عليه جزاءً؛ لأنه لا يعرف المرأتين، ولا بيتَهما، وكان فعل شُعيب كرماً محْضاً، ومحبَةً للقِرى لغريبٍ، وتضييفُ الغريب من سُنَّةِ إبراهيم، فلا عَجَبَ أن يعمل بالمعروف رجُلان، كِلاهما من ذُريةِ إبراهيم.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: وقفت ابنة شُعيب أمام موسى وأبلغتْهُ

رسالةَ أبيها، فنهضَ موسى وبَصَرُهُ إلى الأرض، ثم خطرَ بباله خاطر، وهو أنه لم يسقِ لهما الغنمَ طمعاً في أجر، إنما فعل ذلك لوجه الله، فكرِهَ أن يذهبَ، وأراد ألا يسير، ولكنه لم يجد بُدَّاً من ذلك لما فيه من الجَهْدِ، ولأنه شَعَرَ بإحساس داخلي لم يقدر على مُقاومته، أن الله هوالذي يوجهه، فنهَضَ، ثم إنه وحيدٌ مُنفرد في أرضٍ بَلْقع، حيث المدينة تبعُدُ عن مكان السقي ميلين أو ثلاثة أميال، فلا بُدَّ إذاً من الإجابة، فاستجابَ وانطلقا.

وقد روى ابن عباس وقتادة وابن زيد وغيرهم، أن ابنة شُعيب مشت أمامه أولاً، فألصقت الريحُ ثوبها بجسدها، فوصفتْهُ، فقال عليه السلام: امشِ خلفي، وانْعَتِي لي الطريق، ففعلت حتى أتيا دار شُعيب.

قال عمر بن الخطاب: قام موسى يمشي مع الجارية، وهي أمامه، فهبت الريح، فقال موسى: إني من عنصر إبراهيم عليه السلام، فكوني من خلفي، حتى لا ترفع الريحُ لك ثوباً، فأرى منكِ ما لا يحِلُّ لي، فلما دخل موسى على شُعيب، فإذا الطعام موضوعٌ، فقال شُعيب: تناول يا فتى، فقال موسى: معاذ الله، فقال شُعيب: ولِمَ؟ قال موسى: لأنا أهلَ بيتٍ لا نبيعُ ديننا بملء الأرض ذهباً، فقال شُعيب: عادتي وعادةُ آبائي إطعامُ الضيف، عندها جلس موسى وأكل.

قال الرازي: وإنما كره موسى أكل الطعام أولَ الأمر، خشيةَ أن يكون ذلك أُجرةً على عمله.

قال الصاوي: قال شُعيب لموسى لما وُضِعَ الطعام: تعشَّ، قال موسى: أخشى أن يكون ذلك أجرَ ما سقيتُ، فإنا أهل بيتٍ لا نأخذ على عمل الخير أجراً، قال شُعيب: ذلك عادتي وعادةُ آبائي أن نُطعِمَ الطعام، فأكل موسى عندها.

قال الدكتور أحمد بهجت في كتابه «أنبياء الله»: ثم دار بين الاثنين حديث، وسأله شُعيب عن قصته، فأخبره موسى بخبره، عندئذ طمأنه الشيخ، وبشَّره بالنجاة، فإنه في مدْيَنَ، ومدْيَنُ مدينةٌ خارجة عن سيطرة فرعون، وذلك قوله تعالى في تتمة الآية السابقة: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾ [القصص].

قال الضحاك: لمّا دخل موسى على شُعيب، وسأله: من أنت يا عبد الله؟ فقال موسى: أنا موسى بن عمران بن يَصْهُر بن قاهِث بن لاوي بن يعقوب، ثم ذكر جميع أمره من ولادته إلى هربه.

عندها قال شُعيب له: ﴿لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

هنا عبرةٌ ينبغي أن نفهمها، ودرسٌ يجب أن نَعِيَه، أشار إليه البروسوي في تفسيره «روح المعاني»، حيث قال: كان موسى قد تربى عند فرعون بالنِعمَةِ الظاهرة، فلما هاجر إلى الله وقاسى مشاقَّ السفر والغُربة في سبيل الله، وابتغاء مرضاته، عوَّضه الله في مدينَ عند شُعيب، نِعمَةً ظاهرة، ونِعمَةً باطنة، ولذلك قيل:

بلاد الله واسعةٌ ورزقُ الله في الدنيا فسيحُ
فقل للقاعدين على هوانٍ إذا ضاقت بكم أرضٌ فسِيحُوا

وقالوا:

سافر تجد عِوضاً عَمَّنْ تُفارقه
وانصبْ فإنَّ اكتساب المجد في النَصَبِ
فالأُسْدُ لولا فِراق الخيسِ ما افترسَتْ
والسهمُ لولا فِراقُ القوس لم يُصِبِ

وِلِدَ موسى بمصر، فلما ضاقت به هاجر في سبيل الله إلى أرض مديَنَ، فوجدَ السَّعَةَ مُطلقاً، فالـمؤمن يسيحُ إلى حيث أمرَ الله، من غير أن يلتفت وراءه ولو كان وطناً، فإنه إن كان اللهُ معكَ، فكلُّ مكانٍ لك وطن، وكل مضيق لك وسيع: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي أصبحت في مأمن فلن تنالك يد فرعون؛ لأن بلادنا - مديَنَ - تابعة لحُكم الكنعانيين، وهم أهل بأس ونجدةٍ.

قال صاحب كتاب «حياة الأنبياء» الصباحي عوض الله: بعد الفراغ من الطعام، دخل شُعيب على أهله وهو يُفكر بشيء يُكافئ به موسى، وكان هناك تداول في هذا الموضوع، عندها عرضت إحدى البنتين على أبيها شُعيب أن يستأجره، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص]، وفَطِنَ الأب إلى طلب البنت، إنها تُريد هي وأُختُها أن تستريحا من مشقة السقي والرعي، فأسرع إلى تلبية طلبهما، ولكن قولها أثار حفيظته في الوقت نفسه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾.

فقد ورد عن ابن عباس، وعن عمر بن الخطاب وغيرهما، أن البنت لمّا قالت له ذلك، قال الوالد: وما عِلمُكِ بأنه قوي أمين؟

فأشارت إلى دفعه للصخرة التي لا يستطيعُها إلا سبعة رجال أو عشرة رجال، فقال الأب: هذه القوة، فما أدراكِ أمانته؟

قالت: لمّا سِرتُ أمامه، قال: امشي خلفي، فإذا أخطأتُ الطريق فاحذفي لي بحصاة، أعلمُ بها الطريق، ثم ذكرت أنه كان خافضاً رأسه حينما كلَّمها رادّاً على رسالة والِدها يدعوه إلى بيته.

ونُلاحظ أنها ذكرت صفتين: القوة والأمانة، لماذا؟

أجاب صاحب «روح البيان» البروسوي على ذلك فقال: وذكرت هاتين الصفتين لأنها كانت تحتاجُ إليهما، فالقوة لسقي الماء والرعي، والأمانة لحفظ البصر، وصيانة النفس والمال، لذلك قال المفسرون: كان القاضي «شُريح» لا يُفسر من القرآن إلا ثلاث آيات:

الأولى: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ﴾ [البقرة ٢٣٧]، قال: الزوج.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ [ص ٢٠]، قال: الحكمة: الفقه والعلم، وفصل الخطاب: البينةُ والإيمان.

الثالثة: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ [القصص ٢٦]، قال: رَفعُ الحجر وغَضُّ البصر، قال عمر: أشكو ضعف الأمين وخيانة القوي.

وهذا الثناء من البنت على موسى يدلك على شدة ذكائها وفراستها، وحُسن اختيارها؛ لذلك ورد عن ابن مسعود أنه قال: أفرسُ الناسِ ثلاثة:

- العزيز صاحب يوسف حين قال: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ [يوسف ٢١].
- وفتاة موسى حين قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾ [القصص ٢٦].
- وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما.

قال المفسرون: رغِبَ شُعيب في مُصاهَرَةِ موسى، فلما انتهى الطعام والاستراحة، استأذن موسى شعيباً أن يذهب، عندها عرض شُعيب عليه رغبته في أن يكون صِهراً له، ونسيباً، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [القصص].

قال الغرناطي في تفسيره «البحر المحيط»: رَغِبَ شُعيب بمُصاهرة

موسى ومُناسبته، حين وصفتْهُ له ابنته بالأمانة، وحين لاحظ هو هوانَ الدنيا على موسى وتعَلُّقَهُ بالله، وحين عَلِمَ أنه فارٌّ بدينه من الكفر إلى التوحيد.

قال القرطبي: دلت الآية التي بين أيدينا: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾، على أن أمر النِكاح للوَلِيِّ، ولا حَظَّ للمرأة فيه؛ لأنَّ صالحَ مديَنَ تولاهُ، وهذا القول هو قول كافة فُقهاء البُلدان، وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: إذا كانت المرأة عاقلةً، بالغةً، عالمةً بمصلَحةِ نفسِها، مع وجود الشهود، فلها أن تُزَوِّجَ نفسها.

قال المفسرون: وهكذا كان شُعيب حكيماً وحازماً في هذا الموقف، فموسى سيكون أجيراً عنده، وفي بيتٍ فيه بنتان أو أكثر، وسيتردد على البيت ذهاباً وإياباً، ليلاً أو نهاراً، والحِكمَةُ تقتضي إيجاد علاقة شرعية لوجوده في بيته، فكان أن زوَّجه إحداهُنَّ لِيَخْلُقَ وضعاً مُريحاً في البيت يستريح إليه الجميع، ومن عادة أهل الأمثال أن يقولوا: «اخطُبْ لبنتك ولا تخطب لابنك»، ذلك لأن كبرياء الأب يمنَعُهُ أن يعرضَ ابنته على زوج فيه صفاتُ الصلاح - وقليل من يفعل ذلك - وهذا المثل يُسهل أمور الزواج، فكثيراً ما نجد شاباً سويَّ الخُلق سويَّ الدين، ولكن مركزه أقل من مستوى أهل البنت، فيتردد ويتهيبُ خشية الرفض، هنا يأتي دور الرجل الحكيم، فيُلَمِّحُ له، أما قضية شُعيب، فهي أدبٌ عالٍ منه، وهي جُرأةٌ ينتظِرُها المجتمع من أولياء البنات، لتسهيل أمور الزواج كما قال علماؤنا.

قال القرطبي: في قول شُعيب: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾: جوازُ عرض الوليِّ ابنته على الرجل الصالح، ثم قال: وهذه سُنَّةٌ قائمة، ثم قال: وكذلك عرضُ المرأة نفسها على الرجل الصالح، فقد عرضَ صالِحُ مديَنَ - شُعيب - ابنته على صالِحِ بني إسرائيل موسى، وعرضَ

عمر بن الخطاب ابنته على أبي بكر وعثمان، وعرضت الموهوبةُ نفسَها على رسول الله ﷺ، ففي [سورة الأحزاب ٥٠]، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

وفي سنن سعيد بن منصور عن مجاهد، أن ابن عباس دعا سميعاً، وكريباً، وعكرمة، فقال لهم: إنكم قد بلغتم ما يبلُغ الرجال من شأن النساء، فمن أحب منكم أن أزوجه، زوَّجته، ثم قال: لم يَزْنِ رجل قط إلا نُزِعَ منه نور الإسلام، يرُدُّه الله إن شاء أن يَرُدَّه، أو يمنعه إن شاء أن يمنعه.

وفي سياق الكلام عن الزواج، يأتي سؤال: هل الزواج سُنَّةٌ أم واجب؟

والجواب: هناك حالتان: فهو واجب، إذا خاف الإنسان – رجلاً كان أم امرأة – الوقوع في الحرام ولو ظنّاً.

قال المُوفق وغيره: وهذا قول عامة العلماء.

وقال الوزير: اتفقوا على أن من مالت نفسه إلى الزواج – رجلاً كان أو امرأة – وخاف العَنَتَ، فإنَّ الزواج يتأكد في حقّه.

وقال الإمام أحمد: إذا خاف على نفسه العَنَتَ، بلغ به إلى الوجوب، والزواج في هذه الحالة، أفضل من حج التطوع، وصلاة التطوع، وصوم التطوع.

وهو سُنَّةٌ لإنسانٍ – رجل كان أو امرأة – يشتهي الزواج ولكن يعلم من نفسه أنه لا يقع في الحرام، ولكن المُستحب له مع ذلك أن يتزوج إجماعاً؛

ولذلك كان طاووس يقول: لا يتم نُسُكُ الشاب حتى يتزوجَّ، وهذا معنى قول النبي ﷺ: «من رزقه الله امرأة صالحة، فقد أعانه على شطر دينه، فليتَّقِ الله في الشطر الباقي».

وكان إبراهيم بن ميسرة يقول: قال لي طاووس: لتنكِحنَّ أو لأقولنَّ لك ما قال عمر بن الخطاب لأبي الزوائد حين سأله عمر، أعندك مال؟ قال: نعم، ولم يكن أبو الزوائد متزوجاً، فقال عمر: ما يمنعك عن النِكاحِ إلا عجز أو فجور.

والمال - كما قال العلماء - لا يُغني عن الزواج، والله عز وجل جعل الزواج سبيلاً إلى الغنى، وجعلناه نحن وسيلة فقر من كثرة التكاليف، فقد ورد عن أبي نجيح قال: قال رسول الله ﷺ: «مسكين، مسكين، مسكين، رجلٌ ليست له امرأة»، قالوا: يا رسول الله، وإن كان غنياً من المال؟ فقال ﷺ: «وإن كان غنياً من المال»، ثم قال ﷺ: «مسكينة، مسكينة، مسكينة، امرأة ليس لها زوج»، قالوا: يا رسول الله، وإن كانت غنية من المال؟ قال ﷺ: «وإن كانت غنية من المال».

قال العلماء: وللنِكاح شروط أربعة:

١) تعيين الزوجين.

٢) رِضاهُما - إلا البالغ المعتوه -.

٣) الوليُّ، لقوله ﷺ: «لا نكاح إلا بِوَليٍّ».

٤) الشهادة، لقوله ﷺ: «لا نكاح إلا بِوَليٍّ وشاهدَيْ عدل»، ومن حديث عائشة مرفوعاً، أنه ﷺ قال: «لا بد في النكاح من حضور أربعة: الوليِّ، والزوج، والشاهدان».

قال العلماء: وللنكاح أركان ثلاثة، لا يتم عقد النِكاح بدونها، وهي:

١. الزوجان الخاليان من الموانع.

٢. الإيجاب: وهو اللفظ الصادر من وليِّ الزوجة، ولا يصح إلا بلفظ التزويج، أو الإنكاح.

٣. القبول: وهو اللفظ الصادر من الزوج، ويكون بلفظ: قبلتُ.

هنا سؤال: هل يجوز أن يكون المهر تعليم قرآن؟

قال الحنابلة: لا يصحُّ؛ لأن الصّداق لابُدَّ أن يكون مالاً، لقوله تعالى:﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ ﴾ [النساء ٢٤]، فدل على أن الصداق لا بُدَّ من كونه مالاً. وما ورد من أن النبي ﷺ زوَّجَ رجلاً على سورة من القرآن، أو على سُوَرٍ منه يُعلِّمُها المرأة، فقد ورد في نهاية الحديث قوله ﷺ للرجل: «ولا تكون لأحدٍ بعدك مهراً»، وهو حديث صحيح، وأجاز مالك والشافعي ذلك خِلافاً للحنابلة، فالأفضلُ أن يكون مالاً.

قال الجمهور: إن جعل مهرها تعليمَ شعرٍ مُباحٍ جميل صحَّ ذلك.

قال المازني: إذا علَّمها الشِعرَ الطيب من أمثال قولهم:

يقول العبدُ فائدتي ومالي   وتقوى الله أفضَلُ ما استفادا

فلا حرجَ في ذلك، أما الشِعرُ الذي فيه هجاء وشتم، فلا يصلحُ مهراً، فهو كالخمر والخنزير.

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ ﴾: عرضَ على موسى الزواج أولاً، وبعد أن رضيَ موسى عيَّنَ له بُعْدَهُ.

وقد ورد في أثر أخرجه البزار، وقال فيه علماء الحديث: إن في الحديث

ضعفاً، وهو من حديث أبي ذر، أن النبي ﷺ قال: «يا أبا ذر: إذا سُئِلتَ أيَّ الأجلين قضى موسى، فقل: خيرهما وأوفاهُما، وإن سُئِلتَ أيَّ المرأتين تزوج، فقل الصُغرى، وهي التي جاءت خلفه، وهي التي قالت: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴾»، وهذا الأثر مُوافق لما عند أهل الكتاب، وأنه تزوج الصُغرى «صفوريا».

هنا قد يرد سؤال، وهو ما الحكمة في تزويج شُعيب للصغرى من موسى قبل الكبرى، وقد تكون الكبرى أحوج إلى ذلك؟

والجواب: أن الأب توقع أن يميل موسى إليها، لأنه رآها حين حملت رسالة أبيها، ومشى أمامها، فلو عرض عليه الكبرى، ربما أظهر له الرضى حياءً وهو يضمر غيرُ ذلك.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: نعتقد أن موسى تزوج التي أتت إليه تُبلِّغه رسالة أبيها، وهي التي طلبت من أبيها أن يستأجره بعد ذلك، ثم قال: ولعل الشيخ الصالح - شُعيب - قد أدرك بحكمته، أن ابنته قد اختارت بقلبها وانتهى الأمر، ثم لمّا ترك لموسى حُرية الاختيار، فإن موسى قد اختار من اختارته، ثم بيّنَ شُعيب المهرَ بقوله: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [القصص].

وقوله: ﴿ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ﴾: أي أن تكون أجيراً عندي مُدَّةَ ثماني حِجَجٍ، أي ثماني سنوات، لأن الحج يقع كل سنة، وموسم الحج يقع في آخر شهر من السنة.

ونُلاحظ هنا أن شُعيباً أغلى المهرَ، حتى لا يقول زوجُها: إنها رخيصةٌ، أو أنَّ والدها قد رماها عليَّ.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾، جعل الخَيار لموسى في ذلك تفَضلاً منه، أي يكون اختيار العشر من نفسك لا منّي، وليس داخلاً في العقد.

وقوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾: أي في حُسن المُعاملة، ولين الجانب، والوفاء بالعهد، فلن أشُقَّ عليك بطلب العشرة، كما لا أشترط عليك ما فيه مشَقَّةٌ لك، وهذا - كما قال العلماء - من السماحَةِ المأمور بها المسلم، كما في حديث: «رحم الله امرأً سَمْحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى».

ماذا كان جواب موسى؟

كان جواب موسى على كلام شُعيب بالقبول، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص]، بهذه العبارة تم التعاقد على الزواج والإجارة، وفيها أشار موسى عليه السلام إلى أن الذي عاهدْتني فيه، وشارطْتني عليه، يلتزم به كِلانا، ولا أخرجُ أنا عنه فيما شَرَطتَهُ عليَّ، ولا تخرج أنت عما شرطته على نفسك، واستشهد موسى على نفسه، وعلى شُعيب بشهادة الله، وذلك قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾: أي من أخلَّ بما ورد في العقد فالله مؤاخذه.

قال القرطبي: اكتفى الصالحان - موسى وشُعيب - بإشهاد الله عليهما ولم يُشهِدا أحداً من الخلق.

قال البروسوي: وجمع شُعيب المؤمنين من أهل مديَنَ، وزوَّجه ابنته، ودخل بها، وأقام موسى يرعى الغنم ويسقيها عشر سنين، كما جاء في كتاب «فتح الرحمن».

هنا سؤال: أي الأجلين قضى موسى؟

والجواب: لم يذكر القرآن الكريم أي الأجلين قضى موسى؛ إذ لا يتعلق بتعيينه غرضٌ في سياقِ القصة، لكن ورد عن ابن عباس أنه قضى الأكملَ، فقد ذكر البخاري من حديث سعيد بن جُبير قال: قال لي يهودي بالكوفة وأنا أتجهز للحج: إني أراك رجلاً يتبع العِلم، أخبرني، أيَّ الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أعلم، وأنا الآن قادم على حَبْرِ الأمة - ابن عباس - فسأسأله عن ذلك.

قال سعيد: فلما قدمتُ مكة، سألت ابن عباس عن ذلك، وأخبرته بقول اليهودي، فقال ابن عباس: قضى أطيبهُما، وأكثَرَهُما، إن النبي - أي رسول الله المستقبل - إذا وعد لم يُخلف، وفي رواية: إذا قال فعل.

وورد في أحاديث ضعيفة الأسانيد، أنه ﷺ سُئِلَ عن ذلك، فأجاب بمثل ما أجاب به ابن عباس، عند الطبراني من حديث عكرمة، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «سألت جبريل أيَّ الأجلين قضى موسى؟» قال: «أتمَّهُما وأكمَلَهُما».

قال المؤرخون: كان موسى في مديَنَ مُعَزَّزَ الجانب، مَكْفِيَّ المؤونة في صُحبَةِ أتقى رجلٍ في مديَنَ - وهو شُعيب - ولذلك منَّ الله عليه بهذه النِعَم، وقد جاء ذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [طه ٤٠].

قال العلماء: نُلاحظ في سياق قصة موسى هنا، أنَّ قدرةَ الله عز وجل نقلت خُطَا موسى خُطوةً خطوةً، منذ كان رضيعاً، إلى الالتقاط، إلى إلقاء المحبةِ عليه، إلى الإنقاذ من القتل، والنُصح له من الرجل الصالح بالخروج، ثم تعرَّض لتجارب كثيرة: الخوف، والمُطاردة، والغُربة، والوحدة والجوع، ثم

تجربة الخدمة ورعاية الغنم وسِقايتها بعد حياة القصور.

كل ذلك يدلُّنا على أن الرسالة تكليفٌ ضخم، مُتعدد الجوانب، يحتاج صاحبه إلى زاد ضخم من التجارب والمعارف، إلى جانب توجيه الله، وهبة الله له.

ثم إن موسى مُرسلٌ إلى بني إسرائيل الذين فسدت فطرتهم من كثرة الذُلِّ والهوان، ثم تأتي تجربة عشر سنوات في مديَنَ، لتُبعِدَ موسى عن حياة القصور، لأن للقصور أجواءها، كما أن للفقراء عاداتهم، والذين تربَّوا في القصور، قد لا يُطيقون رؤية هؤلاء الفقراء الرُعاة، وشاء الله له ذلك، ليُدرك موسى أبعاد مجتمع الرِّعاء والرِعيةِ، ليكتملَ له الإلمامُ بكل الظروف.

قال المؤرخون: فلما استكملت نفسُ موسى تجاربها، ومِرانها، وكان بنو إسرائيل بحاجة إلى رائدٍ يُرشِدُهم، وقائد يقودهم، كان موسى هو المُرشح الوحيد لذلك، ومن هنا تُدرك سِرَّ قوله تعالى لموسى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾ [طه]، وقوله عز وجل: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ٤١﴾ [طه]: أي جعلتُكَ محلاً لإكرامي بأن جعلتُكَ مُكرماً كلياً.

وها هي يد القُدرةِ الربانية تقوده مرة أُخرى عائدة به إلى مصر وطنه ومقرِّ أهله وقومه سالكاً الطريق نفسها التي سلكها عندما خرج خائفاً، وهذا تدريبٌ جديد على شِعاب الطُرق التي سيقود موسى فيها قومه فيما بعد بأمر ربه، حتى لا يعتمِدَ على غيره ولو في كشفِ طريقٍ ومعرفته، لأن بني إسرائيل كانوا قد أفسدهم الذُلُّ، فهم في حاجة إلى من يقودهم في كل أمرٍ صغير أو كبير، وإلى ذلك أشارت الآية: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩﴾ [القصص].

العودة لمصر:

قال البروسوي: لمّا أتمَّ موسى الأجل المشروط، قال لشُعيب: قد طالت غيبتي عن أهلي، قال: فبكى شُعيب، وقال له: يا موسى، كيف تخرج عني وقد كبِرتُ وضعُفت قوتي؟ فقال موسى: لقد حنَنْتُ إلى أمي وخالتي، وهارون أخي، وإلى أختي في مملكة فرعون، فأوصاه بابنته خيراً.

قال ابن كثير: إن موسى لمّا اشتاق إلى أهله في مصر، قصد زيارتهم وهو مختفٍ.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: استيقظ في قلب موسى حنينٌ إلى مصر لمّا انتهى أجل الخِدمةِ عند شُعيب، وهو يعلم أن العقوبة قد سقطت عنه بمُضي مُدةٍ بعيدة، وهو ما يُسمى «بالتقادم»، ولكنه يعلم كذلك أن القانون في ظل الطُغاة كفرعون رهن إشارته، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه، فهو لم يكن واثقاً من النجاة، ولكنه شعرَ برغبةٍ لا تُقاوم إلى الرحيل لمصر، رُغم الأمن وطيب المعيشة في مديَنَ.

قال الغرناطي في تفسيره «البحر المحيط»: لمّا قضى موسى أكملَ الأجلين، استأذن شُعيباً في الرجوع إلى مصر لزيارة أهله، فأذِنَ له، وقد مضى الزمن الطويل على جِنايته، فرجا خفاءَ أمره، وخرج بأهله وماله، وكان ماله غنماً كثيراً استفادها مُدة إقامته، وقد أعطاهُ والدُ زوجته - شُعيب - نِتاجَ غنمه كلَّه في السنة العاشرة مُكافأةً له، وصِلَةً لابنته، وقد ولدت الغنم في ذلك العام مرتين، وذلك قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ** ﴾[القصص ٢٩]، والأهل كلمة تُطلق على الزوجة، والعامةُ يقولون لمّا تكونُ امرأةُ أحَدِهم معه: معي أهلي، أو معي الجماعة، لأن الزوجة تقضي لزوجِها من المصالح ما لا يستطيع القيام به إلا جماعة من الناس - كما ذكر

علماؤنا – مع قيامها بشيء خاص لا يؤديه غيرُها وهو المُعاشرة، لذلك حلَّتْ الزوجة محلَّ جماعةٍ من الناس.

قال الغرناطي: كان الفصل شتاءً، وكانت امرأته حاملاً في شهرها الأخير، وما يدري أتضعُ نهاراً أم ليلاً، ثم أخطأ الطريق.

قال القرطبي: كان موسى رجلاً غيوراً، فحين خرج من مديَنَ عائداً إلى مصر، كان يسير مع القافلة ليلاً، ويُفارِقهم بالنهار حتى لا يروا امرأته، فضاع عن الرَكب – لما سبق في علم الله – وضلَّ الطريق، وكان ذلك في سيناء إلى جانب الطور الأيمن الغربي.

أقول: وهنا احتمال آخر لمسيره في النهار مُفارقاً للقافلة، وهو أنه لا يريد أن يعرفه من معه، حتى يكون وصوله إلى مصر على أتمِّ وجهٍ من الخفاء، والله أعلم.

تكليم الله عز وجل لموسى عليه السلام:

قال وهب: كانت ليلة شاتيةً باردةً مُثلجةً، وقد حاد عن الطريق، وتفرقت ماشيتُهُ، فقَدَحَ زنده ليُشعِلَ ناراً فلم يُورِ الزندُ شيئاً، حينها بَصُرَ بنارٍ من بعيد، من جانب الطور فذلك قوله تعالى: ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩ ﴾ [القصص]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠ ﴾ [طه]، والخِطابُ من الله لمحمد ﷺ، وجاء مُبتدئاً بـ «هل» وهو هنا للتشويق لسماع ما حدث، والقصد من ذلك تثبيت النبي ﷺ وحَثُّه على الصبر والثبات.

قال الغرناطي: خاطب موسى زوجه وولديه والخادم بمواقِفَ مُتعددة، ولذلك كانت أجوبَتُهُ متعددةٌ: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ [القصص ٢٩].

ويقول: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ [طه ١٠]، ومرةً يجزم ليُطمئنهم كما في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ۝٧﴾ [النمل].

قد يقول قائل: كيف قال هنا: ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ [النمل] بالجزمِ، وقال في [القصص]: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ وهو رجاء؟

والجواب: الراجي أولَ مرةٍ يقول: أرجو، ولعلَّ، فإذا قوِيَ رجاؤه قال: سأفعل، وهكذا موسى عليه الصلاة والسلام.

ثم إن موسى لا يدري إذا وصل إلى النار، هل يجدُها مُشتعلةً لها لسانٌ من اللهب يقتبس منه شُعلةً، أم يجدُها قد هدأت ولم يبقَ منها إلا جذوة متوهجة- وهي الجمر - فكل عبارةٍ لها موضِعٌ من القصة لتتكاملَ الصور، وتظهرَ العِبرة في تثبيت قلب النبي محمد ﷺ بذكرِ ما لاقاه موسى - كما قال العلماء -.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾، آنَسَ: بمعنى شَعَرَ وأَحَسَّ بشيءٍ يؤنِسُهُ ويُطمئِنُهُ، والإيناسُ: أعَمُّ من الرؤية، فهو رؤية بينةٌ مؤنِسَةٌ، ومن ذلك سُمِّيَ الإنسُ إنساً لظهورهم، والجنُّ جنّاً لاستِتارهم، وسُميَ بؤبؤ العين: إنسانَ العيون؛ لأنه به يتبيَّنُ الشيء.

قال ابن كثير: أبصَرَ موسى ناراً تأجَّجُ عن بُعدٍ في جانب الطور، فقال لأهله: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾، والمُكث: هو الثبات مع الانتظار، قالوا: نصبَ لهم

خيمةً كانت معه.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: امتلأ قلب موسى بالفرح عند رؤية النار، والظاهر أنه رآها وحده، ولم يرها أحدٌ غيره من أهله، لذلك قال لهم: ﴿ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾، ولمّا كان الإتياء بالقَبَسِ، أو الاهتداء إلى الطريق مُتَوَقَّعيْن عند الوصول إلى النار، بنى الأمر على الرجاء، وذلك قوله: ﴿ لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾، والجَذوةُ - الجُذوةُ: القطعة من الحطب أو الخشب، سواءٌ كان في رأسها نارٌ أم لا، لذلك بيَّن موسى فقال: ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾، ومنه قول الشاعر:

باتت حواطِبُ ليلى يلتمسْنَ لها　　　جَذْلَ الجُذا غير خَوّارٍ[1] ولا دَعِرِ

وقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾: أي تستدفئون، مما يدُلُّ على البرد، لأن «اصطلى» معناها: أوقدَ للدفء.

ومنه قولهم:

النارُ فاكهةُ الشتاء فمن يُرد　　　أكل الفواكه شاتياً فليصطلِ

قال ابن كثير: وقد أتاهم موسى بخبرٍ، وأيُّ خبر؟!! ووجد عندها هُدىً، وأيَّ هدىً، واقتبسَ منها نوراً وأيَّ نور؟!!

وصل موسى إلى المكان ويده اليُمنى تُمسك عصاه، جسده مُبلَّلٌ، ثم أشرف على وادٍ يُسمى «طوى»، ثم انتهى إلى النار، وجدها تتأجَّجُ في شجرة خضراء من العَوْسَج، وهو نوعٌ من الشوك.

قال القرطبي: شجر العوسج إذا كَبُرَ يُسمى الفرقد، ثم شاهد أمراً دُهِشَ له، لاحظ أنَّ النار كلما اشتد ضِرامُها في الشجرة ازدادت خُضرةُ الشجرة.

---

(١) خَوّار: العود الذي تتقصَّفُ، والدَعِرِ: العود الذي إذا وضع على النار لم يستوقد ودخَّنَ.

قال ابن الجوزي: لمّا رأى موسى النار انطلق يسير حتى وقف منها قريباً، فإذا هو بنارٍ عظيمة تفور من فروع شجرةٍ خضراء، لا تزداد النار فيها يرى إلا عِظَماً وتَضَرُّماً، ولا تزدادُ الشجرة على شدَّةِ الحريق إلا خُضرةً وحُسناً، فوقف لا يدري ما يصنع، فظن أنَّ أحداً من الناس أوقَدَ إليها موقِداً، فنالها فاحترقت، ولكن شِدَّةَ خُضرتها تمنع النار أن تأكُلها، فوقف موسى وهو يطمع أن يسقُطَ منها شيء فيقتبِسه، ثم تابع ابن الجوزي كلامه فقال: فلما طال عليه الأمر، أهوى إليها بضِغثٍ في يده ليقتبِسَ، فمالت نحوه كأنها تُريده، فاستأخَرَ، ثم عاد فخمدت بسُرعة فتعجَّبَ، ووقف مُتحيراً، فإذا بخُضرتها تتحول عموداً من نورٍ ما بين السماء والأرض، فاشتدَّ خوفه، عندئذ نودِيَ من الشجرة: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾، فأجاب سريعاً ولم يدرِ مَنْ دعاه فقال: «لبيكَ مَنْ أنتَ، أسمعُ صوتك ولا أرى مكانك، فأين أنت؟»

قال: «أنا فوقك وأمامك، ومعك، وأقرب إليك منك»، فلما سَمِعَ موسى ذلك، عَلِمَ أن هذا لا يكون إلا لله تعالى ربه، فأمِنَ به، ثم قال: «كذلك أنت يا إلهي»، ثم قال موسى: «أكلامك أسمع، أم كلامَ رسولك؟»، قال تعالى: «بل أنا الذي أُكلمك».

قال ابن كثير: ثم أمره ربه أن يخلع نعليه، تعظيماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البُقعة المُباركة، في تلك الليلة المباركة، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ [طه].

قد يُقال: لماذا أُمِرَ بخلع نعليه؟

والجواب كما قال علي بن أبي طالب والحسن: أُمِرَ بخلع النعلين تواضُعاً وخشوعاً، ولِتَمَسَّ قدماه تُربة الوادي تبرُّكاً.

وقال سعيد بن جبير: قيل له: طأْ الأرض حافياً، كما تدخل الكعبة حافياً، والعُرف عند الملوكِ أن تُخلَعَ النِعالُ، ويبلغ الإنسان إلى غاية التواضع، وقيل غير ذلك، والأول هو الراجح، فقد كان الإمام مالك، يكره أن يركب دابة في مدينة رسول الله ﷺ توقيراً لتربتها المُحتوية على الجثة الكريمة، والأعظمِ الشريفة، وكثيرٌ من الناس يمشون في مدينة رسول الله ﷺ حُفاةَ الأقدام، يقولون: لعل قدمي تقع في مكانٍ وطأهُ قدمُ رسول الله ﷺ.

ولعل من هذا المعنى قوله ﷺ لبشير بن الخصاصِيّة، وهو يمشي بين القبور بنعليه: «إذا كنت في مثل هذا المكان فاخلع نعليك».

وقد ذكر القرطبي جواباً آخر فقال: إن الله بسطَ له بِساطَ النور والهدى، ولا ينبغي أن يطأ على بِساطِ رب العالمين بنعله، ولعل هذا القول ينضوي تحت لواء التواضع للمُناجاة، كما كان السلف يفعلون عندما يطوفون في البيت، وكما أن الحرم لا يُدخَلُ بنعلين إعظاماً له، فكذلك ذلك الموضع، وكل ذلك يدلك على أنها بُقعةٌ مباركة، نصَّ على بركتها القرآن الكريم في أكثر من موضع، فقد قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾[القصص].

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ ﴾ [طه]: أي يجب مُراعاة الأدب باحترامه لتجلّي الحق فيه، كما يُراعى أدبُ القيام عند الملوك.

قال القرطبي: جاء في الخبر: أن موسى خلع نعليه، ووضعهما وراء الوادي، وروى أبو الأحوص، أنَّ عبد الله زار أبا موسى الأشعري في داره، فأقيمت الصلاة، أقامها أبو موسى، وقال لعبد الله: تقدم، فقال عبد الله:

تقدم، أنت في دارك، فتقدم أبو موسى وخلع نعليه، فقال عبد الله: أبالوادي المقدس أنتَ؟

قال ابن كثير: ثم خاطبه الله عز وجل بعد النداء بما يشاء قائلاً له: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠﴾ [القصص]، وجاء في [سورة طه]: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾.

قال الرازي: ذكر الله تعالى في خطابه لموسى كل هذه الأمور، وفصَّلَ في كل سورة ما اشتمل عليه النداءُ، فصار المعنى كما قال ابن كثير: أنا رب العالمين، الذي لا إله إلا هو، والذي لا تصلُحُ العبادة، وإقامة الصلاة إلا له عز وجل.

نُلاحظ أن الله خاطبه أولاً بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ ليؤنسه ويُطمئنه بأنه الرب العطوف.

ثم خاطبه بقوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾: أي المعبودُ المُطاع في كل ما أُكلِّفُ به، وأهمُّها التوحيد: ﴿أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، ولذلك ورد عن النبي ﷺ فيما رواه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، قوله ﷺ: «خيرُ الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قُلتُ أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير».

قال العلماء: وما دام لا إله إلا هو، فلا يَصِحُّ أن تتلقى الأمر والنهي إلا منه، وألا تتوكل وتعتمد إلا عليه عز وجل: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان ٥٨]، لأنك إن توكلت على غيره، قد تُصبح ولم تجد من توكلتَ عليه، ولذلك قالوا:

اجعل بِرَبِّكَ كلَّ عزِّكَ يستقرُ ويثبُتُ
فإذا اعتزَزْتَ بمن يموتُ فإن عِزَّكَ ميِّتُ

قال العلماء: ثم بيَّن الله عز وجل لموسى أنه اصطفاه للنبوة والرسالة، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣ ﴾ [طه].

وقوله: ﴿ فَٱسْتَمِعْ ﴾: أي أحضِرْ قلبك، وجَنِّدْ جوارِحك، وحواسك لأن تسمع، وتُنفذ ما طُلِبَ منك.

قال القرطبي: وحُسن الاستماع أمرٌ يُحبه الله، ولذلك أدَّبَ عباده بذلك، وأمرهم به، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٢٠٤ ﴾ [الأعراف]، كما مدح فاعله، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٨ ﴾ [الزمر].

وقوله: ﴿ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ ﴾: أي يهتمون بالأكمل والأفضل، ويدخل تحت هذا اللفظ اختيار المذاهب، باختيار أقواها عند السَّبْرِ، وأثبتها على السَّبْكِ، وأبينها دليلاً وأمارةً، وأن لا تكون مُقلِّداً في المذهب، كما قال القائل:

شَمِّرْ، وكن في أمور الدين مُجتَهِداً　　　ولا تكن مثل عَيرٍ قِيدَ فانقادا

ويشمل كذلك: إيثارُ الأفضل من كل نوعين كانت بينهما معارضة، كالعفو مع القصاص، وكالإخفاء مع الإبداء في الصدقات - كما قال القاسمي -.

وقد رُوِيَ عن وهب قوله: من أدب الاستماع سكونُ الجوارح، وغض البصر، والإصغاء بالسمع، وحُضور العقل، والعزم على العمل، وذلك هو الاستماعُ الذي يُحبه الله تعالى.

وقد فسَّرَ القرطبي هذه العبارات التي قالها وهبٌ، فقال القرطبي:

سكون الجوراح: يعني أن يكُفَّ العبدُ جوارحه، ولا يُشغلها فيشتغل قلبه عما يسمعه.

وغض البصر: أي فلا يلهو قلبه بما يرى.

وحضور العقل: أي لا يخطر بباله سِوى ما يستمع إليه.

والعزم على العمل: أي يعزم على أن يفهم، فيعمل بما فَهِمَ.

قال سفيان بن عُيينة: أولُ العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر.

قال القرطبي: إذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ بنيَّةٍ صادقة على ما يحبُّ الله، أفهمه الله كما يحب، وجعل له في قلبه نوراً.

قال ابن عطية: حدثني أبي قال: سمعتُ أبا الفضل الجوهري يقول: لمّا قيل لموسى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣﴾، وقف على حجر، واستند إلى حجر، ووضع شِماله على يمينه، وألقى ذقنه على صدره، ووقف يستمع، وكان لباسه صوفاً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه]، يدل على أنه عز وجل أمر بالتوحيد أولاً، ثم بالعبادة عموماً، ثم بالصلاة خصوصاً – كما قال الرازي –.

قال أبو السعود: وخُصت الصلاة بالذكر لفضلها على سائر العبادات.

وقال الغرناطي: خُصت بالذكر لكونها أنفعُ العبادات للعبد في الآخرة، ومن هنا جاء قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾، لأن الذكر الأكمل لله عز وجل إنما يكون بالعبادة، وبالصلاة على الخصوص لما فيها من أذكار وهيئات، لأنها جمعت أنواع عبادات الملائكة من قيام، وركوع، وسجود،

وقعود، كما ذكر النبي ﷺ في الإسراء، وقد يكون المعنى: ﴿لِذِكْرِيٓ﴾: أي فلا تنساني ولا تغفل عني، فأذكُركَ حينها في مَلَئِي، وقد يكون المعنى: في أوقات ذِكري، وهي مواقيت الصلاة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾ [النساء]، فهي تُذكِّر العبد بخالقه، وأنه واقف بين يديه، فتتولد عنده التقوى، وبهذا يكون الله تعالى قد أعلمَ موسى وعرَّفه حكمة الصلاة مجملة، وعرَّفها محمداً ﷺ بعد ذلك مُفصَّلةً - كما قال ابن عاشور -.

قال الشوكاني في «فتح القدير»: بعد أن أمر الله موسى بالتوحيد والعبادة، والصلاة، جاء بالتعليل، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥﴾ [طه]: أي الساعة وقت الحساب والعقاب، وهي آتيةٌ فاحرص على ما فيه طاعة لله - يا عبد الله - والتعبير: ﴿ءَاتِيَةٌ﴾: تأكيدٌ وتحقيق لحُصولها.

و ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾: اسم ليوم القيامة، لأنها تفجأ الناس بغتةً في ساعة لا يعلمُها إلا الله تعالى - كما قال القاسمي -.

قال الراغب: والساعة كبرى وصغرى، فالكبرى: هي البعث للحساب، ويُشير إلى هذا المعنى قوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يظهر الفُحش والتفَحش، وحتى يُعبَدَ الدرهم والدينار»، وذكر ﷺ أموراً لم تحدث في زمنه ولا بعده، والساعة الصغرى: موت الإنسان، وساعة كل إنسانٍ موته، ولذلك تُصيب الإنسان الحسرة عند موته إن كان مُقصِّراً، وإلى هذا أشارت الآية: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠﴾ [المنافقون].

قال ابن عباس: ما قصَّرَ أحدٌ في الزكاة والحج إلا سأل الرجعة عند الموت.

وقد ذكر الغزالي عن المُزني، أنه قال: جمع رجلٌ من بني إسرائيل مالاً

كثيراً، فلما أشرف على الموت قال لبنيه: ائتوني بأصناف أموالي، فأُتِيَ بشيء كثير من الخيل والإبل والرقيق وغيره، فلما نظر إليها بكى عليها تحسُّراً، فرآه ملكُ الموت وهو يبكي، فقال: ما يُبكيك؟ فوالذي خوَّلكَ ما خوَّلَكَ، ما أنا بخارج من منزلك حتى أُفَرِّقَ بين روحك وبَدَنك، قال الرجل: فالمُهلةَ حتى أُفرقها؟!! قال: هيهات، انقطع عنك المُهلةُ، فهلّا كان ذلك قبل حضور أجلك، فقبض روحه.

قال الزبيدي: وهناك ساعة وسطى، وهي موت أهل القرن الواحد، وذلك لقوله ﷺ حين رأى «عبد الله بن أنيس»، وكان غُلاماً: «إن يَطُلْ عُمُرُ هذا الغلام، لم يمت حتى تقوم الساعة»، فكان عبد الله هذا آخر من مات من الصحابة، رضوان الله عليهم.

وقد بيَّن الله عز وجل الحكمة في إخفاء وقت الساعة: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه].

قال المفسرون: والحكمة من إخفاء الساعة، وإخفاء وقت الموت، أن الله تبارك وتعالى حكمَ بعدم قبول التوبة عند الاحتضار، وعند قيام الساعة، إذ لو عرف الناس وقت الموت، أو وقت الساعة، لاشتغلوا بالمعاصي والفساد، ثم تابوا قبل ذلك، فيتخلصون بذلك من العقاب، فالله تعالى عَمَّى الأمر وأخفاه؛ ليظل الناس على حذر دائم، وعلى استعداد بفعل الطاعات قائم، خوفاً من أن يُفاجئهم الموت، أو تبغتُهم الساعة، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه].

قال الرازي في وقوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾: أي أنا أُخفيها، لأنَّ «كاد» من الله واجب الوقوع، كقوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾ [الإسراء ٥١]: أي هو قريب.

قال أبو مسلم: ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾: أريد إخفاءها، كقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ [يوسف ٧٦].

قال الشِهابُ: وتفسير «أكاد»: بمعنى أريد، هو أحد معانيها، فالعرب تقول في أمثالها: لا أفعل ذلك ولا أكادُ، أي ولا أريد أن أفعله، ومن ذلك قول الشاعر:

كادتْ وكِدتُ، وتِلكَ خيرُ إرادةٍ

لو عادَ من لهوِ الصبابة ما مضى

قال العلماء: ثم طلب الله عز وجل من موسى أن يكون صلبَ العود في وجه الكافرين بالساعة، حتى لا يطمعُ أحدٌ منهم في إبعاده عن الحق الذي هو عليه، فقال عز وجل: ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ [طه].

قال الزمخشري: أي الذين لا يؤمنون بالآخرة هم الأكثرون؛ لأن أشدَّ أمرٍ على الكفرة هو البعثُ، فاحذر من الميل مع الكثرة، وهم مع كثرتهم لا دليل عندهم على إنكار البعث، ولكن دافعهم لذلك الهوى والشهوات.

قال الرازي: وفي الآيات التي مرت، إشارةٌ جميلة إلى ما يجب على العبد تحصيله من العلوم، وأهمها ثلاثة:

الأول:علم المبدأ: وهو معرفة الله عز وجل:﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾[طه ١٤].

الثاني: علم الوسط: وهو علم العبادات لله بمعناها الواسع: ﴿ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ ﴾ [طه].

الثالث: علم المعاد: وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا

﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥﴾ [طه].

وهنا لطيفةٌ: وهي أن الله تعالى ابتدأ في تكليف موسى بخطابِ لطفٍ واضح: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، وختم خطابه عز وجل له وتكليفه بمحضِ القهر: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ١٦﴾ [طه].

كل ذلك للتنبيه: على أن رحمته عز وجل تسبق غضبه، وعلى أن العبد لا بُدَّ له في العبودية من الرغبة والرهبة، والخوف والرجاء، فهما جناحان يطير بهما.

وقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾: الهوى المبني على ميل النفس، ولا يؤيده بُرهان سماوي أو دليل عقلي، وهو الميل للشهوات المحرمة دون حسابٍ للآخرة. والردى: الهلاك، فإن الغفلة عن الآخرة مُستلزمةٌ للهلاك، والهلاك هنا: النار.

العصا فائدة ومعجزة:

قال العلماء: إلى هنا، وانتهى خطاب الرب عز وجل لموسى فيما يتعلق بشؤونه الخاصة، لينتقل السياق بعدها إلى حكاية ما كلَّفه به ربه سبحانه من الأمور المتعلقة بالخلق، وبدأ الله خطابه لموسى في موضوع الخلق بسؤال فيه تنبيه إلى ما سيبدو من عجائب صنع الله وقدرته في عصاً كانت بيد موسى اليُمنى، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧﴾ [طه]: هذا استفهام واستعلام، وهو مُحال على الله، فما فائدة الاستفهام هنا؟

والجواب: للاستعلام هنا ثلاث فوائد:

الأولى: إظهار قدرة الله تعالى المُطلقة، فهو القادر على أن يُظهر من الشيء البسيط آية شريفة، ومُعجزةً باهرةً، مثال ذلك: أن يُرِيَكَ الزرّادُ زبرةً من

حديد، ويقول لك: وهذه، وما هي؟ فتقول: إنها زبرة من حديد، ثم يُريكَ بعد أيام درعاً مُسَرَّداً، فيقول لك: هي تلك الزُبرةُ حيَّدتُها إلى ما ترى من عجيب الصُنعِ، وأنيقِ السردِ.

والله عز وجل - وله المثل الأعلى - لمّا أراد أن يُظهِرَ من تلك العصا الآيات الباهرة، عرضها أولا على موسى قائلاً: تعرَّفْ حقيقة ما في يدك، إنها خشبة، ثم بعد ذلك قلبها الله حية ليُنَبِّهَ العقول إلى كمال قدرته.

الثانية: أن موسى لمّا أطلعَهُ ربه على تلك النار، ثم تحولت إلى أنوار صاعدةٍ إلى السماء، ثم أسمعه تسبيح الملائكة، ثم كلَّمهُ ولاطفَهُ بقوله عز وجل: ﴿ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣ ﴾، ثم كلَّفَهُ بقوله تعالى مُشيراً إلى الأصل - التوحيد - ثم العبادة، ثم المعاد والبعث: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤ ﴾، ثم ختم ذلك بالتهديد والرهبة: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا ﴾، كل ذلك جعل موسى يُدهش، وكاد لا يعرف يمينه من شماله، من هول الموقف، وعظيم الهيبة، عندها قال الله تعالى له: ﴿ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ ﴾، ليعرف موسى عليه السلام، أن يمينه هي التي فيها العصا، والأمر الجميل: أن موسى لمّا دُهِشَ، وتحيَّرَ في حضرة الرب عز وجل، أراد سبحانه وتعالى أن يُزيل عنه هذه الدهشة، فسأله عن شيء لا يقع الغلط فيه: ﴿ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ ﴾، إذ ليس في يمينه غيرها، ثم إن تكرار اسم موسى يدلك على أنه عز وجل، أراد أن يؤنسهُ لتذهب عنه هذه الرهبة، بما في النداء بالاسم ﴿ يَٰمُوسَىٰ ﴾ من إيناس وتحبُّب.

هنا سؤال: هل زالت هذه الدهشة عن موسى بهذا الخطاب؟

الجواب: نعم، لقد زالت هذه الرهبةُ، ويدلك على ذلك إطالة الجواب

الذي أجاب به موسى ربه: ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه].

هذا الموقف يُشبه موقف المؤمن، إذا مات ووصل إلى حضرة ذي الجلال، فالدهشةُ تغلبه، والحياءُ يمنعه من الكلام، فيسألونه عن الأمر الذي لم يغلط فيه في الدنيا – وهو التوحيد – فإذا ذكره زالت الدهشة والوحشةُ عنه.

الفائدة الثالثة: لهذا السؤال: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾، أن يتقرر ويثبت عند موسى أنها خشبةٌ، حتى إذا قلبها ثعباناً لا يخافُها، فحينما يقول موسى: ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ ﴾، فهو يتثبَّت منها، ويتأمل فيها، وإلا فإن الله تعالى قد عَلِمَ ما هي منذ الأزل!!!

ثم تلمس في السؤال: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ﴾؟ دِقةٌ عجيبة، إذا قال الله تعالى: ﴿ بِيَمِينِكَ ﴾، ولم يقل: وما تلك بيدك، لاحتمال أن يكون في يسار موسى شيء، مثل الخاتم مثلاً، أو شيء آخر من حوائجه، فلو قال الله: وما تلك بيدك، لتحيَّرَ موسى في الجواب، لأنه لا يدري عن أيِّ يدٍ يسأله ربه، هل عن اليمين، أم عن الشِمال؟

ثم تلمس كذلك في السؤال أمراً آخر مهماً: ذلك أن قوله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ﴾، لفظتان، ﴿ وَمَا تِلْكَ ﴾: إشارة إلى العصا، وقوله: ﴿ بِيَمِينِكَ ﴾، إشارة إلى اليد، وهاتان الإشارتان إلى اليد والعصا سيجعل الله كل واحدةٍ منهما مُعجزاً قاهراً، وبُرهاناً باهِراً، حيثُ صَيَّرَ الجسم الكفيف – اليد – نورانياً لطيفاً، ونقل العصا من حدِّ الجمادية حيواناً، فأي مُنكرٍ يُنكر قُدرته سبحانه وتعالى بعد ذلك؟!!

جواب موسى عن السؤال: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾؟

قال الرازي: واعلمْ أن الله تعالى لمّا سأل موسى: ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ** ﴾؟، أجاب موسى عليه السلام عن السؤال بأربعة أشياء، ثلاثة على التفصيل، وواحدة على الإجمال: ﴿ **قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾** ﴾ [طه].

قال القرطبي: في هذه الآية دليل على جواز جواب السؤال بأكثر مما سُئِلَ، فموسى: ذكر العصا ومنافعها من الاتكاء والهش، والمآرب الأُخرى.

وهذا الحكم كثير في أجوبة النبي ﷺ، فإنه ﷺ لمّا حملت امرأة طفلاً صغيراً، وقالت: يا رسول الله: ألهذا حجٌّ؟ فقال ﷺ: «نعم، ولك أجر»، ولمّا سُئِلَ ﷺ عن طهوريَّة ماء البحر، أجاب: «هوالطهور ماؤه، الحِلُّ ميتته».

وقوله: ﴿ **أَتَوَكَّؤُا** ﴾: أعتمدُ عليها، وأستريحُ بالاستناد إليها عند التعب، فهو من وسائل الراحة، ولذلك قال الله عز وجل في وصف نعيمِ الآخرة: ﴿ **مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ** ﴾[الطور ٢٠].

وقوله: ﴿ **وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي** ﴾: أي أضرب أغصان الشجر ليسقط ورقها، فيسهل على الغنم تناوله، قال الراجز:

أهشُّ بالعصا على أغنامي　　　من ناعِمِ الأراكِ والبشامِ

وقوله: ﴿ **وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ** ﴾: والمآرب، جملة حاجات أُخرى، لم يُعدِّدها موسى، ولكن لماذا لم يُعَدِّدها؟

والجواب كما قال الرازي: أجملَ موسى في الجواب الرابع، رجاء أن يسأله ربه عن تلك الحاجات، فيسمع كلامَ ربه مرة أُخرى، وتطول المُكالمة بسبب ذلك، ولهذا قال الآلوسي: وما ألذَّ مُكالمة مَنْ تُحبُّ، ولذلك قالوا:

وأملى حديثاً يُستطابُ فليتني أطلتُ ذنوباً كي يطولَ عِتابُهُ

وقد روى الإمام أحمد، أن موسى بعد أن ناداه ربه النداء الأول: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ ﴾ [الطور]، عندها جمع موسى يديه في العصا، ثم تحامَلَ حتى استقلَّ قائماً، فاضطربت رِجلاهُ، وانقطع لسانه، وانكسر قلبه، ولم يبقَ منه عظمٌ يحمل آخر، فهو بمنزلةِ ميت إلا أن روح الحياة تجري فيه، ثم زحف حتى وقف قريباً من الشجرة، عندها قال الله عز وجل له مُنادياً باسمه ليؤنسه: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾[طه].

قال ابن عاشور: ابتُدِئَ موسى بالسؤال عمّا بيده، ليوقِنَ أنه مُمْسك بعصاه حتى إذا انقلبت حيةً لم يشك أن تلك الحية هي التي كانت عصاه قبل ذلك، والقصد من ذلك زيادة اطمئنان قلبه بأنك في مقام الاصطفاء، وأن الكلام الذي سمعه كلامٌ من قِبَلِ الله بدون واسطة، فالمقامُ مقامُ تكريم، ولذلك قال بعدها: ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ﴾ [طه].

وقول موسى: ﴿ وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾: قال ابن عاشور: تعجَّبَ موسى للسؤال، لأن شأن الواضِحات أن لا يُسأل عنها، إلا ويُريد السائل من سؤاله أمراً آخر غير ظاهر، فموسى أجاب السائلَ ببعض منافعها استقصاءً لُمرادِ السائل أن يكون قد سأل عن وجه اتخاذه العصا بيده، ولذلك أشارت إجابته إلى تعجبه: ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾.

وهذه العبارة: ﴿ وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾: تدل على أن للعصا منافع عديدة، حتى أن بعض الُمتأخرين صنف مُجلداً لطيفاً في منافع العصا، ذكر

فيه أخباراً وأشعاراً ونُكَتاً رشيقةً في ذلك، كما ذكر الشوكاني في تفسيره «فتح القدير».

قال القرطبي: وقد تعرَّض قومٌ لتعديدِ منافع العصا، منهم ابن عباس رضي الله تعالى عنه حيث قال: إذا انتهيتُ إلى رأس بئر، فَقَصُرَ الرشا، وصلته بالعصا، وإذا أصابني حرُّ الشمس غرزتُها في الأرض، وألقيتُ عليها ما يُظلُّني، وإذا خفت شيئاً من هوام الأرض قتلته بها، وإذا مشيتُ ألقيتُها على عاتقي، وعلَّقتُ عليها القوس والكنانة والمِخلاة، وأدفع بها السِباع عن الغنم.

وورد عن الحسن البصري أنه قال: فيها ستُّ خِصال: سُنَّةُ الأنبياء، وزينة للعلماء، وسلاح على الأعداء، وعون للضعفاء، وغمٌّ للمنافقين، وزيادة في الطاعات.

ولَقِيَ الحجاج أعرابياً، فسأله الحجاج: من أين أقبلت يا هذا؟ قال الأعرابي: من البادية، قال الحجاج: وما بيدك؟ قال: عصاي، أركُزُها لصلاتي، وأعُدُّها لعُداتي، وأسوق بها دابتي، وأقوى بها على سفري، وأعتمد بها في مشيَتي لتتسِعَ خُطواتي، وأثِبُ بها النهر، وتؤمِنُني من العَثْرِ، وأُلقي عليها كِسائي فيقيني الحر، ويُدفِئُني من القرِّ، وتُدني إليَّ ما بَعُدَ عني، أعصي بها عند الضِراب، وأقرعُ بها الأبواب، وأتقي بها عقورَ الكلاب، وتنوب عن الرمح في الطِعان، وعن السيف عند مُنازلة الأقران، ورثتُها عن أبي، وأوَرِّثُها بعدي ابني، وأهُشُّ بها على غنمي، ولي فيها مآربُ أخرى.

قال القرطبي: للعصا مدخلٌ في مواضع من الشريعة:

منها تُتخذ قبلة في الصحراء، وقد كان للنبي ﷺ عَنَزَةٌ تُركز له فيُصلي إليها، وكان عبد الله بن مسعود صاحب عصا النبي ﷺ وعَنَزَتِهِ، كما كان

للنبي ﷺ مِحْجَنٌ – عصا مُعوجَّةُ الطرف – يُشير به إلى الحجر الأسود إذا لم يستطع أن يُقبله، وهذا ثابت في الصحيح.

قال الإمام مالك: والرجل إذا كَبُرَ؛ فإنه يقوى بالعصا عند قيامه.

وقال القرطبي: وعند مشيه كذلك، ومن ذلك قول القائل:

قد كنتُ أمشي على رجلين مُعتمداً

فصرتُ أمشي على أخرى من الخشبِ

وقال الإمام مالك: وكان الناس إذا جاءهم المطر، خرجوا بالعِصِيِّ يتوكؤون عليها حتى الشباب منهم، ومن فوائدها ما ذكره القرطبي: أنها تُنبِّهك إلى الانتقال من هذه الدار، فقد قيل لبعض الزُهاد: مالَكَ تمشي على عصا، وأنت لست بكبير ولا مريض؟ فقال: إني أعلم أني مُسافر، وأن الدنيا دار قُلَعَةٍ، وأن العصا من آلة السفر، وقد أخذ هذا المعنى أحد الشُعراء فقال:

حملتُ العصا، لا الضعفُ أوجَبَ حملها ... عليَّ ولا أني تحنَّيتُ من كِبر
ولكنني ألزمتُ نفسي حملَها ... لأُعلِمها أن المُقيمَ على سفرِ

وكان نبي الله سليمان يتخذ العصا، لخطبته، وموعظته، وطول صلاته، وقد أفرد الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين» باباً خاصاً لِمنافع العصا.

قال الغرناطي: ذكر موسى منافع العصا على التفصيل، ثم أجمَلَ: ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴾، فلماذا أجمَلَ؟

بعض العلماء يقول: إنه أجمَلَ في الجواب أخيراً، طمعاً في أن يسأله ربه عز وجل عن هذه المآرب ليُطيل الحديث معه، لأن المقام مقامُ تشريف، والمُحبُّ يلَذُّ لِسماع كلام من يُحب، ويأنس لحديثه.

وقال آخرون: إنما أجمل موسى في النهاية، لأنه أحس بأن وراء هذا السؤال أمراً مُهماً يُحدِثُه الله تعالى – كما قال الغرناطي رحمه الله –.

وقال الرازي: أراد الله عز وجل أن يُعرِّفَ موسى أن في العصا مآربَةً أُخرى لا تفطن لها، ولا تعرِفُها.

والخُلاصة: أن الله أراد أن ينقُلَ موسى من مهمة العصا عنده وعند البشر إلى مهمة العصا عند الله عز وجل، ولذلك قال تعالى: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ١٩ ﴾[طه]، والإلقاء: الطرح على الأرض، ومنه قول الشاعر:

فألقت عصاها، واستقرَّ بها النوى كما قرَّ عيناً بالإيابِ المُسافِرُ

قال البروسوي والآلوسي في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴾: أي اطرحها أرضاً لترى شيئاً لا يخطر ببالك، وللرازي لفتةٌ جميلة هنا فيقول: إن موسى مع عُلوِّ درجته، لمّا وصل إلى حضرة الرب عز وجل، لم يكن معه إلا النعلان والعصا، فأمره بإلقائها حتى يصل إلى حضرة ذي الجلال، وأنا وأنت – يا عبد الله – نُحمل ألف حِملٍ من المعاصي، فكيف نصل إلى جنابه، ولكن – يا عبد الله – استقم يرحمْك.

وما كاد موسى يُلقي بالعصا على الأرض، حتى خرجت عن ناموسِها وطبيعتها، فلم تعد للتوكُّؤِ والهَشِّ، ولكنها تحولت من جنس الخشب إلى جنس الحيوان، إلى حيةٍ كما قال تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ٢٠ ﴾ [طه].

والحيةُ: اسم لصنف من الحنش مسموم، إذا عضَّ بنابه قتل المعضوض، ويُطلق على الذكر، ووصفها الله عز وجل بقوله: ﴿ تَسْعَىٰ ﴾: لإظهار أنَّ الحياة فيها كاملةٌ بالمشي الشديد مع خِفَّةِ الحركة، ولذلك فإن العرب تستعمل

السَّعْيَ: الذي هو المشي الشديد، في وصف مشيِ الرجل غالباً دون المرأة.

قال المفسرون: لمّا ألقاها انقلبت أوصافُها وأعراضُها بإذن الله، حتى صارت حيةً عظيمة، تنتقل وتتحرك في غاية السرعة، وقد ورد عن ابن عباس أنه قال: «انقلبت ثعباناً يبتلع الشجر والحجر».

قال الرازي: ابتلعت كل ما مرت به من الصخور والأشجار، حتى سَمِعَ موسى صريرَ الحجر في جوفِها.

قال بعض المفسرين: إن تحول العصا إلى أفعى نقلةٌ كبيرة، وقد كان بالإمكان لإثبات المعجزة أن تتحول هذه العصا الجافة إلى شجرة خضراء مورقةٍ، ولكن الله عز وجل يُريد أن يُجرِيَ لموسى معجزةً سيحتاج إليها فيما بعد، فلو تَحوَّلت العصا إلى شجرة خضراء، فسوف تستقر في مكانها، أما حين تتحول إلى حيوان متحرك، تكون مع صاحبها حيث يكون، فهذا ما يُريده موسى للقيام بمُهمته، ولا شك أن موسى فوجئ بانقلاب العصا حيةً، فلا عجب إذا اعتراه الخوف، ولذلك جاءت إذا الفُجائية لتدلك على أمر مُفاجئ حصل، قال تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾، عندها أمره الله بألا يخاف، وطَمْأَنَهُ بقوله عز وجل: ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [طه].

قد يرد سؤال في هذا المشهد، وهو: ما الحكمةُ في قلب العصا حيةً في ذلك الوقت؟

والجواب كما ذكره الرازي:

أولا: لتكون معجزةً لموسى يَعرفُ بها نبوةَ نفسه، ليصير ذلك دليلاً قاهراً، ونحن نعلم أن موسى لمّا سأله ربه عما في يمينه، قال: ﴿ قَالَ هِىَ

عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا ﴾، فصدَّقه الله في قوله هذا، وجعل العصا مُتكأً له، بأن جعلها معجزته.

ثانياً: رأينا فيما سبق أن نداء الرب لموسى باسمه: ﴿ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾، إنما كان بقصد الإكرام، ثم كان قَلْبُ العصا حيةً مزيداً من الكرامات، ليكون توالي الإكرام سبباً في زوال الوَحشةِ عن نفس موسى عليه السلام.

ثالثاً: عرض عليه مشهَدَ انقلاب العصا حيةً للمِران والدُّرْبَةِ أولاً بحيث لو شاهده مرةً أخرى عند فرعون، لم يخف من ذلك المشهد.

رابعاً: قال الرازي: ولعلَّ موسى تعجب من ترشيحه لهذا المنصب العظيم: ﴿ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ ﴾، وهو الراعي الفقير، فَقَلْبُ العصا حيةً فيه إشارةٌ وتنبيهٌ على أن القادر على قَلْبِ العصا حيةً، قادر على نُصرَةِ مثلك، على تواضُعك في نُصرةِ الدين وإظهاره.

وقد روى الإمام أحمد وغيره، عن وهب: أن موسى عليه السلام هانت منه نظرةٌ إلى العصا بعد إلقائها، فإذا بأعظم ثعبانٍ نظر إليه الناظِرُ يُرى، يُفتّشُ، ويلتمسُ كأنه يبتغي شيئاً يريد أخذه، يمر بالصخرة مثل الخِلْفَةِ من الإبل فيلتقِمُها، ويطعن بالنابِ من أنيابه في أصلِ الشجرة العظيمة فيجتثُّها، عيناهُ تَوَقَّدان ناراً، وقد عاد المِحجَنُ عُرفاً فيه شعر، وعادَت الشفتان فماً مثل القليبِ الواسع فيه أضراسٌ وأنيابٌ لها صريف.

قال أحمد بهجت في كتابه «أنبياء الله»: لمّا رأى موسى هذا المشهد لم يستطع أن يُقاوم خوفه، فاستدار فزِعاً، وبدأ يجري، ولم يكد يجري خُطوتين حتى جاء النداءُ: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [القصص].

قال المفسرون: لمّا رأى هذا الأمر العجيب الهائل، لَحِقَهُ ما يلحق البشر عند رؤية الأهوال والمخاوف، فولّى مُدبِراً.

قال القرطبي: قيلَ له: ارجع إلى حيث كنت، فرجع، وجاءه الخِطاب: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ فرجع، فلَفَّ دُرَّاعته على يده، فقال له المَلَكُ: أرأيت إن أراد الله أن يُصيبك بما تُحاذر، أينفَعُكَ لَفُّكَ يدك؟ قال موسى: لا، ولكنني ضعيف وخُلقت من ضعف.

قال الغرناطي: لمّا جاءه النداء، وخوطِبَ بـ ﴿وَلَا تَخَفْ﴾، وطُلِبَ إليه أخذُها، ذهب خوفه، وبلغ من طمأنينةِ نفسه أن أدخل يده في فَمِها، وأخذ بلَحْيَيها، وحين أخذها صارت عصاً، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١﴾ [طه].

قال البروسوي في تفسيره «روح البيان»: عند قوله تعالى: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾، المعنى: كنت تَعُدُّ لها منافعَ ومآرب لك في البداية، ثم ها أنت تراها وأنت خائف منها، فخُذها ولا تخف؛ لتعلمَ أن الله هو الضار النافع، فيكون خوفك منه لا من غيره.

قال صاحب «الظلال»: وألقى موسى عصاه، إطاعةً لأمر مولاه، ولكن ماذا حدث؟

إنها لم تَعُدْ عصاه التي عرفها طويلاً معرفةَ اليقين، ولكنها حيَّةٌ تَدُبُّ في سرعةٍ، وتتحرك في خِفَّةٍ، وتتلوى كصِغار الحيات، وهي حيَّةٌ كبرى، إنها مفاجأةٌ لم يستعدَّ لها موسى، ولذلك ولّى مُدبِراً ولم يُعقّب ليتأمل هذه العجيبة الضخمة، فيأتيه النداء من العليّ الأعلى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ ۝٣١﴾ [القصص]، وكذلك في [سورة النمل]: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠﴾، من حيَّة وغيرها.

ورحم الله القرطبي عندما علَّق على قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ٣١﴾، فقال: وكيف لا يأمن من ترعاه عين الله؟!!

قد يقول قائل: لمّا نودِيَ موسى، وعَلِمَ أنه مبعوث من الله إلى الخلق فَلِمَ خاف؟

والجواب: إن هذا الخوف نُفْرَةُ الطبع؛ لأنه عليه السلام ما شاهد مثل ذلك قط – والإنسان بطبعه ينفر من الأفاعي –.

قال الشيخ أبو القاسم الأنصاري: هذا الخوف من موسى من أقوى الدلائل على صدق نبوته؛ لأن الساحر يعلم أنَّ الذي أتى به تمويه فلا يخاف منه. ثم سؤال آخر: هل أخذها موسى بعد انقلابها عصاً أم قبل ذلك وهي حيَّةٌ؟

والجواب: أخذها وهي حيَّةٌ أفعى، لأن لفظَ – سنُعيدُها – دال على الاستقبال، أي بعد الأخذ، ولأن أخذها وهي أفعى أقرب للكرامة، لأن انقلاب العصا حيَّةً معجزة، وإدخال يده في فمها من غير ضرر معجزةٌ أخرى، وانقلابُها عصاً مرة ثانية معجزة أخرى، فيكون توالي المعجزات أقوى في الدلالة.

وقوله: ﴿سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾: أي حيث كنت تتوكأ عليها، وتَهُشُّ بها على غنمك ولك فيها المآرب التي عرفتها.

بياض اليد:

ثم يأتيه النداء الثاني بعد أن عادت عصاً: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ [القصص ٣٢].

قال صاحب «نظم الدرر»: بعد أن أرى الله عز وجل موسى آية في

بعض الآفاق، أراد أن يُريه آية في نفسه، فبعد النداء الأول من الله تعالى، وهو قوله عز وجل لموسى حين خاف من انقلاب العصا حيةً: ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [طه]، ولم يكد موسى يأخذ الحية حيث عادت بيده إلى طبيعتها الأولى، العصا، حتى أتاه **النداء الثاني**: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾[القصص ٣٢].

وقال عز وجل: ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ [طه].

والجيبُ في الآية الأولى: هو طوق القميص، سُمِّيَ جيباً، لأنهم كانوا قديماً يجعلون الجيب الذي يضعون فيه النقود، أو الأشياء المهمة في داخل الثوب ليكون آمن، فإذا ما احتاج الإنسان إلى شيء من النقود أو غيرها، أدخل يده من طوق القميص ليصلَ إلى الجيب، فسُمي الطوق جيباً – كما قال العلماء –.

وقوله تعالى: ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾: أي من غير مرض من بهق، أو بَرَص، لأن البرصَ كان أبغض شيء إلى العرب، وبهم عنه نُفْرَةٌ عظيمة.

قال صاحب «الظلال»: وأطاع موسى الأمر وأدخل يده في فتحة ثوبه عند صدره، ثم أخرجها، فإذا هي الُمفاجأة الثانية في اللحظة الواحدة، إنها بيضاء لامعة مُشِعَّةٌ من غير مرض.

ومعلومٌ، أن موسى عليه السلام كان أسمرَ اللون، فحينما طُلِبَ من محمد ﷺ أن يَصِفَ الرُسل الّذين لقيهم في المعراج، فقال ﷺ: «أما موسى، فإنه رجل آدمُ طُوال، كأنه من رجال أزدِ شنُوءَة..»، كما في البخاري ومسلم.

والآدمُ: الأسمر، قال ابن الأثير: الأُدْمَةُ في الناس: السُمرةُ الشديدة.

وشنُوءَةُ: حي من اليمن يُنسبون إلى شنوءَة، وهو «عبد الله بن كعب»، ولُقِّبَ «بشنوءَةَ» لشنآنٍ – أي بُغْضٍ – كان بينه وبين أهله، وطُوال: أي أشد طولاً من الطويل.

من هنا كان بياضُ اليد ونورُها الذي قال عنه القرطبي: أخرج موسى يده من مِدْرَعَةٍ مصرية لها شُعاعٌ مثل شُعاعِ الشمس يُعشي البصر.

وقال صاحب «أيسر التفاسير»: وفَعَلَ موسى، فضمَّ يده تحت عَضُدِهِ إلى إبطِها، ثم استخرجها، فإذا هي تتلألأ كأنها فِلقَةُ قمر، أو كأنها الثلج بياضاً أو أشدَّ، ثم إذا أعادها إلى جنبه صارت إلى لونها الأول بلا نور، وبلا بريق، ومن هنا كان بريقُ اليد ونورُها وبياضُها في سُمرَةِ لون موسى آية من آيات الله، ولو كان موسى أبيض البشرة ما ظهر بياضُ يده – كما يقول علماؤنا – ولعل في بياض يده إشارة إلى إشراق الحق، ووضوح الآية، ونصاعَةِ الدليل – كما يقول صاحب الظلال –.

وقوله تعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾ [القصص].

هذا تمثيل بحائل الطائر إذا سكن عن الطيران، جعل التعبير كناية عن سكون اضطراب الخوف، أي اسكن سكونَ الطائر بدلاً من أن تطيرَ خوفاً، و ﴿ٱلرَّهۡبِۖ﴾: هو الخوف، فالمعنى: انكففْ عن التخوف من أمر الرسالة، وهذا المعنى دل عليه ما بعده، وهو قوله تعالى حاكياً عن موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ٣٣﴾ [القصص]، وإلى هذا التطمين لموسى أشارت الآية التي بعدها: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ٣٥﴾ [القصص].

فصار المعنى: قال موسى: أخاف أن يذكروا قتليَ القبطي فيقتلوني، وهذا يُشبه الاعتذار عن الرسالة، وموسى يعلم أنَّ رسالة الله لا يتخلصُ

منها بعذر، ولكنه أراد أن يكون في أمنٍ إلهي من أعدائه، وهذا كما يقول ابن عاشور، تعريضٌ بالدعاء - كأنه يقول يا رب احفظني - ومُقدمة لطلبِ تأييده بهارون أخيه.

ولكن ابن كثير سلكَ في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾: مسلكاً آخر، فقال: أُمِرَ موسى إذا خاف من شيء أن يضمَّ إليه يده، فإذا فعل ذلك ذهب خوفه.

ثم قال ابن كثير: وربما إذا استعمل أحدٌ ذلك على سبيل الاقتداء، فوضع يده على فؤاده، فإنه يزول عنه ما يجده من الخوف، إن شاء الله تعالى، فالأمر عنده أعمُّ من الخوف من الحية أو الخوف من فرعون.

قال ابن عباس: ليس من أحدٍ يدخله رعبٌ بعد موسى، ثم يُدخلُ يده فيضعُها على صدره إلا ذهب عنه الرعبُ.

ويُحكى عن عمر بن عبد العزيز، رحمه الله تعالى: أن كاتباً كان يكتب بين يديه، فانفلتَتْ منه فلتَةُ ريح، فخجِلَ وانكسرَ، فقام وضرب بقلمه الأرض، فقال له عمر: خُذْ قلمك، واضمم إليك جناحك، وليهدأ روعُكَ، فإني ما جربتُها من أحد كما جربتُها من نفسي.

وبعد أن قال الله تعالى له: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾ [القصص ٣٢]، فَرَّعَ على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٣٢﴾[القصص].

وقوله: ﴿فَذَٰنِكَ﴾: بتخفيف النون لغة قريش، وقُرِئَ بتشديد النون - «فذانِّكَ» - فالتشديد عِوضٌ عن لامِ البُعدِ التي تلحق اسم الإشارة،

فالمُخفف: مثنى «ذاك»، والمشدد: مثنى ذلك «فذانِكَ»: إشارة إلى معجزة العصا، ومعجزة اليد، وأنهما بُرهانان واضحان دالّانِ على صدقك، تذهب بهما إلى فرعون وملئه المُتجبرين في الأرض: ﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ﴾، ثم بيَّنَ سبب ذلك فقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾: أي بسبب أن الكفر مُتمكنٌ في قلوبهم، حتى كأنه الجِبِلَّةُ والطبيعة فيهم.

قد يقول قائل: لماذا كانت معجزة موسى إلى فرعون باليد والعصا للدلالة على رسالته؟

أي لماذا كان الإعجاز باليد والعصا؟

والجواب: إنَّ موسى كان راعياً، والعصا من آلات الرُعاة، تُحمل باليد، فأرسله الله عز وجل مع آلته، ثم إن فرعون لمّا كفرَ وجحدَ، كان بمنزلة الحمار الحَرُون، فاحتاج إلى العصا والضرب.

قال ابن عاشور: لمّا أظهر الله له الآيتين، وعَلِمَ موسى بذلك أنه مُؤَيَّدٌ من الله تعالى، أمره الله تعالى بالأمر العظيم الذي من شأنه أن يُدخِلَ الرَوْعَ في نفس المأمورِ به، وهو مواجهة أعظم ملوكِ الأرض يومئذ بالموعظة، ومُكاشَفَتُهُ بفسادِ حاله، ولذلك سيأتي بعد ذلك في الآيات التالية: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه].

قال القرطبي: لمّا آنسَهُ ربه بالعصا واليد، وأراهُ ما يدل على أنه رسول، أمره بالذهاب إلى فرعون، وأن يدعُوَه، فقد كفرَ وتجبر وتجاوز الحد، حتى تجاسَرَ على دعوى الرُبوبية استقلالاً، لا اشتراكاً، فقال: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾[النازعات].

وقد ذكر الرازي والغرناطي وغيرُهما أثراً ضعَّفَهُ غيرُهما، وفيه: أن الله تعالى قال لموسى: «اسمع كلامي، واحفظ وصيتي، وانطلق برسالتي، فإنك بعيني وسمعي، وإن معك أيدي ونُصرتي، بعثتُك إلى خلقٍ ضعيف من خلقي، بَطِرَ نعمتي، وأَمِنَ مكري، وغرَّتهُ الدنيا حتى جَحَدَ حقي، وأنكرَ ربوبيتي، ولا يردعنَّك ما ألبستُهُ من لباس الدنيا، فإنَّ ناصيته بيدي، قل له: أجب ربك فإنه واسع المغفرة».

ماذا كان جواب موسى؟

كان جوابه: يا رب، إني قتلتُ قبطياً من آل فرعون، وأخاف أن يقتلوني به إن لم أبيّن لهم حُجتي، ثم طلب من ربه أن يُرسِلَ معه أخاه هارون ليزداد بذلك قوةً على مُجابهةِ فرعون، وهذا ما قصَّه الله علينا في [سورة القصص]: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

قال الرازي: لمّا أمر الله موسى بالذهاب إلى فرعون، وكان ذلك تكليفاً شاقاً، سأل موسى ربه أموراً ثمانية، ذكرها الكتاب الكريم في [سورة طه]: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

قال القاسمي: إنما سأل موسى ربه شرحَ الصدر، وتيسيرَ أمره؛ لأنه بُعِثَ إلى أعتى جبابرة الأرض، وأبلغ الملوك تمرُّداً على الله؛ ولأنه تخوَّفَ من آل فرعون للقتيل الذي قتله خطأً، ولأنه توقع تكذيبهم له، والإنسان إذا كذَّبه آخرُ في شيء هو صادق فيه يضيق صدره من التكذيب، ولذلك قال موسى في [سورة الشعراء]: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا

يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾.

ومعنى قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ ﴾: أي وسِّع قلبي حتى لا يضيق بسفاهةِ المُعاندين، ولأن صدره مقبوض من لقاء فرعون، ويعني بذلك: يا رب أزل الموانع المُحيطة بهذا الأمر.

ثم قال: ﴿ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ ﴾: فلا أجدُ لَدَداً وعِناداً عند فرعون.

وقوله: ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ ﴾: قال ابن عباس: كان في لسان موسى رُتَّةٌ، وهي اللكنةُ، ولذلك سأل ربه سلامةَ آلة التبليغ وهو اللسان، وفسَّرَ بعضهم الرُّتَّةَ بأنها عجلةٌ في الكلام، وقلةُ أناةٍ، وكان مثل هذه الرُّتَّةِ في كلام الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما، وكان النبي ﷺ إذا سَمِعَ هذه الرُّتَّةَ من الحُسين يضحك ويقول: «ورثها من عمه موسى»، وقد ورد أن لسان المهدي المنتظر فيه حُبْسَةٌ، فإذا تعذَّرَ عليه الكلام ضرب بيده اليُمنى فخذه الأيسر فينطلق الكلام مع ما ورد في فضله، لذلك قيل إن فصاحة الذات أهم من إعراب الكلمات، وقالوا:

سِرُّ الفصاحةِ كامِنٌ في المعدنِ ... لِخصائص الأرواحِ لا للألسُنِ

وقالوا:

لسانٌ فصيحٌ مُعربٌ في كلامهِ ... فياليتَهُ في موقِفِ الحشرِ يسلَمُ
وما ينفَعُ الإعرابُ إن لم يكن تُقىً ... وما ضرَّ ذا تقوى لسانٌ معجَمُ

قال ابن كثير: كان في لسانه «لَثْغَةٌ»، وقد سأل موسى ربه زوال بعضِها بمقدارِ ما يفهمون قوله، ولم يسأل ربه زوالها بالكُلية.

قال الحسن البصري: وإنما سأل موسى ربه زوال بعضِها لأن الرُسُلَ إنما

يسألون بحسب الحاجة، ولذلك لم تذهب اللثغَةُ كلها، وبقيَ منها في لسانه بقية، ولذلك قال فرعون – قبَّحه الله تعالى – في إشارة إلى هذه اللثغَةِ في لسان موسى ما ذكره الله في [سورة الزخرف]: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ – المنقطعة بمعنى بل – أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾.

مهين: أي يخدم نفسه فهو حقير، ولا يكادُ يُفصح بلسانه لوجود اللثغَةِ فيه.

قال الرازي: انحلت أكثر العُقَدِ في لسان موسى، رغمَ أنه طلبَ حلَّ عُقدةٍ واحدة، وبَقِيَ قدرٌ يسير من الانعقاد في لسانه.

قال الغرناطي: طلب موسى من ربه حلَّ بعضِها ليُفهَمَ كلامه فهماً جيداً، ولم يطلب الفصاحة الكاملة.

والبروسوي في «روح البيان» يُشير إلى أن سبب اللثغَةِ في لسان موسى أن فرعون كان يعقِدُ على لحيته الجواهر، وفي يوم شدَّ موسى بعضها عندما كان رضيعاً في بيتهم فنتفها، فغضِبَ فرعون وهمَّ بقتله، فقالت زوجه «آسية»: على رِسْلكَ! إنه طفل لا يُميز بين الأشياء، ثم أتت بإناءين في أحدهما ثمر أو تمر، وفي الآخر جمر، فهمَّ الطفل أن يأخذ التمر، فصرفَ جبريل يده إلى الجمر، فأخذ واحدةً ووضعها على لسانه فأصابتهُ لثغَةٌ بسببها، ولذلك يقول البروسوي: ولعل معجزة ابيضاض اليد كالبرق تسطع نوراً لأنها كانت آلة أخذ الجمر، وآلة نتفِ شعراتٍ من لحية فرعون، فأكرم الله تلك اليد، فجعل فيها المعجزة الثانية.

وقوله: ﴿ يَفْقَهُواْ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ ﴾، والفقه: هو الفهم عند العرب.

ثم قال: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩﴾، الوزير: هو المؤازر والمعين، وهو يحمل عن السلطان والحاكم ثِقَلَهُ، أو الوزير، مأخوذةٌ من الوَزَرِ، أي الملجأ، لأن الحاكم يلجأ إليه في المهمات ويستشيره، ولذلك لمّا حذر الله الناس الآخرة قال: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾ [القيامة]: أي لا ملجأ ولا معين تفزع إليه يوم القيامة إلا الله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾ [القيامة]، قال الشاعر في هذا المعنى:

شرُّ السِباعِ الضواري دونه وَزَرٌ ... والناسُ شرُّهم ما دونه وَزَرُ
كم معشَرٍ سلموا لم يُؤْذِهم سَبُعٌ ... وما ترى بشراً لم يؤذه بَشَرُ

والحكام دائماً بحاجة إلى مَنْ يُعينهم مهما كانت عبقريتهم، ولذلك ورد عن «كسرى أنوشروان» قوله: لا يستغني أجوَدُ السيوف عن الصقل، ولا أكرم الدواب عن السوط، ولا أعلم الملوك عن الوزير.

وقد ذكر النسائي، عن القاسم بن محمد، قال: سمعت عمتي عائشة تقول: قال رسول الله ﷺ: «من وَلِيَ منكم عملاً، فأراد الله به خيراً، جعل له وزيراً صالحاً، إن نَسِيَ ذَكَّرهُ، وإنْ ذَكَرَ أعانه».

وفي البخاري: أنه ﷺ قال: «ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة، إلا كانت له بِطانتان، بطانةٌ تأمره بالمعروف، وتحُضُّه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحُضُّه عليه، والمعصوم من عصمه الله»، وفي الحديث أنه ﷺ قال: «إن لي في السماء وزيرين، وفي الأرض وزيرين، أما اللذان في السماء فجبريل وميكائيل، وأما اللذان في الأرض، فأبو بكر وعمر».

قال العلماء: ثم عيَّنَ موسى من يريده وزيراً بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠﴾.

هنا سؤال: لماذا سأل موسى ربه أن يكون الوزير من أهله، وأن يكون أخاه؟

والجواب: أن التعاون على أمور الدين ونُصرته فضيلة عظيمة، فأراد موسى أن لا تكون هذه الدرجة إلا في أهله، ولأن كلّاً من موسى وهارون شديد المحبة للآخر.

طلب موسى من ربه أن يشُدَّ أزره بهارون، وذلك قوله: ﴿ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ ﴾، والأزر: الظهر والقوة، والعون.

وقوله: ﴿ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ ﴾: أي شريكاً في أمرِ الرسالة حتى نتعاون على أدائها كما ينبغي، فموسى أراد لهارون المشاركة في هذه المنحة الإلهية، وهذا مصداق قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه».

ثم بيَّن القرآن سبب طلب موسى من الله ما طلبه بقوله: ﴿ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥ ﴾ [طه].

والتسبيح: تنزيه الله عز وجل في ذاته وصفاته وأفعاله عما لا يليق.

والذِّكْرُ: وصف الله تعالى بصفات الجلال والكبرياء.

قال العلماء: بدأ بالتنزيه؛ لأن محلَّهُ القلب، ثم ثنى بالذِّكرِ ومحلُّه اللسان، والقلب مُقدم على اللسان، والتنزيه تخليةٌ، والذِّكرُ تحليةٌ.

قال البروسوي: في الآيات دليلٌ على أن صُحبةَ الأخيار مرغوبٌ فيها، للأنبياء فضلاً عن غيرهم، وتدل على أنَّ الجليس الصالح، والصديقَ الصدوقَ، له أثر عظيم في المعاونة على كثرة الطاعات والخير.

ثم بيَّنَ موسى أنه لا يريد بما طلبه إلا وجه الله، والإخلاص له، ورضاه، فقال: ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥ ﴾، فأنت يا رب أعلمُ بوجوه مصالِحنا،

فأعطِنا ما هو أصلح، فإننا نُفوض إليك أمرنا بالكُلِّيةِ.

قال المفسرون: كان هارون يومئذ بمصر، فأمر الله موسى أن يأتيَ هارون وأوحى الله إلى هارون أن يتلقى موسى، فتلقّاه إلى مرحلةٍ، وأخبره بما أوحيَ إليه، فقال له موسى: إن الله أمرني أن آتيَ فرعون، فسألتُ ربي أن يجعلك معي رسولاً.

وقد ذكر القرآن طلب موسى من ربه أن يُعينه بأخيه هارون في أكثر من موضع، فقد ذكر ذلك في [سورة القصص] فقال: ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

والرِّدْءُ: المُعينُ والمُقوِّي والداعم، تقول: ردأتُ الحائط: إذا دعمته وقويته بخشبٍ أو غيره، لأنَّ خبر الاثنين أنجعُ من خبر الواحد.

والمُراد بقوله: ﴿ يُصَدِّقُنِىٓ ﴾، لا أن يقول له صدقتَ، ولكن المُراد: أن يُلَخِّصَ هارون بفصاحته ما قاله موسى وبيَّنه من وجود الدلائل والبراهين في النِقاش والجدل.

قال القرطبي: كان هارون أكثر لحماً من موسى، وأتمَّ طولاً، وأفصحَ لساناً، ومات قبل موسى بثلاث سنين، وكان أكبر من موسى بسنة واحدة، وكان في جبهة هارون شامة، وعلى أرنبةِ موسى شامةٌ، وعلى طرف لسانه شامة، وهذه الشامة لم تكن على أحد قبله، ولن تكون على أحد بعده، كما كان في هارون رِقَّةٌ ورِفق تلمسُها في قوله مُخاطباً لموسى عندما قسا عليه: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ﴾[طه ٩٤].

قال العلماء: بعد أن طلب موسى من ربه ما ذكرناه، استجاب عز وجل، فقد قال الله عز وجل: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [طه].

وقال: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص].

وقوله: ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ ﴾: أي نُقويك به، لأن العَضُدَ هو قوة اليد، والعرب عندما تدعو لأحد بالخير يقولون: شدَّ الله عَضُدَكَ، وعندما تدعو على أحد بالشر تقول: فتَّ الله في عَضُدِكَ، ومن ذلك قول طرفة بن العبد:

أَبَنِي لُبَيْنَى لستمُ بِيَدٍ ... إلا يداً ليستْ لها عَضُدُ

قال القرطبي: لمّا سأله شرح الصدر، وتيسيرَ الأمر، أجاب سُؤْلَهُ، وأعطاه طِلبَتَهُ، ثم جاء الأمر الرباني بعد إجابته لما طلب، بالتحرك مع أخيه هارون إلى الطاغية فرعون، قال تعالى: ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه].

وقوله تعالى: ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي ﴾، خاطبهُما بالأفضلية، أمر موسى أولاً، ثم أمر أخاه بالتكرار، وفي ذلك توضيح إلى أنه لا يكفي ذهابُ أحدهِما.

قال القرطبي: أي اذهب أنت وأخوك، أي مُرسلَيْن إلى بني إسرائيل عموماً، ثم كان الأمر الثاني بالذهاب إلى فرعون وملئه على الخصوص، فالأول للكل: ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي ﴾، والطلب الثاني: ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾، ومن الذي قال عن فرعون: إنه طغى؟

قال ذلك ربُّ العالمين، ومعنى ذلك أنه بَلَغَ قِمَّةَ الطُغيان، ثم نبَّهَهُما الله إلى أمرٍ عظيم وهو قوله: ﴿ وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنفال].

قال ابن كثير: المعنى ألا يفتُرا عن ذكر الله، بل يذكُرانه في حال مُواجهة فرعون، ليكون ذلك عوناً لهما عليه.

وقال ابن عباس: لا تُبْطِئا في ذكري، وقال أبان: يُقال: فُلان لا يني كذا، أي لا يزال، ومنه قول الشاعر:

كأن القدورَ الراسياتِ أمامهم قِبابٌ بَنَوها لا تني أبداً تغلي

والمقصود من ذلك: المُداومة على الذكر قلباً ولساناً، أي ليكن الله على بالِكما دائماً، فالله الذي أرسلكُما، وهو الذي أيدكُما بالمعجزات، وهو الذي يرعاكُما، وهو الذي سيجازيكُما، فلا يَغِبْ ذكر ذلك عن قلبيكُما.

قال الرازي: والحكمة من الذِكر، أنَّ من ذَكَرَ جلال الله وعظمته، استحقر غيره، فلا يخاف أحداً، وتقوى روحُ الذاكِرِ، فلا يضعفُ عن تبليغ ما كُلِّفَ به.

وقد ورد عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾: أي: لا تُقصِّرا في تبليغ الدعوة، واذكرا لفرعون ثوابي وعقابي، وقدِّما الوعدَ على الوعيد.

قال البروسوي: ويشمل الذكرُ الدعاء إلى الله، فصار المعنى: اجتهدا في كل هذه الأمور، فمن اجتهدَ وجدَّ وصلَ إلى ما يريد، وجميل قول القائل:

يا خاطِبَ الحوراءِ في حُسنِها شَمّر فتقوى الله في مَهْرِها
وكن مُجِدّاً لا تكنْ وانيا وجاهِدِ النفسَ على صبرها

قال المفسرون: ثم أمر الله موسى وأخاه بإعطاء فرعون فُسْحةً كي يرى الحُجَجَ والآيات، وعدم مُبادرته بالغِلظة، ولذلك قالوا: النُصح ثقيل، فلا تُرسِلَهُ جبلاً، ولا تجعله جَدَلاً، ولا تجمع على المنصوحِ شِدَّتين أن تُخرجه مما

أَلِفَ بشيء يكرهه - وهو الغِلظَةُ - بل عليك أن تُخرجه مما أَلِفَ بما يحب، وهذا منهجُ الدعوة، واضح بيّن، لأنك تريد أن تخلعَ من تدعوه عما اعتاد وأَلِفَ من استهتار، ومن شهوات، ليتقيّد بمنهج الله، فلابد أن يكون هذا بِرِفق - كما قال الشعراوي - وهذه السياسة تُستخدم الآن - كما قال العلماء - في مجال الدواء المُرِّ، يُغلف ويُحلى ليكون مقبولاً عند الاستعمال، وكذلك الحال في مرارة النصيحة، عليك أن تُحيطها وتُغلِّفها بالقول اللطيف اللين.

قال القرطبي: فموسى ضمِنَ الله له العصمة: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾[طه]، وجعل معه القوة، ومع ذلك قال لموسى عندما أمره أن يأمر فرعون بالمعروف وينهاه عن المنكر: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾، ثم قال القرطبي: فنحن أولى بذلك، وحينئذ يحصل الأمر أو النهي على مرغوبه، ويظفر بمطلوبه.

قال الآلوسي: ويتحقق الرفق واللين بعبارات كثيرة، ذكرها كتاب الله تعالى، منها قوله تعالى: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾، ومن ذلك ما رودَ في [سورة النازعات]: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾، وهذا مُنتهى الرفق لأنه في صورة العرض والمشورة.

وقد نقل القرطبي عن ابن عباس ومجاهد، وعكرمة وغيرهم في قوله تعالى: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾: أي كَنِّياه، وبهذا القول استدل العلماء على جواز تكنيةِ الكافر، وكان لفرعون أربعة كُنىً: أبو الوليد، وأبو مصعب، وأبو العباس، وأبو مُرة.

وقد ذكر القرطبي أنه يجوز تكنِيَةُ الكافر إذا كان وجيهاً في قومه، وطُمِعَ في إسلامه، والصحيح أنه يجوز تكنِيَةُ الكافر وإن لم يُطمع في إسلامه، وقد قال ﷺ: «إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه»، ولم يذكر ﷺ هذا القيد - إن كان يُطمع

إلى إسلامه -، وقد قال ﷺ لصفوان بن أمية: «انزل أبا وهب»، والتكنيَةُ من التكريم، وقال ﷺ لسعد: «ألم تسمع ما يقول أبو حُباب»، وهو عبد الله بن أُبيّ.

وقد قالوا في معنى قوله تعالى: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه ٤٤]، أقوالاً أُخرى، منها: أن يُنادى بـ «فرعون» لأنَّ هذا الاسم كان أحبَّ الأسماء إليه، كما يُسمى الحاكم عندنا بالسلطان، أو ما شابه ذلك.

وقالوا في معنى اللّين أن تقول له: يا فرعون، تؤمن بما جئت به وتعبُدُ الله ربَّ العالمين، على أن لك شباباً لا يَهْرَمُ إلى الموت، ومُلكاً لا يُنزع منك إلا بالوفاة، ثم إن مِتَّ دخلت الجنة.

قال البروسوي: وأُعْجبَ فرعون بهذا الكلام، واستشار زوجته فأشارت عليه بالإيمان وشجعته، وكان هامان وزيره غائباً، فاستدعاه وشاوره، فقال هامان: أنت الآن ربٌّ، أتريد أن تكون بعدها مربوباً؟ وبعد أنْ كنتَ مالكاً تكون مملوكاً، ثم قال لفرعون: وأنا أرُدُّكَ شباباً، فَخَضَّبَ لحية فرعون بالسواد، فهو أول من خَضَّبَ وعندها رفض الإيمان.

قال القاسمي: أُمِرَ موسى وهارون بتليين القول، لأن ذلك يكسر عناد الجبابرة، ويُلَيّن عريكة الطُغاة، وقد بيَّنَ ذلك في قوله تعالى: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [النازعات]، ثم قال القاسمي: وبمثل ذلك أُمِرَ نبينا محمد ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾[النحل ١٢٥].

وقد جاء القرآن مُؤَكِّداً هذا المعنى في مواطن كثيرة، ونقرأ في [سورة البقرة ٨٣] قوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾.

فقد ورد عن طلحة بن عمر قال: قُلتُ لعطاء: إنك رجل يجتمعُ عندك ناسٌ ذووا أهواء مُختلفة، وأنا رجل فيَّ حِدَّةٌ، فأقول لهم بعض القول الغليظ؟ فقال: لا تفعل، يقول الله تعالى: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾، فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى، فكيف بالحنيفي؟

قال الرازي: وهناك سبب آخر لأجله أمر الله موسى أن يقول لفرعون قولاً ليناً، وهو أن موسى كان قد تربى عند فرعون، وفي كنفه، فرعايةً لهذه الحقوق أمره الله تعالى باللين معه، وفي ذلك تنبيهٌ ضمني على عظيم حقِّ الأبوين، لذلك ورد عن الحسن: أنه سُئِلَ عن الولد كيف يَحتسِبُ على أبيه؟ فقال الحسن: يَعِظُه ما لم يغضب، فإذا غضب سكت، فَفُهِمَ من هذا الكلام أنه ليس للولد الحِسبةُ على الوالد بالضرب أو التعنيف، وليس كذلك للتلميذ على الأستاذ.

قال البروسوي: وفائدة القول اللين لفرعون، ترجع على موسى أولاً، لأن فرعون كان من الملوك الجبابرة، ومن عادة هؤلاء أن يزدادوا عُتُوّاً إذا خاطبتهم بخشونة، فلو جاء موسى بالخُشونة تُجاهه، لم يحتمل طبعُ فرعون ذلك، فقد يأمر بقتله، أو بضربه، ففائدة اللين تعود على موسى عليه الصلاة والسلام.

وقد قرأ رجل عند «يحيى بن معاذ» هذه الآية: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه]، فبكى، وقال: إلهي هذا رِفقك فيمن يقول: أنا الإله، فكيف رِفقُكَ بمن يقول: أنت الإله؟ واللين في الأصل من صفات الأجسام، واستُعيرَ هنا لسهولة التعامل مع فرعون من قِبَلِهما، ومنه قول عمرو بن كلثوم:

فإنَّ قناتنا يا عمرو أَعْيَتْ   على الأعداءِ قبلكَ أن تلينا

وكان الفضل بن عيسى الرقاشي، إذا قرأ هذه الآية: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾، يقول: يا من يتحبب إلى من يُعاديه، فكيف بمن يتولاه ويُناديه؟!!

قال الآلوسي: وحاصل الكلام، يقول الله تعالى لهما – لموسى وهارون – باشِرا الأمر مُباشرةَ مَنْ يرجو ويطمع أن يُثمِرَ عمله، ولا يخيبَ سعيه، فهو يجتهد بطَوْعِه، ويحتشد بأقصى وُسْعِهِ.

وقوله تعالى: ﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ ﴾، والتذكر: من الذُّكرِ، بضم الذال، وهو النظر، أي لعله ينظر نظرَ المُتبصر بالأمور فيعرفَ الحق، أو يخشى حلول العِقاب به فيُطيع من خشيةٍ لا عن بَصر وتَبَصُّرٍ، وكان فرعون من أهل الطُغيان – كما يقول ابن عاشور – واعتقاده أنه على الحق، فالتذكُّرُ: أن يعرف أنه على الباطل، والخشيةُ: أن يتردد في ذلك فيخشى أن يكون على الباطل فيحتاط لنفسه بالأخذ بما دعاه إليه موسى عليه الصلاة والسلام.

قد يقول قائل: لماذا أمر الله موسى وهارون بالاجتهاد في دعوة فرعون مع علمه تبارك وتعالى أنه لا يؤمن؟

والجواب: أن قوله تعالى: ﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾: معناه باشِرا الأمرَ على رجائكُما وطَمَعِكُما أن يُثمر، ولا يخيبَ سعيُكُما، فإنَّ الراجي في أمرٍ يجتهد في تحقيقه، والأخذ بالأسباب الموصلة إليه.

أما أمره عز وجل لهما بالاجتهاد في دعوة فرعون مع علمه بأنه لا يؤمن؛ فلأنَّ الله تعالى – كما قال المفسرون – يريد من موسى أن يدخُلَ على فرعون دخولَ الواثق من أنه سيهتدي، لا دخولَ اليائس من هدايته، لتكون لديه الطاقة الكافية لمُناقشته وعرض البراهين والأدلة عليه، أما لو دخل موسى – وهو يعلم أنه لا يؤمن مُسبقاً – لكان مُحبطاً ولا يرى من دعوته فائدة، كما

يقول المثل: «ضربوا الأعور على عينه»، وقالوا: «خسرانه خسرانه».

ثم إن الله تعالى يريد أن يُقيم الحُجة على فرعون: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾ [النساء ١٦٥].

لذلك يقول يوم القيامة: ﴿ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [طه]، ثم يوقنون بأن كذبهم لن يُفيدهم، وأن الرُسُلَ قد جاءتهم، فتنقطع حُجَّتهم، ثم يقولون: ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ ﴾ [المُلك ٩].

ماذا كان جواب موسى وهارون بعد الأمر لهما بالذهاب إلى فرعون، وإلانةِ الكلامِ له؟

والجواب: ما ذكره القرآن في [سورة طه]: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾.

وقوله: ﴿ نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ ﴾: أي نخاف أن يُسرع في عقوبتِنا فيقتُلنا.

قال البروسوي: وليس خوف موسى وأخيه من القتل ذاته، وإنْ كان الخوفُ أمراً طبيعياً جِبلِّياً في الإنسان، وإنما الخوف أنَّ القتل إن حصل لهما من فرعون، فسيكون مانِعاً من أداء الرسالة التي كلَّفتنا بها يا رب، ومانِعاً من تبليغ الدعوة كما أمرتنا.

ومعنى فَرَطَ في الأمر: أسرع فيه، ومنه يُقال: الفارِطُ في الماء: وهو الشخص الذي يتقدم القوم إلى الماء، وفرسٌ فَرَطٌ: وهو الذي يسبق الخيل، ومنه قوله ﷺ: «أنا فَرَطُكم على الحوض».

وقوله: ﴿ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴾: أي يتجاوز الحَدَّ فيقول فيك – يا الله – ما لا ينبغي لكمالِ جراءته، وقسوة قلبه.

وانتبه - يا عبد الله - إلى كمالِ أدب موسى حيث قال: ﴿ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾، ولم يقل: أو أن يطغى عليك؛ ليبتعد عن التَفَوُّه بالعظيمة، ولمّا كانت الإساءة إلى الله، والطُغيان في حقه عز وجل، أعظَمَ من الإساءة إلى موسى وأخيه أَخَّرَ ذِكرَ الطُغيان؛ لأن المُتمسك بالأعذار يؤخر العُذر الأقوى، «وهي هنا القضية العَقَدية»: لأنها تَمَسُّ ذات الله، تماماً كما نرى في قصة الهُدهد مع سليمان حين تناقشا، فإنَّ الهدهد ختَمَ حديثه بالعُذْرِ الأقوى: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[النمل ٢٤]، وهذا من تمام غَيْرَةِ موسى على جناب الله، فالقضية هنا كذلك عقدية، كما هناك مع موسى كذلك، لذلك نرى هنا مَلْحَظاً تربوياً على الدُعاة أن يُراعوه، وهو أن لا يصلوا مع مَنْ يَدْعُونهم إلى درجة تصل أن يتكلموا في حق الله تعالى، لذلك نقرأ في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام ١٠٨].

قال ابن عباس في هذه الآية: قال المشركون: يا محمد لَتَنْتَهِيَنَّ عن سبِّ آلهتنا، أو لنهجُوَنَّ ربك، فنهاهم الله أن يسبوا أوثان المشركين.

قال العلماء: لمّا قال موسى وهارون: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾، طمأنهما ربُّهما بقوله: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾: أي لا تخافا حُصول شيء من الأمرين.

قال القرطبي: دلت الآية على أن الخوف أمر فطري في الإنسان، ولو كان نبياً لأنه بشر، ثم قال: والخوف من الأعداء سُنَّةُ الله تعالى في أنبيائه وأوليائه، مع معرفتهم بالله، وثقتهم به، وفي الآية ردٌّ على من يقول: إن النبي لا يخاف، ولذلك حين جاء رجل إلى الحسن البصري، وقال له: إن عامر بن عبد الله نزل مع أصحابه في طريق الشام على ماء، فحال الأسد بينهم وبين الماء،

فجاء عامر إلى الماء فأخذ منه حاجته، فقيل لعامر: لقد خاطرت بنفسك، فقال: «لأن تختلف الأسنةُ في جوفي، أحبُّ إليَّ من أن يَعْلَمَ أني أخاف شيئاً سواه»، فقال الحسن البصري: لقد خاف من كان خيراً من عامر: موسى عليه السلام: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧﴾، ومن ذلك: حفرُ النبي ﷺ الخندق حول المدينة تحصيناً للمسلمين ولأموالهم، وهو ﷺ في مكانةٍ من التوكل على الله، والثقة به لم يبلُغها أحدٌ، ثم لماذا هاجر أصحابه ﷺ مرةً إلى الحبشة، وأُخرى إلى المدينة؟ أليس تخوّفاً على أنفسهم من المشركين، وهرباً بدينهم أن يفتنوهم عنه بتعذيبهم، ولذلك قالت أسماء بنت عميس، لعمر بن الخطاب لمّا قال لها: سبقناكم بالهجرة فنحنُ أولى برسول الله ﷺ منكم، قالت لعمر: كذبتَ يا عمر، كلا والله، كنتم مع رسول الله، يُطعمُ جائعكم، ويعظُ جاهلكم، وكنا في دار البُعداء البُغضاء في الحبشة، وذلك في الله ورسوله، ونحن كنا نُؤذَى ونخاف، والله لا أطعَمُ طعاماً ولا أشرَبُ شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ، والحديث بطوله في مسلم.

قال العلماء: فالمخبرُ عن نفسه بخلاف ما طبعَ الله النفوسُ عليه كاذبٌ، وقد طبع الله نفوس البشر على الهرب مما يُتْلِفُها ويضُرها ويؤلُمها، ولذلك قال ابن الشيخ في حواشيه في قوله تعالى: ﴿لَا تَخَافَآۖ﴾: ليس المُراد منه النهي عن الخوف؛ لأن الخوف أمرٌ طبيعي، لا يدخل تحت اختيار العبد، ولكن المُراد أن يُسلّيهما بوعده لهما بالحِفظِ والنُصرةِ والتأييد، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾: أي بكمال الحِفظ والقُدرَةِ على فرعون.

هنا، لا بُدَّ من وقفةٍ بسيطة في قضية المعيَّةِ - وهي من علم التوحيد - فماذا تعني معيَّة الله مع العبد؟

نقول: إنَّ هناك آياتٍ كثيرةٍ في كتاب الله تُثبت معيَّتَهُ تبارك وتعالى لخلقه،

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة].

في هذه الآيات إثبات معيَّتِهِ عز وجل لخلقه، وهذه المعيةُ الواردةُ في القرآن وفي السنة نوعان:

الأولى: معيةٌ عامة، ومن مقتضياتها: العلم، والإحاطة، والاطلاع.

قال الإمام أحمد عند آية المجادلة: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾: ألم تر أن الله بدأ الآية بالعلم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [المجادلة ٧]، ثم قال في آخرها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾، فدلَّ على أنَّ هذه المعيةَ هنا تعني: العلم، والإحاطة، والاطلاع.

وكذلك – يا عبد الله – نُلاحظ في آية [سورة الحديد ٤]، قد قال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾، ثم قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾.

الثانية: معيّةٌ خاصة ومن مقتضاها: الحفظ والتأييد، والنُصرة، والتوفيق، والحماية من المهالك، ومثالُها الآية التي نحن بصددها: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه]، ومثالُها كذلك ما قاله النبي ﷺ للصِّدِّيقِ في الغار يوم الهجرة، وقد خاف الصديق، ذلك قوله تعالى ذاكراً ما قاله النبي ﷺ لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ [التوبة ٤٠].

فالمعيّةُ العامة: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾: معناها أنه رقيبٌ عليكم،

وشهيدٌ على أعمالكم حيث كنتم في بر أو بحر، في ليل أو نهار، في البيوت أو في القِفار، الجميعُ في عِلْمِه عز وجل سواء، وتحت بصره وسمعه، فيسمعُ كلامكم، ويرى مكانكم، ويعلم سِركم ونجواكم.

أما المعيّةُ الخاصة في قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾: أي أسمع كلامكُما وكلامه، وأرى مكانكُما ومكانه، ولا يخفى عليَّ من أمركم شيءٌ، واعلما أنَّ ناصيته بيدي، فلا يتكلمُ ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني وإرادتي، وأنا معكُما بحِفظي ونَصري وتأييدي فلا تهتمَّا.

ما الفرق بن المعيّتين؟

أولاً: المعيَّةُ العامة، من صفات الذات، والمعيَّةُ الخاصة من صفات الفعل.

ثانياً: المعيَّةُ العامة، تكون في سياق التخويف والمُحاسبة على الأعمال والمُراقبة، والمعيَّةُ الخاصة تكون في سياق اللُّطف والحفظ والعناية بأنبيائه وأوليائه.

ثالثاً: المعيَّةُ الخاصة مُرتَّبةٌ على الاتِّصافِ بالأوصاف الجميلة التي يستحق أهلُها الحفظ والعناية، فنحن نقرأ كثيراً في آيات الكتاب الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾[البقرة].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ﴾ [التوبة٤٠].

ومن ذلك ما نحن فيه من الحديث عن موسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾.

قال البروسوي في هذه المعيَّةِ الخاصة عند قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾قال: ومَنْ كان الله معه حَفِظَهُ من كل جبار عنيد، وذكر

قصة رويت أيام الرشيد عن شاب صالح كان يأمر وينهى أيام الرشيد بدون إذن من السلطان، فأمر الرشيد بحبسه في بيت وأحكَمَ عليه الإغلاق، وكان إلى جانب البيت بُستان، وبعد يومين شوهِدَ الرجل الصالح في البُستان يتفرج، فأُحضِرَ إلى الرشيد، فقيل له: من أخرجك؟ قال الرجل: أخرجني الذي أدخلني البُستان، قالوا: ومن أدخلك البُستان؟ قال: الذي أخرجني من البيت المُغلق، فأدرك الرشيد أنه رجل صالح فبكى، وأحسن إليه، وأمر له بفرس وأركبه عليه، وبعث معه مُنادياً يُنادي: هذا رجل قد أعزه الله، وأراد الرشيد إهانته، فلم يُقَدِّر الله إلا إكرامه، ثم قال البروسوي: وكذلك موسى وهارون، لمّا التجآ إلى الله تداركَهُما الله بالحفظ والعون والتأييد: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾.

ومما يرويه الفقيه أبو الحسن قال: وقع القحط سنة من السنين في بغداد، فاجتمع الناس فرفعوا قصَّتهم إلى الوزير «علي بن عيسى» فقرأها وكتب على ظهرها: «لستُ بسماءٍ فأسقيكم، ولا بأرضٍ فأكفيكم، ارجعوا إلى باريكم».

قال أبو المُعين: سألتُ بعضَ النصارى عن أحسن آية في الإنجيل، فقال: خمس كلمات: «سلْني أُجبْك، واشكر لي أَزدْكَ، وأقبل عليَّ أُقْبلْ عليك، واقْرَبْ مني أَقْرَبْ منك، وأطعني في الدنيا أُطِعْكَ في الدنيا والآخرة».

يقول المحققون: عاد موسى إلى أهله مُسرعاً، فوجد زوجته قد ولدت ذكراً فختنهُ، ثم انحدر بأهله إلى مصر، وأوحى الله إلى هارون يُبَشّره بقدوم موسى، وأنه سيكون معه رسولاً إلى فرعون.

ويذكر السّدّي: أنَّ موسى بعد التكليف بالرسالة، قَدِمَ إلى مصر بأهله، ودخل على أمه، وكان الوقت عند تناول طعام العشاء، وكان الطعام قد وُضِعَ على المائدة، وكان من جُملةِ ما وُضِعَ «الطفشيل» وهو اللِّفتُ، فتناولوا العشاء

جميعاً، ولمّا صار موسى في مدينة فرعون، وأصبح قريباً من بيت الطاغية، جاء الأمر بالإتيان إليه، وذلك قوله تعالى مُخاطباً الأخوين الرسولين: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه].

وقوله: ﴿ فَأْتِيَاهُ ﴾، والإتيانُ هنا: الوصول والحُلول، لأنه أمرٌ، جاء الأمر بالذهاب قبله، وطالما سبَقَ الإتيان أمرٌ بالذهاب، فصار معنى ﴿ فَأْتِيَاهُ ﴾: أي صِلا إليه، وحُلّا عنده، وإذ صار المكان بينهما وبين فرعون قريباً.

وقوله: ﴿ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾، وجاء في [سورة الشعراء]: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾، والرسول: تُطلق على المُرسل، وتُطلق على الرسالة، فجاء المعنى في سورة طه، بمعنى "المُرسَلَ": ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾.

وفي سورة الشعراء بمعنى الرسالةِ، وورودُ الرسولِ بمعنى الرسالةِ كثير في كلام العرب، ومنه قول «الأشعر الجُعفي»:

ألا أبلغْ أبا عمرو رسولاً　　　بأني عن فُتاحَتِكم غنيُّ

بالفتح - فَتاحَتِكم -: النُصرة، وبالضم - فُتاحَتِكم -: الحُكم، ومن هذا المعنى قول «كُثير عزة»:

لقد كَذَّبَ الواشون ما بُحتُ عندهم　　　بِسرٍّ، وما أرسلتهم برسولِ

برسول: أي برسالة، ومما ورد لفظ رسول بمعنى «رسالة» قول ابن مرداس:

ألا مَنْ مُبَلِّغٌ عني خُفافاً　　　رسولاً بيتُ أهلكَ مُنتهاها

فأنَّثَ الرسول، لأنه بمعنى الرسالة: أي رسالة مُنتهاها بيت أهلك،

فصار المعنى: إننا ذوو رسالة من رب العالمين.

والرسول تأتي بمعنى «المُرسَل» ويُطلق على الواحد والاثنين، والجمع.

فالعرب تقول: هذا رسولي ووكيلي، وهذان رسوليَّ ووكيليَّ، وهؤلاء رسولي ووكيلي، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ ﴾: أي أعداء، لأن صيغة «فعول، وفعيل» يستوي فيه المُذكر والمؤنث، والواحد والجمع، ومنه قول أبي ذُئيب الهذلي:

أَكِلْني إليها وخَيْرُ الرَّسُولِ   أَعْلَمُهم بِنُواحي الخَبَرْ

المُراد بالرسولِ هنا: الجمع، أي خير الرُّسل، وذلك كقولهم: كَثُرَ الدرهم والدينار، وهم لا يريدون درهماً بعينه ولا ديناراً بعينه، وإنما يُريدون كثرة الدراهم والدنانير.

دعوة فرعون:

قال ابن كثير: إن موسى لما دخل على أهله وهم على العشاء، وأكل معهم، ثم قال لهارون: قُمْ معي إلى دعوة فرعون، كما أمرني وأمركَ الله، قال: فاتجها إلى بيته، ثم بيَّنَ الله لموسى ما عليه أن يطلبه من فرعون: ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ ﴾ [طه ٤٧].

وقولهما: ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ [طه ٤٧] و﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء ١٦]: فيه هزَّة ضمنية لفرعون وكيانه، لأن المعنى: يا فرعون: إنك مملوكٌ ولست مالِكاً، وإنك عبدٌ ولست رباً، ولذلك سنرى فيما يأتي أنه لمّا قالا له هذه العبارة: ﴿ رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ و﴿ رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، عدَّ ذلك تحقيراً له، لكونه يدَّعي الربوبية ولا يرى في دعواهُ ذنباً ولا عيباً، ولا زوراً من القول، ثم كان الطلب مُحدَّداً: ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الشعراء]،

﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ [طه]، فالأصل في لقاء موسى بفرعون أن يُنقذَ بني إسرائيل من العذاب، ثم يُبلِّغهم بعدها منهج الله ويأخذ بأيديهم إليه.

والاقتصار على طلب إطلاق بني إسرائيل، يدل على أن موسى أُرسِلَ لإنقاذ بني إسرائيل أولاً، ثم لهدايتهم ثانياً، وهذه الهِداية لا تتحقق إلا بمُخاطبة فرعون، ومع أن موسى لم يُرسَل لخطابِ القِبط «قوم فرعون» بالشريعة، ولكنه مع ذلك دعا فرعون وقومه إلى التوحيد؛ لأنه يجب عليه تغيير المُنكر الذي هو بين ظهرانيه.

ثم إن إطلاق بني إسرائيل من قِبَلِ فرعون، ليس له وسيلة إلا أن يؤمن بالله، ويترك ما عليه من الضلال.

وبنو إسرائيل: هم البقية الباقية من يوسف وإخوته عندما جاؤوا إلى مصر في أيام العزيز - واسمه «طيفار» كبير شُرَطِ فرعون -.

كانت مصر منقسمة إلى قسمين: مصر العليا - الجنوبية - المعروفة اليوم بالصعيد لحُكم الفراعنة من القِبط وقاعِدتُها «طيوه».

ومصر السفلى وهي - الشمالية -، وقاعدتُها «منفيس»، وهي القاعدة الكبرى التي هي مقر الفراعنة، وهذا القسم تغلَّبَ عليه العمالقة الساميون أبناء عم ثمود، وهم الذين يُلقبون في التاريخ المصري بالرُعاة الرَّحَّالين، و «باهكسوس» وذلك في سنة ١٩٠٠ ق.م.

كان يوسف عند رئيس شُرطة فرعون في حدود سنة ١٧٣٩ ق. م، «عمليقي»، ثم سكن بنو إسرائيل مصر بسبب تنقل يعقوب وأولاده أيام يوسف وصار بيده حكم المملكة المصرية السُفلى.

كانت الصِلةُ بين الإسرائيليين والمصريين - القبط - حسنة مُدَّةً طويلة، وحافظ الإسرائيليون على دينهم ولُغتهم وعاداتهم، فلم يعبدوا آلهة المصريين، وانفردوا عن أهل مصر بمنطقةٍ يُقال لها «جاسان» مُدَّةً تُقارب ٤٠٠ سنة، ونَقَمَ المصريون عليهم، فقاموا بطردهم من مصر على يد «رعمسيس الثاني» المُلقب «بالأكبر» في حدود سنة ١٣١١ ق. م، فساءت ظنون المصريين ببني إسرائيل، إذ ظنوا أنهم سيكونون أعواناً لأعدائهم من العرب، وقد اطلَعَ «رعمسيس» على مساعدات منهم للعمالقة، فأراد استئصالهم، وساعده الكهنةُ على ذلك، فالعداوة كانت شديدة بين القِبط، وبين اليهود، آلت إلى تعذيبهم واستئصالهم.

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه]، قال: قام موسى وهارون، وقصدا باب فرعون، فإذا هو مُغلق، والحجبةُ والبوابون عليه، فتقدم موسى وقال لهم: أعلموه أن رسول الله بالباب، فجعلوا يستهزئون به ويسخرون منه.

وذكر النيسابوري قال: انطلق موسى وهارون إلى باب خاص لفرعون يُشرف على غِيضةٍ، وكان ذلك يوم الإثنين من شهر ذي الحجة، فلما رآهما الحرس عند هذا الباب الخاص حذّرهما قائلاً: هل تعلمان باب من هذا؟ ثم أُخبِرَ فرعون: إن على بابك رجلين يقولان قولاً عجيباً، يزعمان أن لهما ربّاً غيرك، فقال فرعون: أدخِلوهما، فأدخل الحرس هارون وموسى.

وقد ذكر القرطبي إضافة على ما ذكره النيسابوري، وهي أنَّ الحاجب لمّا دخل على فرعون فقال له: ههنا إنسانٌ يزعم أنه رسول الله رب العالمين، فقال له فرعون: أدخله لعلنا نضحك منه.

وذكر المفسرون: أنَّ أمَّهُما حين علمت أنَّ مقصدهُما إتيانُ فرعون، بكت وضجت، وقالت: أُنشدكما الله أنْ لا تذهبا إلى فرعون، فيقتلكُما، فأبيا عليها، وأتياه.

قد ذكر الثعلبي: أنه لمّا أُذِنَ لموسى وهارون بالدخول على فرعون، دعا موسى بدعوات عند دخوله، وهي: «لا إله إلا الله الحليم الكريم، لا إله إلا الله العلي العظيم، سبحان رب السموات السبع والأرضين وما فيهن، وما بينهُنَّ، ورب العرش العظيم، وسلامٌ على المُرسلين، والحمد لله رب العالمين، اللهم إني أدرأ بك في نحره، وأعوذ بك من شره، وأستعين بك عليه، فاكْفِنيهِ بما شئتَ».

وقد ورد في صحيح البخاري عن ابن عباس، أن النبي ﷺ كان يقول عند الكرب دعاءً قريباً من هذا الدعاء، وهو: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش الكريم»، وفي سنن النسائي عن علي رضي الله تعالى عنه قال: لَقَّنني رسولُ الله ﷺ هؤلاء الكلمات، وأمرني إن نزل بي كربٌ أو شدَّةٌ أنْ أقولها: «لا إله إلا الله الكريم العظيم سبحانه، تبارك الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين».

وكان عبد الله بن جعفر يُلقِّنُها وينفثُ بها على المَوْعوكِ، ويُعَلِّمُها المُغْتَرِبَةَ من بناته، والمُغْتَرِبَةُ: هي المتزوجة من غير أقاربها.

وقد مرَّ معنا أنَّ الله أوحى إلى موسى أن يُركِّز عند لقائه بفرعون، على أمر واحد، وهو إطلاق بني إسرائيل، والكفُّ عن تعذيبهم، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه ٤٧]، فالمُهمة محددة، ولكن هل هذا الطلب سهل أم صعب؟

يقول الدكتور أحمد بهجت: هذا الطلب صعب يصطدم بعقبات كثيرة،

وصعوبَتُهُ تكمن بأن بُنيان النظام الأساسي عند فرعون قائم على استعباد بني إسرائيل واستغلالهم في كل أعمال الدولة.

قال البروسوي ناقلاً عن «الإرشاد»: كان بنو إسرائيل تحت مملكة القِبط، يستخدمونهم في الأعمال الصعبة، كالحفر ونقل الأحجار.

قال القرطبي: كان بنو إسرائيل عند فرعون في عذاب شديد، يُذبح الأبناء، ويستخدم النساء، ويُكلفهم من العمل في الطين واللِّبن، وبناء المدائن ما لا يطيقون.

قال الرازي: كان فرعون محتاجاً إلى بني إسرائيل في البناء وغيره، ففي إطلاق سراحهم إدخال النقص على مُلكه.

وقول موسى: ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾: أي اتركهم يذهبوا معنا إلى فلسطين.

وقوله: ﴿ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ ﴾ بإبقائهم على ما هم عليه من التسخير والتذليل والتعذيب، ثم تابع موسى كلامه قائلاً لفرعون: قد جئناك بأمر يُثبت صِدقنا، وذلك قوله: ﴿ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ ﴾، والمُراد بتوحيد الآية مع تعدُّدِها في الواقعِ، إثباتُ الدعوى بالبُرهان.

فالمعنى: قد جئناك ببرهان على ما ادَّعيناه من الرسالة، ثم ختم خطابه بقوله: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾.

قال الزجاج: وليس هذا القول بتحية؛ لأنه ليس في ابتداءِ لقاءٍ، ولا ابتداء خطاب، فالمعنى: من اتبع الهدى سَلِمَ من غضب الله وعذابه.

قال العلماء: قصد موسى السلامة من عذاب الله، ومثل ذلك قوله عز وجل: ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٨ ﴾[البقرة]،

والخوف: أن تتوقع شراً مُقبلاً لا قُدرة لك على دفعه فتخاف منه.

والحُزن: ضد السرور، وهو أن يفوتَكَ شيء تُحبه وتتمناه ولا يكون إلا على الماضي، والأول يكون في المستقبل، والذي يتبع منهج الله لا يخاف ولا يحزن، فهو لا يخاف؛ لأنه لم يُذنب، ولم يخرق قانوناً، ولم يرتكب جريمة باتباعه المنهج الرباني.

والذي يسير مع منهج الله، لا يحزن حُزناً يجعله يتسخط على قضاء الله، وإنما يحزن - إذا قابله حدث مُفاجئ من موت عزيز..- حُزناً مُقترناً بالإيمان، فالله - كما قال علماؤنا - لا يمنعُكَ أن تحزن إذا نزل بك قضاء يُحزنك، ولكن عليك أن تُخضِعَ إرادتك لإرادة الله، فلا تقول إلا: الحمد لله؛ لأنك لا تدري ما الحكمة من وراء ذلك، فأنت عندما تذهب إلى طبيب في العظام لإجراء عملية جراحية، قد يكسر لك عظماً لكي يُصلحها، فهل يفعل لك خيراً في هذا أم شراً؟

طبعاً هو خير، وإن كان فيه ما يؤلمك، ولهذا كان ﷺ يقول: «إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن على فراقك يا إبراهيم، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا».

قال الرازي في قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾: هذا وعدٌ لفرعون بالسلامة إن آمن، سلامةٌ من عقوبات الدنيا والآخرة، فالسلامُ هنا، مصدر بمعنى السلامةِ، كالرضاعِ: بمعنى الرضاعة.

قال المفسرون: ثم ختم موسى وهارون دعوتهما له بجملة لطيفة، فيها وعيدٌ مُبطّنٌ، حيث لم يُصرِّحا في هذه الجملة بحلول العذاب به مع أنها تشمله إذا أعرض، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ

﴿وَتَوَلَّىٰ ٤٨﴾ [طه]: أي قد أعلمنا ربُنا وحياً أن الهلاك والدمار في الدنيا، والخلود في عذاب الآخرة إنما يقع على المُكذبين لرُسل الله، وأنبيائه، ولمن أعرض عن الإيمان وكذَّبَ بالآيات.

قال ابن عباس: وهذه الآية: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٤٨﴾: هذه أرجى آية للموحِّدين، لأنهم لم يُكذِّبوا ولم يتولّوا.

قال الرازي: وهي دليل قوي على أن عذاب المؤمن لا يدوم.

قال الآلوسي في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ٤٧﴾: في ذلك دليل على منع السلام على الكفرة، فإذا احتجنا أن نكتب إليهم، أو نُخاطبهم، جئنا بهذه الصيغة، ولذلك كان النبي ﷺ يكتبها إلى عُظماء الدول، فقد كتب إلى المقوقس - عظيم القبط - وإلى هرقل - عظيم الروم - كما ورد في الصحيحين من حديث ابن عباس أنَّ النبي ﷺ كتب إلى هرقل: «من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم: أسلم تسلم، يُؤْتِكَ اللهُ أجرك مرتين، فإنْ تَولَّيت... والسلام على من اتبع الهدى».

وأخرج عبد الرزاق في «المصنف»، والبيهقي في «الشُّعَبِ» عن قتادة قال: التسليم على أهل الكتاب، إذا دخلت عليهم بيوتهم أن تقول: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ٤٧﴾.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله» في صورة للحوار بين موسى عليه السلام وفرعون، قال: استمع فرعون إلى حديث موسى ضَجِراً، شِبْهَ هازئ، وقد تصوَّرَ أنَّ الذي أمامه مجنونٌ تَجرَّأَ على مقامه السامي، ثم رفع فرعون يده قائلاً لموسى: ماذا تريد؟ قُلْ واختصِرْ.

فأجابه موسى: أريد أن تُرسل معنا بني إسرائيل، قال فرعون: بأي صفةٍ

تُطالبُني بإرسالهم معك، وهم عبادي؟ فأجاب موسى: إنهم عباد الله رب العالمين.

قال فرعون هازئاً: ألم تَقُل: أنَّ اسمك موسى؟

قال موسى: نعم.

قال فرعون: ألست موسى الذي التقطناه من النيل طفلاً، لا قوة له ولا حول، ألستَ موسى الذي ربَّيناه في هذا القصر، وأكل من طعامنا، وأغرقتْهُ خيراتُنا، وأحسنّا إليه؟

ألست موسى القاتل فيما بعد؟

ألست كافراً؛ لأن القتل كفر، ألست أنت موسى الهارب من وجه القانون؟ وإلى هذا أشار القرآن الكريم في [سورة الشعراء]: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

قال القرطبي في قوله: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾: قال ذلك لموسى على جهة المَنِّ والاحتقار، أي ربَّيناك صغيراً ولم نقتُلْك من جُملةِ من قتلنا، ثم متى كان هذا الذي تدَّعيه من أنك رسول، ثم كيف تكون رسولاً وقد فعلت ما فعلتَ من قتلك للقبطي - وهو خباز فرعون - وهو أحد أتباعنا، وكنت بهذه الفَعْلة كافراً لنعمتنا، جاحداً لإحساننا إليك.

وفي الآيات إشارة - كما قال العلماء - إلى أنَّ الإنسان حين يُربي الأولاد ويراهم كما يُحبّ، فليعلم أن هذا توفيقٌ من الله تعالى، والدليل أنَّ الأبناء يُربَّوْن في بيئة واحدة، وقد يكونا أخوين، ومع ذلك ترى أحدهما صالحاً والآخر فاسداً، فالمسألةُ عنايةٌ إلهيةٌ وتدبيرٌ إلهي، وقد أشار بعض الشعراء إلى

هذا المعنى فقال:

إذا لم تُصادف في بَنيكَ عنايةً

فقد كذبَ الراجي، وخابَ المُؤَمَّلُ

فموسى الذي رباهُ جبريل كافرٌ

وموسى الذي رباه فرعون مُرسَلُ

فموسى الأول هو السامري صاحب العِجْل، وموسى الثاني رسول الله المُكَلَّم.

وإلى هذا المعنى خاطب أحد الصالحين أخاه الشقيق وكان فاجراً، فقال له:

أبوكَ أبي، والجَدُّ لا شكَّ واحدٌ ولكننا عُودانِ آسٌ وخَرْوعُ

قال المفسرون: ويرد موسى على كلام فرعون بهدوء، بأنه إنما فعل فعلَتَهُ - وهي قتل القبطي - وهو غيرُ قاصدٍ للقتل، وإنما كان ذلك عن طريق الخطأ، وأنَّ سَوْرَةَ الغضب أغفَلَتْهُ عن مُراعاة حُرمةِ النفس، وذلك قوله: ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠ ﴾ [الشعراء]: أي لا عن عمد، كما يُقال: ضَلَّ الطريق: أي تاه عنه رُغماً عنه.

وقد يُطلق الضّلال على الجهل، ويُقال لمن جَهِلَ شيئاً: ضلَّ عنه، أي كنتُ من الجاهلين بأنَّ الوكزةَ قد تؤدي إلى القتل، كما قال القرطبي.

ثم تأتي مرحلة الحوار العنيف، وتبرز طبيعة موسى الحادة عندما مَنَّ عليه فرعون بإحسانه إليه، وإذا به عليه السلام يقول: ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٢١ ﴾ [الشعراء].

ثم ردَّ على فرعون كلامه بالمَنِّ عليه بالتربية وأبْطَلَهُ، ورفض موسى أن يُسَمِّيَهُ نِعْمَةً، لأن الامتنان لا يكون إلا بنعمةٍ، وأنت يا فرعون لم تفعل معيَ نعمَةً، وذلك قوله: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الشعراء]، كأنَّ موسى يقول له: إن نعمَتَكَ التي تقول إنها نِعمةٌ – أي رَبَّيتني وأحسنتَ إليَّ – إنما هي نقمةٌ، وذلك لأن نِعمَةَ تربيتك لي ما كانت إلا بسبب إذلال بني إسرائيل، حيث أمرتَ بقتلِ أولادهم، مما دفع والدتي لإلقائي في اليمِ.

نعم قد أحسنت إليَّ، وأنا رجل واحد، فهل تظنُّ أن هذا الإحسان لشخص واحد يُعادل إذلالك لشعبٍ بأكمله، فهل يتساوى هذا الإحسان لواحدٍ مع ظُلم الأمةِ كلها.

أحسنت إليَّ وأهنتَ قومي، ومن أُهينَ قومُهُ ذل، لذلك قيل: وظُلم الجار إذلالُ المُجير.

قال القرطبي: قال موسى: إن ما تَمُنُّ به عليَّ ليس نِعمةً، لأن الواجب عليك ألا تقتل قومي، وألا تُعذبَهم، فكيف تذكر إحسانك لواحدٍ، ولا تذكر قتلك وتعذيبك لأمةٍ بأكملِها، وإنك لو لم تقتل ذكور بني إسرائيل لَربَّاني أبواي، ولما كنتُ بحاجة أن أتربى في كنفك، فأي نعمة لك علي؟

والمِنَّة: النعمة الثقيلة، ولها وجهان:

الأول: أن يكون ذلك بالفعل فيقال: «مَنَّ فلانٌ على فلان»، إذا أثقله بالنّعمة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [آل عمران ١٦٤].

والمَنُّ: يُطلق على إعطاء النعمة وإسدائها بلا مُقابل، وليست هنا في الآية

من المَنِّ المذموم الذي هو تِعداد النِعَم، إلا أنَّ مَنَّ الله تعالى في الحالتين محمود، لأنَّ طَوْلَ الله غير مجحود، وتطاوُلَ العبد على من أنعَمَ عليه مذموم: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة ٢٦٤].

الثاني: المَنُّ بالقول: وهو مُستقبح بين الناس إلا عند كُفران النِعمة، ولهذا قيل: المِنَّةُ تهدمُ الصنيعة، وقالوا: إذا كُفِرت النِعمَةُ حَسُنت المِنَّةُ.

قال بعض المفسرين: بدأ فرعون بكلام السِّفلَةِ، ومَنَّ على نبي الله بما أطعمه.

قال محمد بن علي الترمذي: ليس من المروءة أن تذكر المعروف والإحسان لمن أحسنتَ إليه، ألا ترى إلى فرعون لمّا لم يكن عنده مُروءةٌ مَنَّ على موسى عليه الصلاة والسلام.

ومعنى ﴿عَبَّدتَّ﴾: أي ذلَّلْتَ، يُقال: عَبَّدَ، وأعْبَدَ، بمعنى ذلَّل، ومنه:

حَتَّامَ يُعْبِدُني قومي وقد كثُرت فيهم أباعِرُ ما شاؤوا وعُبدان

قال العلماء: ثم يُتابع موسى كلامه بعد ذلك الحوار مع فرعون: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨﴾، قائلاً: وعلى كل حال، فالأمر أمرُ دعوةٍ من الله، أمرٌ لم آتِكَ به من عندي، ولستُ مُوفَداً عن شعب بني إسرائيل، إنما أنا موفدٌ من الله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال العلماء: وفوجئ فرعون بهذه العبارة: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقال: هذه مسألة جديدة يا موسى، فَمَنْ ربُّ العالمين الذي تتحدث عنه؟

قال صاحب «التحرير والتنوير»: ففرعون سأل موسى عليه السلام تَبْيينَ حقيقة هذا الذي وصفه بأنه «ربُّ العالمين»، فقد كانت عقائد القِبط تُثبت آلهةً مُتفرقة قد اقتسمت التصرف في هذا العالم، وأجناس الموجودات، فلما سمع

فرعون من كلام موسى إثباتَ ربِّ العالمين، قرع سمعه أمرٌ لم يألفْهُ من قبل؛ لأنَّ كلام موسى يُثبتُ إلهاً واحداً لهذا الكون، ونفي الإلهية عن معبودات القِبط المُتعددة، والقِبطُ مع عبادتهم لآلهةٍ مُتعددةٍ، كانوا يزعمون أنَّ فرعون هو المُجتبى من الآلهة ليكون مَلِكَ مصر - فهو مَظهرُ الآلهة الأُخرى في تدبير المملكة -، ولذلك قال: - كما سيأتي معنا - ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ﴾ [الزخرف ٥١]، وبهذا الانتساب إلى الآلهة، وتمثيله إرادتهم في الأرض كان فرعون يُدعى إلهاً، من هنا يتضح دافعُ فرعونَ على هذا السؤال الذي ألقاه على موسى، وهو استفهام مَشُوبٌ بتعجُّب وإنكار، وذلك قوله تعالى حاكياً سؤال فرعون: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣﴾؟ [الشعراء].

ويأتي جواب موسى في غاية الدقة والإحكام، وطابق الجواب السؤال تمام المُطابقة، حيث قال موسى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٢٤﴾ [الشعراء].

قال العلماء: ردَّ موسى على فرعون بجوابٍ جميل فقال: إن هذه السموات بما فيها من كواكب، وشُموسٍ، وأقمار وأبراج، والأرض وما فيها من بحار وأنهار، وقِفارٍ، وإنسان، وحيوان قد وُجدت قبل أن توجدَ أنت يا فرعون، وقبل مولدك، فما الذي زِدْتَهُ في الكون بادّعائك الألوهية.

ثم نُلاحظ أنَّ موسى لم يقتصرعلى ذكر السموات والأرض، بل قال: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾: أي من هواء وطير، وغير ذلك، وكانوا لا يعرفون عن أسرار الهواء وانتقال الصورة والصوت فيه، وما نعرفه نحن الآن.

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾: أي إن كنتم مستعدين للإيقانِ، طالبين لمعرفةِ الحقائق، غير مُكابرين، بأنَّ خالق السموات والأرض وما بينهما، هو الإله لا

يُشاركه غيره.

قال الآلوسي: وهذا السؤال الذي سأله فرعون لموسى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾؟ كان قد سبقه سؤال ذكره الله عز وجل في سورة طه، وهو قول فرعون لمّا قال له موسى: ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾، فقال فرعون: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ والدليل على أن هذا السؤال كان قبل الأول: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾؟ أنَّ ابن عباس قال: إن سورة طه نزلت، ثم الواقعة، ثم الشعراء.

وتُلاحظ – يا عبد الله – أنَّ فرعون خاطبَ الاثنين معاً أولَ الأمر: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا ﴾، ثم وجه النداء إلى موسى: ﴿ يَٰمُوسَىٰ ﴾، فما السبب؟

والجواب:

أولاً: إنَّ فرعون يعلم أنَّ الرئيس الأصلي في هذه المهمة هو موسى.

ثانياً: إنَّ فرعون لِخُبثه، كان يعلم فصاحة هارون، ويعلم الحُبْسَةَ التي في لسان موسى، فأراد أن يُحرج موسى أمام الملأ بهذه الحُبسَةِ، أو هذه الرِّتَّةِ التي في لسانه، ولذلك نراه يقول ما ذكره الله لنا: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الزخرف].

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: من الواضح أنَّ سؤال فرعون لموسى عن ربهما: ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾، بقوله: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ لم يكن يقصد بذلك السؤالَ المعرفةَ والعلم، وإنما من باب الاستهزاء، ونُلاحظ أن فرعون تجاهل عبارة وردت في خطاب موسى إليه، وهي قوله تعالى: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾، فلم يقل في جوابه لهما: فمن ربي؟ وذلك لشدَّةِ عُتُوِّهِ وطُغيانه، بل أضاف الربَّ إلى موسى وهارون، لأنه قصد بذلك

ألا يقع في ذهن أتباعه – إن أقرَّ بالربوبية لله – أنه ليس ربّاً، بل هو مربوبٌ لله، وعبدٌ له، ولذلك جاء جواب موسى، جامِعاً، مانِعاً، مُحكَماً، فقال عليه السلام: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ [طه].

قال الزمخشري في جواب موسى هذا: ولله دَرُّ هذا الجواب، ما أخصَرَهُ وأجمَعَهُ وأبينَهُ، لمن ألقى الذِّهن، ونظر بعين الإنصاف، وكان طالباً للحق: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾: أي أنَّ كل ما في الوجود، خَلَقَهُ الله لمُهمةٍ، ثم جاء الخَلقُ مُناسِباً للمُهمةِ التي خُلِقَ من أجلِها.

قال ابن كثير: وهذه الآية تُشبه قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ٣﴾ [الأعلى]، فقد أعطى العين الهيْئَةَ التي تُطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يُوافق الاستماع، وكذلك الأنف، واليد، والرجل...

فالعين مثلاً، كم بها من آيات الله؟

فقد خلقها الله بقدْر ومن ذلك: حرارتُها، إن زادت على «١٢» درجة تفسد، وأرنبةُ الأنف إن زادت على «٩» درجات لا تؤدي مُهمتها، مع أن في الجسم عُضواً حرارته «٤٠» وهو الكبد، والحرارة الكُلية للجسم «٣٧» وهي ثابتةٌ في المناطق الحارة والباردة لا تتغير إلا لآفةٍ، أو عِلَّةٍ – كما قال العلماء – اللسان به حلماتٌ كثيرة: قسم للحلو، وقسم للمُرِّ، وقسم للحرِّيف، وكلها مُتلاصقة في هذه المساحة الصغيرة المُتجاورة بقدْرٍ دقيق ومُعجز.

قال المفسرون: خلق كل شيء، وأقدرَ هذه المخلوقات على أن تؤدي مُهمَّتها على الوجه الأكمل تأديةً غريزيةً تلقائيةً، خذ مثلاً من ذلك: الغُراب الذي بعثه الله عز وجل ليُعلِّم ولَدَ آدم: ﴿كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ﴾ [المائدة ٣١]: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ

﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾ [المائدة]، كيف صنع الغراب ذلك؟ بالغريزة التي أودعها الله فيه.

انظر إلى الحمار - الذي يُضرب به المثل في الغباء - حين تُريده أن يتخطى ساقيةً فيها ماء، تراه ينظر إليها، ويُقدِّر مسافتها، فإن رآها فوق طاقته تراجع، وإن رآها ضمنَ إمكاناته تقدَّم بلا تردد - كما يقول المفسرون وعلماء الحيوان - وإذا شعر أنها فوق طاقته، لو حطمت عظامه فإنه لا يُقدم، هذه هي الغريزة الفطرية.

وهكذا تجد المخلوقات غير المُختارة لا تُخطئ لأنها محكومةٌ بالغرائز، فليس لها عقل يدعو إلى هوىً، وليس لها اختيار بين البدائل: مثل العقل الإلكتروني يُعطيك ما أودعتهُ فيه، أما المخلوق المُختار - الإنسان - فيُمكن أن يُغير الحقائق، ويُخفي ما تُريده منه، لأن له عقلاً يقول له: قل هذه ولا تقل هذه، وهذا ما ميَّزَ الله به الإنسان عن سائر المخلوقات.

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ [طه]: أعطى كل شيء زوجه من جنسه، وهداه إلى مطعَمِه، ومشربه، ومسكنه، وزواجه، وهداه إلى الإلفةِ والاجتماع والتزاوج، وجميل قول القائل:

وله في كل شيءٍ خِلقَةٌ   وكَذاكَ اللهُ ما شاء فعل

قال الرازي: إذا نظرت إلى عجائب النحل، والبعوض، وغيرها في اهتدائها إلى مصالح أنفُسها لعرفت أنَّ ذلك لا يمكن إلا بإلهام مُدَبِّرٍ عالمٍ بجميع المعلومات، فالله تعالى أنعم على الخلائق بما فيه حياتهم وقوامُهم من المطعوم والمشروب وغيرهما، ثم هداهم إلى طريق الانتفاع بها، كاستخراج

اللآلئ من البحار، والحديد من الجبال، والأدوية من الأعشاب ومن غيرها، ثم قال: وهذا الأمر ليس مُختصاً بالإنسان، بل في عالم الحيوان، فأعطى الإنسان إنسانةً، والحمار أتاناً، والبعير ناقة، ثم هداها لدوام التكاثر والتناسل.

قال العلماء: لقد ردَّ موسى فرعون إلى قضية الخلق الأول، لأن فرعون رغمَ ادِّعائه الألوهية، لم يدَّعِ أنه خلق شيئاً، إنما تجبَّر وتكبَّر وادعى الألوهية على مخلوقاتٍ لم يخلقْها هو، بل ولم يخلق نفسه، ولم يخلق المُلْكَ الذي يعتزُّ به: ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ ﴾.

ولمّا كان الردُّ إلى قضية الخلق الأول الابتدائي هو الدليل المُقنع، فإنَّ فرعون لا يستطيع أن يرُدَّ عليه؛ لذلك لمّا سَمِعَ هذه المسألة: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾، أدرك أنه لا يستطيع أن ينقُضَ هذا الدليل، فأراد الهرب من المواجهة فلجأ إلى مسألة أُخرى فرعية لا قيمة لها، فقال لموسى: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾.

وهذا الموقف من موسى يُشبه موقف النُمرود من نبي الله إبراهيم عليه السلام، عندما قال له إبراهيم: ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة ٢٥٨]، فلجأ النمرود إلى حيلة المُفلسين، وجاء بِرَجُلَيْن وقال: أنا أحكم على هذا بالموت، وأعفو عن هذا، فأنا أُحيي وأُميت، لذلك لمّا أحس منه إبراهيم المُراوغة والجدال، نقله إلى مسألة لا يستطيع منها فكاكاً: ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة].

إذاً أراد فرعون أن يصرف موسى عن هذه القضية، قضية الخلق الأول، بالحكايات السالفةِ، فقال فرعون تاركاً الموضوع الأول لشعوره بهزيمته فيه:

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: و «البال» كلمة دقيقة المعنى تُطلق على «الحال المهمّ»، كقوله تعالى في [سورة محمد]: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾، وتُطلَقُ على العقل وما يخطر للمرء في فكره، ومن هذا المعنى الأخير قول العُقَيلي:

ونبكي حين نقتُلُكم عليكُم ونقتُلُكم كأنَّا لا نُبالي(١)

قال الوزير البطليوسي عن أبي سعيد قال: كنت أقول للمعري: كيف أصبحت؟ فيقول: بخير، أصلح الله بالَكَ.

قال ابن عاشور: وإصلاح البالِ يجمع إصلاح الأمور كلها؛ لأن تصرفات الإنسان تأتي على حسب رأيه، فالتوحيد أصل صلاح بالِ المؤمن، فصار معنى الآية: ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾: أي أقام الله أنظارهم وعقولهم، فلا يُفكرون إلا صالحاً، ولا يتدبرون إلا ناجحاً.

قال المفسرون: أراد فرعون أنْ يُناقش موسى بما حصل للقرون الماضية الذين كانوا على مِلَّةِ فرعون، وإنما أراد بذلك التشغيبَ على موسى حين رأى منه قوة الحجة، فسأل موسى: هل هؤلاء في عذاب؟

فإذا قال موسى: نعم هم في عذاب، ثارت ثائرةُ أنصارهم وأبنائهم، فصاروا أعداءً لموسى، وإن قال موسى: هم في سلام نهضت حُجة فرعون حينئذ، حيث يقول: أنا مُتابع لهم.

والخُلاصة: أنَّ سؤال فرعون كان للتشغيب والتعجيز.

(١) أي: لا نُفكر.

قال المفسرون: أحسَّ موسى بمراوغة فرعون، ومُحاولته الهرب من الموضوع الأساسي: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾، فَسَدَّ عليه الباب بجواب كان في منتهى الدقة والجمال، حيث أسند العلم في ذلك إلى الله فقال: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه]، إن سؤالك من علم الغيب، وليس وظيفة الرُسل أن يعلموا الغيب إلا ما أعلمهم الله به.

وقوله: ﴿فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾: أي في اللوح المحفوظ، هذا هو الكتاب، أي مُسجلةٌ في اللوح المحفوظ ليطلع عليها الملائكة الذين يُدبرون الأمور بأمره عز وجل: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النازعات]، وليس المقصود أن يطلع الله عليه ويعلم ما فيه، فليس الله بحاجة إلى ذلك لأنه عز وجل كما قال موسى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾: أي لا يُخطئ ولا يغيب عن علمه شيء.

قال ابن عباس في قوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى﴾: أي لا يُخطئ في التدبير، فمن أمهلَهُ فلحكمةٍ أمهلَهُ، ومن عاجله فلحكمَةٍ عاجَلَهُ.

قال النحاس: أخبر الله عز وجل عن نفسه: أنه لا يحتاج إلى كتاب، فيكون المعنى: أنه لا يضل عن علمه عز وجل شيء من الأشياء، ولا معرفتُها، ولا ينسى ما عَلِمَهُ منها.

قال القرطبي: تدل هذه الآية: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ﴾، تدل على تدوين العلوم لئلا تُنسى، ثم قال: ثم إن الحفظ قد تعتريه الآفات من الغلط والنسيان، وقد لا يحفظ الإنسان ما يسمعُ، فيُقَيّدهُ لئلا يذهب عنه ويضيع.

وهذه الآية نصيحة لكل طالب علم أن يكتب: «العلمُ صَيْدٌ والكتابةُ قيدُهُ»، ولذلك وردَ بالإسناد المُتصل عن قتادة، أنه قيل له: أنكتب ما نسمعُ

منك؟ قال: وما يمنعُكَ أن تكتب، وقد أخبرك اللطيف الخبير أنه يكتب، فقال على لسان موسى: ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ ﴾.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لمّا قضى الله الخلقَ كتب في كتابٍ على نفسه، فهو موضوع عنده: إنَّ رحمتي تغلبُ غضبي».

وأسندَ أبو بكر الخطيب، عن أبي هريرة، قال: كان رجل من الأنصار يجلس إلى النبي ﷺ يستمع منه الحديث، ويُعجبه ولا يحفظه، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: إني أسمع منك الحديث فيُعجبني، ولا أحفظه، فقال ﷺ: «استعن بيمينك»، وأشار ﷺ إلى الخط، قال القرطبي: وهذا نصٌّ: أي على الكتابة.

وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ أمر بكَتْبِ الخُطبةِ التي خطب بها في الحج، وذلك أن رجلاً من اليمن يُدعى بـ«أبي شاه» طلب من النبي ﷺ أن يسمح له في كتابة الخطبة، فأذِنَ له النبي بذلك.

وورد عن عمرو بن شُعيب، عن أبيه عن جده، عن النبي ﷺ قال: «قيّدوا العلمَ بالكتابة».

وقال معاوية بن قُرّة: مَنْ لم يكتب العِلمَ لم يُعدَّ علمهُ علماً.

قال القرطبي: وكل النصوص الواردة في منع الكتابة عن رسول الله ﷺ، إنما كان قبل الهجرة حتى لا يختلط القرآن بغيره، ثم نُسِخَ هذا المنع من الكتابة، بالأحاديث التي تأمر بالكتابة، ثم قال القرطبي: ثم إن العلمَ لا يُضبط إلا بالكتاب، ثم بالمُقابلة والمُدارسة والتعهدِ والحفظ والمذاكرة والسؤال، فتقييدُ العلم بالكتاب أشفى وأولى، والدليل على وجوبه أقوى.

وكانوا يرونَ الحبر والمِداد على قميص الطالب للعلم شرفاً له وعزاً، فقد روى عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل، قال: حدثني أبي قال: رآني الشافعي وأنا في مجلسه، وعلى قميصي حِبْرٌ، وأنا أُخفيه، فقال: لِمَ تُخفيه وتَسْترهُ؟ إن الحِبْرَ على الثوب من المروءة، لأن صورته في الأبصار سوادٌ، وفي البصائر بياضٌ.

وقال خالد بن يزيد: الحبر في ثوب صاحب الحديث، مثل الخَلُوق في ثوبِ العروس، الخَلُوق: طِيْبٌ يدخُله الزعفران.

هذا المعنى أخذه الشاعر «أبو عبد الله البلوي» فقال:

مـدادُ المَحابِرِ طيبُ الرجال وطيبُ النساءِ من الزعفرانْ
فـهـذا يـلـيـقُ بـأثـوابِ ذا وهـذا يليقُ بثوبِ الحُصان

وذكر الماوردي في كتاب «أدب الدنيا والدين»: أن عُبيد الله بن سليمان، رأى على بعض ثيابه أثر صُفْرَةٍ فأخذ من مِداد الدواةِ وطلاه به، ثم قال: المِداد بنا أحسن من الزعفران، ثم أنشد:

إنما الزعفران عطر العذارى ومِدادُ الدُّوِيّ عطرُ الرجال

قال بعض الحكماء: البيان اثنان، بيانُ لسان، وبيان بنانٍ، ومن فضل بيانِ البنانِ: أنَّ ما تُثبِتُهُ الأقلام باقٍ على الأيام، وبيانُ اللسان تدرُسه الأعوام.

وقالوا: قِوام أمر الدين والدنيا بشيئين: القلم والسيف، والسيف تحت القلم، ولولا القلم لما قام دين ولا صلحَ عيش، وقالوا:

إذا أقسَمَ الأبطالُ يوماً بسيفهم وعدّوه مما يجلبُ المجدَ والكرم
كفى قلمُ الكُتّابِ فخراً ورِفعةً مدى الدهر أن الله أقسَمَ بالقلم

﴿ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ٥٢ ﴾ [طه].

قال العلماء: بعد أن أجاب موسى فرعون عن سؤاله: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ٥١ ﴾، تابع موسى كلامه مُبيِّناً صفات الرب عز وجل.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: عاد موسى يُتمم حديثه عن ربه عز وجل، فتكلم عن دلائل خاصة عن قُدرته عز وجل وعن وحدانيته:

أولا: قوله: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا ﴾ [طه ٥٣].

ثانياً: قوله: ﴿ وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا ﴾ [طه ٥٣].

ثالثاً: قوله: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ٥٣ ﴾ [طه].

وقوله: ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا ﴾: أي صالحة للسير والجلوس والاضطجاع.

وقوله: ﴿ وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا ﴾: أي طرقاً مُمهدةً تسلكونها للانتقال عَبْرَ المسالك والأودية، منها المُتَّسِعُ، ومنها الضيِّقُ، على قَدَرِ المهمة.

وقوله: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ٥٣ ﴾: وهذه كذلك من مسائل الخلق التي لا يدَّعيها أحد، فبعد أن ذكر مِنَّةَ خلق الأرض، شفعها بِمِنَّةِ إخراج النبات منها بما ينزل عليها من ماء السماء، هذه النباتات المختلفة في الأنواع والطُعوم والروائح والأشكال، منها ما يصلح للإنسان، ومنها ما يصلح للحيوان، ورحم الله من قال:

الأرض فيها عبرةٌ للمُعتبر ... تُخبر عن صُنعِ مليكٍ مُقتدر

تُسقى بماءٍ واحدٍ أشجارُها ... وبُقعةٌ واحدةٌ قرارُها

والشـمس والهواء ليس يختلف — وأُكْلُهـا مُختلـفٌ لا يَأتلـف
لـو أنَّ ذا مـن عَمَـلِ الطبائـع — أو أنـه صنعـةُ غـير صانـع
لم يختلـف وكان شـيئاً واحـداً — هـل تُشـبه الأولاد إلا الوالِـدا
والشـمس والهـواء يـا مُعانـدُ — والمـاء والـتراب شيءٌ واحـد
فـما الـذي أوجَـبَ ذا التفاضُـلا — إلا حكيـمٌ لم يـردهُ باطـلا

وقوله: ﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾، وشتى جمعُ شتيت، مثل: مرضى جمع مريض، يعني مختلفة لا في الأنواع فقط، بل تجد حتى في النوع الواحد خِلاف.

ويقول بعض المفسرين: لو ذهبت إلى سوق مدينة الرسول ﷺ ووقفت في سوق التمور، فستجد أنواعاً كثيرةً مُختلفة الطُعوم والأشكال والأحجام، كلها تحت مُسمى واحد هو التمر، وكذلك باقي المزروعات، ثم يُعرِّج القرآن على ذكر العلَّةِ من إخراج النباتات فيقول: ﴿كُلُوا۟ وَٱرۡعَوۡا۟ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه]، أي قائلين لكم: ﴿كُلُوا۟ وَٱرۡعَوۡا۟ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ﴾: أي أبحنا وأذِنّا لكم أن تأكلوا بعضها، وتعلُفوا دوابكم البعض الآخر.

قال العلماء: وكلمة ﴿كُلُوا۟﴾: تدل على أن الله الخالق، خلق الحياة، وخلق مُقومات الحياة، وأولُها القوت من الطعام ثم الشراب وهو الماء، ثم الهواء، وهذه الأمور الثلاثة تناسبت فيها المُلكيةُ مع الأهمية - كما قال علماؤنا - قالوا: أنت تحتاج إلى الطعام، وتستطيع أن تصبر عليه إلى شهر، على قدْرِ ما يختزن جسمك من دُهن وشحم ولحم، يتغذى منه الجسم عند فقدان الطعام، وآخِرُ مخازن الغذاء في الجسم «العظم» فينفذ الدُهن أولاً، ثم اللحم، ثم العظم، ولذلك رأينا «زكريا» عليه الصلاة والسلام عندما أراد أن يُعبِّر عن ضعفه الشديد قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّى﴾ مريم[٤].

قال المفسرون: وصبرُك على الطعام هذه المدة الطويلة، جعله الله يُتَمَلَّكُ، لأنك تستطيع في هذه المدة أن تسعى في تحصيله بعمل أو طلب من غيرك، ثم يأتي الماء في كونه من مُقومات الحياة، فلا تصبر عليه أكثر من ثلاثة أيام، ولذلك قَلَّ أن يُمَلِّك اللهُ الماءَ لأحد.

أما الهواء: فلا تصبر عليه إلا لحظات، فمن رحمة الله وحكمته ولطفه بعباده أنه لم يُمَلِّكِ الهواء لأحد؛ لأنه لو مَلَكَهُ إنسان، فمنعكَ الهواء فإنك تموتُ قبل أن يرضى عليك - كما قال العلماء -.

قال صاحب «نظم الدرر»: ولمّا كَمُلَ هذا البرهان القويم - بالإشارة إلى مافي المخلوقات المذكورة على وجود الصانع ووحدانيته - دالّاً على العليم الحكيم: قال مُنبهاً على جلاله مقداره عز وجل، وعلى انتشار أنواره: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ٥٤﴾: أي لأصحاب العقول.

والعقل: من العِقال، الذي تُربَطُ به الدابة حتى لا تَشردَ من صاحبها وكذلك العقل، إنما خُلِقَ لتعقل غرائزك وتحكُمها على قَدْرِ مُهمتها في حياتك، وسُمِّيت العقول كذلك «النُّهى»: لتنهاك عن شطحاتِ الغرائز، ولتقول لك: احذرْ أن تُطلق العنانَ لشهواتك، ولست وحدك في هذا الكون، وكيف يكون حال البشر لو أطلق كل واحد منهم العنان لشهواته؟ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ٥٤﴾.

ومن جميل شعر زيد بن عمرو بن نفيل، ما ذكره ابن إسحق في الذي قاله موسى لفرعون، حيث قال:

وأنت الذي مِنْ فضلِ مَنٍّ ورحمةٍ بعثتَ إلى موسى رسولاً مُناديا
فقلتَ: ألا يا اذهبْ وهارونُ فادْعوا إلى الله فرعونَ الذي كان باغيا

فقولا له: آأنت سويتَ هذه بلا وتدٍ حتى استقلّتْ كما هِيَا
وقولا له: آأنت رفعتَ هذه بلا عَمَدٍ، أرفقْ بِكَ بانِيا
وقولا له: آأنت سوَّيت وسطها مُنيراً إذا ما جنَّهُ الليلُ هاديا
وقولا له: من يُخرج الشمسَ بُكرةً فيُصبح ما مَسَّتْ من الزرعِ ضاحيا
وقولا له: من يُنبتُ الحبَّ في الثرى فيُخرجَ منه البقلَ يهتزُّ رابيا
ويُخرجُ منه حَبَّهُ في رؤوسِهِ وفي ذاك آياتٌ لمن كان واعيا

قال القرطبي: كل هذا كان من موسى لإقامة الحُجة على فرعون في إثبات الصانع لهذا الكون، وكان ذلك جواباً منه عليه الصلاة والسلام على كلام فرعون: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: ثم إنَّ موسى أَفْهمَ فرعون: أنَّ الله خلق الإنسان من الأرض، وسيُعيده إليها بالموت، ثم يُخرجه منها بالبعث، فهناك بعثٌ إذاً، وذلك ما ذكرته الآية: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ٥٥﴾ [طه].

قال العلماء: ﴿مِنْهَا﴾: أي من الأرض التي سبق أن قال عنها موسى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾، ثم ذكر مع ذِكرِ الأرض مراحلَ ثلاث هنا، قد ذَكَرَ الله مرحلةً رابعةً في [سورة الأعراف]، فقال: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ٢٥﴾، فمنها الخلق، وفيها الحياة، وإليها الرجوع بالموت، ومنها الإخراج للبعث والحساب.

وقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾، قال أهل التفسير: هذه مرحلةٌ مشاهدةٌ معلومةٌ لدينا، فكل من يموت منا ندفنه في الأرض، لذلك يُشير بعض الشعراء إلى هذا المعنى بقوله:

إن سئِمتَ الحياة فارجع إلى ... الأرض تَنَمْ آمِناً من الأوصابِ
هي أمٌّ أَحْنَى عليكَ من الأم ... التي خلَّفتكَ للإتعابِ

فبعد الموت يُسارع أقرب الناس إلى الميت ليُواريه في التراب، فنرى الأم التي مات وحيدُها، لا تُطيق وجوده إلى جانبها اليوم يوماً واحداً، وقد كانت قبل وفاته لا تحتمل فِراقه ساعة من زمان.

﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾: أي بالإماتَةِ، إعادة البذر إلى الأرض.

يا عبد الله -: ومهما عشت ستعود إلى أمك الأولى الأرض، والعمر هنا مهما طال فإنه قصير، فاقنع بالحلال، واجتنب الحرام، وقالوا:

العيش ساعاتٌ تمر ... وخُطوب أيامٍ تَكُرُّ
اقنعْ بعيشِكَ ترضَهُ ... واترك هواكَ تَعِشْ حُرُّ
فلرُبَّ حتفٍ ساقَهُ ... ذهبٌ وياقوتٌ ودُرُّ

وقوله: ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾: أي بالبعث يوم القيامة، بنظام خاص يختلف عن الإخراج الأول؛ لأنه سيبدأ بعودة الروح ثم يكتمل لها الجسد، وسيقف كل إنسان يوم القيامة أمام الله لا استثناء لأحد، بما في ذلك فرعون، بهذا الكلام جاء موسى مُبشراً ومُنذراً لفرعون.

وفي حديث البراء بن عازب أن النبي ﷺ قال: «إن العبد المؤمن إذا خرجت روحه، صعدت به الملائكة إلى السماء السابعة، فيقول الرب: اكتبوا لعبدي كتاباً في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتُهم، وفيها أُعيدهم، ومنها أُخرجهم تارةً أخرى».

وقد ورد في الآثار قولهم: بِرُّوا في الأرض فإنها بكم بَرَّة.

وسُئِلَ يحيى بن معاذ: ما بال الإنسان يُحب الدنيا؟

فقال: حُقَّ له أن يُحبَّها، منها خُلِقَ، وهي أمه، ومنها عيشه ورزقه في حياته، وفيها يُعاد فهي كِفاتُهُ، وفيها كسبُ الجنة فهي مبدأ سعادته، وهي مَمَرُّ الصالحين إلى الله، فكيف لا يحب الإنسان طريقاً يأخذ بسالِكِهِ إلى جِوار ربه تبارك وتعالى.

قال صاحب «التحرير»: ويدل قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾: على أنَّ دفن الأموات في الأرض هو الطريقة الشرعية لُمواراة الموتى، سواء كان شِقّاً أو لحداً؛ لن كِليهما إعادةٌ في الأرض، ثم قال: فما يفعله بعض الأمم غير المُتدينة من إحراق الموتى بالنار، أو إغراقهم في الماء، أو وضعهم في صناديق فوق الأرض، فذلك مُخالف لسنة الله وفطرته؛ لأن الفطرةَ اقتضت أن الميت يسقط على الأرض فيجب أن يُوارى فيها، وكذلك كانت أول مُواراةٍ في البشر حين قتل أحد ابني آدم أخاه - كما جاء في [سورة المائدة] التي تُسمى بسورة العقود، وسورة الأخبار -: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾، وكان أصحاب رسول الله ﷺ يُسمون سورة المائدة سورة الأخبار، وكان الناس إذا علموا من أحد نقضَ عهدٍ أو نقض عقد، أو ما يُشبه ذلك قالوا: إن فلاناً لا يقرأ سورة الأخبار، قال جرير:

إن البعيثَ وعبدَ آل مُتاعِسٍ   لا يقرآن بسورة الأخبار

قال الشعراوي: هذه كلها قضايا كونية، ألقاها موسى على فرعون علَّها تَردُّه عما هو عليه من ادعاء الألوهية، فكيف يدَّعي الألوهية وليس له في الربوبية شيء، فلا يستحق الألوهيةَ، ولا يستحق أن يُعبَدَ إلا من له الرُبوبية أولاً، ولذلك قالوا: الذي يأكل لُقمتي يسمعُ كلمتي.

قال القاسمي: ثم أشار الربُّ عز وجل إلى عناد فرعون فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾ [طه]، والمُراد: الآيات التي أجراها الله على يد موسى؛ الدالة على وجود الله تعالى، ووجوب ألوهيته، وعلى صِحَّةِ نبوة موسى وهارون، وهي تسعٌ - كما قال تعالى في [سورة الإسراء ١٠١]: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾، وهي: انقلاب العصا حيةً، وتبدُّلُ لون اليد بيضاء كفِلقَةِ القمر، وسِنُوّ القحط، والجراد، والقُمّل، والضفادع، والدم، والطوفان، وانفلاقُ البحر، وقد استمر تكذيبه بعد جميعها، حتى لمّا رأى انفلاقَ البحر اقتحمه طمعاً للظَفَرِ ببني إسرائيل.

وقوله: ﴿ كُلَّهَا ﴾، تأكيد للآيات بأداة التوكيد - كُلَّها - لزيادة التعجب من عناده، ونظير ذلك في [سورة القمر]: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾.

قال المفسرون: لمّا سأل فرعون موسى: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾؟

ثم جاء الجواب المُفْحِمُ من موسى: ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الشعراء]، التفت فرعون إلى من حوله من الملأ - قال ابن عباس -: وكانوا خمسمائة، عليهم الأساور، وكانت للملوك خاصة، وقال لهم مُخاطباً: ألا تستمعون؟ وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الشعراء]: أي إلى هذا النبأ العجيب، وهو توحيد المعبود لا إله إلا هو، يقول فرعون: إن ما قاله موسى قولٌ مُنكر لا يصحُّ السُكوت عليه، لأن القِبط كانوا يقولون بتعدد الآلهة، ثم قال فرعون: إن ما قاله موسى زَعْمٌ يُبطل عقيدتكم، وعقيدةَ آبائكم، وهذا القول لا يقوله فرعون إلا إذا أحسَّ من قومه ميلاً لما قاله موسى، فأراد أن يستثير نُفوسهم، وألا يتأثروا بكلام موسى.

قال المفسرون: ولكنَّ موسى أدرك مُراد فرعون، فزاد في إيضاح الأمر، وأجاب بجوابٍ فيه تقرير الأمر الأول: وهو أن الخالق والربَّ هو الله لا فرعون، فقال: ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الشعراء].

قال البروسوي: أفهَمَهم موسى أنه كان لهم آباء، وأنهم قد فنوا، وأنَّ الذي أفناهم هو الله ربُّهم وربُّكم، وهؤلاء الآباء كانوا قبلك يا فرعون، قبل أن تولد، وقبل أن تدَّعيَ الألوهية.

قال العلماء، ومنهم صاحب «صفوة التفاسير»: لمّا ضيَّقَ موسى الخِناق على فرعون، غَضِبَ، وأراد أن يخرج من هذا الجدل، وهذه المُناظرة الخاسرة، فقال مُحاولاً إنقاذ موقفه: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشعراء].

قال البروسوي وغيره: وأطلق فرعون وصف الرسول على موسى من باب التَهَكُّم والاستهزاء، بقرينة رميه بالجنون المُحقَّقِ في رأيه، كما أضاف الرسول إلى المُخاطبين: ﴿ رَسُولَكُمُ ﴾ تَرَفُّعاً بنفسه أن يكون مقصوداً بالخِطاب.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: لمّا رأى موسى سوء فهمهم، وعدم اقتناعهم بالاستدلال على وحدانية الله تعالى بالتكوين والخلق، انتقل إلى ما لا قِبَلَ لهم بإنكاره، انتقل إلى حُجَّةٍ سَمَّاها «حجَّةً خليليةً»: أي كحُجَّةِ إبراهيم الخليل حين قال للنمرود: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة ٢٥٨]، وكذلك موسى استدل بالتصرف العجيب المُشاهَدِ كل يوم مرتين: وهما الشروق والغروب، فقال قولاً يزيد الأمر وُضوحاً والحقَّ بياناً: ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشعراء]: أي رب الشروق والغروب: أي مُكوِّنهما وخالِقهما، أو

ربُّ مكان شروق الشمس، ومكان غروبها، وما يقع بينهُما من الأحوال، فما بين الشروق والغروب، يقع الضُحى، والزوال، والعصر، والاصفِرار، وما بين الغروب والشروق: فيقعُ الشَّفَقُ والفجر، والإسفار، وكلها دلائل على تكوين ذلك النظام العجيب.

قال الرازي: كانت أجوبةُ موسى لفرعون، هي أجوِبَةُ إبراهيم مع النمرود، ثم انتبه إلى ختام جواب موسى ما أحسنه وأجمله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، حيث كان قوله أَنْكَأَ مع أنه ألطفُ، وأوضحَ مع أنه أسترُ وأشرف، كما قال صاحب «نظم الدرر».

قال ابن عاشور: وهذا التذييل في الآية: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، جاء لأن موسى جعل هذا القول مُقابل قول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء]؛ لأن الجنون يُقابله العقل، ذلك أنَّ موسى لا يَنَهُم في أول الأمر، فلما رأى منهم المُكابرةَ، ووصفوه بالجنون خاشَنَهم في القول، وعارض قول فرعون بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ما تُخاطبون به، أي فلا تكونوا أنتم المجانين، وهذا يُشبه قول أبي تمام لشخصين قالا له: لِمَ تقول ما لا يُفهم؟ قال: لِمَ لا تفهمان ما يُقال؟

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: كان الحوار يُعبر عن الصِراع بينهما، فلما سَخَن الصِراعُ تغيرت اللهجة، فبعد أن أقام موسى الحُجة العقلية الدامغةَ على فرعون، تفَلَّتَ فرعون من دائرة الحِوار، وبدأ نِقاشاً من نوع جديد لا يستطيع موسى أن يُجاريه فيه، وهو: الاحتقار والشتم والتهكم من فقره ولباسه وحُبْسَةِ لسانه، ثم لمّا رأى شِدَّةَ قوة موسى في الحق مالَ إلى التهديد والتخويف ليقطَعَ دعوةَ موسى من أصلِها.

ثم قال ابن عاشور: وهذا شأن من قهرتهُ الحَجةُ، وفيه كبرياء، أن

ينصرف عن الجدل إلى التهديد، وهذا ما حصل من فرعون حيث قال ما ذكره الكتاب الكريم في [سورة الشعراء]: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

واللام في قوله: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى ﴾: مُوطئةٌ للقسم، وتدل على أن فرعون أقسَمَ على تنفيذ تهديده.

وقوله: ﴿ لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾: فيه تذكيرٌ لموسى بهولِ السجن عند فرعون، وهذا يُشير إلى أنَّ موسى كان يعرف أهوال سجون فرعون وشِدَّتها، لأنه تربى عنده.

قال المؤرخون: إن سجن فرعون كان أشدَّ بلاءً من القتل، فالسجين فيه مقطوع عن العالم إلى ما لا نهاية، فهو لا يدري متى يخرج منه، ونحن نقرأ في قصة يوسف قوله تعالى: ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [يوسف]، وكان في بعض سجونه آبارٌ عميقة يُطرح فيها السجين مع الهوام، فتقتلهم أحياناً هذه الهوام.

قال ابن عاشور: لمّا رأى موسى مُكابرة فرعون عن الاعتراف بالحق، شَعَرَ أنه لا فائدة من الإرسال في الاستدلال؛ لأن فرعون قد تعالى عن الحق، عندها عَدَلَ موسى وتحول إلى إظهار آية من خوارق العادات؛ لأن المُعجزة تجمع بين أمرين:

الأول: هو الدلالة على وجود الصانع وحكمته.

الثاني: هو الدلالة على صدق مُدَّعي النبوة والرسالة، وهو موسى، ولذلك قال له موسى لمّا سَمِعَ منه التهديد بالسجن: ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشعراء]، يعني: يا فرعون، إذا كنت لم تقتنع بكل البراهين

السابقة، فهل إذا جئتُكَ بمعجزةٍ واضحة دالَّةٍ على صدق رسالتي، أتجعَلُني من المسجونين كذلك؟!!!

طلب فوعون للمعجزة:

ماذا كان جواب فرعون على قول موسى: ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾؟.

قال العلماء: جاء جواب فرعون على كلام موسى بعيداً عن التصريح بالالتزام إذا جاءه موسى بشيء مُبين، ولكنه جاء بكلام مُحتمل، فقال: ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الشعراء]، ليستطيع أن يُنكرَ على موسى.

قال بعض المفسرين: تلمسُ في كلام فرعون التناقض؛ لأنه كان من المفروض أن يُصِرَّ على سجن موسى بمُجرد سماع كلامه: ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ ﴾، ولكن الله تعالى يُريد أن يُظهر الحُجَّةَ على فرعون، فجعل فرعون هو الذي يطلب المُعجزة بنفسه، لأن موسى ما كان ليأتيَ بالمعجزة إلا أن يطلُبها فرعون.

قال البروسوي: لمّا قال فرعون: ﴿ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾، عندها قال موسى لفرعون: ما هذه التي بيدي؟

قال فرعون: هذه عصا، فألقاها موسى، فإذا هي كما قال تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الشعراء].

والثعبان: الحية الطويلة الضخمة، والإلقاء: الرمي من اليد إلى الأرض، و إذا: للمُفاجأة، وهي: حُدوث الحادث من غير ترقُّبٍ.

وقوله: ﴿ مُّبِينٌ ﴾: اسم فاعل من الفعل الرُباعي: أبانَ، الذي بمعنى: بانَ، بمعنى: ظهرَ، ومُبين: تدل على شدة الظهور، لأن الزيادة في المبنى تدل

على الزيادة في المعنى: أي ثعبان ظاهرٌ أنه ثعبان لا لَبْسَ فيه ولا تخييل.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: ألقى موسى عصاه في صالة القصر العظيمة، فظن فرعون أنَّ العصا إنما سقطت من يد موسى بسبب الاضطراب والمُناقشة، فتحولت أنظارُ الواقفين إلى العصا، وهي ترتطم بأرض الصالة الرُّخامية، ثم لم تكدِ العصا تلمسُ الأرض حتى تحولت إلى ثعبان هائل يتحرك بسرعة، اتجه الثعبان إليه، فاصفرَّ وجهه، وانكمَشَ في كرسيه، وصرخ طالباً إبعاد الثعبان، فمدَّ موسى يده إلى الثعبان، فعاد في يده عصا كما كان، عندها ساد الصمت القاعة الكبيرة بعد هذه المعجزة العظيمة: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ ﴾، والمُتتبع لقضية العصا وتحوُّلها إلى ثعبان في كتاب الله يُلاحظ أن القرآن مرةً يُسميها ثعباناً، كما في [سورة الأعراف]: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾، وكذلك في [سورة الشعراء] قال تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ ﴾.

وجاء وصفها بأنها حية في [سورة طه]: ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾. وجاء وصفها كأنها جانٌّ في موضعين: في [سورة النمل ١٠]: ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾، وفي [سورة القصص ٣١]: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾.

فلماذا هذا التنوع؟

والجواب كما قال العلماء: لأنها جمعت كلَّ هذه الصفات.

فالجانُّ: ذَكَرُ الحيات، وهو شديد الحركة والاهتزاز، وجمعه: جِنّان.

والجانُّ: هو واحد الجن فجمعه جنّ، وهي في شكلها المرعب كأنها حيةٌ، وفي التلوّي والضخامة كأنها ثعبان.

قال الرازي: لمّا أتى موسى بهذه الآية، قال له فرعون: هل غيرها؟

قال موسى: نعم، وأخرج موسى يده قائلاً لفرعون: ما هذه؟

قال فرعون: يدك، فما فيها؟

فأدخلها موسى تحت إبطه ثم نزعها ولها شُعاع كنورِ الشمس يكاد يُعشي الأبصار، كما قال صاحب «نظم الدُّرر»، وذلك قوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيۡضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ۝٣٣﴾ [الشعراء].

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾: أي سَلَّها من جيب القميص، ثم المجيء بـ «إذا» الفُجائية: يدلك على سُرعة انقلاب اليد بيضاء.

وقوله: ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾: أي من شدة بياضها مع سُمرةِ جلد موسى مما يلفت نظرَ الناظرين لأُعجوبته، والمجيء بـ «اللام» في ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾: يدل على الاستغراق العُرفي، أي لجميع الناظرين في المجلس.

قال الرازي: لمّا أتى موسى بهذه الآية المؤثرة، أراد فرعون أن يُعَمِّي هذه الحُجة على قومه، فذكر فيها ثلاثة أمور ليخرج من ورطته:

أولاً: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤﴾ [الشعراء]، وكان زمانُهم زمان نشاط السحرة وكان جمهورهم يعتقدون أن الساحر من المُمكن أن يفعل هذا، ولذلك استغل فرعون هذه النقطة، وقال عن موسى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

ثانياً: قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ﴾ [الشعراء ٣٥]، وهذا تحريضٌ من فرعون على مُعاداة موسى، وضربٌ على وترٍ حساس عند الناس، وهو مُفارقة الوطن، وهو أمر صعب على النفوس، ولذلك استغله فرعون.

قال الجزائري: وهذا من المكر السياسي، حيث جعل قضية موسى قضيةَ انقلاب على الحُكم والاستيلاء على البلاد بواسطة السحر.

ثالثاً: قوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ٣٥﴾: أي ما رأيكم فيه، وما الذي أعمله؟ وذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ٣٤ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ٣٥﴾ [الشعراء].

قال المفسرون في هذه العبارة التي صدرت عن فرعون: هذه هي الألوهية الكاذبة التي انحدرت إلى مرتبة العبيد، ومتى كان الإله يأخذ رأيَ عبيده، ويطلب منهم المعونة والمشورة؟ ولو كان إلهاً بحق لكان عنده الحل، ولديه الرَدُّ، وهذه العبارة تدل على أن القائل لها أدنى من المَقُولِ لهم،كما تدل العبارة على أن فرعون أدرك أن مكانته قد انحطَّتْ، وأنه نزل عن كبريائه وغطرسته وإلا فكيف يُشاور الإله مَألُوهاً.

قال الآلوسي: لقد نزل فرعون عندما رأى المعجزة، من ذروة الفرعَنَةِ إلى حضيض المسكَنَةِ.

حشر السحرة:

وقد ذكر الرازي: أن المؤرخين ذكروا أن فرعون قرَّرَ قتل موسى وقتها، ولكن الفرصة لم تُتَحْ له، ثم إنَّ بعض الحاشية أشاروا عليه بعدم قتله قائلين: إنْ قتلته، أدخلتَ على الناس في أمره شُبْهَةً، ولكن أرجِهْ وأخاه، واحشُرْ السحرةَ ليُقاوموه، فلا يثبتُ له عليك حجة.

وقال البروسوي: أشار عليه الملأ أن أخِّرْ أمر موسى وهارون حتى تنظر ولا تتعجل بقتلهما قبل أن يظهر لك كَذِبُهما، حتى لا يُسيءُ عبيدُك الظنَّ بك، فإذا ظهر كَذِبُهما وتبيَّن أنهما ساحران عذَرَك الناس في قتلهما، وذلك قوله

تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ٣٧ ﴾ [الشعراء].

قال أحمد بهجت في كتابه «أنبياء الله»: بعد إظهار المُعجزتين، صمتت الأصوات في القصر، وانغرس تأثير المعجزتين في النفوس، يحمل تياراً من الخوف، عندها أشار فرعون إلى موسى وهارون بالذهاب قائلاً: إذهبا الآن وسنتحدث فيما بعد، ثم التفت إلى الملأ قائلاً لهم: ﴿ قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ٣٤ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ٣٥ ﴾ [الشعراء].

قال صاحب «اللباب»: أظهرَ لهم فرعون من نفسه أنه مُتَّبعٌ لرأيهم، وغايتُهُ من ذلك جذب القلوب إليه لئلا تتأثر بما قال موسى، عندها قالوا: ﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ٣٧ ﴾ [الشعراء].

جاؤوا بكلمة ﴿ بِكُلِّ ﴾، وبصيغة المُبالغة ﴿ سَحَّارٍ ﴾ ليُطيِّبُوا قلبه، وليُسَكِّنوا بعضَ قَلَقِه، ثم اتفقوا على جواب واحد وهو قولهم: ﴿ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ ﴾.

قال الرازي: رضيَ فرعون بما قالوه، وأحبَّ هذا الرأي.

ثم قال الرازي: وعَمِيَ عن الحق، وحُبّكَ الشيءَ يُعمي ويُصِمّ، وهذا صحيح، ففي دراسة حديثة للباحث «أندرياس بارتليز» الذي قاد فريقاً يتعلق بالبحث في الدماغ، فقالوا: إنَّ مناطق من الدماغ تتوقف عن العمل عند التطلُّعِ إلى المحبوبين، سواءً كانوا عُشاقاً أو أطفالاً، وإنَّ هذه المناطق تُمثّل النظام المسؤول عن التقديرات السلبية، ثم قال: وإنَّ أدمغة الأُمهات تتشابه

في نشاطها عندما يتطلَّعْن إلى أولادهِنَّ، أو إلى الرجل الذين يُحِببنَهُنَّ، وأنَّ المناطق المسؤولة عن التفكير النقدي تتوقف عن العمل، ثم قال: وهذا يؤكد ويُدلّل أنَّ الحُبَّ ربما كان فعلاً أعمى سواء كان هذا الحب من أُمٍّ لولدها، أو من عاشقٍ إلى من يعشق، ورحم الله البروسوي عندما أشار إلى هذا المعنى حين قال: ولو قابل فرعون وقومه موسى بالتسليم والقبول لسَلِموا من كل آفةٍ، ولكن الذي منعهم من قبولِ الحق، حُبُّ الجاه، ولذلك قالوا: حُبُّكَ الشيء يعمي ويُصِمّ، ثم قال: وهذا التدبير من إلقاء الشيطان في الأنفس الخبيثة ليدفع الحق الصريح الواضحَ، وخُبثُ القول والفعل إنما يجيءُ من خُبثِ النفس، ولذلك قالوا: فحسبُكم هذا التفاوت بيننا فكل إناءٍ بما فيه ينضحُ.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: التقى فرعون مرةً أُخرى بالملأ، وكان اجتماعاً تاريخياً، إذْ أعلنَ في هذا الاجتماع أنه هو وحده المُطاع: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص ٣٨]، وكان بين المُجتمعين أُناسٌ يدركون أنَّ فرعون كاذبٌ، ولكنهم سكتوا ووافقوه، ثم سأل فرعون المستشارين: ما رأيكم بموسى؟

قال هامان: إنه كاذب، وقال وزير آخر: مجنون، وقال كاهن أشيَبُ: أصابه مسٌّ، ثم قاطعهم فرعون قائلاً: ما هي المؤامرة التي يُخفيها موسى؟

سكت المُستشارون، وسكت الملأ نِفاقاً لفرعون، وانتظروا أن يضع هو الكلمات في آذانهم فيُردِّدوها في أفواهِهم كالببغاوات، ثم ساد صمتٌ قال بعدها فرعون: أعتقد أن موسى ساحر يريد أن يخرجكم من أرضكم.

ثم يقول «أحمد بهجت»: وتلمس هنا أنه في ظل حُكم الجبابرة، أهلِ الحُكم المُطلق عندما يجتمع وجوه القوم وكبارُهم لإبداء الرأي أمام الجبار،

فإنَّ اجتماعهم لا يزيد عن كونهم يجتمعون لتلقي رأي الجبار وترديده، ولذلك صرَّحَ المستشارون بعد أخذ هذه الكلمة من فم فرعون: ساحر، نعم إن موسى ساحر، لقد انحلت المُشكلة، سنجمع السَّحَرَةَ، وسيكون ذلك في لقاء مع موسى وهارون في يوم مُعين.

قال «أحمد بهجت»: تم الاتفاق، وخرج من قصر فرعون عشرةُ رجال في مركباتٍ، وأسرعوا في أنحاء مصر، وبعثوا المُنادين ليأمروا السحَرَةَ بالتوجه إلى قصر فرعون لأمرٍ هام، واستدعى فرعون موسى رسول الله للاتفاق على موعد يحضره الناس جميعاً، لكشف أمر موسى وأنه ساحر، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشعراء]. عُيِّنَ الموعد، وهو يوم العيد عندهم، والوقت ضُحىً، وقالوا لأهل البلاد: ﴿ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾؟، وغاية الاستفهام هنا الحثُّ على الحضور، وليس مُجرد الاستفهام بدليل عدم اقترانه بجواب.

وقولهم: ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾: أي فنبقى على ديننا ولا نتبع موسى وأخاه على هذا الدين الجديد، وكانوا يرجون بهذا أن يكونَ النصر لهم.

أنواع الكفر:

قال العلماء: قال فرعون ومَنْ معه عن آيات الله: إنها سحر، مع أن فرعون رأى الآيات عياناً وحِسّاً، لا خبراً وسماعاً، ثم أصرَّ على التكذيب: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ ﴾ [طه]، جحدَ فرعونُ آيات الله وأنكرها، وجحد

الملأُ الآياتِ بجحوده، وكذَّبوا لمّا كذَّبَ، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤ ﴾ [النمل].

قال القرطبي: ﴿ وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ﴾: أي تيقّنوا أنها من عند الله وليست سحراً، فالمسألة لَدَدٌ وخصومة، واستكبار عن الإيمان بموسى، فكان كفر فرعون: **كفرَ جحودٍ**: وهو كتمانُ الحق باطناً، وعدم الانقياد له ظاهراً، مع العلم به ومعرفته باطناً، ومثل هذا الكفرِ: كُفر اليهود بالنبي ﷺ وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ ﴾ [البقرة ٨٩]، ثم قال تعالى: ﴿ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩ ﴾ [البقرة].

لم يقل الله: فلعنةُ الله عليهم، وإنما قال: ﴿ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩ ﴾، إشارةً إلى سبب اللعنة وهو الكفر، لا الجنس ولا العرق ولتشمل الآيةُ كل كافر.

وهناك: **كفر عناد**: وهو الإقرار بالحق مع عدم الانقياد له استكباراً، وذلك مثل كفر إبليس، قال تعالى: ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤ ﴾ [البقرة]، فهو لم يُنكر، ولكنه اعترض على الأمر حسداً لآدم.

وهناك: **كفر جهل**: وذلك كما ذكر ربُنا في [سورة يونس ٣٩]: ﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ ﴾، هذا الصنف من الناس هم المُكذِّبون بالحق قبل أن يتبيّنوا جماله، وهكذا كان المشركون مع رسول الله ﷺ، فإنهم بمجرد سماع رسالته عليه الصلاة والسلام كذبوا به، ولكن عندما تستقبل الحق والقرآن بروح لا عناد فيها ولا كِبر، فإنك ستصل إلى الحق، ومثال ذلك: عمر بن الخطاب.

وهناك: **كفر نفاق**: وهو الانقياد ظاهراً للدين أمام الناس رياءً، والإنكار وعدم التصديق باطناً وقلباً، وذلك مثل كفر ابن سلول وأتباعه: ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾** ﴾ [البقرة].

وهناك: **كفر الظنّ أو الشكّ**: ومثاله في قوله تعالى: ﴿ **وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾** ﴾ [الكهف]، ظَلَمَ نفسه بالكفر، والشك في اليوم الآخر.

قال العلماء: وهذه الأنواع كلها، من الكفر، تُخرج الإنسان عن ملة الإسلام.

وهناك: **كفر عملي**: لا يُخرج الإنسان من المِلَّةِ: وهو كلُّ معصية أَطلَقَ عليها الشارعُ اسمَ الكفر مع بقاءِ اسم الإيمان على فاعِلها: مثل قوله ﷺ يوصي أمته: «لا ترجعوا بعدي كُفّاراً يضربُ بعضكم رقابَ بعض»، ومثل قوله ﷺ: «سِبابُ المسلم فسوق، وقِتاله كفر»، مع بقاء الإيمان، وفي قوله تعالى: ﴿ **وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟** ﴾ [الحجرات ٩]، وكقوله ﷺ: «لا يَزْني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ»، مع قوله ﷺ: «مَنْ قال لا إله إلا الله دخل الجنة».

أو يكون كفر النِعمة بعدم الشكر، ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل]، وفي هذا قالوا:

إذا كنت في نِعمَةٍ فارعَها ... فإنَّ المعاصي تُزيلُ النِعم
وحافظْ عليها بشكرِ الإله ... فإنَّ الإله شديد النِقم

قال البروسوي: كان أهل «أيلةَ» يستنجون بالخبز الذي هو أصل النِعَمِ الإلهية، ولذلك أُمِرَ آدم بالحِراثة.

تحديد يوم اللقاء «يوم الزينة»:

قال تعالى: ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ ﴾ [طه]؟

قال في «الإرشاد»: قال ذلك فرعون ليحمِلَ القِبط على عداءِ موسى؛ لأن فرعون يُدرك شِدَّةَ ارتباط قومه بأرض مصر، ولو قلت لواحدٍ من المصريين: اترك هذه الأرض لأيام، يثور كما قال الشعراوي، فاستغل فرعون هذا الأمر واستعداهم على موسى، وعندها ثار القوم لا لألوهية فرعون المُهددة، إنما دفاعاً عن أرضهم واقتصادهم المُهدد في زعمِ فرعون، والحقيقة أن فرعون خشيَ على مُلكه ومكانته فحوَّلَ المعركة مع موسى وهارون إلى رعيته، وإلا فهل يستطيع ساحر أن يُخرجَ ملكاً من مُلكه، وإن كان موسى ساحراً كما يدَّعي الطاغية، فصار المعنى: لقد جئتنا من مكانك الذي كنت فيه بعد غيبة طويلة يا موسى لتوهِمَ الناس أنك جئت بآية توجِبُ اتباعك، والإيمان بك، حتى يكون لك الاستعلاء والغلَبَةُ على أرض مصر - ثم تابع فرعون كلامه قائلاً: - ونحن قادرون على مُعارضةِ سِحرك بسحرٍ لنُثبتَ للناس أنَّ ما أتيت

به ليس من عند الله، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ ﴾ [طه].

قال القرطبي: المعنى: اجعل لنا يوماً معلوماً ومكاناً معروفاً وليكن الموعد في مكان مستوٍ، لا يحجب العين، ليس فيه مُرتفعاتٌ ولا منخفضات، كما تستوي فيه المسافة الفاصلة بين الفريقين.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: مكاناً مُستوياً من الأرض، لا وَعْرَ فيه ولا جبل، ولا أكَمَةً ولا مُنخفض.

قال الآلوسي: ومُراده: مكاناً يتبيَّنُ فيه الواقفون كل شيء، ليَرَوْا ما يصدر منك ومن سَحَرَتِنا.

قال الآلوسي: وفي هذا الكلام ما يدلك على أنَّ فرعون أظهر الجلادةَ حتى لا يُقال عنه، أنه ضَعُفَ قلبه، فهو يتكلم كأنه واثق من الغَلَبَةِ، ونُلاحظ في سياق الآيات، أنَّ فرعون هو الذي طلب الموعدَ والمُهلة، لأنَّ صاحب السحر يحتاج إلى تدبير وسائل السحر، وتدبيرُ هذه الوسائل يحتاج إلى وقت ومُدَّةٍ، أما صاحب المعجزة فلا يحتاج إلى وقت ولا إلى مُدة.

قال صاحب «التأويلات النجمية»: إنما قال فرعون ما قال؛ لأنه من أهل البَصْرِ لا من أهل البصيرة، ولو كان من أهل البصيرةِ لرأى مجيء موسى إليه لا لإخراجه من مُلكه وأرضه: ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ ﴾، وإنما لإخراجه من ظُلمات الكفر، إلى نور الإيمان، ومن ظُلمات البشرية، إلى نور الربانية.

ماذا كان جواب موسى على طلب فرعون: ﴿ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ ﴾ [طه]: مكاناً لا يحجب الرؤية،

ونلتقي في منتصف الطريق؟

كان الجواب ما ذكره ربنا في [سورة طه]: ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾.

قال العلماء: حدَّد فرعون المكان: ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾، فبقيَ تحديد الزمان لإتمام الحدث، لذلك حدَّده موسى بقوله: ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾، لأن كلَّ حدثٍ لا يتمُّ إلا في زمانٍ ومكانٍ، ثم حدَّد الساعة: ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾.

و﴿ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾: هو يومٌ يكون مشهوداً عند القِبط، فهو يوم يجتمع فيه كل سكان مصر لإظهار الوفاء للنيل، فيخرج النساء بأبهى الحِللِ لاختيار عروس النيل التي سيلقونها فيه، ويكون ذلك في وقت فيضانه، ويُسمى: «يوم كسر الخليج عند القِبط»، أو الخلجان: وهي المنافذ أو الترعُ المجعولةُ على النيل حيث يُرسل الزائد مِنْ مياهه إلى الأرضين البعيدة عن مجراه للسقي، فتنطلق المياه في جميع النواحي التي يمكن وصولُها إليها، ويزرعون عليها - كما قال صاحب «التحرير والتنوير» - وكان القُضاة لا يقضون بأمر الخراج إلا بعد أن يَطلَّعُوا على مقياس النيل، فإن رأوْهُ يُوفِّي بريِّ البلاد حدَّدوا الخراج، وإلا فلا.

وزيادة مياه النيل هو توقيتُ السنة عند القِبط، وهو أول يوم من شهر «توت» القِبطي، وهو شهر «أيلول»، وأول شهر «توت» هو عيد النيروز عند الفُرس، وهي مبني على زيادة النيل.

قد يقول قائل: لماذا اختار موسى هذا اليوم، وعيَّنَ ساعةً فيه؟

والجواب: إن موسى كان على ثقة تامة بتأييد الله ونصره له، فأحب أن

يكون ذلك في وقت يكون المُشاهدون أكثر ما يكونون وُجوداً، وأوضحَ رُؤيةً، وأعظمَ خِزْياً لفرعون، فهي فُرصةٌ سانحةٌ أراد موسى ألا تضيع منه.

وقوله: ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ٥٩﴾: جاءت «يُحشرَ» بالبناء للمجهول، مما يدل على أنَّ الناس يكثرون ويجتمعون فيه بأنفسهم من غير حاشر، فكيف إن وُجِدَ حاشِرٌ؟

وقوله: ﴿ضُحًى﴾: أي من أول النهار، في وقت اشتداد ضياء الشمس، فيكون الحق أظهر وأجلى - كما قال ابن كثير -

ثم قال ابن كثير: ولم يطلب موسى ذلك في ظلامٍ حتى لا يُرَوِّجَ السَّحَرَةُ على الناس الزور والباطل، بل طلب أن يكون ذلك جِهاراً نهاراً، لأن موسى عليه الصلاة والسلام على بصيرةٍ من ربه، وعلى يقينٍ بأن الله سيُظهر كلمته ودينه، وإن رَغِمت أنوف القِبط، ثم هناك سبب آخر لاختيار موسى ليوم الزينة موعداً للمُباراة، وهو أنه يومٌ يُظهِرُ الناسُ فيه السرور، والنفوس إذا كانت مُنبسطة مسرورةً، فهي في ذلك الوقت أقرب إلى قبول الحق من أي وقت آخر.

قال في «بحر العلوم»: الضُحى: صدْرُ النهار حين ترتفع الشمس، وتُلقي شُعاعها، وهو انبساطُ النهار، وامتداده، إذاً هو وقت انبساطِ النفوس وانبساطِ النهار.

قال في «ضِرام السِّقطِ»: أول اليوم: الفجر، ثم الصباح، ثم الغَداةُ، ثم البُكرةُ، ثم الضُحى، ثم الضحوةُ، ثم الهجيرةُ، ثم الظهيرة، ثم الرواح، ثم المساء، ثم العصر، ثم الأصيل، ثم العشاء الأولى، ثم العِشاء الأخيرة عند مغيب الشفق.

أنواع الأعياد:

قال صاحب «روح البيان»: اعلم - يا عبد الله - **أنَّ الأعياد خمسة:**

١) عيد قوم إبراهيم: وفيه جعل إبراهيم الأصنام المعبودة جُذاذاً، قال تعالى: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ۝٥٧ ﴾ [الأنبياء] إلى عيدهم، ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨ ﴾ [الأنبياء].

٢) عيد قوم فرعون: وهو يوم الزينة: ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ [طه ٥٩].

٣) عيد قوم عيسى: كما في [سورة المائدة]: ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١٤ ﴾: أي يكون يوم نُزولها عيداً نُعظِّمه ونُسَرُّ به نحن الّذين يُدرِكونها، ومِنْ بعدِنا الذين يسمعونها.

٤) و (٥): عيد أهل المدينة في الجاهلية، وذلك يومان في السنة، فأبدلهما الله في الإسلام يومي الفطر والأضحى، وهذان مُستمران إلى يومة القيامة.

المواجهة ووعظ السحرة:

قال الآلوسي: بعد هذا الاتفاق على الموعد والمكان، انصرف فرعون من المجلس، وتولى الأمر بنفسه، وأسرع لتهيئة العُدَدِ: وذلك قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ ﴾ [طه].

والكيدُ: التدبير الخفيُّ للخصم، وإعداد الحِيَلِ لإظهار غَلَبةِ السَّحَرَةِ على موسى، والمُراد جمع السَّحَرَةِ، وكانوا عصابة لم يخلق الله أسحَرَ منها كما قال صاحب «البحر المحيط».

قال ابن عباس: كانوا اثنين وسبعين ساحراً مع كل ساحر حِبالٌ، وعِصي،

وعُدَّةُ السحر، وكانوا من ثلاثة أماكن في مصر: من الصعيد، ومن الفيوم، ومن الريف.

قال ابن كثير: وكان سَحَرَةُ مصر يُتقنون هذا الفن، وكان السَّحَرَةُ عدداً كبيراً، حيث كان مع كلِّ ساحرٍ كبير، سَحَرَةٌ صغار كانوا قد دُرِّبوا.

قال القرطبي: كان زعيم السحرة أعمى، يُدعى «شمعون»، وقد قسَّمهم إلى أقسام، وجعل لهم نُقَباء.

قال الآلوسي: وكان من النُقَباءِ: سابور، وعازور، وحطحط، ومُصفى... وغيرهم.

والكيدُ: الذي هو التدبير الخفي للخصم، ليس دليل قوة، بل دليل ضعف؛ ويكون غالباً ممن ليس له قُدرةٌ على المُواجهة، مثل الذي يدُسُّ السُّمَّ للآخر لعدم قُدرته على مواجهته، وتَفهَّم - يا عبد الله - أن الكيد دليل ضعف من قوله تعالى في [سورة يوسف] عندما تكلم عن النساء: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨﴾، فهذا ليس دليلاً على قوة المرأة بل على ضعفها - كما قال بعض المفسرين - فكما أنَّ كيدَهُنَّ عظيم فضَعْفُهُنَّ كذلك عظيم.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَتَىٰ ٦٠﴾: أي حضر الموعد المحدد في الزمان والمكان.

قال الرازي: وضُرِبت لفرعون قبة طولها سبعون ذراعاً، فجلس فيها يُراقب المُناظرة.

قال صاحب «روح البيان»: ونُلاحظ في قوله تعالى عن فرعون: ﴿فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ٦٠﴾: أي أتى بتراخٍ وبُطْءٍ إلى الموعد والمكان.

قال المفسرون: التفت فرعون إلى كبير السَّحَرَةِ وقد التف حوله السُّحارُ جميعاً، فقال له فرعون: ماذا فعلت؟

قال الزعيم: قد علمتهم سحراً كبيراً لا تُطيقه سَحَرَةُ الأرض إلا أن يكون أمراً من السماء، فإنه لا طاقة لنا به.

ونُلاحظ هنا أن الآيات الكريمة لم تذكر مجيء موسى، لماذا؟

قال الآلوسي: للإشارة إلى أنه أمرٌ مُحقق لا يحتاج إلى التصريح به، ولذلك ذكرت الآية بعدها مُباشرةً أن موسى بدأ كلامه بموعظة جليلة جميلة، وعَظَ بها السَحرَةَ، قال تعالى حاكياً ما قاله موسى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ [طه].

والويل: اسمٌ للعذاب والشر، وليس له فعل، بل هو شبه مصدر نُصِبَ على التحذير، أو على تقدير حرف نداء.

قال القاسمي: قدَّمَ موسى النُصحَ والإنذار؛ لينقطع عُذْرهم قائلاً لهم: لا تُخَيِّلوا للناس بأعمالكم، إيجاد أشياء لا حقائق لها، فتكونوا قد كذبتم على الله، فعندها يستأصلكم بعذابٍ هائل.

قال القرطبي: أي لا تُشركوا بالله شيئاً، ولا تختلقوا عليه الكذب، ولا تقولوا عن المعجزة إنها سحر، فالمعجزةُ عطاءٌ للأنبياء.

قال الرازي: كأن الله تعالى قال: من افترى على الله كذباً حصل له أمران:

١. عذابُ الاستئصال: ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ و﴿فَيَسْحَتَكُم﴾ بكسر الحاء أو فتحها.

٢. الحرمان والخيبة والفشل: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾.

ماذا نتج عن موعظة موسى؟

قال العلماء: تَفَرَّعَ عن موعظة موسى لهم أنه ظهر نزاعٌ بينهم، وهذا يدلك على أنَّ الموعظة أثرت في بعضهم، فالتنازع: التخالف، ومحاولة كل صاحب

رأي أن يُقنع صاحبَ الرأي الآخر أنه على حق، ومنه: الجذْبُ من البئر «نزع الدلو، أو نزع الثوب».

وذلك قوله تعالى: ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ٦٢ ﴾ [طه]: أخذوا يتبادلون الآراء، وتحدثوا بينهم سِرّاً، وهذا دليلٌ على خوفهم من كلام موسى، ودليلٌ على أن فيهم بذرةَ خير.

قال الغرناطي: وإنما تناجوا سِراً؛ لأنهم لم يكونوا مُتأكدين من الانتصار على موسى.

قال ابن عباس: كانت نجواهم - أي حديثهم السرّي فيما بينهم -: إن غَلَبَنا موسى اتبعناه.

وقال قتادة: إن كان ساحراً غلبناه، وإن كان من السماء فله أمر، فيكون معنى: ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴾: أي أخفوا هذه العبارة وهذا الاتفاق فيما بينهم عن فرعون.

قال القرطبي: لمّا قال لهم موسى: ﴿ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾، قال بعضهم: ليس هذا بقول ساحر، بعد هذا الحديث السري بينهم، انتهى رأيهم إلى الاستمرار في الشوط إلى نهايته، كما قال الشعراوي، واستقروا على أن يقولوا ما قصَّهُ الله علينا: ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ٦٣ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ٦٤ ﴾ [طه].

ردَّدَ السحرةُ كلام فرعون، وهذا دائماً ما يفعله الإمَّعَاتُ أمام الطُغاة، وقول السحرَةِ ومَنْ والاهم: ﴿ وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴾:

الطريقة: العادة، والمُثلى: مؤنث الأمثل، وهو اسم تفضيل مُشتق من

«المثالَةِ»، وهي حُسنُ الحالة، لذلك يُقال: فُلانٌ أمثُل قومه: أي أقربهم إلى الخير، وأحسَنُهم حالاً، وأرادوا بذلك إثارةَ حِمْيَةِ الناس وغيرتهم على عوائدهم، وشرائعهم، وأخلاقهم، ولذلك أكّدوا حِرصهم على عوائدهم بأن يجمعوا كل حِيَلِهم، وكل ما في وُسعِهم ليغلِبوا موسى، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ﴾، وصفاً: أي مُصطفين لإلقاء الرهبَةِ في نفوسِ الناس، وفي نفس موسى وهارون كذلك، وهذه عادةٌ عند الملوك وعند الفوارس في الحروب، يتخيَّرون بهاءَ الهيئة، فقد كان الملوك يجلسون على جلود النمور، والأبطال في القتال يلبسون جلود النمور، ومنه قول «ابن معد يكرب»:

قومٌ إذا لبسوا الحديد تنمَّروا حِلَقاً وقَدَّا

وقد ثبت في التاريخ أن كهنة القِبط في مصر كانوا يلبسون جلود النمور.

وجُملة: ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾: أي الفوز لمن غلب بهذه المناظرة، وقصدوا الفلاحَ في الدنيا، لأنهم وإن كانوا يؤمنون بالآخرة، لكنهم لا يظنون أنَّ مثل هذه المواقف تؤثر في الحياة الأبدية الأخروية.

قال العلماء: وقبل المباراة، دخل السَّحَرَةُ على فرعون في قُبّته، فشَدَّ عزيمتهم وشجعهم، عندها طلبوا منه أن يكون أجرهم كبيراً، كأنهم واثقون من النصر، وذلك ما ذكره الله تعالى في سورة الشعراء، لأنهم كانوا خائفين أن يستغلهم فرعون بغير أجر، فشرطوا الأجر ليُقيدوه بوعده، لأنه رجل «أكلْتي» - كان يأكل أجر الناس باعتبارهم عبيداً له -.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الشعراء].

انظر يا - عبد الله -: جعلوا الأجر شرطاً عند الغَلَبَةِ، وقد جاء رد فرعون مُشجعاً وقوياً وزائداً على ما طلبوه: ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[الشعراء]، هنا تنازل فرعون عن كبريائه، ويُذعن لشروط سَحَرَته، ستكونون من خاصتنا لا نستغني عنكم لأنكم حافظتم على باطل ألوهيتنا: ﴿ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾.

قال الكلبي: أي ستكونون أول من يدخل مجلسي وآخر من يخرج منه.

يوم الزينة:

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: وجاء يوم الزينة، وخرج الناس يتحدثون عن اللقاء بين موسى وفرعون، قاصدين مكان الاحتفال، حيث لم يبقَ أحدٌ في مصر إلا وعَلِمَ بهذه المباراة وبهذا التحدي، كان مكان اللقاء مكشوفاً، إلا من خيمةٍ ضخمةٍ واقيةٍ لفرعون جلس فيها في أُبَّهته مع الحاشية والجنود، وهلّل الناس له عند وصوله، كما هلَّلَ الناس للسَّحرَةِ، بينما ساد الصمت الثقيل عند ظهور موسى وهارون صلوات الله وسلامه عليهما.

قال ابن كثير: لمّا اصطفَّ السَّحَرَةُ، ووقف موسى وهارون تُجاههم.

قالوا لموسى: إما أن تُلقيَ ما معك قَبْلنا، وإما أن نُلقيَ ما معنا قَبْلَكَ، وذلك ما قصّهُ الله علينا: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ ﴾[طه].

قال الرازي: وتَرْكُهم الخيار لموسى حُسْنُ أدبٍ منهم، وتواضعٌ له عليه السلام.

قال صاحب «روح البيان»: لمّا خَيَّرَ السَّحَرَةُ موسى دلَّ ذلك على إقدامهم وإعزازهم له، فأكرمهم الله وأعزَّهم بالإيمان الذي رأَوْا بنوره معجزة موسى،

فآمنوا تحقيقاً لا تقليداً، وهذا حقيقة قوله عز وجل في الحديث القدسي: «من تقرب إليَّ شِبراً، تقربتُ إليه ذِراعاً»، فلما تقربوا إلى الله بإعزاز رسوله، أعزَّهم الله بالإيمان تقَرُّباً إليه، وكذلك أعزَّهم موسى بالتقديم في الإلقاء، كما حكى الله عنه بقوله: ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ ﴾ .

قال الرازي: تواضع لهم موسى ليكون ذلك التواضع سبباً لقبول الحق، ولقد حصل ببركة تواضعه عليه السلام الشيءُ المطلوبُ.

ثم قال الرازي: وهذا تنبيهٌ على أنَّ اللائق بالمسلم في كل الأحوال التواضع، لأن موسى على مكانته لمّا لم يترك التواضع مع السَّحَرَةِ، فَبِأَنْ يفعلَ الواحد منا ذلك أَوْلى.

قال البروسوي في تفسيره: والظاهرُ أنَّ الله ألهَمَ السَّحَرَةَ هذا التخيير لموسى، وألهَمَ موسى أن يطلب منهم الإلقاء أولاً؛ ليظهرَ الحقُّ من الباطل؛ لأنَّ الحق يدفع الباطل ويُزيله، وأكد أبو السعود هذا المعنى بقوله: ولو أنَّ موسى ألقى أولَ الأمر، لتفرق الناس هرباً من ذلك الثعبان الضخم، وهذا الذي حصل عندما ألقى موسى عصاه فابتلعت كلَّ ما أتى به السحرة، ولكان ذلك مُخِلّاً بالمقصود.

قال ابن كثير: كان السَّحَرَةُ قد عمدوا إلى حِبالٍ وعِصِيٍّ، فأودعوها الزئبق وغيره من الآلات التي تضطرب بسببها تلك الحِبالُ والعصيُّ، اضطراباً يُخيَّل للرائي أنها تتحرك باختيارها، والحقيقةُ إنما تتحرك بواسطة ما وضعوا فيها.

قال ابن عاشور: كانت الحبال من نوع خاص، والعِصِيُّ من نوع خاص، يُشرِبونها عقاقير، فإذا لاقت شُعاعَ الشمس اضطربت تلك العقاقير، فتحركت الحبال والعصيُّ، وذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه].

و «إذا»: هنا هي الفُجائية، تدلك على أنهم أسرعوا بالإلقاء، لماذا؟

والجواب: لأنهم كانوا يخشون أن يمرَّ الوقت، فتزول خاصية تأثير العقاقير على الحِبال والعِصيّ، فأسرعوا في الإلقاء.

والفاء هنا: هي الفاءُ الفصيحة، فهي تُفصِحُ عن شيء محذوف، والتقدير: فألقوا فإذا.

قال ابن عباس: ألقوا حبالهم وعِصيَّهم ميلاً من كل جانب، فَخُيِّلَ للناس أنَّ الأرض كلها حياتٌ تهتز، وأنها تسعى على بطنها، وأشار القرآن إلى هذا: ﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف].

فقوله تعالى: ﴿ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾: أي خيَّلوا لهم ما ليس واقعاً ولا حقيقة، فالسحر لا يقلب الحقيقة، بل تظل الحقيقةُ هِيَ هِيَ - كما قال علماؤنا - ويراها الساحر على طبيعتها، لكن الناس هي التي ترى الحقيقة مختلفة.

وقوله: ﴿ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾: أي خَوَّفُوهم وأفزعوهم بما فعلوا من السِحر: أي عَزَّزُوا التخيلات ليزداد تأثيرُها بشيءٍ من الأقوال والأفعال، مثل: خذوا حذركم، سيحدث شيء عظيم، جاء كبير السَّحَرَةِ، لا تقتربوا...

وقوله: ﴿ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾: أي عظيم في عين مَنْ رأوْه، وذلك لكثرة العِصي والحِبال - كما قال ابن إسحق -، أو بسحرٍ عظيم في باب السحر، مما يدُل على ارتقائهم في هذا الفن، وكونُهُ سِحراً عظيماً، أمرٌ منطقي؛ لأن العملية - كما قال الشعراوي - هي مُباراةٌ كبرى يترتب عليها هدم ألوهية فرعون أو بقاؤها، فلا عجب أن يأتوا بأعظمَ ما عندهم من السِحر.

قال الجُشَمي: تدل الآيات على أن القومَ أتوا بها في وُسعهم من التمويه، وكان الزمانُ زمانَ سحر، وكَثُرَ المشتغلون به، فأتى موسى بشيءٍ من جنس ما هُمْ فيه، لا يقدر عليه أحد، ليعلموا أنه مُعجزٌ وليس بِسحر.

ثم قال الجشمي: وهكذا ينبغي أن تكون المعجزات من جنس ما هو شائع في القوم، ثم يتعذر عليهم مثله، فالطب: كان هو الغالب في زمن عيسى، فجاءت المعجزة بإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وهذا ليس في وُسعِ طبيب، وكان الغالب في زمن نبينا ﷺ الفصاحة والخُطب والشِعر، فجاء القَرآن الكريم وتحداهم به، ثم تابع الجشمي فقال: وتدل الآيات على أنهم جعلوا الحبال والعصي مُتحركةً بالحِيَلِ، حتى أوهموا الناس أنها أحياءٌ تتحرك، ولكن لمّا انكشف أصلُ ما فعلوه، وعُلِمَ، وكان مثله مقدوراً عليه لكل من تعاطى صناعاتِهم، عُلِمَ أنه شعبذةٌ، وهنا تفترق الشعبَذَةُ عن المعجزة:

فالشعبَذَةُ: من الممكن أن يُوقَفَ على أصلها، ويُمكن الإتيان بمثلها ويخفى أمرها.

أما المعجزة: فهي بخلاف ذلك.

هنا يأتي سؤال بعد ذلك: كيف كان وضع موسى؟

والجواب في [سورة طه]: ﴿ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: لمّا رأى فرعون ومن حوله من الملأِ، والقِبط، الحبال والعصي تتحرك، وقد امتلأ المكان بالثعابين، ابتسم فرعون، وهلَّل المصريون، فصرخوا فرحين بانتصارهم على ظَنِّهم أنهم أتوا بمثل ما جاء به موسى، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الشعراء].

وقولهم: ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ ﴾: إما على القسم، وإما التيمُّنِ والتبرُّك بقدرته، والأكثرون على أن قولهم هذا قسمٌ، وما أخيبه من قسم، لأن الأصل في معنى العِزَّة: عدم القهر وعدم الغَلَبَةِ، ولكن فرعون كانت عِزَتُهُ كاذبة، وعِزَةً بالإثم ولا رصيدَ لها من الحق، لأنَّ عِزَّةَ الإثم فيها أَنَفَةٌ وكبرياء مقرونةٌ بذنبٍ ومعصيةٍ، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾ [البقرة ٢٠٦]، وهذا للمنافق، وكذلك الكافر عِزَّتُهُ بالإثم، قال تعالى: ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ٢ ﴾ [ص]، وهذه عِزَّةٌ بإثم، وعِزَّةٌ بباطل، ومن هذا المعنى ما جاء في [سورة المنافقون ٨] عندما قالوا: ﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ ﴾.

قال المفسرون: فصدَّقَ الله على قولهم، نعم سيُخرج الأعزُّ منها الأذلَّ، ولكن لمن العِزَّةُ؟

كان الجواب: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون ٨]، فأنتم الأذلة، وأنتم الخارجون من المدينة.

قال العلماء: نظر قوم فرعون إلى كثرَةِ التمويهات، وقِلَّةِ العصا، فاحتقروها، وظنوا غَلَبَةَ الكثير على القليل، وما علموا أن القليلَ من الحق يُبطل كثيرَ الباطل، كما أن القليل من النور يمحو الكثير من الظلام.

أمام هذا المشهد ذكر لنا القرآن الكريم حال موسى، قال تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ٦٧ ﴾.

انتبه – يا عبد الله – إلى دقة التعبير القرآني عندما قال: ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ٦٧ ﴾، ليدلَّك على أنها خِيفةُ تَفَكُّرٍ لم يظهر أثرُها على ملامحه، خيفَةٌ من هذا الحشد الضخم.

ولكن من أي شيء خاف موسى؟

والجواب: إن موسى استشعر الخوف خشية أن يكتفيَ المُشاهدون بما رأوْه من التخيُلات فيأخذهم الهرج ويُنْهُوا الموقف قبل أن يتمكن هو من فعل شيء، فيبقى الناس على الباطل.

قال مُقاتل: خاف موسى أن يقول الناس: إنَّ السَّحَرَةَ تساوَوْا مع موسى، فقلبوا العِصيَّ والحبال أفاعي، ولكن القرطبي ذكر للخوف سبباً آخر فقال: إن سبب الخِيفَةِ، أن موسى لمَّا قال للسَّحَرَةِ قبل المُباراة: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾، أتاه جبريل فقال له: «يا موسى، تَرَفَّقْ بأولياء الله» - أي بهؤلاء السَّحَرَةِ - فقال موسى: يا جبريل: هؤلاء السَحَرة جاؤوا ليُبطلوا المعجزة، ويردّوا دين الله، فكيف تقول إنهم أولياء؟ فقال جبريل: «هم من الآن إلى وقت العصر عندك، وبعد صلاة العصر في الجنة»، عندها أوجَسَ في نفسه خيفةً موسى، إذ خطر على باله: ما يُدريني ما عِلْمُ الله فيَّ، فقد أكون الآن على حالةٍ، وقد عَلِمَ الله مني حالةً خِلافها بعد ذلك، كما كان هؤلاء السَّحَرَةُ؟!! ولذلك طمأنه ربه جل وعلا بقوله: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾ [طه].

ونُلاحظ أن هذه الآية مؤكَّدةٌ بثلاث مُؤكّدات: إنَّ، وبتكرار الضمير، وبلام التعريف، مع لفظِ العُلو: وهو الغَلَبَةُ الظاهرة، مع التطمين: ﴿لَا تَخَفْ﴾، فصار المعنى: أنت الغالب لهم في الدنيا، ثم أنت في الآخرة في الدرجات العُلا، للنبوة والاصطفاء الذي خَصَّكَ الله به: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾، هذا حكم الله، أنت المنصور الفائز، فاطمئنَّ يا موسى.

قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾: هذا هو الوعد النظري، ثم يأتيه الأمر العمليُّ التنفيذي لتحقيق النُصرة والغَلَبَةِ،

لأن موسى كان يتلقى الأوامر الربانية لحظة بلحظة عن طريق الوحي، لأن الله عز وجل منذ أن أمره بالمسير إلى فرعون قال له: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾، فموسى لم يُلْقِ عصاه حتى أتاه الأمر الرباني، بعد هذا المشهد الذي أوجسَ منه خيفةً، جاء الأمر والردُّ في الوقت المناسب، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ٦٩﴾ [طه].

وانتبه إلى قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾، ولم يقل: وألقِ عصاك، استعمل «ما» التي هي اسم موصول، لماذا؟

قال العلماء: ليُذكِّرهُ ربُّهُ بيوم التَّكْليم إذ قال له: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧﴾، ليحصُلَ لموسى الاطمئنان بأنها - العصا - صائرةٌ إلى الحالة التي صارت إليها يومئذ - يوم التكليم -.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ﴾، وفي قراءةٍ: ﴿تَلَقَّفْ﴾ وأصلـهـا: تَتَلَقَّف، والتَلَقُّفُ: هو الابتلاع بسرعة، والكلمةُ تُعطيك الصورة الحركية السريعة التي تُشبه لمحَ البصر، تقول: تَلَقَّفْتُهُ: أي أخذته بسرعة وشدةٍ.

قال البروسوي: ﴿تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ﴾: أي تبتلع ما صنعوا؛ لأن ما في يمينك مَصْنُوعي وكَيْدِي، وما فعلوه مَصنُوعُهم وكيدهم، ولن يفلح كيدُهم مع كيدي، والساحر لن يفوز ولن يُفلح؛ لأنَّ ما فعلوه كيدٌ وحِيلٌ مقابل آية ربانية، ولن يفوز السَّحَرَةُ في دفع الحق مهما احتالوا: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ٦٩﴾ [طه]: لا يفوز لا بالسعادة الدنيوية، ولا بالأُخروية، ولذلك أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه، من حديث جُندب بن عبد الله البُجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أخذتم الساحر فاقتلوه»، ثم

قرأ النبي ﷺ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾، قال: «لا يُؤَمَّنُ حيث وُجِدَ»، وقال ابن عباس: لا يُسْعَدُ حيث كان، فالساحر مهما أوتي من قُدرة على تسخير الجن لعمل شيء فوق طاقة الإنس، فلن تكون له القُدرةُ على ذلك من الإيذاء إلا إذا أذِنَ الله بذلك: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة ١٠٢].

قال ابن كثير: إن موسى لمّا ألقى العصا صارت حية عظيمة، ذات قوائم، كما ذكر بعض السلف، وكان لها عُنقٌ عظيم، وشكل هائل مزعج، بحيث أن الناس لمّا رأوا ذلك، انحازوا منها، وهربوا من مكانها سِراعاً، وأقبلت هي على ما أَلْقَوْهُ من الحِبال والعِصي فجعلت تَلْقَفُهُ واحداً واحداً في أسرع ما يكون من الحركة، والناس ينظرون إليها، ويتعجبون منها.

هنا يأتي سؤال: ماذا كان موقف السَّحَرَةِ؟

والجواب هو ما قصَّهُ الله علينا في [سورة طه]: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾.

ونقرأ في [سورة الشعراء]: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨﴾.

قال ابن كثير: وأما السَّحَرَةُ فرأوا ما هالهم، وحيَّرهم في أمرهم، وشاهدوا أمراً لا يدخل تحت صِناعتهم، فتحقَّقوا أن هذا ليس سِحراً، ولا شعوذة، ولا زورَ ولا ضلال، بل حقٌّ لا يقدر عليه إلا الحَقُّ تبارك وتعالى الذي أرسل هذا النبي المؤيد بالحق، وكشفَ الله عن قلوبهم غِشاوة الغفلة، وأزاح عنها القسوة، وأنابوا إلى ربهم وخرّوا ساجدين، وقالوا جهرةً للحاضرين: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾، وقد صورت الآيات الواردة في [سورة الأعراف]

ذلك الموقف، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

هنا نلاحظ أن القرآن حكى أقول السَّحَرَةِ مرةً قالوا: ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ [طه]، وحكى قولهم في [سورة الشعراء]: ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

هذه الأقوال أراد خصوم الإسلام أن يجعلوها مثاراً للجدال، فقالوا: نريد أن نعرف ماذا قال السَّحَرَةُ، أقالوا الأولى أم الثانية؟

والجواب كما قال المفسرون: تَصَوَّرْ - يا عبد الله - جمهَرَةَ السَّحَرَةِ الذين حضروا هذا اللقاء، وكان رؤساؤهم سبعين ساحِراً.

فكم كان عدد المرؤوسين؟

هم كثير، ولا شك أن هذه الكَثْرَةَ، وهذه الجمهَرَةَ لم يصدر منها قولٌ واحد مُتحدٌ، ولا انفعالٌ واحد مُتَّحد، فمنهم من قال: ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾، ومنهم من قال: ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾، وهكذا تصوَّرْ أنك رأيتَ مُباراةً رياضية يحضرها الألوف، ويُعلقون عليها، فهل تتفقُ تعبيراتُهم وتعليقاتُهم عليها؟!!

والخُلاصة: تعددت الأقوال، وتعددت الصور للقضية الواحدة، وقد حكى القرآن الكريم كما كانت، وكما حصلت، فليس لأحد أن يتساءل؟؟ هل كانت هذه العبارة أولاً أم هذه؟

قال سعيد بن جبير، وعكرمة، والقاسم والأوزاعي وغيرهم: لمّا سجد السَّحَرَةُ رأوْا منازلهم في الجنة، ورأوْا قصورهم تُهيأ لهم، وتُزخرف لقدومهم،

ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون، وتهديده.

قال أحمد بهجت في كتابه «أنبياء الله»: أَحَسَّ فرعون أن الأمر بدأ يخرج من يده، فنهض واقفاً، وصاح مُزمجراً – كما قال صاحب «أيسر التفاسير» – ليتلافى شرَّ الهزيمة، وقال: كيف تؤمنون به وأنا لم أُعطكم إذناً بذلك؟ وقد حكى القرآن الكريم قوله هذا في [سورة طه ٧١]: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾.

انتبه – يا عبد الله – إلى جمال التعبير القرآني ودقته في قوله تعالى حاكياً عن فرعون: ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ ﴾: أي صدَّقتموه، القائل من؟ فرعون، الآمر الناهي في قومه، يتحدث الآن عن الإذن لا عن الأمر، وفرقٌ بين أمرٍ وإذنٍ – كما قال المفسرون – لأنَّ الأمر واجب التنفيذ، والإذنُ ليس كذلك، ففرعون الآن في هذا الموقف يأذنُ، لأنه لا يقدر على الأمر.

ولمّا شَعَرَ بالهزيمة، أراد أن يُبرِّرَ موقفه أمام دَهماءِ العامة حتى لا يقولوا قد هُزِمَ، وضاعت هيبتُهُ، فقال مُهدِّداً: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الشعراء].

وقال في [طه]: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾.

وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾، هذا القول من فرعون تمويهٌ على الناس حتى لا يتبعوا السَّحَرَةَ فيؤمنوا كإيمانهم، ولا يعني أنَّ موسى أُستاذُهم في السحر.

قال الشعراوي: قال فرعون هذا القول ليُنقذَ هيبته التي ضاعت، في حين أنَّ الناس يعلمون أن موسى طول عمره لم يجلس إلى ساحر قط، ثم هددهم بأسلوب يدلُّك على أنه كان مضطرباً، واختل توازُنُهُ، فظهر ذلك في تعابيره التي هدَّدَ بها: ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الشعراء ٤٩]، واتهم السحرة بالتآمر مع موسى ضده، وقد أشار القرآن الكريم في [سورة الأعراف] حيث قال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

وسوف كما نعلمُ تَدلُّ على المُستقبل، مع أنه لم يؤخرْ تهديده بل نفَّذَه، بدليل قوله تعالى في نفس السورة: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الشعراء]، وأوضحَ في آية أخرى: ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾ [طه].

وقوله: ﴿ مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾: أي أقطعُ يمينَ أحَدِكم مع يُسرى رِجليْه، أو العكس، وكان هذا شِعاراً لقطع المجرمين.

وقوله: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾: والصلْبُ: ربطُ الجسم على عود مُنتصب، أو دقُّه عليه بمسامير فلا يتحرك، ونُلاحظ أن القرآن استعمل: «في» بدل «على»؛ ليدُلَّ على أنه صَلْبٌ مُتمكِّن، يُشبه حصول المظروف في الظرف.

قال العلماء: وجَرِّبْ هذه المسألة، فخذ مسماراً على إصبعك، ثم شُدَّ عليه رباطاً بقوة، تجد أن المسمار يدخل في إصبعك، فعندها تقول: إن المسمار في إصبعي لا على إصبعي، وهو هنا للمُبالغة في الشدِّ على الجذع.

وقوله: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾، وقوله: ﴿ أَيُّنَآ ﴾: استفهامٌ عن مُشترَكَيْن في شدة التعذيب، وأراد فرعون بذلك نفسه وربَّ موسى سبحانه وتعالى؛ لأن فرعون عَلِمَ ذلك من قول السَّحَرَةِ: ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ

وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾، ونعلم كذلك أنَّ موسى لمّا وَعَظَ السَّحَرَةَ قبل المُباراة قال: ﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾، فكان معنى قول فرعون: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾، أي: وستجدون عذابي أشدَّ من العذاب الذي حذركم منه موسى.

قال صاحب «التأويلات النجمية»: إنما قال فرعون هذا القول؛ لأنه كان بصيراً بعذاب الدنيا وشِدَّته، وكان أعمى بعذاب الآخرة وشِدَّته.

قال البروسوي في قوله تعالى: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾، قال: أي صَلْبُهم على أصول النخل في شاطئ نهر النيل، ثم إبقاؤهم عليها زمناً طويلاً.

ثم تعالوا نستعرض ماذا كان ردُّ السَّحَرَةِ الذي آمنوا وسجدوا على تهديد فرعون؟

كان ردُّهم ما ذكره الله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ ﴾ [طه]، والإيثارُ: التفضيل، والمعنى هنا: لن نؤثر طاعتكَ على ما جاءنا من البيِّنات الدالة على وجوب طاعة الله، ولا نُؤثرك في الربوبية على فاطِرنا وخالِقنا ﴿ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ ﴾، لأن الفاطِرَ هو المُستحقُّ بالإيثار، وهذا يدل على حصول اليقين التام لهم في أصول الدين، ولذلك أظهروا عدمَ مُبالاتهم بتهديد فرعون ووعيده، وكذلك شأن المؤمنين بالرُسل إذا أشرقت عليهم أنوار الرسالة، فسُرعان ما يكون انقلابُهم عن جهالة الكفر وقساوته، إلى حِكمةِ الإيمان وثباته، ولك في عمر بن الخطاب مثلُ صدقٍ كما قال ابن عاشور.

وقد ذكر صاحب «أيسر التفاسير»، وكذلك القرطبي: أنَّ آسيا امرأة

فرعون، لّما بدأت المُباراة قالت لمن حولها: أخبروني عمّن يغلبُ، فأُخبرت أنَّ موسى وهارون غلبا فرعون وقومه، فقالت: "آمنت برب موسى وهارون"، وعَلِمَ فرعون بذلك، فأمر بأعظم صخرة، فإن مَضَتْ وأصرَّتْ على قولها، فألقوها عليها، فلما أتَوها رفعّتْ بصرها إلى السماء، فرأت منزلها في الجنة بعد أن دعت بدعاءٍ ذكره الله عز وجل: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ [التحريم]، وذكرها نبيُّنا محمد ﷺ باسمها «آسية»، ففي حديث أخرجه البخاري، أن النبي ﷺ قال: «كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمُلْ من النساء إلا مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون».

قال العلماء: والظاهر في قولها: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾، مؤذنٌ بأنَّ قومَ فرعون صدُّوها عن الإيمان، وزيَّنوا لها أنها إن آمنت بموسى، تُضيِّعُ من يدها مُلكاً عظيماً، وقصراً فخيماً، وهدَّدها فرعون بالقتل إن أصرَّتْ، ثم لا يكون مدفَنُها الهرم الذي بناه فرعون لنفسه، ويؤيد ما ذكرناه، أنَّ المفسرين رَوَوْا أنَّ بيتها في الجنة من دُرَّةٍ واحدةٍ، فتكون مُشابِهَةَ الهرم الذي كان مُعَدّاً لحفظ جُثتها، وجُثة زوجها بعد الموت.

لّما دعت بهذا الدعاء خرجت روحها، فأُلقيت عليها الصخرة وهي جسدٌ بلا روح، فقد استجاب الله دُعاءها رضي الله عنها وأرضاها.

قال المفسرون: وقولها هذا يُشبه قول السَّحَرَةِ الذين آمنوا جواباً على تهديد فرعون: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ﴾ [طه ٧٢].

قال العلماء: شاهد القومُ في رؤية الآيات والمُعجزات التي قدَّمها موسى، شاهدوا أنوار الذات والصفات، فهانَ عليهم عظائم البَلِيَّات.

وقد أشار البروسوي إلى هذا المعنى حين قال: ومن آثَرَ الله على الأشياءِ، هان عليه ما يَلقى في ذات الله عز وجل، وكان من جميل كلام العلماء قولهم: ومما يُخفف ألم البلاء عنك عِلمُكَ أن الله هو المُبلي.

وقولهم: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: تعبيرٌ دقيق وحكيم - كما قال المفسرون - تلحظُ فيه تأثُّرهم - السَحَرَة - بالبيّنة التي جاء بها موسى من الله، والبيناتُ هي الأمور الواضحة التي تحسم كل نِقاشٍ حولها، لأنها دليلٌ واضحٌ قوي لا يمكنُ الرجوعُ عنه، فهم قد ارتَقَوْا من الرسول إلى البيّنةِ إلى الله الذي أعطى الرسولَ هذه البينةَ، ولذلك نقرأ في [سورة البينة]: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾، وعند من جاءت البينةُ؟

والجواب: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾.

وقولهم: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾، قال ابن عباس: أي فاصنع ما أنت صانع، وقال غيره: أي احكم ونفذ ما أنت حاكمٌ به من القتل والصلب والقطع، فإنَّ عذابك لا يتجاوز هذه الحياة.

قال الرازي: ثم بينوا السبب الذي جعلهم يستسهلون احتمال البلاء، وهو قولهم: ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾: أي إنَّ قضاءَكَ وحُكمَكَ إنما يكون في هذه الحياة الفانية، ونحن مطلَبُنا الحياة الأُخروية الباقية، والعقل يقتضي تحمُّلَ الضرر الفاني الموصل إلى السعادة الباقية، لأنَّ نعيم الدنيا مهما بَلَغَ وعَظُمَ، فهو مُهدَّدٌ بأمرين:

إما أن تزول عنه، وإما أن يزول عنك.

أما نعيمُ الآخرة فهو باقٍ لا يفوتك ولا تفوته، وقد ذكر الله عز وجل في

سورة الشعراء شيئاً مما قالوه لفرعون بعد أن هدَّدهم بالقتل والصلب وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[الشعراء]، والضَّيرُ: مُرادف الضُّرِّ، يُقال: ضارَّهُ، يُضِيره، والمعنى لا يضُرُّنا تهديدك ووعيدك، لأنه ضُرُّ لحظةٍ يحصل بعده النعيم الدائم المُقيم، فكأنك فعلت لنا جميلاً حيث أسرعْتَ بنا إلى لقاء الله، وكان مَثَلُهم مع فرعون كمثَلِ ذلك الطاغية الذي قال لعدوه: لأقتُلنك، فضحِكَ، فقال الطاغية: أتسخرُ مني؟ قال الرجل: وكيف لا أضحك من أمرٍ تفعله بي يُسعدُني الله به، وتشقى به أنت فلا ضيرَ لأننا سنخرج بالقتل من ألوهيةٍ باطلةٍ، إلى لقاء الإلهِ الحق، وما تظنُهُ في حقِّنا شرٌ هو عَيْنُ الخير، وقد أدرك هذا المعنى ذلك الشاعر المؤمن من الرعيل الأول حين قال:

ولست أُبالي حين أقتَلُ مُسلماً   على أي جنبٍ كان في الله مصرعي

ثم تابع السَّحَرَةُ كلامهم قائلين ما حكاه القرآن الكريم: ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ ﴾[طه].

وقولهم: ﴿ لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ﴾: من الشرك والمعاصي، حتى لا يؤاخذنا بها في الدار الآخرة.

وقولهم: ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ ﴾، قال الحسن: كانوا يُجبرون على تعلم السحر صِغاراً، ثم عملوه بعد ذلك مُختارين، وعند الطغاةِ كثيراً ما يُنفذ الناس أموراً لا يرضونها.

وقال ابن عباس: إن الملوك في ذلك الزمان يأخذون بعض أفرادٍ من رعيتهم، يُكلِّفونهم تعلُّمَ السحر، فإذا شاخَ أحدهم بعثوا إليه أحداثاً صِغاراً ليُعلمهم؛ ليكون في كل وقت من يُحسن صنعة السحر، فكان معنى قولهم: ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ ﴾: إنا كنا في الحالين من التعلُّم والتعليم مُكرهين،

ولكن الصحيح أنهم يبدؤون مُكرهين، ثم يفعلون السحرَ بعدها باختيارهم، ويدل لذلك قولهم: ﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾.

وقولهم: ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾، هذا جوابٌ من السَّحَرَةِ لقول فرعون: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾: والمعنى كما نقله القرطبي: أي: أن الله خير لنا منك إن أطعناه، وأبقى عذاباً منك إن عصيناه.

قال الحسن البصري: القوم - السَّحَرَةُ - كفار، وهم أشدُّ الكافرين كُفراً، ثبتَ الإيمان في قلوبهم في طَرْفةِ عين، فما لبثوا أن قالوا: ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾، وذلك في ذات الله عز وجل، ثم قال الحسن: والله إنَّ أحدكم اليوم ليصحبُ القرآن ستين سنة ثم يبيع دينه بثمنٍ حقير.

قال الرازي: ثم ختموا كلامهم بقولهم الذي سجله الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾ [طه].

والمجرم: هو من يفعل الجريمة، وهي هنا كل فعل خبيث ومعصية، والمجرم في اصطلاح القرآن الكريم هو الكافر، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [المطففين]، قال الرازي: هو العاصي مع موته على الكفر.

وقوله: ﴿ لَهُۥ جَهَنَّمَ ﴾: هذه اللام تُسمى لامَ الاستحقاق، وتقع بين معنىً وذات، مثل: الحمد لله، والمُلك لله، ونحو: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ﴾ [المطففين]، ومثل: ﴿ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ﴾ [البقرة ١١٤]، له جهنم: أي هو صائر إليها لا محالة.

وقوله: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ٧٤﴾: أي يكون عذابه مُتجدِّداً فيها، فلا هو ميتٌ لأنه يُحِسُّ بالعذاب، ولا هو حي لأنه في حالة الموت أهون منها، فهو في جهنم لا يموت فينقضي عذابه، ولا يحيى حياةً هنيئةً، فلا ينتفع بحياةٍ ولا يستريح بموت، على حدِّ قول القائل:

ألا مَنْ لنفسٍ لا تموتُ فينقضي   شقاها ولا يحيى حياةً لها طعمُ

وقوله: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ٧٥﴾ [طه]، هنا في هذه الآية يُشير السَّحَرَةُ إلى أنفسهم، وما سلكوه من طريق الإيمان والعمل الصالح، وفي الآية التي قبلها: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾: إشارةٌ إلى فرعون.

وتُلاحظ يا – عبد الله – في قولهم: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، إنهم جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح؛ لماذا؟

لأنَّ الإيمان – كما قال العلماء – هو الينبوع الوجداني الذي تصدر عنه الأعمال والتحركات على وَفْق المنهج الذي آمنت به، وإلا فما فائدة أن تؤمِنَ بشيء ولا تعمل له؟!! لذلك كان السلف والربانيون يفنون عمرهم على هذا المنهج، وقد سُئل أحدهم: فيمَ أفنيتَ عُمُرَكَ؟

قال: في أربعة أشياء:

❖ علمتُ أني لا أخلو من نظر الله طرفَةَ عين فاستحييتُ أن أعصيه.

❖ وعلمتُ أن لي رزقاً لا يتجاوزني، وقد ضَمِنَهُ الله لي فَقَنعتُ به.

❖ وعلمتُ أن عليَّ ديناً، لا يؤديه عني غيري، فاشتغلتُ له.

❖ وعلمتُ أن لي أجلاً يُبادِرُني، فبادرتُهُ.

وقد شرح أحد المربين هذه الأمور الأربع فقال:

- اجعل مُراقبتك لمن لا تخلو عن نظره إليك.
- واجعل شكرك لمن لا تنقطع نِعَمَهُ عنك.
- واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه.
- واجعل خضوعك لمن لا تُخرجه عن مُلكه وسُلطانه.

إذاً، فمن جمع مع الإيمان العمل الصالح، فقد قال الكتاب فيه: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه]: أي درجات الجنة، فقد جعل الله الجنة درجات؛ لأن أهلها مُتفاوتون في الأعمال، وحتى أنهم مُتفاوتون في العمل الواحد، من حيث أنَّ مناطَ الإخلاص مُتفاوت، ثم بيَّن الله تعالى هذه الدرجات فقال: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه].

وقد أخرج ابن المبارك في كتاب «الزُّهد»، وأبو نُعيم في «الحلية»، عن عون بن عبد الله قال: إن الله ليُدخل خلْقاً الجنة، فيُعطيهم حتى يملّوا، وفوقهم ناسٌ في الدرجات العلى، فإذا نظروا إليهم عرفوهم، فيقولون: يا ربنا: إنهم إخوانُنا كنا معهم، فَبِمَ فضَّلتهم علينا؟ فيُقال: هيهات، إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون، ويظمؤون حين تَرْوون، ويقومون حين تنامون، ويشخصون حين تخفضون.

ثم بيَّن الله هذه الدرجات العلى بقوله: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه]: أي: جناتُ ذاتُ إقامة دائمة، من قولهم: عَدَنَ في المكان: أقامَ فيه.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾: أي تحت غُرفها وسُرُرِها، أنهار الماء وأنهار اللبن، والعسل، والخمر، ومجيء «من» في الآية للدلالة على أنَّ الماء ذاتيٌّ فيها،

ونابعٌ منها، أي ليس جارياً إليك - يا عبد الله - من مكان آخر قد ينقطع عنك، أو تُحرَمُ منه، بينما تقرأ في [سورة التوبة ١٠٠]: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، وهذا يعني أنَّ مصدرها ومنبعها من مكانٍ آخر.

وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾: أي ثواب من تطهر من الكفر والمعاصي، قال ابن عباس: هو من قال: لا إله إلا الله مُخلصاً.

قال الرازي: لمّا دلت الآية على أنَّ الدرجات العلى لمن تزكى، وتطهر من الذنوب، فوجبَ أن تكون الدرجات غير العالية لغير من تزكى، أي لأولئك الذين أتوا بالمعاصي وعفا الله عنهم بفضله ورحمته.

والزكاةُ: تُطلق على شيئين: الطهارة والنماء، فالطهارة أن يكون الشيء طاهراً في ذاته، والنماء: أن توجد فيه خصوصيةُ نُمُوٍّ، فيزيد عما تراه أنت عليه، والعلماء يضربون مثلاً لذلك: «خصوصية النَّماء» بالورد الطبيعي، والورد الصناعي، فالأول فيه: المائية والنضارة والرائحة الزكية، والألوان والنمو، وكلها صفات ذاتية في الورود الطبيعية، على خلاف الورد الصناعي فهو جامد على حالة واحدة.

وهذا هو الفرق بين صنعة البشر، وصنعة الخالق للبشر؛ لذلك كانت صنعةُ الله أخلَدُ وأبقى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون].

ومن هنا سُمِّيَ المال الذي تُخرجه للفقراء «زكاةً»؛ لأنه يُطهر ما بقي من المال ويُنميه، ثم يقول العلماء: ومن العجيب أن الله عز وجل سمّى ما يخرج من المال للفقراء «زكاة ونماء»، وسمى زيادة الربا: «محقاً».

فصار معنى قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾: أي تطهر من المعاصي أولاً، ثم نَمَّى نفسه ثانياً، والطهارة سابقةٌ على التنمية؛ لأن درء المفسدةِ مُقدم

على جلبِ المصلحة، والتنميةُ هنا: هي ارتقاء المؤمن في درجات الوصول للحق، فهو مؤمن بدايةً، لكن إيمانه يزيد وينمو يوماً بعد يوم، وكلما ازداد إيمانه، ازداد قربه من ربه، وكلما نمّى الإنسان إيمانه ارتقى في درجاته، فتكون له الدرجات العلى في الآخرة.

قال البروسوي عند تفسيره لهذا الآية [طه]: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ٧٦﴾، قال: جاء في الحديث: «إن أهل الدرجات العلى، ليراهم من تحتهم كما ترونَ الكوكب الدُّرّي في أُفق السماء، وإنَّ أبا بكر وعمر منهم وأنعما»: أي هما أهلٌ لهذا المقام.

هنا يأتي سؤال: فقد يقول قائل: من أين للسحرة هذا العلم؟

والجواب: كما قال القرطبي وغيره: إما أنهم سمعوه من موسى في دعوته لهم، أو عندما دعا الناس، وقد سمعوا أمثال هذا الذي قالوه من بني إسرائيل وهم أهل كتاب، وكانوا منتشرين في كل أنحاء مصر، أو إلهاماً ربانياً عندما استقر هذا الإيمان العجيب في قلوبهم.

والآن: **ماذا كان مصير السحرة؟**

قال ابن كثير: يدل سياق الآيات على أن فرعون نفَّذَ تهديده، وكذلك قال البروسوي، وذلك كقوله تعالى في [سورة الشعراء]: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ٥٠ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥١﴾، فقد قال ابن كثير عن هذه الآية: إن الخبيث قد صلبهم وعذّبهم، يؤكد هذا التنفيذ ما ورد في الأخبار عن ابن عباس، وعبيد بن عمير قالا: «كانوا أول النهار سَحَرَةً، وفي آخره شُهداء بَرَرةً».

وقال صاحب «بحر العلوم»: أصبحوا كفَرَةً، وأمسوا أبراراً شُهداء.

وقال البروسوي: الأخبار تؤكد أنه استعمل الصلبَ لهم.

قال ابن عباس: أخذ فرعون السَّحَرَةَ ثم صلبهم على شاطئ النيل في مصر، ولمّا كان ذلك الوعيد من فرعون مما لا تُطيقه النفوس، سألوا الله أن يجعلَ لنفوسهم صبراً قوياً يفوقُ المُتعارف، وذلك ما ذكره القرآن في [سورة الأعراف]: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾، ولسان حالهم يقول:

إلى دَيَّانِ يوم الدين نمضي وعندَ الله تجتمعُ الخُصومُ

قال القرطبي: آمن بموسى بعد قتل السَّحَرَةِ ستمائة ألف.

وقولهم: ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾: أي ولتكن وفاتُكَ لنا على حال كوننا مسلمين لك، مُذعنين لأمرك ونهيك، مُستسلمين لقضائك، غير مفتونين بوعيد فرعون، وغير مُطيعين له في قولٍ ولا فعلٍ، وهكذا جمعوا بدُعائهم هذا بين كمالِ الإيمان والإسلام.

ولا بُدَّ هنا من وقفة صغيرة مع ما كتبه صاحب «المنار» محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى عند هذه الآية: ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

قال ما خُلاصته: إن الصبر على المكاره والمشاقِّ إنما يكون من ثمار الإيمان؛ لأنه لا شيء كالإيمان بالله والخوف منه، والرجاء فيه يُقَوي صفةَ الصبر في النفس الإنسانية، وهذا قرَّره النقل والعقل، ففي النقل نقرأ قوله تعالى في بيان المؤمنين الصالحين الذين لهم الجنة، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النحل]، وقال الله فيهم كذلك في [سورة العصر]: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾، ثم لدينا من نُقولِ التاريخ القديم والحديث ما يؤيد ذلك، وقد صرَّح الذين

كتبوا أخبار الحروب الأخيرة بعِلَلِها وفلسفتها، أن المؤمنين بالله واليوم الآخر من جميع المِلَلِ أعظمُ شجاعة، وأشد صبراً على مشاقِّ الحرب من غيرهم، ثم قال: ولذلك يحرص أوسع الناس علماً بفنون الحرب - كالشعب الألماني - بالمحافظة على الدين في جيوشهم، ثم ينقلُ عن «بسمارك»، وهو مؤسس الوحدة الألمانية، وهو أكبر ساسةِ أوربا في عصره، كلمة في صدد موضوع الإيمان وأثره، والكلمة منقولة عن «كاتم سر بسمارك» ذكرها بعد موت زعيمه «بسمارك» في مذكرات نُشرت بعد ذلك، يقول أمين سر «بسمارك» «برش»: جلس البرنس بسمارك على مائدة الطعام، فرأى بُقعةً من الدهن على غطاء المائدة، فقال لأصحابه: كما تنتشر هذه البُقعة من الدُهن في النسيج شيئاً فشيئاً، كذلك ينفذُ الشعور باستحسان الموت في سبيل الدفاع عن الوطن في أعماق القلوب، وإن لم يكن هناك أملٌ في المُكافأة الدنيوية، ذلك لما استقر في الضمائر من بقايا الإيمان، ذلك الإيمان الذي يشعر به كل واحد منا أنَّ واحداً مُهيمناً يراه وهو يُجالد ويموت، وإن لم يكن قائده يراه.

وكان إلى جانب «بسمارك» بعضُ المرتابين «العلمانيين اللادينيين»، فقال لبسمارك: أتظنُّ سعادتكم أن العسـاكر يُلاحظون في أعمالهم تلك المُلاحظة؟

فأجابه البرنس بسمارك: ليس هذا الأمر من قبيل المُلاحظات، بل هو شعور ووجدان، هو بوادر تسبق الفكر، هو ميل في النفسِ وهوىً فيها، كأنه غريزةٌ لها، ولو لاحظوا، لفقدوا ذلك الوجدان والميل.

ثم قال بسمارك: هل تعلمون أنني لا أفهم كيف يعيش قومٌ، وكيف لهم أن يقوموا بتأدية ما عليهم من الواجبات، إنْ لم يكن لهم إيمانٌ بدينٍ سماوي، واعتقاد بإلهٍ يحب الخير، وحاكم ينتهي إليه الفضل في الأعمال في حياةٍ بعد هذه الحياة التي نحن فيها، ثم قال: ولولا هذه العقيدة الدينية التي أحملُها لما

خدمتُ عاهلي «الإمبرطور» ساعةً من الزمان.

والآن: ماذا جرى بعد هذه الوقائع؟

واقعة الصلب للسَّحَرَةِ، وقبلها واقعة انتصار موسى عليهم بالمعجزة، والجواب مدهش:

قال الرازي: اعلم أن بعد هذه الواقعة، لم يتعرض فرعون لموسى، ولا أخذه، ولا حبسه، وهذا التصرف أثار استغراب الحاشية، فاتجهوا إلى فرعون وسألوه: لماذا تترك موسى وقومه بدون عقاب؟

وذلك ما ذكره القرآن الكريم في [سورة الأعراف ١٢٧]: ﴿ **وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ** ﴾، ولم تُدرك الحاشيةُ، ولا الملأ من حوله، أن فرعون كان خائفاً من موسى أشدَّ الخوف، ولذلك لم يتعرض له، كما كان الملأ، وكانت الحاشية خائفين من انقلاب الناس عليهم، وبخاصة حين رأوا مُجاهرةَ السَّحَرَةِ بالإسلام، وعدم المُبالاة بتهديد فرعون ووعيده، ففرعون خائف من موسى، والحاشيةُ خائفة من التغيير؛ لأن التغيير سيُطيح بهم وبمراكزهم، ولذلك قالوا: ﴿ **أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ** ﴾.

وقد ورد عن سعيد بن جبير قال: كان فرعون قد مُلِئَ رعباً من موسى، حتى كان إذا رآه، يُسرع أن يبول كما يبول الحمار.

وقولهم: ﴿ **وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ** ﴾، كان القِبط مشركين، يعبدون آلهةً مُتعددةً، ومُتنوعةً - كما يقول ابن عاشور - من الكواكب والعناصر، صوَّروا لها صوراً عديدةً تختلف باختلاف العصور والأقطار، أشهرُها: «فتاح»: وهو أعظمُها عندهم، وكان يُعبد في مدينة «منفيس»، ومنها «رَعْ»، وهو الشمس،

وتتفرع عنه - عن رع - آلهةً أخرى باعتبار أوقات شعاع الشمس، ومنها: «إيزيريس»، و «إيزيس»، و«هوروس»، وهذا ثالوث مجموع عندهم من أب وأم وابن، ومن آلهتهم «توت» وهو القمر، وكان عندهم ربَّ الحكمة، ومنها: «آمون رع»، وكان لهم أصنام فرعية عديدةٌ صغرى، مثل العجل «أبيس»، ومثل: «الجُعران» وهو الجُعَل، وكان أعظمَ هذه الأصنام هو الذي ينتسب فرعون إلى بُنُوَّتِهِ وخدمته، وكان فرعون معدوداً ابن الآلهة، وقد حلت فيه الإلهيةُ على طريقة عقيدة الحلول، ففرعون هو المنفذ للدين، وكان يُعدُّ إله مصر، وكانت طاعته طاعةً للآلهة، كما ذكر الله ذلك في كتابه: يقول تعالى حاكياً عن فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات]، وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص ٣٨].

قال القاسمي: وكان من آلهتهم - الصغيرة - صنم يُسمى «بَعْلَزَيوب»، يعتقدون أن وظيفته طرد الغربان.

ماذا كان رد فرعون على طلب الحاشية؟

تقرأ ذلك في [سورة الأعراف] في تتمة الآية: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾، وتُلاحظ في جواب فرعون للملأ، أنه لم يذكر موسى؛ لأن خوفه منه يمنعه من الاقتراب منه ولو بكلمة - كما قال الشعراوي - لأنه يخشى إن تعرَّضَ لموسى بشيء أن يفاجئه مفاجئةً ثانية، لأن صورة الثعبان الذي ظهر ساعة إلقاء موسى العصا لا زالت في مُخيلته، حتى قال بعض المفسرين: إن الثعبان عندما فتح شدقيه اتجه إلى فرعون، فقال عندها لموسى: كُفَّهُ عني وأؤمن بما شئت.

وقد قال المحققون: إن هذه الصورة مُحتملةٌ يؤكدُها أن فرعون لم يتعرض لموسى حتى تلك اللحظة التي قال فيها هذا القول: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ

وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾، فهو في هذا الجواب لم يَقُلْ: سنقتل موسى، لتيقُّنه أنه لا يقدر عليه، ولأنه خائف من عصاه، بل قال:﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ ﴾؛ لأن الأبناء هم العدة: ﴿ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾، والاستحياء: مبالغة في الإحياء لاتخاذ النساء سراري وخدماً.

وفي هذا القول من فرعون، إصرار منه على مُتابعة إذلال بني إسرائيل، وهذا الأمر كان يفعله من قبل، والسبب في ذلك - كما قال المفسرون -: أن بني إسرائيل كانوا يُساعدون «الهكسوس» وملوكهم على القِبط، وبعد أن طرد الفراعنة الهكسوس من مصر، اتجهوا إلى إيذاء بني إسرائيل الذين كانوا يُساعدون عدوهم الهكسوس.

لقد طلب الملأ والحاشية من فرعون قتل موسى، فكان جوابه لهم واضحاً ولم يتعرض لذكر موسى، بل طمأن الحاشية أنه قوي ولا خوف من الإسرائيليين، ولذلك قال: ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾.

قال القاسمي: وفَعَلَ فرعون ما وعد الحاشية به، فبدأ بالاضطهاد لبني إسرائيل، فأسرع بنو إسرائيل وشكوا لموسى ما يُلاقونه من القِبط، فكان جواب موسى ما ذكره الله تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأعراف].

قال المفسرون: إن تهديد فرعون لبني إسرائيل بقوله: ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ ﴾، أخاف بني إسرائيل، فأراد موسى عليه السلام أن يُطمئنهم بكلام يكون كردّ على فرعون: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

قال الرازي: أمرهم موسى عليه السلام بشيئين، وبشَّرهم بشيئين:

أمرهم بالاستعانة بالله **أولاً**، وبالصبر على البلاء **ثانياً**: ﴿ **ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ** ﴾.

وبشَّرهم بأنهم سيرثون أرض مصر، وأطمعهم في ذلك **أولاً**.

وبشَّرهم **ثانياً** بأن الفوز والظفر في الدنيا، ولهم في الأُخرى إذا اتقوا: ﴿ **وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾: أي الذين يتقون الله بمُراعاة سُننه في أسباب إرث الأرض، كالاتحاد، والاعتصام بالحق، والعدل، والصبر على المكاره، والاستعانة بالله، وقد عَلِمَ موسى بذلك وحياً بأنه منصور على فرعون.

قال الجشمي مُعلقاً على تهديد فرعون ووعيده وجبروته: وهكذا كل ضال إذا أَعْيَتْهُ الحُجَّةُ والبرهان عَدَلَ إلى التهديد والوعيد، وكذلك كان العرب مع نبينا ﷺ لمّا عجزوا عن مُعارضة القرآن، مالوا إلى قتاله ﷺ.

ثم قال: وتدل الآيات على أنه عند الخوف من الظَلَمَةِ يجب الالتجاء إلى الله تعالى، والاستعانة به عز وجل، مع الصبر، وتدل على أنَّ العاقبة الطيبة، والخِتام المحمود يُنال بالتقوى.

قال صاحب «أيسر التفاسير»: وسبحان الله، فإن ما ذكره موسى لبني إسرائيل قد تمَّ حرفياً بعد فترة صبرَ فيها بنو إسرائيل، واتقوا كما سيأتي معنا.

ماذا كان ردُّهم على ما قاله لهم موسى عليه السلام؟

والجواب في الآية: ﴿ **قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ١٢٩** ﴾ [الأعراف].

قال الجزائري في تفسيره في قول بني إسرائيل لموسى: ﴿ **قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن**

﴿ قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ ﴾، قال هذه كلمةُ الآيس المهزوم نفسياً لطول ما عانوا من الاضطهاد والعذاب، قالوا: ما زلنا نتلقى قتل الأبناء، واستحياء النساء، ونقوم بأعمال السُخرةِ عند فرعون ومَلَئِه إلى نصف النهار، وفي النصف الثاني من اليوم يُتركون ليكسبوا لأنفسهم ومعاشهم.

قال الحسن: وكان فرعون يأخذ منهم مع السُّخْرَةِ الجزية كذلك، ثم قالوا: كأن مجيئك لم يصنع شيئاً لنا، ولم يُغيّر من حالنا!!؟؟

قال العلماء: أراد موسى أن يُحيي الأمل في نفوسهم، وأن يشُدَّ عزائمهم، وأن يَصِلَ قلوبهم بالقوي الذي لا يُقهر، فأجابهم عليه السلام بقوله: ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩ ﴾ [الأعراف]: أي المرجو من فضل الله ورحمته أن يُهلك عدوكم الذي آذاكم بظلمه، ويجعلكم خُلفاء في الأرض التي وعدكم إياها، وقد تحقق الوعد: «استُخلفُوا في مصر أيام داوود وسليمان، وفتحوا بيت المقدس مع يوشع»، وقول موسى لهم هذا الكلام بشارة، وختَمَ ذلك بقوله: ﴿ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾: أي سينظر كيف تعملون بعد استخلافكم، هل تشكرون النِعمةَ أم تكفرون، هل تُصلحون في الأرض أم تفسدون؟ ليُجازيكم في الدنيا والآخرة بما تعملون.

وقوله: ﴿ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾: تحذيرٌ من أن يعملوا ما لا يُرضي الله تعالى، والمقصود هنا: سياستُهم للناس ومعاملتُهم لغيرهم بعد استخلافهم في الأرض.

ويذكر لنا التاريخ الإسلامي أن «عمرو بن عبيد» دخل على المنصور قبل أن يكون أميراً للمؤمنين، وكان أمامه رغيف، فقال المنصور: التمسوا رغيفاً لابن عبيد، فردَّ العامِلُ قائلاً: لا نجد، فلما وُلِيَ المنصور الخلافة، وتمكن

مُلكُهم بعد القضاء على الأمويين، وكثُرت النِعمَةُ على المنصور، وعاش في بُحبوحة الحياة، ودخل عليه «عمرو بن عبيد» وقال للمنصور: لقد صدق معكم الحق يا أمير المؤمنين في قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ١٢٩﴾.

قال القرطبي: و﴿عَسَىٰ﴾ من الله واجب.

وقال البروسوي: و ﴿عَسَىٰ﴾ من الله واجبٌ؛ لأن الكريم إذا وعَدَ وفّى، فيصير، كأن الله أوجب على نفسه ذلك تفضُّلاً وتكرُّماً.

قال في «المنار»: وعبَّرَ موسى بكلمة ﴿عَسَىٰ﴾ عن الوعد ولم يجزم ولم يقطع، لئلا يتقاعسوا، ولا يتَّكِلُوا، ويتركوا ما يجب عليهم من العمل.

وقوله: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، يُشبه قول النبي ﷺ: «إن الدنيا حُلوة خَضِرةٌ، وإن الله مُستخلفكم فيها، فناظِرٌ كيف تعملون».

وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾، وهذه وحدها نِعمةٌ، تليها نِعمةٌ أُخرى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، لكن لهذا النعم ثمن وهو: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

قال صاحب كتاب «مع الأنبياء»: ألَحَّ موسى بالدعوة إلى الإيمان بالله، وخَشِيَ فرعون من دعوته على قومه.

قال الشعراوي: خَشِيَ من غسيل مخ لهم، ولمّا كانت هذه الدعوة تكسر من هيبته وتحُطُّ من قدْره، أراد أن يُذكِّرهم بألوهيته، وأنه لم يتأثر بكلام موسى، فوجه كلامه إلى هامان قائلاً لهم ما ذكره الله تعالى في [سورة القصص]: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ

﴿ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

وورد في [سورة غافر] كذلك: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

قوله: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾، أراد فرعون بهذا الكلام نفي وجود الإله الذي أثبته موسى، وهو الخالق للكون كله حين قال موسى لهم عن الله: ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الشعراء]، جواباً على سؤال فرعون: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾؟ وعندما قال لهم موسى هذا الجواب: ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ حسِب فرعون أن مملكة هذا الرب السماء، وهذا التَّوهُّمُ دفعه إلى مُخاطبة هامان وزيره طالباً منه أن يبنيَ له صرحاً يبلغ به عنان السماء، ليرى الإله الذي زعمه موسى، حتى إذا لم يجدْه رجع إلى قومه فأثبتَ لهم عدمَ إلهٍ في السماء إثباتَ مُعاينة، وأراد بهذا الكلام أن يُظهر لقومه أنه مُتطلِّبٌ للحق، حتى إذا رجع إلى قومه أخبرهم بأنَّ نتيجة البحث التي قام بها أسفرتْ عن كذب موسى، ليُرسِّخ في أذهانهم بُطلان قول موسى عليه الصلاة والسلام.

والصَّرحُ: هو القصر المرتفع، وقوله: ﴿ فَأَطَّلِعَ ﴾، الاطلاع هو: الطلوع القوي المُتكلَّف لصعوبته.

وقوله: ﴿ لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ ﴾: أي أبلغ طرقَ السموات وأبوابها، كما قال زهير:

ومن هابَ أسبابَ المنايا ينَلْنَهُ وإن يرقَ أسباب السماء بِسُلَّمِ

وقصد بذلك أن ينظر إلى الله نظرَ عالٍ عليه، فقد توهَّمَ الخاسرُ أن الله جسم تحويه الأماكن، وكانت كل عقائدهم قائمة على التَخيُّل الباطل.

وقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣٨﴾ [القصص]: أراد أن يُقنع قومه بأن موسى كاذبٌ بادعائه ذلك الادعاء: وهذا كله تمويهٌ من فرعون على قومه.

هنا يأتي سؤال: هل بُنِيَ الصَرحُ؟

قال صاحب كتاب «قصص الأنبياء»، قال: من الناس من يذكر الفكرة عالماً بأنها غير مبنيةٍ على أساس، ولكنه لا يزال يخدع نفسه، ونفسه تُخادعه، حتى يُخيل إليه أنَّ الأمر سهل الوقوع، فيُعلق نفسه به، ثم قال: ولا أظن أن فرعون كان جاهلاً إلى درجة يأمُل معها الوصول إلى السماء، ولكنه أراد أن يوهِمَ الملأ، ومنهم هامان أنه قادر على مُنازلةِ كل إله ولو كان في السماء، ولذلك أمر هامان ببناء الصرحِ، وقوله هذا يُريد به أن يُفهم الملأ أن دعوة موسى لم تُوهِنْ يقينه بما يعتقد من آلهتهم، وأنه يُريد من بناء الصرحِ أن يبحث بحثَ مُتأمِّلٍ ناظرٍ في الأدلة، وأنه سيصعد لينفيَ بالدليل والحس أن موسى كان كاذباً في دعواه، ولذلك قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣٨﴾.

ومن الطرائف في هذا الباب - يقول المؤلف - أنه في سنة ١٨٩٦ كان رجل من أهل السودان اسمه «يونس الدكيم» كان أميراً على مُديرية «دنقلةَ»- وهو من رجال التعايشي، فلما قامت الحملة المصرية الإنجليزية لاسترجاع السودان، جاء الخبر إلى الناس أن الحملةَ آتية عن طريق السفن في النيل، ويُسمى «بحر النيل»، فحلفَ الأمير «يونس الدكيم» هذا قائلاً: «بتاً بالله أشربُ البحرَ»: أي حلف بالله أنه سيشرب ماء النيل حتى تقف السفن على الطين، فلا تستطيعُ مواصلة السير، فتفشل الحملةُ.

قال المؤرخون: ومع عِلْمِ الناس بكذبه أظهروا له أنه قادر على ذلك، ولكن قالوا يا سيدنا: النيل يشرب منه المهدي الخليفة، والبهائم والناس والزروع، فإن شربه هلك الرزع والضرع والناس، وقاموا يستعوضونه حتى لا يفعل، وهم يعرفون كذبه، ولا يجرؤ أحد على مُخالفته.

ولذلك قال الزمخشري في «تفسيره»: إن كَذِبَ فرعون لم يَخْفَ على قومه، ولكن كل واحد منهم كان يخاف على نفسه من سيف فرعون وسوطه، فهم إما خائفون، أو أغبياء.

ويروي المؤرخون، أنه في معركة «كرري» في السودان سنة ١٨٩٦ خارج «أم درمان»، خرج «عبد الله التعايُشي» مع جنوده هارباً نحو الجنوب من الجيش المصري الذي كان يُرسل رصاصه على مؤخرةِ جيش «عبد الله التعايُشي»، وخاف التعايُشي أن يُصاب بالرصاص إن ركِبَ جواده، فمشى راجلاً، وكان معه في الجيش رجل اسمه «عثمان دقنة» وكان بطلاً مشهوراً في الحروب السودانية، فقال للتعايُشي: اركب يا خليفة المهدي، فأجابه التعايُشي باللهجة السودانية: كيفن أركب والخضر ماشي أمامي، فقال له «عثمان دقنة»: فِضَّنا من كفياتك دي يا زول، يعني: دعنا من أكاذيبك يا رجل، الخضر ما هو شايف رصاص الترك خلفنا، فلماذا يهرب، لكن نحن شايفين رصاصهم.

ثم علق صاحب كتاب «قصص الأنبياء» على هذا فقال: ولكن فرعون لم يجد من قومه من يقول له كما قال «عثمان دقنة» للتعايُشي، بل كانوا يُصَدّقون على قوله ويُؤَمِّنون.

و نسأل: هل بنى الصرح؟

والجواب: أن القرآن سكت عن هذه القضية، وبعض المفسرين قال: إن الصرحَ قد بُنِيَ، وأنَّ جبريل هدمه بجناحه بضربةٍ واحدة.

ولكن المُحقق الرازي عليه رحمة الله قال: إن الصرحَ لم يُبْنَ، وليس هناك دليل من كتاب أو سُنَّةٍ يُشير إلى أنه بُنِيَ، ثم يقول: وكل ذلك إنما كان من فرعون عمليةً دعائيةً، حتى لا يُظهِرَ ضعفه، ولكن الظالم مهما فعل، فعاقبته وكيده إلى هلاك وفشل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [غافر]، والتبابُ: الخُسران والهلاك، ومنه: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾ [المسد].

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: واستمر موسى في دعوته يُمهد السبيل لقومه حتى يتخلصوا من فرعون وظلمه، ويتجهُ موسى إلى الله بيقينٍ ثابت، وإيمانٍ موفور، هذا حال موسى، فما حال فرعون؟

والجواب: ما ذكره صاحب تفسير «البحر المحيط» أبو حيان الغرناطي، حيث قال: إنَّ فرعون – لعنه الله – كان قد استيقَنَ من أنَّ موسى نبي، وأن ما جاء به من الآيات الباهِرات ليس سحراً، وكان الرجل – فرعون – سفاكاً للدماء لأهونِ شيء، فكيف لا يقتل موسى الذي أحسَّ منه أنه سيهدمُ مُلكه؟

ثم يُجيب الغرناطي عن هذا السؤال قائلاً: كان فرعون خائفاً إن هَمَّ بقتل موسى، أن يُعاجَلَ بالهلاك، ولذلك مَوَّهَ على قومه وأوهَمهم أنهم هم الذين يمنعونه من قتل موسى!!

ثم يُتابع الغرناطي كلامه فيقول: ولكن الحقيقة أنه لم يكن يمنعُهُ من قتله إلا الخوف، وهذا ما أشارت إليه الآية: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓۖ ﴾ [غافر ٢٦].

قال صاحب «نظم الدرر»: عندما أدرك فرعون أنه عاجز عن قتل موسى، وأنه خائف منه، أوهَمَ قومه – أهله وحاشيته – أنهم هم الذين يردّونه عن قتل موسى، وأنه لولا ذلك لقتله، كانوا يقولون نخشى عليك من دُعائه،

وهذا التعبير ﴿ذَرُونِيٓ﴾: المُراد منه - كما يقول ابن عاشور - تمثيلُ حالِ المُتكلم وحال المُخاطَبين بحالِ من يُريد فعل شيء فَيُصَدَّ عنه، فيقول لمن يصُدُّهُ عنه: ذَرني أفعل كذا، ويُرادفه: دعني وخَلِّني، وهو تركيبٌ يُخاطب به المُمانع والمُلائم كذلك، قال طرفة:

فإنْ كنتَ لا تستطيع دفعَ مَنيَّتي فدعني أُبادرْها بما ملكت يدي

ومنه قول أبي القاسم السُهيلي:

دعني على حُكم الهوى أتضرعُ فعسى يلين ليَ الحبيبُ ويخشَعُ

وقوله: ﴿وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾: قال ذلك؛ لأن موسى خوَّفهم عذاب الله، وتحداهم بالآيات التسع، ولامُ الأمر هنا مستعملةٌ في معنى التسوية وعدم الاكتراث، ثم بيّن السببَ الموجبَ للقتل بقوله - عليه من الله ما يستحق -: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ٢٦﴾ [غافر].

قال الرازي: بيّن فرعون أنَّ السبب الموجب لقتل موسى، هو كون وجوده يوجب فساد الدنيا أو فساد الدين، فسعْيُ موسى لا يخلو عن حصول أحد الأمرين:

إما فساد الدين: وذلك لأن قوم فرعون اعتقدوا أن دينهم هو الصحيح، وأن موسى جاء لتغيير هذا الحق من الديانة والعوائد.

قال ابن عاشور: حملَهُ غروره على ظن ما خالف دينهم يُعَدُّ فساداً، والواقع أنَّ دينهم ليست له حُجَّةٌ صحيحة، وإنما العادات، والانتفاع العاجل.

وإما فساد الدنيا: فإن موسى إذا غلبنا وقَوِيَ علينا، فإنه سيسفكُ الدماء، ويسبي الذُرية، ويأخذ الأموال، ففسدت الدنيا مع فساد الدين، ونُلاحظ أن استعمال كلمة ﴿دِينَكُمۡ﴾ القصد منه إلهابٌ وتحريض، وأنكم أولى

بالدفاع لأنه دينكم كما هو ديني، كأنه يقول لهم: إن حظكم ومشورتكم هي المقدَّمةُ عندي، لا حَظُّ نفسي؟!! وهكذا قالوا في الأمثال: صار فرعون واعظاً أو مُذَكِّراً يخاف على الناس من موسى.

ماذا كان جواب موسى على ما قاله فرعون لأهله وملئهِ حيث تآمـروا لقتله؟!!

والجواب ما ذكر الله تعالى في [سورة غافر]: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾.

هذا الكلام صدر من موسى في غير حضور فرعون ووجوده لا محالة، لأن موسى لم يكن ممن يُستشار من فرعون، ولكن لمّا بلغتهُ المؤامرة قال هذا القول، وهو خطابٌ لقومه بني إسرائيل تطميناً لهم، وتسكيناً لخوفهم عليه من بطش فرعون، والآية دالَّةٌ على أنَّ موسى عَلِمَ أنه سيجد مُتكبرين يكرهون دعوته، وما أرسِلَ به، فدعا ربه، وعَلِمَ أنَّ الله ضَمِنَ له الحفظ، وكفاه ضيرَ كل مُعاند، وقد مرَّ معنا في [سورة طه] قول موسى وهارون: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾، فأخبر موسى قومه بأن ربه حافظٌ له ليثقوا به عز وجل، وهكذا كان مقام نبينا ﷺ، فقد كان في أول البعثةِ يُحرس من أصحابه، ثم تخلّى عن الحِراسة عندما خوطب بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الحجر]، وغيرها من الآيات، ومعنى الآية: إني ألتجئُ وأعتصم، وأعتمد على الله ليحفظني من شر كل جبار عنيد مُتكبر عن الإيمان بالله، مُنكرٍ ليوم الحساب والآخرة.

أما قوله: ﴿ بِرَبِّي وَرَبِّكُم ﴾: فيه إشارة أنكم يا قومي عليكم ألا تجزعوا من عداوة فرعون لكم، وأنَّ عليهم أنْ يعوذوا بالله من كل ما يفظَعُهُم.

قال الرازي في هذه الآية عند قوله: ﴿ بِرَبِّي وَرَبِّكُم ﴾: كأنَّ العبدَ يقول: إن الله سبحانه هو الذي رباني، وإلى درجات الخير رَقَّاني، ومن الآفات وقَّاني، ونِعَماً لا حصرَ لها أعطاني، فعلى العبد أن يلجأ إليه تبارك وتعالى في دفع الآفات.

ونُلاحظ في الآية أن موسى لم يذكر فرعون بالاسم، لماذا؟

قالوا: حتى يشملَ الوصف: ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ فرعون وغيرَه ممن يسيرون على مسلكه.

قال البروسوي: وإذا اجتمع التكذيب بالآخرة، مع التكبر عن الإيمان، كان صاحبُهما أظلَمَ وأطغى، فالمُتكبر الذي يؤمن بالبعث، قد يمنعه ذلك من إيذاء الناس، أما المُتكبر الذي يُنكر الحساب ويومه، فيكون إيذاؤه أفحشَ وأشدَّ، وفي القسوة آكدَ، فالاستعاذة منه أولى.

قال الرازي: ومن أحاطَ بفوائد هذه الآية، عَلِمَ أنه لا طريق أصوبُ وأصلحُ في دفع كيد العدو من الاستعاذة بالله، والرجوع إلى حفظه عز وجل، ولذلك كان النبي محمد ﷺ إذا خاف قوماً قال: «اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم، وندرأ بك في نحورهم».

وقد سُئل أبو حنيفة رضي الله عنه: أي ذنب أخوفُ على سلب الإيمان؟

قال: ترك الشُكر على نعمةِ الإيمان، وترك خوف الخاتمة، وظلم العباد.

وفي أخبار الأولين: أن الله تعالى سخَّرَ الريح لسليمان، فحملتهُ مع قومه على السرير حتى سمعوا كلام أهل السماء، فقال مَلَكٌ لآخر: لو عَلِمَ الله في قلب سليمان مثقال ذرةٍ من كِبْرٍ لأسفله في الأرض بمقدار ما رفعه.

وفي الآثار عند الأولين: ما من أحدٍ إلا وفي رأسه سلسلتان: إحداهما

إلى السماء العُليا، والأُخرى إلى الأرض السُفلى، فإن تواضع العبدُ رفعه الله بسلسلة السماء، وإن تكبَّرَ وضعه بسلسلة الأرض.

مؤمن آل فرعون:

قال البروسوي: لمّا استعاذ موسى بالله، واعتمدَ على فضله ورحمته، صانهُ من كل بليّةٍ، وأوصلَهُ إلى كل أمنيةٍ، وهيأ له إنساناً غريباً أجنبياً دافع عنه على أحسن وجه ليصرفَ فرعون والملأ عن إيذاء موسى وقتله، قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ** ﴾ [غافر].

قال الطبري: إنه كان ابن عم لفرعون، وكان جارياً مجرى وليِّ العهد، وصاحب الشرطة، وكان يُخفي إيمانه عند فرعون، واسمه «سمعان» كما قال السُهيلي.

وقال البروسوي: كان لهذا الرجل مكانته عند فرعون، وهو من قومه، ولهذا استمع له فرعون باهتمام، ولو كان إسرائيلياً لفتكَ به.

وفي الحديث أنه ﷺ قال: «الصدّيقون: حبيب النجار مؤمن آل ياسين، ومؤمن آل فرعون الذي قال: ﴿ **أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ** ﴾، وأبو بكر الصديق، وهو أفضلُهم».

وقال علي: والله ليوم أبي بكرٍ خيرٌ من مؤمن آل فرعون، إن مؤمن آل فرعون كتمَ إيمانه، وأبو بكر أظهرَ إيمانه، وبذل ماله ودمه.

وورد عن جعفر بن محمد رضي الله تعالى عنه قال: وأبو بكر كان خيراً من مؤمن آل فرعون، لأن هذا كان يكتم إيمانه، وأبو بكر كان جهّاراً.

قال ابن كثير: أخذت الرجل غضبةٌ لله تعالى – وأفضلُ الجهاد كلمةُ حق

- كما في الحديث الشريف، فقال: كلمة حق، وأيُّ كلمةٍ أعظم من قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾، اللهم إلا ما روى البخاري في «صحيحه» عن عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشدِّ شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ؟ فقال: بينا رسولُ الله ﷺ يُصلي بفناء الكعبة إذ أقبَلَ «عقبة بن أبي معيط» فأخذ بمنكبِ رسول الله ﷺ، ولوى ثوبه على عنقه وخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر، وأخذ بمنكبه فدفعه عن رسول الله ﷺ دفعاً شديداً ثم قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر ٢٨].

وفي «نوادر الأصول»: من حديث أسماء، أنهم - أي المشركون - سألوا النبي ﷺ: ألستَ تقول في آلهتنا كذا وكذا؟ فقال ﷺ: «أنا ذاك»، وفي رواية: «بلى»، فتشبثوا به جميعاً، فأتى الصريخُ إلى أبي بكر، وقيل له: أدرك صاحبك.

تقول أسماء: فخرج الصدِّيقُ من عندنا وله غدائر، فدخل المسجد وهو يقول: «ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله»؟، فانشغلوا عن رسول الله ﷺ وأقبلوا على الصديق، ثم رجع إلينا أبو بكر، لا يمسُّ شيئاً من غدائرة إلا خرج بيده وهو يقول: «تباركتَ يا ذا الجلال والإكرام».

وحكى ابن عطية في تفسيره عن أبيه، أنه لما سَمِعَ أبا الفضل ابن الجوهري على المنبر يقول، وقد سُئِلَ أن يتكلم في شيء من فضائل صحابة النبي ﷺ، فأطرق قليلاً، ثم رفع رأسه فقال:

عن المرء لا تسأل وسَلْ عن قرينه   فكلُّ قرينٍ بالمُقارنِ يقتدي

ثم قال: ماذا ترون من قوم قرنهم الله تعالى بنبيه ﷺ وخصَّهم بمشاهدته، وتَلقِّي الروح، وقد مدح الله مؤمنَ آل فرعون الذي كتم إيمانه، وأثبتَ ذكره في المصاحف لكلامٍ قاله في مجلس من مجالس الكفر، وأين هو من عمر بن

الخطاب الذي جرَّدَ سيفه بمكة، وقال: «والله لا أعبد الله سراً بعد اليوم»، فكان ما كان من ظهور الدين بتأييده.

قال المفسرون: ثم إن هذا المؤمن لجأ إلى حُجَّةٍ ثانية على طريقة التقسيم فقال: يا قوم، هذا الرجل - عن موسى - إما أن يكون صادقاً أو كاذباً، فإن كان كاذباً فضررُ كَذِبه يعود عليه، وإن كان صادقاً فكذَّبتموه، فإنه إن لم يُصِبْكُم كلُّ ما وَعَدَكم به من البلاء، يُصبكم بعضه، وهذا البعضُ كافٍ في إهلاكِكم، وإطلاقُ البعض على الكلِّ سائغ عند العرب، قال الشاعر:

قد يُدرك المُتأنِّي بعضَ حاجتِهِ وقد يكون مع المُستعجِلِ الزَّلَلُ

وقد ذكر القرآن الكريم قول هذا المؤمن، قال تعالى: ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ٢٨﴾ [غافر].

وقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ﴾: أراد أن يوهِمَهم أنه شاكٌّ في صدق موسى، فجعل كلامه مُشتَمِلاً على احتمالَيْ تصديقٍ وتكذيبٍ، فلا يُظَنُّ به، ولا يؤخذُ عليه أنه مُصدِّقٌ لموسى، بل يُخيل إليهم أنه في حالةِ نظرٍ وتأمُّل.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: وقدَّمَ احتمال كذبه على احتمال صدقه زيادةً في التباعد عن ظنهم به أنه ينتصر لموسى.

وينبغي أن نُنبِّهَ إلى أمر هنا: وهو أنَّ هذا الرجل المذكور هنا في سورة غافر، غيرُ الرجل المذكور في [سورة القصص] عند قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠﴾، لأن هذا الرجل جاء إلى موسى قبل خروجه من مصر إلى مدْيَنَ، أما الرجل الذي في سورة غافر، والذي هو موضوع حديثنا

الآن، فقصَّتُهُ مع موسى كانت بعد دخول موسى مصر.

كما أنَّ الرجل المذكور في سورة القصص، لم يوصف بأنه مؤمن، ولا بأنه من آل فرعون، بل كان من بني إسرائيل كما هو صريحٌ في «سفر الخروج».

قال ابن عاشور: كان رجلاً صالحاً نَظَّاراً في أدلة التوحيد، استقر الإيمان في قلبه بعد سماعه دعوة موسى، وإن الله يُقَيِّضُ لعباده الصالحين حُماةً عند الشدائد.

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر ٢٨]، فالغالبُ أنه من قول هذا المؤمن ليُعلِّلَ قوله السابق: ﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ [غافر ٢٨]: أي لأن الله لا يُقِرُّه على كذبه إن كان كاذباً على الله، فلا يلبث أن يفتضح، أو يُهلِكه الله، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحاقة].

والمعنى: لو كَذَبَ علينا، فأخبرَ أنّا قُلنا قولاً لم نقُلْهُ، لأخذناه بقوةٍ، أي دون إمهال، فقطعنا منه وتينَهُ، وهذا تهويلٌ لصورة الأخذ.

والوتين: عرق يُسمى «النّياط» يسقي الجسد بالدم، ولذلك يُقال له: «نهر الجسد»، فإذا قُطِعَ مات صاحبه، وهو يُقطع عند نحر الجزور، فالآيةُ شبّهت عقاب من يكذب على الله بجزورٍ تُنحر فيُقطع وتينُها، وهذا التكنيةُ: «عن الإهلاك بقطع الوتين»، من مُبتكرات القرآن.

و﴿ مُسْرِفٌ ﴾ هنا: أي المسرفُ في الكذب؛ لأن أعظم الكذب أنْ يكون على الله، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ ﴾ [الأنعام ٩٣].

قال المفسرون: لمّا شعرَ هذا المؤمن أنَّ كلامه داخَلَ نفوسهم، وأقامَ الحُجَّةَ عليهم بأنه لا يجوز قتل رجل لمجرد قوله «الله ربي»، أمِنَ بأسهم وانتهزَ فرصة انكسار قلوبهم فصارحهم بقصده، وخوَّفهم عذاب الله، وذلك قوله تعالى حاكياً عنه: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ ﴾ [غافر ٢٩]، نُلاحظ أنه كرر النُصح مع التَلَطُّف. والمعنى: أنتم اليوم غالبون عالون على بني إسرائيل في مصر، فلا تُفسدوا أموركم بأنفسكم بأن تتعرضوا لعذاب الله إن قتلتم رسوله.

ونُلاحظ أنه أدخَلَ قومه في الخطاب، فناداهم ليسحَبَهم إلى تأييده أمام فرعون ليكون فرعون وحيداً مُجرداً من نُصرتهم، فابتدأ بِنُصح فرعون أولاً، ثم ثنى بالنصيحة للحاضرين من قومه تحذيراً مما يجره عليهم قتل موسى، وهذا الترتيب في إسداء النصيحة يُشبه الترتيب في حديث رسول الله ﷺ عندما قال: «الدين النصيحة»، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولرسوله ولأئمةِ المسلمين وعامتهم».

قال الرازي: وما أسرعَ فرعون في رد الجواب على هذا المؤمن الناصح؟

قال ابن عاشور: تفطَّنَ فرعون لنصيحة هذا المؤمن، فقاطعَ كلامه لأنه أدرك أنه هو المقصود بالتعريض في كلام المؤمن، فأراد أن لا يتركَ لكلام هذا الناصح مدخلاً إلى نفوسِ الملأ خيفةَ أن يُعرضوا عنه، وذلك ما ذكرتهُ الآية السابقة نفسها في نهايتها: ﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩ ﴾ [غافر]: أي ما أُشير عليكم إلا بالصواب، الذي أرتضيه لنفسي، ولا أُشير عليكم إلا بما هو مُعتقدي.

قال المفسرون: بعد أنْ أنهى فرعون كلامه في مجلس الحكومة والخاصة، تابع مؤمن آل فرعون الكلام بعد انتهاء كلام فرعون، وقصد بكلامه

إتمام النُصح حتى لا يتوهم فرعون أنه قصدَ الردَّ عليه فيغضب، فلذلك قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١﴾ [غافر].

ويوم الأحزاب: هو اليوم الذي أخذ الله فيه قوم نوح وعاد وثمود، من غرقٍ، وريحٍ، وصيحة، أي أخافُ عليكم جزاء عادتهم: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ﴾، وهي استمرارُهم على الكفر والتكذيب حتى حَلَّتْ بهم نِقمَةُ الله، ونزل بهم عذابُهُ جزاءَ عملِهم، وهذا الكلام يدلنا على أمرين اثنين:

الأول: أن الهلاك سنّةٌ مستمرة للمُكذبين، فالله لا يُعاقب إلا بذنب، ولذلك قال في نهاية الآية: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١﴾.

ثانياً: المدلولُ عليه من الآية، أن القِبط كانوا على علم بما حلَّ بقوم نوح، وعاد وثمود، فأما قوم نوح فكان طوفانُهم مشهوراً، وأما عاد وثمود، فلقُربهم من البلاد المصرية، وكان عظيماً لا يخفى على الجِوار.

والظُلم – كما قال ابن عاشور – يُطلق على الشرك: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان]، ويُطلق على المُعاملة بغير الحق، والآية: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١﴾ [غافر]: نَفَت الظلم بِمَعْنَييهِ، وإفراد ﴿يَوۡمِ﴾: المُراد به الجِنسُ لا يوماً مُعيناً، والتقدير: مثل أيام الأحزاب، وكذلك للإيجاز كقول الشاعر وهو من شواهد سيبويه:

كلوا في نصفِ بطنكم تَعِفّوا فإن زمانكم زمنٌ خميصُ

قال المفسرون: ثم حذَّرهم هذا المؤمن عذاب الآخرة بعد أن خوَّفهم العقاب في الدنيا، فقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢﴾ [غافر].

ويوم «التنادي»: هو يوم الحشر والحساب؛ لأن الخلقَ يتنادَوْن يومئذ،

فمِن مُتَضرع، ومن مُستشفع، ومن مُسلِّم ومُهنِّئ، ومِنْ مُوَبِّخ، ومِنْ مُعتذرٍ، ومِنْ آمر، ومِنْ مُعْلِنٍ بالطاعة، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠﴾ [الأعراف].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [الأعراف].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤﴾ [فصلت].

﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ [الإسراء ٧١].

﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣﴾ [الفرقان].

﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ٦﴾ [القمر].

قال صاحب «التحرير والتنوير»: ومن بديع البلاغة في الآية هذا الوصف لليوم في هذا المقام، ليُذكِّرهم أنه في موقفه هذا بينهم يُناديهم بـ: يا قوم، ناصحاً مُريداً خلاصهم من كل نداء مُفزعٍ يوم القيامة.

وقرأ الجمهور: ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾، وهو من النداء، وهو الطلب والإغاثة، وقُرِئ: ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِّ﴾، بتشديد الدال، من نَدَّ البعيرُ إذا هرب، إذ هم فعلاً يومها يُحاولون الهرب، وشاهدُهُ في الآية قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾ [غافر]: أي تَفِرون من هولِ ما تجدونه، والإدبار: هو الرجوع من الطريق الذي أتى منه هرباً من الجهة التي وردَ إليها لأنه وجدَ فيها ما يكره، فيرجع.

وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾: أي أنتم في حالةٍ لا ينفعكم فيها

التولي.

والعاصمُ: الحافظ و المانع، أي ليس لكم مَنْ يعصمكم من العذاب، فلا يُحفظ في ذلك اليوم الذي تموج فيه الأرض وتُزلزل حيث يهرب الناس يُنادي بعضُهم بعضاً، إلا من آمن واستقام.

ثم خاطبهم هذا المؤمن بقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾:

قال صاحب «أيسر التفاسير»: وفي قوله هذا إشارةٌ إلى أنَّ القوم لم يتأثروا بكلامه، فقال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾: أي فإنَّ من كتب الله عليه الضلالة ليَصِلَ إلى الشقاوة بكسبهِ، فلا هاديَ له أبداً.

قال المفسرون: ولمّا تَفَرَّسَ هذا المؤمن فيهم عدم انتفاعهم بنُصحه لهم مالَ إلى عتابهم ولومهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر].

قال لهم: لا عجبَ أن تُكذِّبوا موسى، فأنتم من ذرية من كذَّبوا يوسف بن يعقوب - وهو قبل موسى - بعدما جاءهم بالبينات، فتكذيبُ المُرشدين إلى الحق شِنشَنةٌ معروفةٌ في أسلافكم، فلا عجبَ إن صدرت منكم هذه الشِنشَنات.

ثم ذكر لهم ما قاله أسلافهم في يوسف، ذاكراً قِلَّةَ اهتمامهم في شؤون آخرتهم، وإنما اقتصروا على الانتفاع منه في أمور دنياهم، ولم يُكلِّفوا أنفسهم أن ينتفعوا به في أمور الهِداية، فهم من أمره في حالة شك، فانقضتْ مُدَّةُ حياة يوسف ولم يتوجهوا إليه بالاستفهام عما يُنجيهم بعد الموت.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ﴾: أي

بقيتم في شك من أمره حتى زمن موته، فـ «إذا» هنا ليست ظرفاً وإنما هنا اسم لزمان الْمُضيّ مجرورةً بحتى الدالة على الغاية.

لقد فَرِحَ أسلافُكم بوفاة يوسف وقالوا: لا يبعث الله في المستقبل رسولاً بعد يوسف، يعنون: أنهم كانوا مُترددين في الإيمان بيوسف، فقد استرحنا الآن بعد موته من هذا التردد، فإنه لن يأتي بعده من يدَّعي الرسالةَ من الله بعده، وهذا منهم قولٌ على الله بغير علم، وخرْصٌ، وهذا ديدنُ وعادةُ الْمُعاندين الْمُقاومين لأهل الصلاح، كما يقول ابن عاشور.

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾، من كلام الله لكي يعتبر كُفار قريش بِكُفار القِبط حتى لا يهلكوا.

قال المفسرون: ثم تابع الرجل المؤمن نُصحه للملأ وموعظته فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [غافر]: أي أدُلكم على الطريق إن سلكتموه، هُديتم إلى الخير، ثم فصَّل لهم بعد هذا الإجمال فقال: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ ﴾ [غافر]، ذكَّرهم بأن الدنيا محدودة بأجل غير طويل، وإن وراءها حياة أبدية، وأن السعادة فيها، وقومه يعلمون أن السعادة الحقيقية في الدار الأبدية، حيث الجزاء فيها على الحسنات والسيئات بالنعيم أو العذاب.

وقوله: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ ﴾: يعني أنه لا يُجزى إنسان بجزاء الخير إذا عَمِلَ السوء، أي احذروا أن تطمعوا بالثواب والنعيم إذا كنتم تعملون السوء، وفي البخاري، عن «وهب بن مُنبه»، وكان كثير

الوعظ للناس، فقيل له: إنك بوعظك تُقَنِّطُ الناس، فقال: أأنا أقدرُ أن أُقَنِّطَ الناس والله يقول: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الزمر ٥٣]، ولكنكم قومٌ تحبون أن تُبَشَّروا بالجنة على مساوي أعمالكم.

قال ابن عاشور: وكأنَّ مؤمن آل فرعون خَصَّ الجزاء بالأعمال؛ لأنهم كانوا مُتهاونين بها.

وقوله: ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [غافر]، أراد بذلك عموم الناس لأنه ذكر الصنفين، وقُرِئَ: «يُدخلون - يَدخلون»: بالضم والفتح.

وتابع هذا المؤمن دعوته لهم، ووعظه إياهم بقوله: ﴿ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [غافر].

وقوله: ﴿ لَا جَرَمَ ﴾: أي لا شكَّ، أو حقاً، أن ما تدعونني إليه من عبادة الأصنام باطل؛ لأن هذه المعبودات لا تُنجي أتباعها في الدنيا، ولا يُفيدهم نداءُها في الآخرة، فالمرجُو في الأولى والآخرة هو الربُّ الذي أدعوكم يا قومي إليه.

وقوله: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾، والإسراف هنا: الكفر وما يستتبعه من ظلم وسفك دم، من ذبح أبناء بني إسرائيل بغير حق، قال ذلك هذا المؤمنُ ليصرف فرعون عن قتل موسى عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾: أي الذين أسرفوا في الكفر والمعاصي

هم أصحاب النار، أي أهلها الذين لا يُفارقونها ولا تُفارقهم؛ لأنهم خالدون فيها، بخلاف عُصاة المؤمنين.

قال المفسرون: لاحظ هذا المؤمنُ منهم عدمَ استجابةٍ له فيما نصحهم به، إما بِمُعارضةٍ كلامية صدرتْ من بعضهم، أو من ملامح الوجوه، كما شعر أنهم يُبَيِّتون مكراً به، عندها تحدّاهم بقوله: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾، وتذكرون مُشتقة من الذُّكرِ، وهو ضد النسيان، أي سيحُلُّ بكم من العذاب ما يُذكِّركم ما أقوله، ولمّا لَمَسَ من كلامهم التهديد، قال: إني أكِلُ شأني وشأنكم إلى الله، فهو يجزي كل فاعل بما فعل، وذلك قوله:﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [غافر].

وقد أعلمنا الله عز وجل في كتابه أنهم أضمروا مكراً به، ولكن الله نجاه، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [غافر]، وتسميته مكراً يدلك على أنهم لم يُشعِرُوه به، فنجَّاهُ الله، وكانت نجاتُه إما باختفائه، فطلَبَهُ فرعون فلم يجده، وإما أنه خرج مع موسى وبني إسرائيل عند خروجهم، بعد اختفائه.

وأحاط العذاب - وهو الغرق - بآل فرعون، أي العذاب المعهود والمعروف.

ولماذا كان الغرق سوء عذاب؟

والجواب: لأن الغرق يُعذب النفس مُدَّةً، وهو يطفو على الماء ويغوص فيه، ويُرْعِبُه هولُ الموج، وهو موقِنٌ بالهلاك، ثم يكون عُرضةً لأكل الحيتان حياً وميتاً، وذلك ألم في الحياة، وخِزْيٌ بعد الممات يُذكرون به بين الناس - كما قال ابن عاشور -.

ثم ذكر القرآن الكريم، أنَّ لهم عذاباً آخر غير الغرق بالدنيا، هو عذاب البرزخ قبل يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦ ﴾ [غافر]، ومعنى عرضهم على النار: أنَّ أرواحهم تُشاهد المواضع التي أُعِدَّت لهم في جهنم، وهذا ما بيَّنه حديث ابن عمر رضي الله عنه وعن أبيه، الذي في الصحيح، أن النبي ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عُرِضَ عليه مقعدُهُ بالغداة والعَشِيِّ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيُقال: هذا مقعدُكَ حتى يبعَثَكَ الله يوم القيامة»، وعرضُها على النار، أن أرواحهم تكون في أجواف طَيرٍ سود، على خلاف أرواح المؤمنين، فإنها تكون في أجواف طير خُضر ترعى في الجنة إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿ غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ ﴾: كناية عن الدوام؛ لأن الزمان لا يخلو من هذين الوقتين.

ثم ذكرت الآية عذاب الآخرة الخالد في النار، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦ ﴾: أي يُقال: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب، وفحوى الخطاب أنَّ ذلك يشمل فرعون وآله.

قال صاحب كتاب «مع الأنبياء»: استمرَّ فرعون في ضلاله، وخاف ميل القلوب إلى موسى، فقام وخطَبَ في خاصَّتِهِ وحاشيته مُفتخراً مُتبَجِّحاً، فقال: ألستُ مَلِكَ مصر وصاحبَ الأمر والنهي فيها؟

قالوا: بلى.

قال: أليس نهر النيل وفروعه تجري بين قصوري وحدائقي؟

قال قتادة: كانت له قصور وجنات وأنهار ماء.

وقال الرازي: كان له أربعة أنهار مأخوذةٌ من النيل وهي: نهر الملك، أو نهر الاسكندرية، ونهر دمياط، ونهر تنيس، ونهر طولون.

قال الآلوسي: ونهر طولون كان من هذه الأنهار الأربعة، ثم اندرسَ، فجدَّدهُ «أحمد بن طولون» ملكُ مصر في الإسلام.

قال المؤرخون: كانت الأنهار الأربعة تلتقي في مصبها تحت عرشه.

وقال الدكتور النجار في كتابه «قصص الأنبياء» في شأن فرعون: والخُلاصة، أن فرعون تكبَّرَ عن تلبية دعوة موسى عليه السلام ذلك الفقير، وفرعون ذلك الملك الذي يملِكُ مصر وما في أرضها ونهرها من خيرات، ذلك النهر بفروعه التي كأنها شرايين الحياة في أرض مصر الخصبة المشهورة بغلاتها الوفيرة كما قال الشاعر:

فلا تعجب فكلُّ خليج ماءٍ ... بمصرَ مُسَبِّبُ لخليج مالِ
زيادة إصبع في كل يومٍ ... زيادةُ أذرُعٍ في حُسْنِ حالِ

نظر فرعون إلى المال والعز، ولم يعترف بأن رحمة الله التي يختصُّ بها من يشاء أفضل من كل شيء، وقد ذكر القرآن ما قاله فرعون: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الزخرف]: والمعنى: أفلا تُشاهدون عَظَمَةَ مُلكي، وقِلَّةَ موسى وذِلَّتَهُ؟

ثم يُتابع كلامه مُنتقصاً من نبي الله موسى فيقول: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الزخرف].

و «أم» هنا بمعنى: بل، وهذا الاستعمال شائع عند العرب كثيراً ومن ذلك قول الشاعر:

بَدَتْ مثلَ قرن الشمس في رونَقِ الضُحى

وصورتها أم أنت في العينِ أملَحُ (١)

ورحم الله ابن الجوزي، فإنه لمّا قرأ قول فرعون السابق يفتخر بالأنهار: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ﴾، قال: افتخر بنهرٍ ما أجراه، ما أجراه.

وورد عن هارون الرشيد رحمه الله تعالى، أنه لمّا قرأ هذه الآية في افتخار فرعون بمُلكه وأنهاره قال: والله لَأُولِينَّها أحسنَ عبيدي، فوَلّاها عبداً عنده اسمه «الخُصَيْب»، وكان على وضوئه.

وذكر المؤرخون أن عبد الله بن طاهر، لمّا عُيِّنَ والياً على مصر، فلما وصلها، وأشرف عليها، قال: أهذه القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال: ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ﴾، والله لهي عندي أقلُّ من أن أدخُلها، ثم ثنى عِنانَ فرسه ورجع.

وقال صاحب «التأويلات النجمية»: إن فرعون تعزَّزَ بمُلكه ونهره من دون الله عز وجل، فكان هلاكه وحتفه فيما تعزَّزَ به.

قال المفسرون: ثم تابع فرعون كلامه مُعرِّضاً بموسى فقال: إن كان موسى مُرسلاً وصادقاً كما يقول، فلماذا لم يجعل له ربه مُلكاً كبيراً، ولماذا لا يُسَوِّرُهُ بأساورِ الذهب، ولماذا لا تأتي الملائكة معه فتنصُره وتخدمه؟

قال مجاهد: كانوا إذا أرادوا أن يجعلوا رجلاً رئيساً عليهم سوَّروه بسِوارين، وطَوَّقوه بطوق من ذهب علامةً لسيادته، وقد ذكر القرآن ما قاله فرعون: ﴿فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ

(١) أي: بل أملَحُ.

﴿مُقۡتَرِنِينَ ٥٣﴾ [الزخرف].

قال الرازي: وحاصل كلام فرعون يعني: أنا أكثرُ منك مالاً وجاهاً، فوجَبَ أن أكون أفضل من موسى، وهذا الكلام، وهذه القاعدة هي عينُ ما قاله كفار قريش للنبي محمد ﷺ حين قالوا: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف].

قال ابن عاشور: وقوله: ﴿أَسۡوِرَةٞ﴾، وقرأ الجمهور: «أساورةٌ»: جمعُ أُسْوار، وهي حلقةٌ عريضةٌ من ذهب أو فضة تُحيطُ بالرُسغ، وهي من حلية النساء الحرائر، ولذلك جاء في الأمثال عند العرب: «لو ذاتُ سِوارٍ لطمتني»: أي لو حُرَّةٌ لَطَمتْنِي، قاله أسيرٌ عند قوم لطمتهُ إحدى إمائهم. وكان لبس السِوار من شعار الملوك بفارس ومصر يلًبس الملك سوارين، وكان من عادة الفراعنة ذلك، وربما لبسوا سوارين في الرُسغين، وآخرين في العَضُدَين.

وقوله: ﴿أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ٥٣﴾: أي إن لم تُلْقَ عليه أسورةٌ من ذهب، فَلْتجِئْ معه طوائف من الملائكة يشهدون له بالرسالة، ويكونون مُقترنين بموسى اقتران النصير بالنصير.

قال المفسرون: بعد أن تهيأ قوم فرعون نفسياً لقبول دعوة موسى، لِما رأوا من الآيات، جاءت كلمة فرعون وتمويهاته فأثرت في نفوسهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤﴾ [الزخرف].

والخِفَّةُ في قوله: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ﴾، مُستعارةٌ لتصوير حال الانتقال من حالة التأمل والتفكير في خلع طاعة فرعون إلى التعجيل بامتثال أمره، كما يخفُّ الشيء بعد التثاقُل.

قال البروسوي: استخفَّ أحلامهم وعقولهم فوجدها خفيفةً تنخدع بالتلبيسات الباطلة، وإسراعهم في طاعة فرعون دليل على أنهم فُسّاقٌ مثله، آذوا رسول الله موسى عليه الصلاة والسلام.

قال المفسرون: لمّا عصوا رسول الله موسى، وصمَّموا على شركهم بعد ظهور الآيات الدالة على صدق الرسول، ووقوفهم مع عدو الله بلا دليل جاء الانتقام، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٥ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ٥٦ ﴾ [الزخرف]، كان عاقبة قصتهم أمورٌ ثلاثة:

الانتقام، فالإغراق، فالاعتبار بهم لمن يأتي بعدهم من الأمم.

والأسف: الغضب: أي أغضبونا بعصيانهم لربهم المُنعم، وإصرارهم على الكفر، فكان الانتقام منهم بأن أغرقناهم هنا مع ما لهم من العذاب الشديد في الآخرة، وذلك قوله تعالى: ﴿ ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾، فرعون وجنوده، ثم فرَّع القرآن على الإغراق، أنه عز وجل جعلهم سلفاً لقوم آخرين يأتون بعدهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ﴾، والسالِفُ: مَنْ يسبق غيرَهُ في الوجود، والمَثَلُ: النظير والمُشابه، فصار المعنى: أنَّ مَنْ بعدهم سيلْقوْنَ مثل ما لَقُوْا، كما جعلناهم عِبرةً للآخرين، يعلمون أنهم إن عملوا مثل عَمَلِهم أصابهم مثلَ ما أصاب هؤلاء: ﴿ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ﴾، سلفاً لكفار قريش يتقدمون إلى النار يوم القيامة.

وكان «عمر بن ذر» يقول: يا أهل المعاصي: لا تغتروا بطول حِلم الله عنكم، واحذروا أسفه - أي غضبه - فإنه عز وجل قال: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ ﴾.

وروى ابن أبي حاتم، عن عقبة بن عامر مرفوعاً، أن النبي ﷺ قال: «إذا رأيت الله تبارك وتعالى يُعطي العبد ما يشاء وهو مُقيم على معاصيه فإنما ذلك استدراجٌ منه عز وجل له»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف].

وقال طارق بن شهاب: كنت عند عبد الله بن عمر، فذُكِرَ عنده موت الفُجاءةِ، فقال: تَخفيفٌ على المؤمن، وحسرةٌ على الكافر، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

قال صاحب كتاب «مع الأنبياء»: لم تنفع المواعظ مع فرعون وقومه من موسى، بل ازدادوا عُتُوّاً وطُغياناً وتعذيباً للمؤمنين، عندها دعا موسى ربه بدعاء ذكره الله لنا في [سورة يونس]: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾.

قال العلماء: مهَّد موسى لدعائه عليهم تمهيداً يدل على أنه إنما دعا عليهم لا لينتقم منهم لنفسه ولقومه، وإنما دعا عليهم لمصلحةٍ دينية، إذ سأل الله أن يسلُبَهم النِعَمَ التي أنعَمَ بها عليهم، وأن يُنزِلَ بهم العذاب، لتذليل تجبُّرهم، وكسرِ غطرستهم ليرجعوا عن ضلالهم.

هنا سؤال يأتي عند قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ﴾، هل أعطاهم الله سبحانه وتعالى المال والزينة للضلال والإضلال؟

والجواب: لا، فليس الضلال عِلَّةَ العطاء، فاللام هنا ليست لامَ التعليل، وإنما هي لامُ العاقبة، أي لتدُلَّك هذه اللام على عاقبة الفعل، مثل أن تُعطي ولدك مائة دينار، وتقول له: اشتر بها ما تريد، وأرجو أن يكون صرفُكَ لها فيما يعود عليك بالخير، ولكنه خالفَ فصرفها في شراء أشياء غير مفيدة،

بل قد تعود عليه بالضرر، فأنتَ أعطيتَ ولدك قوة شِرائية لكنه لم يُحسن التصرف فيها، فهداه اختياره إلى أشياء لا تُفيد، وهذا ما يُسمى «لام العاقبة»، ولا تكون سبباً للفعل، وإنما تأتي لبيان عاقبة الفعل، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص]، فهل كان فرعون يعلم أن هذا الطفل سيكون عدواً له؟ بل التقطه ليكون قُرَّةَ عينٍ له، هذه علة الالتقاط، ولكن العاقبة والصيرورة انتهت إلى أن يكون عدواً، ولو كانت علة الالتقاط هي العداوة لما التقطه فرعون، بل يقتله لحظة الالتقاط.

فقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾، فهو عز وجل لم يُعطهم المال ليُضلوا، ولكنهم هم الذين اختاروا الضلال والإضلال.

قال العلماء: والزينة: ما يتزين به الناس وما يَحْسُنُ في أنظارهم من طرائف الدنيا، كالحليّ والجواهر، والمباني الضخمة وهي الأمور الزائدة عن ضرورات الحياة، والأموال: ما به قوام الحياة، فالزينة تُلهيهم عن اتباع المواعظ، وترفع مكانتهم في أنظار قومهم، والأموال يُسخرون بها الرعية لطاعتهم، وقد كان الفراعنة في سَعَةٍ من الرزق، ورفاهيةٍ من العيش ما سار ذكره في الآفاق، وأنت إذا نظرت إلى قناع «توت عنخ آمون» تُدرك مدى الرفاهية والزينة، وكذلك في قصورهم، وفي «برابيهم»: أي المعابد والهياكل، وفي نواويس قبورهم - أي صناديق من الحجارة توضع فيها الجثث -.

ثم يقول موسى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾، وتُلاحظ تكرار النداء من موسى: ﴿رَبَّنَآ﴾، لماذا؟ لتأكيد التذلل، وتأكيد التضرع، والتعرُّض للإجابة، وإظهار البراءة من قصد الاعتراض.

والطمسُ في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ﴾: أي أتلفها وأهلكها؛ لأنهم يستعينون بنِعَمِكَ على معصيتك.

وقوله: ﴿ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾، والشِدَّةُ هنا: العُسرُ، والمعنى: أدخل الشِدَّةَ في قلوبهم، والقلوب: النفوس والعقول، فهنا دعاء من موسى عليه السلام أن يبتليهم بالأنكاد والأحزان التي تجعل قلوبهم في ضيق وبلبلة وحرج ما داموا على الكفر، وهذا منه ﷺ حرصٌ على وسائل هدايتهم، فهو يرجو إن زالت عنهم النِعَمُ، وضاقت صدورهم بالكروب، تفكَّروا في سبب ذلك، فعجَّلوا بالتوبة إلى الله، والرجوع إليه تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ﴾ [الزمر ٨].

وقوله: ﴿ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾: أي هذا شأنهم لا يؤمنون حتى يَرَوْا العذاب الأليم، فهنا يُبين موسى ما ظهر له من طبع نفوسهم، بأنها لا تنفع فيها الحُجج، وأنَّ قساوة قلوبهم وشراستها لا تُذَلِّلُها إلا الآلام النفسية والجسدية، حيث لم تُجْدِ فيهم وسائل الحُجَّةِ، فصار أصل الكلام العام: يا رب شدّد عليهم فيؤمنوا، فإنهم لا يؤمنون إلا إذا رأوا العذاب الأليم.

والعذاب الأليم: الفقر، والجوع، وعذاب الأنكاد في النفوس.

وهناك معنى آخر في مسلك الآية وهو: ﴿ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾: أي امنعهم من الإيمان، وهذا دعاءٌ بلفظ النهي: ﴿ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨ ﴾، حيث دعا عليهم ألا يؤمنوا إلا عند مُعاينة العذاب ووقوعهم به بحيث لا ينفعُهم إيمانهم في تلك الساعة، وقد حصل ذلك عند الغرق فكان إيمان يأس، وذلك أن موسى أُعْلِمَ أنهم لن يؤمنوا فدعا عليهم مثل قوم نوح: ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ ﴾ [هود ٣٦].

قال ابن عباس: كان موسى يدعو، وهارون يؤمِّنُ، والتأمينُ دعاء، لأنَّ آمين بمعنى استجبْ يا رب، وفي رواية أن موسى وهارون كانا يدعوان،

وقد أخرج الترمذي في «نوارد الأصول» من حديث أنس، أن النبي ﷺ قال: «إن الله أعطى أمتي ثلاثاً لم تُعْطَ أحداً قبلهم، السلام: وهي تحية أهل الجنة، وصفوف الملائكة، وآمين إلا ما كان من موسى وهارون».

ماذا كان جواب الله عز وجل لهما؟

والجواب: أنه عز وجل قد استجاب لدعائهما، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾[يونس]: أي قُبِلت، وإذا قُبِلت نُفِّذتْ، فأعطاهُ الله ما سأل هو وأخوه هارون من إنزال الشِدَّةِ والمصائب لتنكسِرَ شوكتهم.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾: أمرهما بالاستقامة، وهنا عُلِمَ أنَّ الاستقامة شُكرٌ على إكرام، فإنَّ الله تعالى إذا دعاه عبدٌ، واستجاب الله دُعاءه، فهذا إحسانٌ من الله للعبد وإكرامٌ، والإحسانُ نِعمةٌ من الله تستحق الشكر، وأعظم الشُكرِ أن تُطيعَ المُنعِمَ.

والأمر بالاستقامة لهما - وهما رسولين - أمرٌ بالدوام عليها، والمقصود بها هنا: أمرُهُما بالاستقامة على كل خِصال الخير والصلاح، ومن الاستقامة أن يستمرا على الدعوة إلى الدين ولا يضجرا.

وفي حديث أبي عمرَةَ الثقفي، قال: قلت يا رسول الله: قُلْ لي في الإسلام قولاً لا أسألُ عنه أحداً غيرك، قال ﷺ: «قل آمنت بالله ثم استقم».

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي لا تسلُكا طريق الذين لا يعلمون سُنَّتي في خَلْقي، وإنجازِ وَعْدي لرُسلي، فتستعجلا الأمر قبل أوانه، وتستبطئا وقوعه في إبّانه.

قال العلماء: إن الله تعالى يُعلِّق الأمور على الحكمة والمصالح لا على

استعجال العباد، لأنَّ من عادة الجَهَلة الاستعجال بالأمور، ومن كلام علي رضي الله عنه في مجال الدعاء قوله: جعل الله في يديك مفاتيح خزائنه بما أذِنَ لك في مسْألتِهِ، فما شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته، واستمطرت شآبيبَ رحمته، فلا يُقنِطُكَ إبطاءُ إجابته، فإنَّ العطيةَ على قَدْرِ النية، وربما أُخِّرتْ عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجرِ السائل وأجزلَ لعطاءِ الآمِلِ.

أنواع العذاب قبل الغرق:

قال الدكتور عبد الوهاب النجار في «قصص الأنبياء»: إن الله أمر موسى أن يُعلِمَ فرعون وقومه بوقوع العذاب جزاء تكذيبهم، وظُلمهم لبني إسرائيل، فكانوا كلما رأوْا نوعاً من العذاب أتوْا إلى موسى ووعدوه بالإيمان برسالته، وبإطلاق بني إسرائيل إنْ هو دعا ربه أن يكشف عنهم ذلك العذاب، ولكنهم ما إن يدعو موسى ويكشِفُ الله عنهم العذاب حتى يعودوا إلى طُغيانهم، وهكذا، حتى كانت البطشَةُ الكبرى، وهي الغرق، فما هي الشدائد والعقوبات التي كانت قبل الغرق؟

قال الله تعالى في [سورة الأعراف]: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾.

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾: أي بالقحط والجدب، وهذه أول المصائب لهم بعد المعجزة الكبرى التي أظهرها الله لموسى في مجمع السَّحَرَةِ.

يُقال: أَسْنَتَ القوم: إذا أجدبوا وقحطوا، قال عبد الله بن الزبعرى:

عَمْروُ العَلا هشَمَ الثريد لقومه ورجال مكة مُسنِتون جِياعُ

والمقصود هنا: هو هاشم بن عبد مناف، أبو عبد المطلب جد النبي ﷺ.

قال رجاء بن حيوة: قلَّ الثمر عند القِبط حتى أنَّ النخلة لا تحمل أحياناً إلا ثمرةً واحدةً، ولماذا هذه البلحة الواحدة؟

والجواب: لأن الله تعالى يريد أن يُبقيَ آثار رحمته في خلقه، ولو أن النخل كله لم يحمل شيئاً من البلح لانقطع نسل النخيل، ولكن الله يريد أن يُبقيَ أسباب رحمته قائمةً لنا، من هنا نلاحظ أن الغاية من بقاء البذور، هو استبقاء النوع لهذه الثمار، وعندما يحاول البشر أن يحصِّلوا فاكهة بلا بذور بواسطة التقدم العلمي المعاصر، نجد أنَّ ثمرة قد شذَّتْ وفيها بذر، لماذا؟

قال العلماء: لاستبقاء النوع، إذ لو أكلناها جميعاً فكيف نزرع محصولاً جديداً.

ومن رحمة الله بالخلق أراد أن يستبقيَ لهم النِّعَمَ، فجعل الثمار لا تكون حلوةً ومستساغة إلا بعد أن تنضج بذرتُها، ويضرب العلماء مثلاً بالبِطيخ إن كان بذرها أبيض تجد طعمها لا يُستساغ وترميها، حتى إذا اسودَّ بذرُها وأصبح صالحاً لأن يُستنبَتَ كانت هذه الثمرة طيبة الطعم، ولذلك يُريد أن يُبقيَ الله رحمته للعباد حتى مع العاصين: ﴿ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠ ﴾.

وقوله: ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾: أي لعلَّ قلوبهم أن تَرِقَّ، وترغبَ في الضراعة إلى المُنْعِمِ، لأن سلبَ النِعمةِ دليل على غضب الله على من سُلِبَتْ منهم.

قال الجشمي: تدل الآية على أنَّ الشِدَّةَ والبؤس قد يكونان لُطفاً من الله وصلاحاً في الدين، ولذلك قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾: أي يلتفتون إلى المُسبِّب.

قال القاسمي: هذه المِحنةُ والشِدَّةُ – في الأموال والأرزاق – لم تَرُدَّهم إلى الله بل ازدادوا عُتُوّاً وتمرُّداً.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: وفي هذه الآية تنبيه للأمة، لتنظر فيما يُحيط بها من دلائل غضب الله، فإنَّ سلبَ النِعمة من يد العبد، تنبيه على استحقاقهم إعراض الله عنهم، وهكذا كان حال قوم فرعون، إذ جاءهم نصيبٌ من الخِصْبِ والثمار والصحة والرفاهية، وهو الغالب، يقولون: ﴿لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ دون غيرنا، ونحن المستحقون لها، فهم لا يرونَ تلك الحسنات والخيرات فضلاً من الله ونِعمةً، بل لاعتقادهم أنهم متفوقون على الناس، وهذا من غرورهم.

أما إذا جاءهم حالة تسوءُهم، كجدبٍ، أو مصيبة في الأبدان أو الأرزاق، قالوا: إنما أصابنا ذلك بشؤم موسى ومَنْ معه ممن آمن به، ويغفلون عن سيئات أنفسهم وظلمهم، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١﴾ [الأعراف].

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، نُلاحظ أنَّ العبارة بدأت بحرف الاستفتاح «ألا» والغاية من ذلك أن يجعل السامعَ يهتم بالخبر الوارد بعدها لأهميته، فهو تعليمٌ للأمة، وتعريضٌ بمشركي العرب الذين كانت عندهم هذه العادة وهي التطيُّر والتشاؤم، ولذلك ورد فيما رواه أصحاب السنن أن النبي ﷺ قال: «الطِّيرةُ شركٌ»، لأن التطيُّرَ مبني

على نسبة المُسبَّبات لغير أسبابها، فهو من بقايا الشرك.

قال العلماء: وما علموا أنَّ سبب المصائب هو كفرهم وإعراضهم.

وقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾، فالذين يقولون هذه المقالةَ – الشؤم من موسى، وأن الحسنة منهم – جاهلون في أكثرهم، وقِلَّةٌ تعلم الحق ولكنهم يُشايعون الكثرةَ.

ثم تمادوْا في طُغيانهم، فقابلوا المصائب التي أنزلها الله عليهم ليذّكروا، قابلوها بازدياد الغرور والغباء، فقالوا ما قصَّهُ الله علينا في [الأعراف]: ﴿ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٣٢ ﴾: أي وكلمة «مهما» تدل على استمرار العناد في نفوسهم، مثل ما يقول رجل لآخر: لقد صممتُ على أن لا أقبل كلامك، فيقول الرجل مُكرراً حُجَّةً ثانيةً: يا أخي: انتظر لتسمع حُجَّتي الثانية فقد تُقنِعُكَ، فيقول الأول: مهما تَأتِني من حُجَجٍ فلن أسمع لك، وهذا يدل على استمرارية الجحود والعناد.

كما يدل قولهم: ﴿ مِنۡ ءَايَةٖ ﴾ على استهزاءٍ بموسى، حيث سمَّوْا ما أتى به آيةً استهزاءً، كما حكى القرآن عن مشركي العرب حين قالوا لمحمد ﷺ: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦ ﴾ [الحجر]، وكانت أقوالهم هذه مُقدمات تُبرر إهلاكهم.

قال الرازي: وكان موسى رجلاً حديداً، فدعا عليهم، فأوقع الله عليهم دُفعةً جديدة من العذاب، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ١٣٣ ﴾ [الأعراف].

والطوفان: كثرةُ الماء وطُغيانه، بحيث يغمر الجهات، ويطغى على المنازل

والمزارع، وقد عَمَّ، وأنتم تعلمون أن الماء هو سبب الحياة، وهنا جعله الله سبباً للإهلاك والدمار، لماذا؟

لتعلمَ – يا عبد الله – أنَّ المسائل ليست بذاتيتها، بل بتوجيهات القادر الحكيم عليها.

قال الرازي: تواصل المطر من السبت إلى السبت ليلاً ونهاراً حتى كان الواحد منهم لا يرى شمساً ولا قمراً، ولا يستطيع الخروج من بيته، وإذا خرج فإن الماء يبلغ إلى التراقي، فإذا جلس مات، وهم يروْن ذلك، وأمامهم بيوت بني إسرائيل في «جاسان» لم يدخلها الطوفان، أليست هذه معجزةً، ينجو من هذا الهلاك بنو إسرائيل بدون حيلة منهم، لتظهر الآية المعجزة.

وأسرعوا إلى فرعون، واستغاثوا به، فأرسل إلى موسى: أنْ اكشفْ هذا العذاب، فقد صارت مصر بحراً من الماء، فإن كشفتَ عنا ما نحن فيه، آمنا بك، ويدعو موسى ربه بكشفِ هذه الدفقَةِ من العذاب، فيقف المطر، ويأتي الريح، فتجفُّ الأرض، ويطلُعُ النبات كأجمل ما يكون، فما كان منهم إلا أن قالوا عندما رأوْا النبات وزينة الأرض: هذا الذي خفنا منه كان خيراً لنا ونحن لا ندري، فوالله لا نؤمن بك ولا نُرسل معك بني إسرائيل، ونكثوا العهد.

وقد ذكر بعض المفسرين أنَّ فرعون لم يصرخ ولم يستنجد بموسى إلا عندما دخل الطوفان عليه في بيته، ولكنهم عادوا إلى الكفر بعد رفع هذا البلاء.

قال الصاوي: أقاموا مُدَّةً بعد الطوفان في عافية، ونكثوا عهودهم، فبعث الله عليهم دفعةً ثانية من العذاب، بعثَ الجراد.

قال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ ﴾ [الأعراف ١٣٣]، قال: والجراد: الحشرة الطائرة من فصيلة الصَّرْصَر والخنافس لها أجنحة ستةٌ ذاتُ ألوان صفر وحُمر، تنتشر عند طيرانه يُكوِّن جنوداً كثيرة، يُسمى الجُند منها «رِجْلاً»، وهو مُهلكٌ للزرع والشجر يأكل أوراق السُنبلَ، وورق الشجر وقشرَهُ، فهو من أسباب القحط، أصاب أرض قوم فرعون، ولم يُصب أرض بني إسرائيل، وسُمِّيَ «جراداً» لجردهِ ما على الأرض.

قال الآلوسي: والجراد جندٌ من جندِ الله يُسلِّطُهُ الله على من يشاء من عباده، وقد أخرج أبو داوود من حديث سلمان قال: سُئِلَ النبي ﷺ عن الجراد فقال: «أكثر جنود الله تعالى لا آكله ولا أُحَرِّمُه»، فهو مُباح.

قال ابن كثير: وترك النبي ﷺ أكله على وجه التَقَذُّرِ له، كما ترك أكل الضبِّ، وتَنَزَّهَ عن أكل الثوم والبصل والكُراث، وثبتَ في الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، كنا نأكل الجراد.

وروى الدارقطني من حديث ابن عمر، أنه ﷺ قال: «أُحِلَّ لنا ميتتان ودمان، الحوت والجراد، والكبد والطُحال»، وذكر ابن المنذر عن أنس بن مالك قال: كنَّ - أزواج النبي ﷺ - يتهادَيْنَ الجراد على الأطباق، - ضعيف-.

وسُئِلَ شُريح القاضي عن الجراد فقال: قَبَّحَ الله الجرادة، فيها هيئةُ سبعةٍ من الجبابرة: رأسها رأس فرس، وعُنُقها عُنق ثور، وصدرُها صدر أسد، ورجلاها رِجْلَ جمل، وجناحاها جناحُ نسر، وذنبُها ذنب حية، وبطنُها بطن عقرب.

ومن حديث أنس وجابر أنَّ النبي ﷺ كان إذا دعا على الجراد قال: «اللهم أَهْلِكْ كِباره، واقتل صغاره، وأفسد بيضه، واقطع دابره، وخذ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا، إنك سميع الدعاء».

وروى ابن عساكر، أن الأوزاعي خرج مرة إلى الصحراء، فرأى رِجلاً من جرادٍ في السماء، وإذا برَجل راكبٍ على جرادةٍ منها، وهو شَاكٍ في الحديد، وكلما قال بيده هكذا، مال الجراد هكذا، وهو يقول: الدنيا باطلٌ، باطل ما فيها، الدنيا باطلٌ، باطل ما فيها.

ومن طرائف قصص الجراد، ما رواه الأصمعي، أن رجلاً من أهل المدينة قال لامرأته: لا جزاك الله خيراً، فإنكِ غيرُ مُرْعية ولا مُبْقية، أي لا حافظة ولا مُشفقة، فقالت: لأنا والله أرعى وأبقى من التي قبلي!! فقال: أنت طالق إن لم أكن كنتُ آتيها بالجرادة، فتطبخ لي منها أربعة ألوان، وتشوي لي جنبيها، فرفعت الأمر إلى القاضي، فجعل القاضي يُفكر ويطلب للرجل مخرجاً، فقال الزوج للقاضي: أصلحك الله، أأشكلَ عليك الأمر؟ هي طالقٌ عشرين طلقة.

قال ابن كثير: لمّا أصابهم الطوفان، ثم طلبوا من موسى الدعاء ليرفعَهُ عنهم، أنبت الله لهم بعد الطوفان تلك السنة شيئاً لم يُنْبِتْهُ من قبل من تلك الزروع والثمار والكلأ، فقالوا: هذا ما كنا نتمنى، فأرسل الله عليهم الجراد، فسلَّطَهُ على الكلأ - العشب - فلما رأوا أثره على الكلأ عرفوا أنه لا يُبقي من الزرع شيئاً، فقالوا عندها: يا موسى، ادعُ لنا ربك فيكشفَ عنا الجراد، فنؤمن لك، ونُرسِلَ معك بني إسرائيل.

قال القرطبي: وعاهدوه على ذلك، فدعا موسى ربه، وكان قد بقيَ لهم من زروعهم شيء جيّد، فقالوا: يكفينا ما بقي، ولم يؤمنوا، فأرسل عليهم بعد ذلك «القُمَّلَ»، وقبل أن ننتقل إلى القُمَّلِ، نذكر ما ذكره أهل الطبِّ في

فائدته، قال ابن سينا: ينفع الجراد مع الآس لدفع مرض الاستسقاء، إذا نُزِعت رؤوس الجراد وأطرافُها، ثم خُلِطَ ما بقيَ منها بالآسِ، فإنه يُفيد في هذا المرض.

وقال البروسوي: التبخر بالجراد ينفع من عُسر البول، ثم يأتي قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ ﴾، والقُمَّلُ غير القمْلِ الذي يكون في الرأس، فالقُمَّلُ: أنواع من الحشرات الدقيقة تشمل: القَمْلَ والبراغيث، كما قال ابن زيد، وقال ابن عباس: القُمَّلُ: هو السوس الذي في الحَبِّ، قال سعيد بن المُسيب: ابتُلوا بالسوس، فكان يأكل الكثير من الحبوب التي في الأجربةِ، يرونها عند ذهابهم إلى الرحى.

وقال ابن زيد: ابتلوا بالبراغيث، لزمت جلودهم كأنها الجُدَريُّ عليهم ومنعتهم النوم والقرارَ، والقُمَّلُ: يشمل كذلك حشرةً من نوع معين يُسمى «الحُمْنان»، وهو القُراد، واحدته «حُمْنانَةٌ» تمتص الدم من المواشي، كما لَزِمت جلودهم، وتشمل القُمَّلُ: الدَّبى، وهو الجراد الصغير قبل أن تنبُتَ له أجنحة، كما يشمل الذُباب والبعوض.

قال النحاس: كل هذه الحشرات من الجائز أنها اجتمعت على إيذائهم، عندها أسرعوا إلى موسى، وقالوا له مثل ما قالوا في المرات السابقة أن يدعوَ ربه، فكشف عنهم هذا البلاء، كما قال الرازي وابن كثير.

قال الرازي: جاءت ريح حارة فقتلت القُمَّلَ، فلما كشف الله عنهم هذا البلاء، عادوا إلى نكث العهد، ولم يَفُوا بشيء مما عاهدوا عليه، فأرسَلَ الله عليهم «الضفادع»، والضفدع: حيوان معروف يمشي على أربع، ويسحب بطنه على الأرض، ويسبح في الماء، ويكون في الغُدران ومناقع المياه، كما قال ابن عاشور، صوته يُسمى «النقيق».

قال ابن كثير: التقى موسى بفرعون، فسَمِعَ نقيقَ ضفدع، فقال موسى: ما تلقى أنت وقومك من هذا؟ فقال فرعون: وما عسى أن يكون كيد هذا؟ قال: فما أمْسَوا إلا وسلَّطَ الله عليهم الضفادع، أصابهم منه جُندٌ كثير، يقع في طعامهم، يرتمي إلى القدورِ، ويقعُ في عيون الماء، وفي الأسقيةِ، وفي البيوت، فيُفسدُ ما يقعُ فيه، وتَطَؤه الأرجل، فتتقذَّرُ به البيوت، وقد سَلِمت منه بلادُ «جاسان» أرض بني إسرائيل.

قال البروسوي: والضفادع نوعان: منها ما يَنِقُّ، ومنها ما لا يَنِقَّ، والتي تَنِقُّ موصوفةٌ بِحِدَّةِ السمع خارج الماء، فإذا أرادت ألا تَنِقَّ تُدخل فكها الأسفل في الماء فلا تنِقُّ، ورحم الله الشاعر الذي عاتبه بعض الناس على كلامه فقال:

قالت الضفدعُ قولاً ... فسَّرتْهُ الحُكماءُ
في فمي ماءٌ وهل ... ينطِقُ من في فيهِ ماءُ

وفي أخبار السالفين أن داوود عليه السلام قال: لأسبحنَّ الله الليلة تسبيحاً ما سَبَّحَهُ أحدٌ من خلقه، فنادته ضفدع من ساقيةٍ في داره: يا داوود: إن لي لعشرَ ليالٍ ما طعمتُ خضراء، ولا شربتُ ماءً، اشتغالاً بكلمتين!! قال داوود: وما هما؟ قالت: يا مُسبَّحاً بكل لسانٍ، ويا مذكوراً بكل مكانٍ، فقال داوود: وما عسى أن يكون أبلَغَ من هذا؟!!

وقد ورد في أثر رواه ابن أبي حاتم من حديث عبيد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتلوا الضفادع، فإنها لمّا أُرسلت على قوم فرعون، انطلق ضفدع منها فوقع في تنور فيه نار طاعةً لله تعالى، فأبدلهُنَّ الله من هذا أبرد شيء يعلمُه من الماء، وجعل نقيقَهُنَّ التسبيح».

قال العلماء: وكانت الضفادع تعيش قبل ذلك في البر فقط، فسكنت الماء بعد ذلك.

قال عبد الله بن عمرو بن العاص: لا تقتلوا الضفدع؛ فإن نقيقها الذي تسمعون تسبيح.

قال بعض الحكماء: ودم الضفدع إذا طُلِيَ به مكان نتف الشعر لا يخرج بسرعة، والضفادع تَنِقُّ، فإذا أبصرت النار أمسكت.

قال الآلوسي: كانت الضفادع تسبِقُهم حتى تنزل في العجين، فضجّوا وفزعوا إلى موسى، فأخذ عليهم العهود والمواثيق أن يستجيبوا له إذا كشفَ الله بدعائه العذاب عنهم، فقبلوا، فدعا موسى ربه فكشف ما بهم فنقضوا العهد بعد أن حلفوا بالله إله موسى، ودام هذا البلاء عليهم سبعة أيام.

قال رجل لأبي اسحق: يا أبا اسحق: انظر كيف قرَنَ الله الضفادع مع ضعفها بقوة الطوفان؟!! فقال أبو اسحق: الضفادع أعجبُ في هذا الموضع من الطوفان، وإذا أراد الله أن يُصَيِّرَ الضفادع أَضَرَّ من الطوفان فَعَلَ.

قال الرازي: وكان ذهاب الضفادع بإرسال مطر شديد أماتها، ثم حملتها السيول إلى البحر، ثم عادوا إلى الفساد والكفر، فأرسل الله عليهم الدم.

قال زيد بن أسلم: الدم: رعاف تفشّى فيهم، ولكن أكثر المفسرين قالوا: هو الدم المعروف، وقد جاء في التوراة: أن مياه القِبط صارت كالدم في اللون.

وقال صاحب «التحرير والتنوير»: لعل ذلك نتج عن دود أحمر في الماء، فشبَّهَ الماء من كثرة الدود بالدم.

قال القرطبي: سال النيل عليهم دماً، فكان الإسرائيلي يغترف الماء، والقِبطي يغترف الدم، وفي التوراة، في الفصل السابع من سفر الخروج، أن

الربَّ أمر موسى أن يُنذر فرعون ذلك، ففعل، ثم قال الربُّ لموسى: قل لهارون خذ عصاك، ومُدَّ يدك على مياه المصريين وخُلُجِهم وسائر مجامعِ مياهِهم فتصير دماً.

قال الرازي: فمكثوا سبعة أيام لا يشربون إلا الدم.

قال القاسمي: صارت مياه مصر دماً، مات السمك، وأنتنت الأنهار.

قال الصاوي: واعترى فرعون العطش، فكان يأخذ الحجارة الرطبة فيمُصُّها.

قال الرازي: مكثوا يشربون الدم سبعة أيام حتى بلغ منهم الجُهد، فركبوا إلى فرعون وصرخوا، فقال فرعون عندها لموسى ما ذكره ربُنا في [سورة الأعراف]: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ ﴾، والرجز: هو العذاب المذكور في قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [الأعراف]، وسماها الله آيات؛ لأنها دلائل على صدق موسى، ودلائل على غضب الله عليهم حين صمموا على الكفر والعناد، ووصفها بأنها ﴿ مُّفَصَّلَـٰتٍ ﴾: أي واضحات، يفصلُ بين الآية والأخرى فاصلٌ زمنيٌّ قد يطول ويقصر، فهي عجائب يُسلطها الله على من يريد إذلاله، ويبتلي بها نوعاً من الناس، ويصرفها عن آخرين.

فما كان موقفهم؟

كان ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف ١٣٣].

قال الرازي: بيَّنَ الله عز وجل تناقُضَ قوم فرعون، فهم في الرخاء يُكذبون موسى، فإذا نزل بهم البلاء لجؤوا إليه ليدعوَ الله ربه ليرفعَ عنهم الشدائد، وهذا يدل على أنهم كانوا قد علموا أنه نبيٌّ، وأنه مُستجابُ الدعوة، ثم يُكذِّبونه بعد زوال الشدة عنهم، فهم أصروا على الباطل لأنهم رأوا أنَّ بطلبهم من موسى الدعاءَ لكشفِ الشدَّةِ، أنَّ ألوهيةَ فرعون باطلةٌ، وشاهدوا أن الله كان يستجيب لموسى دُعاءه، ولاحظوا أنه إن لم يكشف ربه هذا العذاب لاستمرَّ عليهم، كل ذلك مُقدمات تُعطي الإيمان بالله، ولكنهم كانوا يَنكثُون العهود، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف].

وقولهم: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ﴾: أي ادعُهُ بما علَّمك ربك من وسائل إجابةِ دعائك عند ربك، أو ادْعُ ربكَ الذي جعلك رسولاً، لأن الرسالة عهدٌ من الربِّ للرسول، كما في قوله تعالى لإبراهيم: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة].

قال الشهاب: وسُميت النبوة عهداً؛ لأنَّ الله عَهِدَ إكرامَ الأنبياء بها، وعهدوا إليه تحمُّل أعبائها، وهذا القول منهم استعطافاً لموسى حتى يدعو لهم، ووعدوه بأمرين: وعدوه بالإيمان بأنه صادق فيما ادّعاه أنه رسولٌ من الله ربِّ بني إسرائيل، ووعدوه بإطلاق بني إسرائيل: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأعراف]، ثم فضح الله كَذِبَهم بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف]، أي فلما كشفنا عنهم العذاب مرة بعد مرة،

بادروا بالنُكث، وفاجؤوا بالحِنْث بلا رَوِيَّةٍ ولا رَيْث.

قال الرازي: واعلم - يا عبد الله - أنَّ الله لمّا كشف عنهم العذاب من قبل مرات وكرات، ولم يمتنعوا عن كفرهم، جاءت ساعة الهلاك، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأعراف].

قال ابن عاشور: هذا محل العِبرة من القصة، وهذه هي النتيجة المبنية على المُقدمات، حيث أخبر الله عز وجل بأن ما قدموه من تكذيب ونُكث، ترتب عليه استئصال المُستكبرين المُعاندين، وتحرير المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾، الانتقام: هو العقاب الواقع على مُجازاة السيئة بالسيئة، ثم بيَّن الكتاب الكريم سبب هذا الانتقام، وبيَّن تفصيله بقوله تعالى: ﴿ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾.

قال ابن عاشور: كان الإغراق انتقاماً من الله عز وجل لذاته، لأنهم جحدوا انفراده عز وجل بالألوهية، أو جحدوا ألوهيته أصلاً، كما كان انتقاماً أيضاً لبني إسرائيل؛ لأن فرعون وقومه ظلموهم واستعبدوهم باطلاً.

وقوله: ﴿ فِى ٱلْيَمِّ ﴾: هنا هو البحر الأحمر حين لَحِقَ فرعون وجنده بني إسرائيل يُريدون صَدَّهم عن الخروج من أرض مصر.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾: أي تغافلوا عن عمْدٍ، وأعرضوا عن التَفكُّر في الآيات الدالة على صدق موسى.

قال الرازي: وهذه الآية تدل على أنَّ الواجب النظر في آيات الله وتَدَبُّرها ليكون الإيمان عن يقين لا عن تقليد.

الاستعداد للرحيل:

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: انتهى الأمر، وحكم الله عز وجل أن يضع حدّاً لجرائم فرعون بعد أن أمهَلَهُ، وصدر الأمر لموسى بالاستعداد للخروج.

قال ابن كثير: أوصى الله لموسى وهارون عليهما السلام أن يتخِذا لقومهما بيوتاً مُتميزةً فيما بينهم عن بيوت القِبط، ليكونوا على استعداد للرحيل عند مجيء الأمر، وليعرِفَ بعضُهم بيوت بعض، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يونس]، والتَّبوُّؤ: اتخاذُ مكان للسكن، والمعنى: أن يتخذ قوم موسى بيوتاً على الصفةِ التي يأمُرهم بها موسى وهارون، وكانت صفة البيوت التي أُمِروا بتَبوُّئها هو قوله: ﴿ وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾: أي اجعلوا بيوتكم مصلىً تُصلون فيها عند الخوف.

قال ابن عباس: كانوا خائفين، فأُمِروا أن يُصلوا في بيوتهم.

قال الجمهور: كان بنو إسرائيل لا يُصلُّون إلا في كنائسهم أو مساجدهم، وكانت هذه الأماكن ظاهرة، فلما بعث الله موسى رسولاً، أمرَ فرعون بتخريب مساجد بني إسرائيل، وأن يُمنعوا من الصلاة، فأوحى الله إلى موسى أن صلوا في بيوتكم سِرّاً عند الخوف.

قال القاسمي: وفي هذه الآية دليل على جواز كتم الصلاة عند الخوف.

والمعنى الثاني لقوله تعالى: ﴿ وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾: أي مُتقابلةً، ليتمَّ لهم بذلك الحماية من عدوهم الذي استقلُّوا عنه.

ونحن نُلاحظ إلى يومنا هذا أن اليهود في أي بلد من بلدان الدنيا،

يقطنون حيّاً واحداً، ويرفضون الذوبان في الأحياء الأخرى، فهم يحتمون بتواجدهم معاً بحيث إذا حدث أمرٌ يُفزعهم، يصبح من السهل عليهم أن يلتقوا، وليعرفوا من يدخل عليهم ومن يخرج من غيرهم.

والمعنى الذي عليه المحققون في قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾: أن هذه البيوت التي أُمِروا بإقامتها، هي أَخْصَاص - أكواخ -، أو خِيَم أمرهم بإقامتها تهيئةً للارتحال، وهي غير ديارهم التي كانوا يسكنون فيها في «جاسان» قُرب مدينة فرعون، وأمرهم أن تكون مفتوحةً إلى القِبلة، كما روى ابن عطية في تفسيره عن ابن عباس في تفسيره «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»، وكانت هذه الأخصاص في الصحراء، ثم أمرهم عز وجل على لسان موسى وهارون بالمحافظة على إقامة الصلاة، فقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي لا تُشغلكم إقامة الأخصاص والخيام المُعَدَّةِ للرحيل عن إقامة الصلاة، وحتى في مُدَّةِ رحلتهم.

ولماذا خصَّ الصلاة بالذكر؟

والجواب: لأن في الصلاة استدامةَ الولاء لله تعالى - كما يقول العلماء -.

- فنحن نشهد أن لا إله إلا الله مرة واحدة في العُمر.
- ونُزكي - إن كان عندنا مال - مرة واحدة في السنة.
- ونصوم شهراً واحداً هو شهر رمضان.
- ونحج - إن استطعنا - مرة واحدة في العُمر.
- ويبقى ركن الصلاة يتكرر كل يوم خمس مرات.

ومن شاء فليزْدَدْ بالنوافل، ولعل في ذلك تنبيهاً إلى كون الصلاة عمادَ الدين، وتنتهي الآية الكريمة بقوله تعالى لموسى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

أي بشّر بني إسرائيل بأن الله سيُظْهِرُهم على عدوهم، وأنه عز وجل سيحفظُهم من فتنة فرعون وملئه.

ونُلاحظ أن جملة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوفة على ما قبلها، وهذا مؤذنٌ بأنَّ ما أُمِروا به من اتخاذ البيوت، وإقامة الصلاة مُشْعِرٌ بحالةٍ من وقوع أخطار، وأُمورٍ تُخيف، فأمر الله موسى أن يُبَشِّرهم بِحُسن العاقبة، وأنهم منصورون على عدوهم، وناجون منه، وكانت هذه البِشارةُ لمن آمن مع موسى وكانوا قد سألوا الله أن يحميهم من فتنة فرعون وعذابه كما ذكرت الآيات: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس].

فكان الجواب من الله عز وجل لموسى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس].

قال البروسوي: بَشَّرهم بالنصر في الدنيا، وبالجنة في العُقبى إجابةً لدعوتهم السابقة.

قال القاشاني في قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس]، جعل التوكل من لوازم الإسلام، الذي هو إسلامٌ لوجه الله تعالى، والمعنى: إنْ كَمُلَ إيمانكم يا قوم، وكَمُلَ يقينكم، بحيث أثَّرَ في نفوسكم، وجعلها خالصة لله تعالى، لَزِمَ التوكل عليه.

قال القاضي في قولهم: ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [يونس]، في تقديم التوكل على الدعاء، تنبيهٌ على أنَّ

الداعي يجب عليه أن يُقدِّمَ التوكل أولاً لتُجابَ دعوته.

قال البروسوي: كانت إجابتُهم لموسى بدون تردُّدٍ، وبدون تلعثُم حيث قالوا: ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس]، أي يا رب: أَسْلَمنا أمورنا إليك، ورضينا بقضائك وقَدَرك، ربنا لا تُسلِّطهم علينا، ولا تُعذبنا بعذابٍ من عندك، فاستجاب الله لدُعائهم ونجاهم، ثم يأتي الأمر بالخروج.

الأمر بالخروج:

قال المفسرون: صدر الأمر الإلهي إلى موسى بالخروج، وأمرهم أن يكون الخروج ليلاً، لأنَّ السير ليلاً أستر للسائر، وذلك قوله تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الشعراء].

قال ابن كثير: استأذن بنو إسرائيل فرعون، بأنهم خارجون إلى الضواحي، لحضور عيدٍ لهم، فأذن لهم على كُرْهٍ، وكانوا قد تأهّبوا للخروج، وجعلوها مكيدةً بفرعون وجنوده ليتخلصوا منهم.

قال مؤرخو أهل الكتاب: وحتى تكون الحيلة كاملة: استعار نساء بني إسرائيل من نساء القِبط حُلِيّاً كثيراً.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾: سرى وأسرى بمعنى واحد، وهو المسير ليلاً، خرج موسى بقومه سَحَراً، وفي رواية: عند طلوع القمر، قال مجاهد: ثم خُسِفَ القمر.

قال ابن كثير: خرجوا بليلٍ من فورهم طالبين بلاد الشام، وكان خروجهم سَحَراً، ثم ترك موسى الطريق إلى الشام، وتوجه عن يساره إلى جهة البحر، فكان الرجل من بني إسرائيل يقول لموسى: لِمَ تركت الطريق إلى

الشام؟ فيقول عليه الصلاة والسلام: بذلك أُمرتُ، وهذا هو الوحي: إعلامٌ بخفاء.

قال صاحب كتاب «حياة الأنبياء وأخلاقهم»: كان اتجاه بني إسرائيل حين خروجهم من مصر إلى البحر الأحمر، طريق السويس، ثم وقفوا على شاطئ بحر يوسف «سوف»، وهو بين خليج السويس، والبُحيرات المُرَّة.

قال البروسوي: أُمِرَ موسى وَحْياً بالاتجاه إلى بحر القُلزم - الأحمر -، قيل له: يا موسى، اذهب ببني إسرائيل بالليل، وسيِّرهم إلى بحر القُلزم، فيأتيك هناك أمري، وقال جبريل لموسى: «موعدُ ما بيني وبينك يا موسى البحر»، أي شطَّ بحر القُلزم - الأحمر -.

قال القرطبي: وأصبح فرعون، وإذا بيوت بني إسرائيل قوم موسى خاوية، وعَلِمَ بِسُرى موسى بقومه، فأرسل على جناح السرعة إلى المُدن الكبيرة لجمع العساكر، فأرسلَ الحُجّابَ والنُقباء ليلحقوا ببني إسرائيل ويَردُّوهم إلى المدينة، إلى قاعدة الملك، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[الشعراء].

والمدائن: جمع مدينة، وهي: البلد العظيم، وكان في القُطر المصري يومئذ مدائن كثيرة، منها: مانوفرى أو منفيس، وتيبة أو طيبة، وهي بالأُقصر، وأبودو، وتُسمى اليوم «القرابة المدفونة»، و ساوُرْت وهي أسيوط، و سودو وهي الفيوم، و خَسْوُوْ وهي سخا، و كاريينا، وهي: سدُّ أبي قيرة، وكوتي وهي القِفْطُ، ويامازيت، وهي البهنسا، وسنى وهي أسناء وغيرها كثير.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: كان فرعون وقومه لا يعلمون أين اتجه موسى بقومه، فأراد أن يتعرَّضَ لهم في كل طريق يُظَنُّ مرورهم به، وكان لا يدري لعلهم توجهوا صوب الشام، أو صوب الصحراء الغربية، وما كان

يظن أنهم يقصدون شاطئ البحر الأحمر «بحر القُلزم»، وكان يُسمى «بحر سوف».

قال العلماء: كأن فرعون أعلن التعبئة العامة: ﴿حَٰشِرِينَ﴾.

قال الرازي: أراد فرعون أن يَشُدَّ من عزيمة جنده وقومه على مواجهة بني إسرائيل، فهوَّن أمرهم، ووصفهم بوصفين من أوصاف الذم فقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الشعراء].

والشِرذِمة: الطائفة القليلة من الناس، أي هم قليلون بالنسبة لعدد جند فرعون، فالوصف الأول الذي وصفهم به فرعون: القِلَّةُ، فهل كانوا في الحقيقة شرذمةً وقلَّةً؟

والجواب: ما قاله ابن عباس، قال: كان بنو إسرائيل ستمائة ألف وسبعين ألفاً.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السُدي، أن موسى خرج في ستمائة ألف وعشرين ألفاً، لا يُعَدُّ فيهم ابن العشرين لصغره، ولا ابن الستين لِكِبره، وهذا يوافق ما ذكرته التوراة في سفر العدد الإصحاح السادس والعشرين.

قال الآلوسي: ولا أجزم بعدد، ولكن جنود فرعون كانوا أكثر بكثير من عدد قوم موسى.

قال ابن كثير: تَبِعهم فرعون في جيش كثيف عرمرم، كان فيه من الخيول الدُّهم مائة ألف، والأدهم: الأسود، والعرب تقول: ملوك الخيل دُهمُها، وكان مع فرعون ألف جبار كلهم عليه تاج.

قال ابن عباس: خرج فرعون في جمعٍ عظيم، في ألف ألف حصان سوى الإناث.

قال المفسرون: والصفة الثانية التي وصفَ فيها فرعون بني إسرائيل: قوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾، والغيظ: أشد الغضب، ومنه قوله تعالى مُتكلماً عن أخلاق أهل الكتاب: ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ ﴾ [آل عمران ١١٩].

والغيظ: غضبٌ شديدٌ مصحوبٌ بإرادة الانتقام، ولكن ما سبب غيظ فرعون وقومه؟

والجواب:

أولاً: أن بني إسرائيل خرجوا من مصر هاربين إلى الشام دون إذن من فرعون، وبحِيلة.

ثانياً: أخذُهم لِحُليٍّ كثير من نساء القِبط.

ثالثاً: والأهم: مُخالفة بني إسرائيل لهم في الدين، وكُفرهم بألوهية فرعون، فهذه الأفعال، يقول فرعون: أغضبتنا، ومع استهانة فرعون ببني إسرائيل في الظاهر أمام قومه، فهو في نفس الوقت، أمر قومه بالاستعداد وعدم الاستهانة بهم، فقال حاثّاً أهل المدائن على أن يكونوا حذرين على أبلغ وجه، ثم وصف نفسه ومن معه بأنهم على أعلى درجات الحذر، وذلك ما أشار إليه القرآن: ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ٥٦ ﴾ [الشعراء]، وفي قراءة: «وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ».

وحاذرون: أي إنَّ الحذرَ من شيمتنا وعادتنا، وعلى الأمة أن تكون مثله على ذلك، وقُرِئ: «وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حادِرُونَ»: أي أقوياء مُدججون بالسلاح.

قال الرازي: أراد فرعون أنهم مُدججون بالسلاح، وبنو إسرائيل لا سلاح لهم، وغاية فرعون من هذا الكلام، شَدُّ عزيمة من معه، حتى لا يظنوا

أنه خائف أو ضعيف.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: تحرك جيش فرعون في أُبَّهته وعظمته وسلاحه وراء موسى، وجلس فرعون في مركبةٍ حربيةٍ يتأمل جيشه ويبتسم، ويُخاطب من حوله قائلاً: لو أننا فعلنا هذا من أول الأمر، لانتهينا من موسى واسترحنا، ولكنه على كل حال نحن في طريقنا للقضاء عليه.

قال ابن كثير: والمقصود: أن فرعون تَبعهم بالجنود، وخرج من مصر، من جَنَّاتِهِ وعيونه وكنوزه، ومقام مُلكه، مُتَّجِهاً جهة الشرق، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الشعراء].

فصار المعنى: أسرى موسى ببني إسرائيل، فأخرجنا فرعون وجنده من بلادهم في طلب موسى وقومه، فاتَّبعوهم قاصدين جهة الشرق، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾، يجوز أن يكون المعنى: قاصدين جهة الشرق، والعرب تقول: أَنْجَدَ، وأَتْهَمَ، وأَعْرَقَ، وأَشْأَمَ، إذا قُصِدَ: نجداً أوتُهامة، أو العراق أو الشام، أي توجهوا إلى البحر الأحمر - القُلزم - وسُمي يومها بحر «سوف»، وهو شرقي مصر.

ويجوز أن يكون معنى ﴿ مُّشْرِقِينَ ﴾: أي داخلين في وقت الشروق، أي أدركوهم عند شروقٍ، بعد قضاء ليالي مشياً، فما بَصُرَ بعضهم ببعض إلا عند شروق الشمس بعد ليالي سفر.

قال ابن كثير: أدرك فرعون بني إسرائيل عند شروق الشمس.

وقال السُّدِّي: لَحقُوهم عندما أشرقت الشمس بالشُعاع، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ [الشعراء ٦٠].

قال المؤرخون: وقف موسى ومَنْ معه أمام البحر، ومن بعيد ثار غُبار قوي يدل على أن جيش فرعون يقترب، ثم ظهرت راياتُ الجيش وأعلامُه، وتراءى الجمعان، ورأى كل واحد منهما الآخر.

قال الآلوسي في تفسيره «روح المعاني»: لمّا تقارب الجمعان خافَ بنو إسرائيل جداً، ولاموا موسى في الخروج، وقالوا له: لو تركتنا نخدم المصريين لكان خيراً لنا من أن نموت في البرية بلا قبور، وقد ذكرت [سورة الشعراء] هذا الموقف، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾.

والتَّرائِي: حُصولُ الفعل من الجانبين، وحدوث المواجهة بينهما.

وقولهم: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، صدر قولهم هذا بصوت مرتفع، مما يدلك على الجزع الصادر منهم، ثم أَتَوْا بالكلام مؤكَّداً، لشدة اهتمامهم بالأمر، كما يدل على سوء ظُنونِهم، وشَكَوْا إلى موسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، على جهة الجفاء والتضجر، فالبحر أمامهم، وجنود فرعون من خلفهم ولا مَفَرَّ ولا مهرب إلا الخوضُ في البحر وهذا مُحال، ولذلك قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾.

قال القرطبي: عندها زجرهم موسى وردَّ عليهم، فقال: ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء]، وعَلَّلَ رَدْعه لهم وزجْره بجملة: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾.

وكلمة «كلا» تعلَّمها موسى من ربه عز وجل حين كلَّفه بالذهاب إلى دعوة فرعون للإيمان، فخاف موسى وقال: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الشعراء]، فقال عز وجل: ﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الشعراء]، فموسى واثقٌ بأن الله مُنجيه، وأراد أن يَشُدَّ عزيمتهم فأعلمهم بأمرين:

الأول: ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي ﴾.

الثاني: ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾.

والمعيةُ هنا يُسميها العلماء «معيةً خاصة» وتعني التأييد والنُصرة. والهداية هنا: الدلالة على طريق الخلاص والنجاة، وإذا دلَّهُ الله على طريق نجاته، وهلاك أعدائه، فقد بلغ أعلى درجات النُصرة: ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾.

قال المفسرون: كان موسى أولَّ الأمر في مؤخرةِ بني إسرائيل، فتقدم إلى المُقدمة.

قال ابن كثير: تقدَّم موسى إلى المُقدمة، ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه، ويتزايد زَبَدُ أُجاجِهِ، وكان يقول في تَقَدُّمِهِ: «ها هنا أُمرتُ»، وهارون أخوه إلى جانبه، ويوشع بن نون، وهو من كبار علماء بني إسرائيل وعُبَّادهم، وقد نبّأه الله بعد موسى وهارون، وكان معهم مؤمن آل فرعون، هؤلاء الأربعة وقوفٌ، وبنو إسرائيل كلُّهم عُكوف.

ويروي ابن كثير: أنَّ مؤمن آل فرعون جعل يدخل بفرسه البحر مِراراً ليعلم هل يُمكن سلوكه!! فيرى أن ذلك من المستحيل، فكان يعود إلى موسى في كل مرة ويسأله: يا نبيَّ الله ههنا أُمرتَ؟

فيقول موسى: نعم، ثم قال له: يا نبي الله، هذا البحر أمامك وقد غَشِيكَ آلُ فرعون؟!!

فقال موسى: أُمرتُ بالبحر لعلّي أُوْمَر بما أصنع.

وقبل أن ننتقل إلى ما حدث بعد ذلك، نريد أن نقف عند هذه الآية وقفةً بسيطة: ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء]، نلاحظ أن موسى

قال: سيهدين، ولم يقل: سيهدينا، فلماذا؟

والجواب: كما قال العلماء:

أولاً: لأنهم لم يكونوا عالمين بما ضَمِنَ الله له من مَعِيّةِ العناية، لذلك اقتصر موسى على نفسه: ﴿سَيَهۡدِينِ﴾.

ثانياً: كان بنو إسرائيل قد غَفَلوا عن وعد الله لهم بالتأييد في قوله تعالى مُخاطباً موسى وهارون، وكُلَّ بني إسرائيل المُتبعين لهما: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ٣٥﴾ [القصص]، فلما غفلوا عن هذا الوعد من الله بتأييدهم ونصرهم قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾.

انفلاق البحر:

قال ابن كثير: فلما تفاقمَ الأمرُ، وضاق الحال، واقترب فرعون وجنوده في جِدِّهم و حَدِّهم وحديدهم وغضبهم، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، عندئذ أوحى الحكيم العظيم، ربُّ العرش الكريم إلى موسى، أن اضربْ بعصاكَ البحر.

وورد عن عبد الله بن سلام قال: لَمّا انتهى موسى إلى البحر قال عند حافته: «يا مَنْ كان قبل كل شيء، والمُكوِّنَ لكل شيء، والكائنَ بعد كل شيء، اجعلْ لنا مخرجاً».

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أُعلمك الكلمات التي قالهنَّ موسى حين انفلق البحر؟» قلت: بلى يا رسول الله، فقال ﷺ: «قل: اللهم لك الحمدُ، وإليك المُشْتكى، وبك المُستغَاثُ، وأنت المُسْتَعانُ، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله»، قال ابن مسعود: فما تركتُهُنَّ بعد ذلك، منذ سمعتُهُنَّ من رسول الله ﷺ، فكان ما ذكره الله لنا: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ

ﱡﭐ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣ ﱠ [الشعراء].

قال القرطبي: لمّا رأى بنو إسرائيل من جيوش فرعون ما لا طاقة لهم بها، أمر الله موسى أن يضرب البحر بعصاه.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، وأوحى إلى البحر أن اسمع لموسى وأطع إذا ضربك، قال: فبات البحرُ وله رِعْدَةٌ من أمر الله، لا يدري من أيِّ جوانبه يضربه موسى.

قال قتادة: قال يوشع بن نون: يا نبيَّ الله، بماذا أمرك ربك؟

قال موسى: أمرني أن أضرب البحر، قال يوشع: فاضربه، فضربه موسى فانفلقَ.

وأخرج الخطيب مرفوعاً من حديث أبي الدرداء: أن موسى ضرب البحر فتأطَّطَ، ثم ضربَهُ الثانية فتأطَّطَ، ثم ضربه الثالثة فانفلقَ البحر اثني عشرَ طريقاً، لكل سبطٍ طريق.

وذكر ابن أبي شيبة، أن موسى لمّا ضرب البحر ناداه بِكُنيته، وقال: «انفلق أبا خالد بإذن الله».

قال البروسوي: والبحر المقصود هنا هو «بحر القُلْزم»، والقُلْزم بُليدةٌ على ساحل البحر من جهة مصر، بينها وبين مصر ثلاثة أيام وقد خَرِبَتْ، ويُعرف موضعُها الآن بـ «السويس»، مقابل مكان اسمه «عجرود»، وهو منزل ينزل به الحُجاج القاصدون مكة للاستراحة، وبالقرب من هذا المكان غرق فرعون.

قال صاحب «معجم البلدان»: والقُلْزم: مأخوذ من القلزمَةِ: أي الابتلاع،

وسُمِّيَ قُلْزماً؛ لأنه يلتهم ويبتلع مَنْ رَكِبَهُ، وهو مكان غرق فرعون، وهو بحر مَخُوفٌ، لذلك قال الشاعر «سعيد بن عبد الرحمن بن حسان» يصف الصعوبات التي أمامه والتي تمنعه من الحصول على المرأة التي يريد فيقول:

بَـرِحَ الخفـاءُ فـأي ما بـك تكتمُ ... ولسـوفَ يظهر مـا تُسِرُّ ويُعلَمُ
حُمِّلْتُ سقماً من علائق حُبها ... والحب يعلقـهُ السـقيمُ فيسـقَمُ
علويـةٌ أمسـت ودونَ مزارِهـا ... مِضمارُ مصرٍ، وعابدٌ، والقُلزُمُ
إنَّ الحَمامَ إلى الحِجاز يشوقُني ... ويهيجُ لي طرباً إذا يترنَّمُ
لـو لَجَّ ذو قسمٍ على أنْ لم يكن ... في الناس مُشبِهُها لبَرَّ المُقسِمُ

انفلق البحر، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء].

انفلق وانحصر الماء على جانبين: ﴿ كُلُّ فِرْقٍ ﴾: أي كل جانب ارتفع كالجبل.

قال الرازي: أي ارتفع كل فِرْقٍ في السماء كالجبل العظيم.

قال صاحب «أيسر التفاسير»: الفرقُ: القسم من الشيء المنفلقِ.

قال ابن عباس: صار البحر اثني عشر طريقاً لكل سبط طريق، أي لكل قبيلة منهم طريق خاص بها.

قال الآلوسي: لمّا فُتِحت المسالك في البحر، قال بنو إسرائيل لموسى: نخاف أن يغرق بعضُنا ولا ندري به، فجعل الله لهم كُوىً حتى يَرَوْا بَعضَهم.

قال الرازي في قوله تعالى: ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾، قال: هذا مُعجز من وجوهٍ:

أولاً: تَفَرُّقُ الماء مُعجز.

ثانياً: جعل كُوىً في الجُدُرِ المائية مُعجز.

ثالثاً: وقوف الماء كالجبل مُعجز.

رابعاً: إبقاء الله لهذه المسالك مفتوحةً حتى دخلها قوم فرعون مُعجز.

قال المفسرون: انفلق البحر، وتجمد الماء كالجبل، وفُتِحت الطرق فيه، ولكن أليس في قاع البحر من الأوحال والرواسب ما يغوص الإنسان فيه؟

نعم، ولكن من أمثال العامة قولهم: لا كربَ وأنت ربَ: أي ما دام للمؤمن ربٌّ يلجأ إليه بإخلاص فلا كربَ والمشكلة محلولة، ولذلك قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾** ﴾ [طه].

قال ابن كثير: أرسل الله ريح الدَّبور، فلفحت البحر حتى أذهبت ماءه من الأرض، فأصبح يَبَساً لا يعلق في سنابك الخيول والدواب من أرضه شيء.

واليَبَسُ: اليابس الجاف، وهو مصدر يُوصَفُ به للمُبالغة، ولذلك لا يؤنث، قالوا: ناقة يَبَسٌ: إذا جفَّ لبنُها.

وقوله: ﴿ **وَلَا تَخْشَىٰ** ﴾: أي لا تخف، ونُلاحظ أنه لم يأتِ بمفعول هذا الفعل، لكي يفيد العموم، مع أنَّ المُراد الخصوص هنا، أي: لا تخشى شيئاً مما يُخشى من العدو، ولا من الغرق، ولا من غير ذلك، وقد وقف المفسرون مع «عصا موسى» وقفةً طويلة:

نذكر ما قالوه بإيجاز، قالوا: وللعصا مع موسى تاريخ طويل، منذ سأله ربه: ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾** ﴾ [طه]، فأجاب موسى رَبَّهُ

بما يعرف عنها: ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨﴾ [طه]، فهي وسيلة لجمع الأغنام، والإشارة إليها، وضرب أوراق الشجر بها لتأكل منها الأغنام الصغيرة... وهكذا

ثم قال: ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾: لدفع الذئاب، وحمل الأمتعة مُعلَّقة بها على الكتف، وأنصُبُها خيمة صغيرة أستظل بها، هذه مهمة العصا كما يراها موسى، ثم قالوا: لكن للعصا مُهمات أُخرى لا يعلمُها موسى إلا بعد حُصولها، فهي آيةٌ من آيات الله، وحُجَّةٌ على السَّحَرَةِ، انتصر فيها عليهم بإذن الله، وهي آية انتصر بها في معاركه بدل السلاح.

والعجيب - كما قال العلماء - في أمر هذه العصا، أن يضرب بها البحر فيصير جبلاً، ويضرب بها الحجر فينفجر بالماء، وهذه آيات لا يقدر عليها إلا خالقُ الأرض والسموات، ولذلك يتخذ الناس منها حُجَّةً ودليلاً وعَلَماً على الإنتصار في كل خصومة، وفي كل جِدال يحتاج إلى دليل، وبُرهان، وقد ذكر الأُدباء من هذا الباب، أنَّ والياً كان على مصر اسمه «الخصيب» وهذا لقبه كما ذكر صاحب «لسان العرب» تمرَّد عليه بعض قُطاع الطُرق، وكان قوياً على المجرمين، فقهَرَهم وقال:

فإنْ يَكُ باقٍ إفكُ فرعونَ فيكم فإنَّ عصا موسى بكفِّ خصيبِ

وفي هذا المعنى يقول أحد الشعراء:

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السِّحرُ والساحِرُ

وهكذا صارت عصا موسى مثلاً للغَلَبَةِ في شتى مجالات الحياة.

غرق فرعون وقومه:

قال القرطبي: وما زال البحر كذلك - أي طُرقاً ومسالكَ - حتى دخله

فرعون وقومه، وجرّأهُم الله على اقتحام هذه الطُرق في البحر، كما رأوْا فِعْلَ بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْأَخَرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الشعراء].

و﴿ ثَمَّ ﴾: أي هنالك في وسط البحر.

﴿ ٱلْأَخَرِينَ ﴾: وهم قوم فرعون لأنه مُقابل قوم موسى.

ومعنى: ﴿ وَأَزْلَفْنَا ﴾: أي جمَّعنا وقرَّبنا فرعون وملأه إلى الوسط لإغراقِهم، ولذلك سُميت «مزدلفة» ليلة جمعٍ: لازدلافِها: أي لقُربها من مِنىً، أو من عرفات، وسُميت ليلةَ جَمْعٍ لاجتماعِ الحُجاج فيها، قال الشاعر:

وكلّ يوم مضى، أو ليلةٍ سَلَفتْ فيها النفوسُ إلى الآجالِ تَزدلفُ[1]

قال الرازي: ﴿ وَأَزْلَفْنَا ﴾: أي قرَّبناهم إلى الموت لأن آجالهم حانت عندئذ.

قال القرطبي: وما زال البحر كذلك حتى دخله فرعون وقومه، ثم ارتدَّ كما كان.

قال ابن كثير: ورد عن ابن مسعود قال: لمّا خرج أصحاب موسى وتَتَامَّ أصحابُ فرعون - أي في البحر - التقى البحر عليهم فأغرقهم.

وورد عن ابن عباس قال: لمّا خرج آخر أصحاب موسى، وتكامَلَ أصحابُ فرعون، انطمَّ عليهم البحر، فما رُئِيَ سوادٌ أكثرُ من يومئذ، وغرق فرعون.

وهكذا نجا موسى وقومه جميعاً بحفظ الله البحرَ على تلك الهيئة حتى عبروا، وتمَّ إغراق فرعون وجنوده بإطباق البحر عليهم، قال تعالى:

---

(١) يُقال: زَلَفَ من الزَلَف، وهو القُرب، ويُقال: ازدلفَ: أي اقترب، وتَزَلَّفَ: تقرَّبَ.

﴿ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ٦٥ ﴾ [الشعراء]، وهكذا حُسِمت المعركة لصالح موسى ومَنْ معه، دون خسارة جندي واحد، وهلكَ فرعون وقومه: ﴿ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٦ ﴾ [الشعراء].

وقد ورد عن ابن عباس، أنَّ بني إسرائيل لمّا خرجوا سمعوا وجبَةَ البحر، فقالوا لموسى: ما هذا؟ قال موسى: غرق فرعون وأصحابه، فرجعوا ينظرون فرأوا الجُثث تُغطي سطح البحر.

وقد ذكر القرآن الكريم صورةً، أو لوحةً من هذه المشاهد العجيبة، وذلك في سورة الدخان، وهي أنَّ موسى بعد أن خرج هو وقومه من البحر حاول أن يضرب البحر بعصاه ليعود كما كان حتى لا يلحقهم فرعون وجنوده، فجاء الأمر الرباني بأن يترك البحر كما هو لإغراق فرعون ومَنْ معه، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٢٣ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ٢٤ ﴾ [الدخان].

رَهَاْ: فتح ما بين رجليه، أي اترك البحر مفتوحاً ساكِناً حتى يدخل فرعون وقومه فيهلكون.

قال قتادة: أراد موسى أن يضرب البحر ليلتئم، فقيل له: اتركه منفرجاً ولا تخف من لِحاقِ فرعون بكم، فإنهم هالكون فيه.

قال البروسوي: لمّا كان فرعون يفتخر بالماء والأنهار التي تجري تحت قصوره، أغرقه بالماء؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وإلا فإن الله قادر على إهلاكه براً وبحراً كما فعل بغيره من الأمم، وأشار القرآن الكريم إلى غرقهم غرقاً لا يُمكن وصفه، وهو إشارة إلى هول هذا الغرق، قال تعالى: ﴿ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ٧٨ ﴾ [طه]: أي غشيهم من الغرق ما

لا يُستطاعُ النجاة معه.

قال الزمخشري: وهذا الكلام من جوامع الكَلِمِ، وهو الكلام القليل يحمل المعاني الكثيرة.

ويروي ابن كثير كيفيةَ الغرق فيقول: ترك موسى البحر على هيئته مفتوحةٌ فيه الطُّرق، استجابة لقوله تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الدخان]، فلما وصل إليه فرعون، ورأى ما رأى، وتحقق أنَّ ما رآه فِعل رب العرش الكريم، فوقف قليلاً، ونَدِمَ على خروجه في طلب بني إسرائيل، لكنه أظهر التَجَلُّدَ والصبر لجنوده وحملَتْهُ نفسه الكافرة على القول إلى مَنْ حوله: انظروا كيف انحسر البحر لي؛ لأُدرِكَ عبيدي الهاربين من طاعتي، الخارجين من بلدي.

وتابع ابن كثير كلامه فقال: كان فرعون يتقدم ويتأخر، ويرجو النجاة، فكان يتجلد ويتَصَبَّر، ويظهر جبريل في تلك اللحظات على صورة فارس، قد ركب على فرسٍ وديقٍ أنثى، فمرَّ أمام فرعون الذي انتقل في لحظتها من عربته المُلوكية إلى جوادٍ فَحْلٍ، فَحَمْحم حصانُ فرعون لمّا رأى الفرس الأنثى أمامه وأقبل عليها، وأسرع جبريل أمامه على الفرس الأنثى فاقتحَمَ البحر، واستبَقَ الجوادَ، فبادرَ جوادُ فرعون مُسرعاً، لم يعد فرعون يملكُ لنفسِهِ شيئاً عندها.

فلما رأتْهُ الجنود قد سلكَ البحر اقتحموا وراءه مُسرعين فَحَصَلوا في البحر أجمعين، حتى هَمَّ أولهم بالخروج منه، عندئذ أطبقَ البحر عليهم، فلم ينجُ منهم أحد، قال تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشعراء].

ماذا حصل لفرعون؟

قال ابن كثير: لمّا رأى فرعون الأمواج تخفِضُهُ تارةً وترفَعُهُ أُخرى، وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده، وماذا حلَّ بهم من البلاء، ولِتقرَّ أعيُنُهم بما يُشاهدون من هلاك القِبط، عاين فرعون الهَلَكَةَ، وأحاطت به سكراتُ الموت، عندها أنابَ إلى الله، وتاب، وآمن حيث لا ينفعُ نفساً إيمانُها، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك: ﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ﴾ [يونس].

قوله: ﴿ فَأَتۡبَعَهُمۡ ﴾: أي تَبِعَهم ولحقهم، ﴿ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ١٠ ﴾ [الصافات].

وقوله: ﴿ بَغۡيٗا ﴾: أي طلباً للاستعلاء بغير حقٍ في القول.

﴿ وَعَدۡوًاۖ ﴾: تجاوز الحدِّ في الظُلم، ويكون في الفعل، وهو مصدر «عَدَا» ذلك لأن فرعون تَبِعهم وهو يريد شرّاً بهم، تَبِعهم رغبةً في الإذلال والعُدوان والانتقام، ولم يتبعهم ليَرُدَّهم إلى الاستقرار والأمن، ولذلك قال تعالى: ﴿ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ ﴾.

وانتبه - يا عبد الله - إلى لفظة: ﴿ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ ﴾، والغرق معنىً، فكيف يتحول المعنى إلى شيء يُلاحق هذا الطاغية؟

والجواب: قال العلماء: كأن الغرقَ - المعنى - انقلب جُندياً من جنود الله، له عقلٌ ينفعِلُ فيُسرع إلى الأحداث، وإلى تنفيذ أمر الله تعالى.

قال ابن كثير: آمن حيث لا ينفعه الإيمان؛ لأنَّ الإيمان بعد رؤية بوارق العذاب لا يُفيد صاحبه، مثل الإيمان عند الغَرْغَرة، ومثلُ الإيمان عند طُلوع

الشمس من مغربها كما في الصحيح، إلى هذا أشار الكتاب الكريم: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [غافر].

هنا سؤال: لماذا لا ينفع الإيمان صاحبه عند حلول عذاب الاستئصال؟

والجواب: إنَّ وقوع الإيمان في تلك اللحظات لا يُحصِّلُ المقصدَ من إيجاب الإيمان، وهو: أن يكون المؤمن ناصراً لدينه ورسوله، أما إيمانٌ عند الغرغرة لا رمَقَ فيه فلا يُغني شيئاً، لأنه إيمانٌ يُشبهُ اعترافَ أهل الحَشْرِ بذنوبهم وليست ساعةَ عمل، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس]، ويُجيبه الله تعالى على لسان المَلَكِ المُوكّل بتعذيبه تَأْيِيساً له من النجاة في الدنيا والآخرة: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يونس]، فقولك هذا يا فرعون مردودٌ؛ لأنه جاء في غير وقته، فهناك فرقٌ بين إيمانِ الإجبارِ، وإيمان الاختيارِ، والمطلوب هو إيمانُ الاختيار، إذ لو كان المطلوب إيمانَ الإجبار، لأجبر الحقُّ تبارك وتعالى الخَلق كلَّهم على أن يؤمنوا، ولما استطاع أحدٌ أن يكفر بالله تعالى، وأمامَنا الكون كلُّه خاضع لله تعالى – كما قال العلماء – فالمردود من فرعون ليس القول، ولكن المردودُ زَمَنُ القول.

وقد روى الترمذي من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «لمّا أغرق الله فرعون، قال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾، قال جبريل: «يا محمد: فلو رأيتُني وأنا آخذ من حال البحر – الطين الأسود في أسفله – فأدُسُّهُ في فِيْهِ مخافةَ أن تُدرِكَهُ الرحمة»، هذه الزيادة ردَّها الغرناطي، والحديث قال عنه الترمذي: حديث حسن.

وأخرج أبو الشيخ من حديث أبي أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: ما أبغضتُ شيئاً من خلق الله كما أبغضتُ إبليس يوم أُمِرَ بالسجود فأبى أن يسجد، وما أبغضتُ شيئًا أشدَّ بُغضاً من فرعون، فلما كان يوم الغرق خفتُ أن يعتَصِمَ بكلمةِ الإخلاصِ فينجوَ، فأخذتُ من حمأة البحر».

قال الرازي في قوله تعالى حاكياً قول فرعون: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس ٩٠].

قال الرازي: آمن فرعون ثلاث مرات، وذلك:

أولا: حين قال: ﴿ءَامَنتُ﴾.

ثانياً: حين قال: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾.

ثالثاً: حين قال: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

قال الرازي: وسبب عدم القبول: أنَّ الإيمان كان عند نزول البأس وهذا غير مقبول، ثم قد يكون قال ذلك ليتخلص من الغرق، ثم يعود بعدها إلى الكفر، ثم إنَّ إقراره بالتوحيد كان تقليداً، أو أنه أقرَّ بالوحدانية ولم يُقِرَّ لموسى بالنبوة، وهكذا كانت نهايته.

قال ابن عباس: شَكَّ بعض بني إسرائيل في موت فرعون، حتى قال بعضهم: إنه لا يموت، وهو أعظم شأناً من ذلك، فَقَذفه اليمُّ على مُرتفعٍ من الأرض.

قال أبو بكر: أبرزهُ الله لهم فرأوْا جسداً لا روحَ فيه، فلما رأوه قالوا: نعم يا موسى هذا فرعون وقد غرق، وخرج الشك من قلوبهم، قال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢﴾ [يونس]، «الفاء» هنا: تُسمى «الفاء الفصيحة»، لأنها تُفصِحُ عن

شرط مُقدَّر في الكلام، والمعنى: إن أردت بإيمانك الذي أتيتَ به بعد فوات وقته أن أُنجيك من الغرق، فاليوم نُنَجيك، لكن ببدنٍ لا روحَ فيه، أي نُنَجيك وأنت جسمٌ، كما يُقال: دخلتُ عليه فإذا هو جثة، قال عبد الله بن شداد: ﴿ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾: أي سَوِيّاً صحيحاً لم يتمزق جسمه ليعرفوه ويتحققوه.

قال ابن جريج: رُمِيَ به على ساحل البحر حتى رآه بنو إسرائيل، وكان قصيراً أحمر كأنه ثور.

وذكر ابن أبي شيبة عن قيس بن عُباد، أن بني إسرائيل قالت: ما مات فرعون، وما كان ليموت أبداً، فرمى الله به على ساحل البحر كأنه ثور أحمر يَتراءَاهُ بنو إسرائيل.

قال المفسرون: ولله عز وجل في قذف البحر لبدنه حكمةٌ بالغةٌ لمن وراء فرعون؛ لأنهم لمّا رأوا إلههم طريحاً على شط البحر غريقاً، فلن يستطيعوا أن يُمَوِّهوا بأن يقولوا رُفِعَ إلى السماء، وسيعود ليُتابع بني إسرائيل، ثم يظهر لهم الحق جلياً واضحاً، وهي أنَّ فرعون عبدٌ مَربوبٌ، وأنَّ الله غالبُ مَنْ أشركوا به، وأنَّ الله أعظم وأقهر من فرعون وآلهته، لأنهم كانوا يزعمون أنه لا يُغلب، ولذلك كانوا يُمَوِّهون على الناس، فيبنون للفراعنة الأهرامات، ويضعون فيها كل حوائجهم، وأنهم يُنقلون بهذا إلى دار الخلود، فموتُ فرعون بالغرق قطعت كل طريق على قومه للتمويه والكذب، ولذلك قال تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ ﴾ [يونس ٩٢].

قال صاحب «التحرير والتنوير»: هذه الآية من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، إذ كانت الآية مُنطبقة على الواقع التاريخي، ومثل هذا القول قاله كذلك صاحب كتاب «مع الأنبياء»، حيث قال: هذه الآية تشهد للقرآن بأنه وَحْيٌ، وأنَّ محمداً رسولُ الله حقاً، فالآية تُشير إلى بقاء جسم فرعون ليراه

الناس، وليكون عبرةً.

قال المؤرخون: أُخرجت جثته بعد الغرق، فدُفِنَ في وادي الملوك في صعيد مصر، وذكر المُنقبون عن الآثار، أنه وُجِدَ قبره هناك، وفرعون الغريق، هو «منفتاح»، أو «منيفتا»، وهو ابن رعمسيس الثاني المعروف عند اليونان باسم «سيزوستريس» من ملوك العائلة التاسعةَ عشرة من الأُسَرِ الفرعونية، وكانوا في حدود سنة «١٤٩١» ق.م.

خلفتهُ في المُلك لمصر ابنته المُسماة «طوسير» لأنه تركها مع ولد له صغير.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله وأخبارهم»: لمّا أتم الله أمره بإنجاءِ بني إسرائيل، وهلاك فرعون وقومه، تغنى بنو إسرائيل بتسبيح الله.

أما نساء بني إسرائيل فَكُنَّ يفرحْنَ بضرب الدفوف في هذه المناسبة.

متى كان الإغراق والإنجاء؟ أي في أي زمن من الأيام؟

قال القرطبي: روى مسلم عن ابن عباس، أن النبي ﷺ قَدِمَ المدينة فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟»، فقالوا: هذا يومٌ عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه، وأغرق فرعون وقومه، فصامَهُ موسى شُكراً، فنحن نصومه، فقال النبي ﷺ: «فنحنُ أَحَقُّ وأَوْلى بموسى منكم»، فصامه ﷺ.

هنا سؤال: هل انتفعَ فرعون بهذا الإيمان الذي جاء في غير وقته؟

والجواب - كما قال العلماء: نعم قالوا: لم يعدم فرعون فائدةً من إيمانه، فإنَّ الله بحكمته قدَّرَ له الخروج من غمرات الماء، فلم يَطُلْ مُكثه في الماء، ولذلك سَلِمَ من أكل الحيتان، فلفظتهُ الأمواج، فتلك حالةٌ أقلُّ خِزياً من حالات جيشه، فظهر هنا نفعٌ لإيمانه الذي كان في غير أوانه، أي نفعَهُ هنا

ولكن لن ينفعه في الآخرة.

ثم انتبه - يا عبد الله - بعد ذلك إلى التذييل الجميل في الآية: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢ ﴾ [يونس]، هذا التذييل موعظةٌ للمشركين، ولكل غافلٍ عن آيات الله عز وجل.

قال البروسوي في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾.

قال: إن فرعون مع شِدَّةِ شكيمته، وفرطِ عناده آمن في وقتٍ لا ينفعه إيمانه، أما فرعون هذه الأمة «أبو جهل» فقد قتله الله يوم بدر شَرَّ قِتلةٍ، ولم يصدر منه ما يدل على أنه بَدَرَ منه شيء في هذا الباب، بل اشتدَّ غيظه وغضبه في حق رسول الله ﷺ وفي حق المؤمنين إلى أن خرجت روحه، فصار أشدَّ من فرعون، فليعتبر العاقلُ بهذا، وليقسْ عليه كلَّ مَنْ سلكَ مسلكَهُ في الظلم والكفر والعناد، فنعوذ بالله ربِّ العِباد، ومن كل شر وعناد.

قال ابن كثير: كان الغرق في اليَمِّ هنا، ثم جاءت النقلة إلى الجحيم.

قال: إن أرواحهم تُعرض على النار صباحاً ومساءً إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة، اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار معاً، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦ ﴾ [غافر]، فالمذكور عذابان، عذاب الدنيا، وهو عذاب الغرق، ثم يُلْحَقُ به عذابٌ آخر قبل عذاب يوم القيامة.

ومعنى عرضهم على النار: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ ﴾: أي أن أرواحهم تُشاهِدُ المواضع التي أُعِدَّت لها في جهنم، وهو ما بيَّنه حديث

ابن عمر في الصحيح، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أحدكم إذا مات عُرِضَ عليه مقعده بالغَداةِ والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار، فمن أهل النار، فيُقال: هذا مقعدكَ حتى يبعثكَ الله يوم القيامة»، وهكذا اجتمع على فرعون وقومه ذُلُّ الدنيا موصولاً بذُلِّ الآخرة، وجعل لَعْنَهم مشروعاً على لسان الأنبياء، وأتباع الأنبياء من المؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القصص].

قوله: ﴿ أَئِمَّةً ﴾: جمع إمام، وهو من يُؤْتَمُّ به، والإمامة أُسوةٌ وقدوةٌ للمأمومين، وتكون إما في الخير والحق كما قال تعالى في حق إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ ﴾ [البقرة ١٢٤].

فالإمامة: عملٌ وسلوك، لا قَرابةٌ ونسب، وقد تكون الإمامة في الشر كالآية التي نحن بصددها: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ ﴾، ففرعون ومَنْ معه أسوةٌ في الشر والظلم والكفر والجبروت، وكذلك سيكونون يوم القيامة أئمةً إلى النار: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [القصص].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القصص]: أي كلُّ مَنْ ذكرهم في الدنيا من المؤمنين يلعنونهم خلفاً عن سلف، كما يشمل لعن الملائكة لهم كذلك، كما تدل العبارة على أنَّ اللعنة لازمتهم في الدنيا حتى هلكوا، ثم يأتي يوم القيامة فيكون عذابهم خالداً: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾، والمقبوح:

هو المَشْتُوم بعبارة: قَبَّحَهُ الله، أو قَبَّحَهُ الناس: أي جعله قبيحاً بين الناس في أعماله، أي مذموماً.

ولكلمة "قبح" معنى آخر، تقول: قَبَحتُ الدُّمَّلَ، أي عَصَرْتُه قبل نُضْجه، فيخرج منه دم مع صديد، ويُشوِّه مكانه، والأطباء يقولون: إن الدُمَّلَ إذا تركته حتى يتناهى وينفتح من نفسه، يندمل ولا يترك أثراً، أما إن تدخلت به بالأدوية أو العصر فقد يُشوه مكانه، وهؤلاء بأعمالهم شَوَّهُوا وجوههم بأعمالهم السيئة بعد نضارة الفطرة، كما تتشوه نضارة الجلد بالدُّمَّلِ.

قال العلماء: والقرآن الكريم يُعبِّر عن تشويه وجوه أهل الضلال بصور مُتعددةٍ، فمثلاً تقرأ في [سورة عبس]: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١)﴾.

وتقرأ في [سورة آل عمران ١٠٦]: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

وتقرأ في [سورة طه]: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢)﴾.

والغَبَرَةُ: الغُبار الكثير، لبيان الإهانة من أثر الكَبوات.

والقَتَرَةُ: شيء شبه الدخان يغشى الوجه من الكرب والغم.

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢)﴾ [طه]، والزُرقَةُ لا تأتي إلا نتيجة كَدَمات تُحدث تفاعُلاتٍ ضارة تحت الجلد، وكذلك يُقال: زرقت العين: أي نزلت عليها المياه الزرقاء، وهي خطيرة على العين، فكأنَّ أهوال القيامة تُحدثُ لهم تغيُّرات في كيمائية أجسامهم، ولذلك إذا أرادوا أن يصفوا البخيل قالوا:

وللبخيلِ على أمواله عِلَلٌ   زرقُ العيون عليها أوجهٌ سودُ

لحرصهِ على ماله، وقد كانوا في العصور الوسطى يستعملون اللون

الأزرق لطلي وجوه الجنود في الحرب لإخافة العدو، والعامة يقولون عن الشيطان أنه أزرق، فيقولون: العفاريتُ الزُّرْقُ، وفلانٌ نَابُه أزرق.

قال ابن كثير: هلك فرعون وجنوده، وحاشيته وأمراؤه، ولم يبقَ في مصر إلا العامة والرعايا.

وقد ذكر ابن أبي الحكم في تاريخ مصر أنه منذ ذلك الزمان تسلَّط نساء مصر على رجالها، بسبب أنَّ نساء الأمراء والكُبراء تزوجْن مَنْ دونهُنَّ - أي من العامة - فكانت للنساء السطوةُ على هؤلاء الأزواج، واستمرت هذه سُنَّةَ النساء في مصر إلى يومنا هذا، وهكذا خَسِرَ فرعون وقومه دُنياهم، وما كانوا فيه من نعيم كذلك، قال تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[الدخان].

فالجناتُ والعيون: للتنزُّهِ والتمتُّع بالمنظر الحسن، والزروعُ للقوت، والمقامُ الكريم: منازل مُزخرفةٌ، ومحافل مُزيّنة.

قال ابن عمر: كانت الجنات بحافتي النيل في الشُّقَّتين جميعاً - من أسوان إلى رشيد - وبين الجنات زروع.

والمقام الكريم: دورٌ حِسان، ومجالس للرؤساء والأمراء يُكرمون فيها، ومنابر للخطابة يُمْدَح عليها فرعون، ومرابط للخيول الطيبة للزينة والعرض.

وقوله: ﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾: النَّعْمَةُ: اسم للتنعُّم، والنِّعْمَةُ: اليد وصنيعةُ المعروف والمِنَّةُ، وما أُنْعِمَ به على المرء، ومثلها: النَعماء والنُعمى.

و﴿ فَٰكِهِينَ ﴾: أي مُتَّصفين بالفُكاهة، وهي: اللعب والمرح، أي كانوا مغمورين بالنِّعمة، لاعبين في تلك النِّعمة، فهم مُتَنَعِّمون بالنساء والأموال

والخدم، وما لا يُعَدُّ من المُشتهيات.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ٢٨﴾: أي سُلِبَ هؤلاء ما كان لهم من هذه النِعَم دون إعادةٍ لأنهم هلكوا، وأُعطيَ الفريق الآخر أمثال ذلك من النِّعَمِ في أرض فلسطين.

وقوله: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ٢٩﴾[الدخان]: هذا الكلام مسوقٌ مساقَ التحقير لهم، أي ما كان هلاكُهم إلا كهلاك غيرهم من الأمم، فهو ليس حدثاً عظيماً كما كانوا يحسبون ويحسبُ قومهم، كما أنهم لم يُنظروا بتأخير هلاكهم، بل عُجِّلَ لهم الاستئصال «التحرير والتنوير».

قال الزمخشري: كان العرب إذا مات عندهم سيد خطير له مكانة قالوا فيه: بكت عليه السماء والأرض، وبكت عليه الريح، وأظلمت له الشمس، وبكتهُ الليالي الشاتياتُ، وذلك لإظهار عِظَمِ المصيبة في موته، ومن ذلك قول «ليلى بن طريف الشيباني» ترثي أخاها الوليد:

أيا شجرَ الخابور مالَكَ مُورِقاً ... كأنك لم تجزع على ابن طريفِ

وهذا كثير عند الشعراء، ففي شعر أبي بكر بن اللبانة الأندلسي يرثي المُعتمد بن عباد ملك إشبيلية:

تبكي السماءُ بِمُزنٍ رائحٍ غادِ ... على البهاليل من أبناء عبَّادِ

قال الحسن في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ٢٩﴾ [الدخان]: أي لم تبكِ الملائكة عليهم، ولا بكى المؤمنون، بل كانوا بهلاكِهم مسرورين، ويؤيد هذا المعنى ما ورد في حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مؤمن إلا وله في السماء بابان، باب ينزل منه رزقه، وباب يدخل منه قوله وفِعْلُه، فإذا مات فقداه فبكيا عليه»، ثم تلا

رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾، وقد يكون المعنى: أنهم لم يعملوا عملاً صالحاً على الأرض بحيث تبكي عليهم لأجله، ولا صعدَ لهم إلى السماء عملٌ صالحٌ فتبكي السماء لفقدهم.

وقال مجاهد: إنَّ السماء والأرض يبكيان على المؤمن.

قال أبو يحيى: فعجبتُ من قوله، فقال لي: أتعجبُ مما أقول؟ وما للأرض لا تبكي على عبدٍ كان يعمُرُها بالركوع والسجود!!؟

وما للسماء لا تبكي على عبدٍ كان لتسبيحه وتكبيره فيها دَوِيٌّ كدويِّ النحل.

وفي الحديث الذي رواه الحضرمي، واسمه «شُريح»: «إن الإسلام بدأ غريباً..»، وفي هذا الحديث أنه ﷺ قال: «ألا لا غُربة على مؤمن وما مات مؤمنٌ في غُربة غائباً عنه بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض»، ثم قرأ النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾، ثم قال: «ألا إنهما لا يبكيان على كافر».

وروى الأوزاعي، عن «عطاء الخراساني» قال: ما من عبدٍ يسجد لله سجدةً في بُقعةٍ من بِقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت.

قال محمد بن علي الترمذي: البُكاء: إدرار الشيء، فإذا أدرَّت العين بمائها، قيل: بكت، وإذا أدرت الأرض بِعَبْرتِها قيل: بكت، وإن مع المؤمن نوراً من الله وإن لم نره، والأرض مُضيئة بنوره، فإذا قُبِضَ المؤمن درَّت بِعبْرتِها.

ولذلك قال أنس: لما كان اليوم الذي دخل فيه النبي ﷺ المدينة أضاء كل

شيء، فلما كان اليوم الذي قُبِضَ فيه ﷺ أظلمَ كل شيء.

قال العلماء: وهكذا أتم الله وعده لبني إسرائيل، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف]، والقوم الذين كانوا يُستضعفون: هم بنو إسرائيل، أي الذين كانوا يُهانون ويُستعبدون.

وقوله: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾، وجاءت بصيغة الجمع لأن كل مكانٍ له مشرق يختلف عن مشرقِ مكانٍ آخر، وله مغربٌ يختلف عن مغربِ مكانٍ ثانٍ، فمثلاً نجد مَنْ يسكن في الهند واليابان يعلمون أن منطقة الشرق الأوسط بالنسبة لهم «مغربٌ»، وسُكان أوربا يعرفون أن الشرق الأوسط بالنسبة لهم «مشرقٌ»، فالجهة أمر نسبي تتعدد بتعدد الأمكنة المفروضة، والمقصود هنا في الآية: إحاطة الأمكنةِ.

وقوله: ﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ﴾: أي أعطيناهم عن أرض مصر التي أُخرجوا منها أرضاً هي خير من أرض مصر، نماءً وزُروعاً، وحيوانات، وهي أرض الشام، الأرض المقدسة، وهي تبتدئ من السواحل الشرقية الشمالية للبحر الأحمر، وتنتهي إلى سواحل بحر الروم «البحر المتوسط»، وإلى حدود العراق، وحدود بلاد العرب، وحدود بلاد التُرك، والتي قدَّرنا فيها البركة.

وجُماع معنى البركة: هو الخير الصالح الذي لا تَبِعةَ عليه في الآخرة، فهو أحسن أحوال النعمة.

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ﴾ [الأعراف ١٣٧].

والكلمةُ: القول، والمُراد هنا اللفظ الذي وعد الله بني إسرائيل على لسان موسى في قوله عز وجل: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف ١٢٩].

والحُسنى: صفةٌ لكلمةٍ، أي صفةُ تشريف كما يُقال: الأسماء الحُسنى، والمقصود بذلك: أنها كلمةٌ مُنزَّهةٌ عن الخُلْف.

والخطاب في قوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: للنبي ﷺ، وفيه إشارة إلى أنَّ الذي حقق النصر لموسى وأمته على عدوهم هو ربك يا محمد، فسينصرك وأُمَتك على عدوكم؛ لأنه ذلك الربُّ الذي نصر المؤمنين السابقين، وتلك سُنَّتُهُ وصُنعه.

وقوله: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟ۖ﴾: أي بصبر بني إسرائيل على الأذى في ذات الله عز وجل، وفي ذلك تنبيه على فائدة الصبر، وأن الصابر صائر إلى النصر وتحقيق الآمال.

ولذلك قال العلماء: الصبر مطلوب من المسلم على ظُلم السلطان المسلم، فإن صبرت الرعيةُ فرَّج الله الكرب، فقد أخرج ابن المنذر عن الحسن قال: لو أن الناس ابتلوا من قِبَلِ سلطانهم بشيء، صبروا ثم دعوا الله تعالى، لم يلبثوا أن يرفع الله عنهم ما هم فيه، ولكنهم يفزعون إلى السيف، فَيُوكِلُون إليه، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ۖ﴾.

وفي رواية أخرى عن الحسن قال: ما أُوتيَتْ بنو إسرائيل ما أوتيت إلا بصبرهم، وما فزعت هذه الأمة إلى السيف قط، فجاءت بخير، ثم قال: وإنَّ الفرج إنما يُصطادُ بشباكِ الصبر، ثم قال: عجبتُ لمن خفَّ كيف خفَّ – أي لمن فقد الصبر وجزع – وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟

﴿ يَعۡرِشُونَ ١٣٧ ﴾ [الأعراف].

والتدمير: التخريب الشديد، وكلمة ﴿ وَدَمَّرۡنَا ﴾: تدل على أنَّ الأشياء المُدمرة كانت عالية، ثم جاءت عوامل التعرية لتُغطيها، ويُبقي اللهُ شواهد منها ليُبيِّنَ لنا أنواع ما عَمَروا - كالأهرام - ولذلك تجد علماء الآثار كل يوم يكتشفون تحت الأرض آثاراً كثيرة، ومن العجيب أن كل كُشوف الآثار تكون تحت الأرض، ولا يوجد كشفٌ أثريٌ جاء من فوق الأرض أبداً.

وقوله: ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴾، والعريشُ: يُطلق على ما يُرفع من دوالي الكروم، ويُطلق أيضاً على النخلات العديدة تُربى في أصل واحد، وجناتُ القِبط كانت كذلك، يشهد بذلك بعض الصور المرسومة في هياكلهم ومعابدهم نقشاً ودَهْناً.

أخبار بني إسرائيل بعد نجاتهم من فرعون وتجاوز البحر:

قال الزمخشري: إلى هنا ينتهي ما قصَّهُ الله علينا من نبأ فرعون والقِبطِ، وتكذيبهم بآيات الله تعالى، وظُلمهم، ومعاصيهم، ثم أَتْبَعَهُ بأخبار بني إسرائيل وما أحدثوه بعد إنقاذهم من سُلطةِ فرعون واستعباده، مع أنهم رأوْا من الآيات العِظام عياناً، ومُجاوزتهم البحر: من عبادة البقر، وطلب رؤية الله جهرةً، وغير ذلك من أنواع الكفر والمعاصي؛ ليُعْلَمَ حالُ الإنسان، وأنه - كما وصفه الله تعالى - ﴿ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤ ﴾ [إبراهيم]، جهولٌ كنودٌ، إلا من عصَمَهُ الله، كما قال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣ ﴾ [سبأ]، وليُسَلّي رسولُ الله ﷺ مما أُرِيَ من بني إسرائيل بالمدينة، فقال عز وجل: ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩ ﴾ [الأعراف].

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: رُغْمَ موت فرعون، فقد بقيَ أثره في نفوس الإسرائيليين، فإنه قد أفسَدَ فطرتهم، وعوَّدهم الذلَّ والخضوع لغير الله.

وقال صاحب كتاب «مع الأنبياء»: وكانت المعجزات التي أتى بها موسى كافية لنزع الوثنية منهم، ولكن الشيطان كان يتلاعب بهم أحياناً، وأول تلاعُبٍ كان حين نجوا من البحر، رأوا قوماً يعبدون أصناماً، فطلبوا من موسى أن يجعل لهم صنماً يعبدونه مثل هؤلاء، وذلك قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾ [الأعراف ١٣٨].

قال البغوي رحمه الله في تفسيره: وقولهم هذا ليس شكّاً من بني إسرائيل بوحدانية الله تعالى، وإنما المعنى: اجعل لنا شيئاً نُعَظِّمه، ونتقرب بتعظيمه إلى الله، وظنوا أن ذلك لا يضرُّ بالدين، وذلك لشدة جهلهم، من هنا كان جواب موسى لهم ما ذكرته الآية: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

قال الرازي: وهذا الطلب، وهذا القول، لم يصدر عن كل بني إسرائيل، وإنما عن البعض، فقد كان مع موسى نُخبةٌ من المُختارين والقوم الذين مَرَّ عليهم بنو إسرائيل بعد نجاتهم من البحر، هم الكنعانيون، ويُقال لهم عند العرب «العمالقة»، ويُعرفون عند المُتأخرين من المؤرخين «بالفينيقيين».

قال ابن جريج: كانت تلك الأصنام تماثيل بقر من نحاس، فكانت أولَ قصة العجل الذي أخرجه السامري.

وانتبه يا - عبد الله - إلى دقة التعبير القرآني في قوله: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ﴾، والعُكوف: المُلازَمةُ بنيّة العبادة، فجاءت الأصنام مُنكرةً، والمُراد من ذلك تحقيرُها؛ لأنها مجهولة.

ثم وصف الأصنام بكلمة: ﴿ لَهُمْ ﴾: أي يعبدون ما هو مُلْكٌ لهم، فيجعلون مَمْلُوكَهم إلَهَهُم.

ثم إنَّ نداءهم لموسى: ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ﴾، وهو بينهم، مُستعملٌ في طلب الإصغاء لهم، وليُظْهروا رغبتهم في الشيء الذي يطلبونه.

قال الآلوسي: تعجَّبَ موسى من طلبهم وقولهم مع ما شاهدوه من الآيات، فكان جوابه - كما قال ابن عاشور - لهم بعُنفٍ وغِلْظةٍ بقوله: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾، ثم قال: وهذا هو المُناسب لحالهم: أي إنكم تجهلون شأن الألوهية وعظمتها، - كما قال القاسمي -.

قال ابن القيم: وأي جهل أعظم من أنْ تطلب من مخلوق أن يجعل له إلهاً مخلوقاً، والإله عز وجل هو الخالق، ولا تليق العبادة إلا به تبارك وتعالى.

قال العلماء في قول موسى لهم: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾، ولم يقل لهم: «لا تعلمون»، لماذا؟

والجواب: لأن هناك فرقاً بين عدم العلم بالشيء، وبين الجهل به، فالأمي مثلاً حين تُعطيه معلومة فهو يقتنع بها ويتقبَّلها، لأنَّ ذهنه خالٍ من كل تصورٍ سابق في قضية هذه المعلومة.

أما الجاهل: فهو مَنْ عنده علم يُناقض المعلومةَ المطروحة والقضية المطروحة، والجاهل هو الذي يُرهق الدُّعاة، وليس الأمّيّ، لأن الجاهل بالقضية أو المعلومة يحتاج من الرسول، أو ممن يسير على نهج الرسول إلى عمليتين عقليتين:

الأولى: أن يُخرج ما في نفسه من قضية الجهل.

الثانية: أن تُعطى له القضية الجديدة.

قال المفسرون: وبعد أن وصفهم موسى بالجهل، بيَّنَ لهم أنَّ عبادة هذه الأصنام مُهلِكَةٌ لأنها شرك، وإنْ قصدوا بها التقرب إلى الله، فقال عليه الصلاة والسلام ما قصَّهُ الله علينا في [سورة الأعراف]: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾.

والمُتَبَّرُ: المُدَمَّرُ، والتَّبار: الهلاك، وكل إناءٍ مُنكسر فهو مُتَبَّرٌ، والذهب إذا كُسِرَ قيل عنه «تِبْرٌ».

والمُتَبَّرُ: الهالك: أي أنَّ ما يقوم به هؤلاء الذين تودُّون تقليدهم صائرٌ إلى الهلاك والدمار لأنه باطل، والباطل سيزول، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [نوح].

وقد ورد عن «أبي واقد الليثي» رضي الله تعالى عنه، أنَّ رسول الله ﷺ لمّا خرج إلى غزوة حنين مرَّ بشجرة للمشركين كانوا يُعلِّقون عليها أسلحتهم، يُقال لها «ذات أنواط»، فقالوا: يا رسول الله، اجعلْ لنا ذاتَ أنواط، كما لهم ذاتُ أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾، والذي نفسي بيده! لتركَبُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم". رواه أحمد والترمذي.

قال الإمام «أبو بكر الطرطوشي المالكي»: انظروا رحمكم الله، أينما وجدتم شجرة أو سِدْرةً يقصِدُها الناس ويُعظمونها ويرجون البُرْءَ عندها، ويضربون بها المسامير والخِرَقَ، فهي ذات أنواط فاقطعوها.

وروى ابن وضاح قال: سمعت عيسى بن يونس يقول: أمر عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، بقطع الشجرة التي بويعَ تحتها النبي ﷺ فقُطعت؛ لأن الناس كانوا يذهبون فيُصلون تحتها، فخاف عليهم الفتنة، وهكذا وصَفَهُم وحكَمَ عليهم موسى بالجهل أولاً: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾،

ثم بيَّنَ أنَّ هذا التصرف سبب للخُسران والهلاك: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ ﴾، ثم هو باطل لا يفيد في دنيا ولا في آخرة: ﴿ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾، ثم وبَّخهم موسى عليه السلام على هذا الطلب مُستنكراً، ومُتعجباً من طلبهم هذا، قال تعالى: ﴿ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠ ﴾ [الأعراف]، أي قال لهم موسى: أأطلب لكم معبوداً غير الله رب العالمين وخالق السموات والأرض وكل شيء، والحالُ أنه - تبارك وتعالى - فضَّلكم على العالمين، بما جدَّدَ فيكم من التوحيد، وهِداية الدين على مِلَّةِ إبراهيم، وسُنَّةِ المرسلين.

وقد كان فرعون وقومه في ذلك الزمان، أرقى الناس في القوة والحضارة والعلم وسَعَةِ المُلك، وقد فضَّلَ الله عليهم بني إسرائيل برسالة موسى وهارون حين هداهم إلى التوحيد، والخلاص من دين فرعون بعد أن تخبَّطوا فيه، وبأنه قد جعلهم أحراراً بعد أن كانوا عبيداً، وبعث فيهم رسولاً ليُقيم لهم شريعةً يهتدون بِهُداها.

وقوله: ﴿ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾: المراد بذلك أُمَمُ عصرهم، ومن جُملة العالمين: هؤلاء القوم الذين مروا عليهم ورأوهم عاكفين على أصنام لهم، وفي ذلك إنكارٌ من موسى لطلبهم اتخاذ أصنامٍ مثلهم؛ لأنَّ شأن الفاضل أن لا يُقلد المفضول، لأنَّ اقتباس أحوال الغير يتضمن اعترافاً بأنه أرجح رأياً، وأحسنُ حالاً في تلك الناحية - كما قال ابن عاشور عليه رحمة الله تعالى - لذلك يقول الرازي عليه رحمة الله: أجْمَعَ كل الأنبياء عليهم السلام، على أنَّ عبادة غير الله تعالى كفر، سواء اعتقد في ذلك الغير كونه إلهاً للعالم، أو اعتقد أنَّ عبادته تُقرِّبُ إلى الله؛ لأن العبادة نهايةُ التعظيم، فلا تليق إلا بمن يصدر عنه غايةُ الإنعام، من الخلق والرزق، والإيجاد والإمداد.

طلب بني إسرئيل من موسى ما وعدهم به في مصر قبل خروجهم:

قال الرازي والنيسابوري من المفسرين وغيرهما:

ثم إنَّ موسى لمّا كان بمصر، وعد بني إسرائيل أنهم إذا خرجوا منها، وهلك عدوُّهم، أن يأتيهم بكتاب فيه ما يأتون وما يذرون، فلما أهلك الله عدوهم - فرعون وقومه - ونَجَوْا، ولم يكن عندهم كتاب ولا شريعة، قالوا: يا موسى ائتنا بالكتاب الذي وعدتنا به، فسأل موسى ربه ذلك الأمر، فأمره الله أن يصوم ثلاثين يوماً، وأن يعمل فيها بأعمالٍ تزيده قُرباً من الله تعالى؛ ليُكلمه الله وليوحيَ إليه.

قال البروسوي: وكان الشهر الذي صامه موسى، هو شهر ذي القعدة بتمامه، أي «الثلاثين ولياليهِنَّ»، على طريق المُواصلة.

قال الآلوسي: فلما أتمَّ الثلاثين أنكر خُلوفَ فمه، فأخذ عوداً من شجر الخرنوب، وتناول شيئاً من نبات الأرض فمضغه.

وقال أبو العالية: أخذ شيئاً من لحاء الشجر فمصَّهُ، فقالت له الملائكة: إنا كنا نشُمُّ من فيك رائحة المسك، فأفسدته بالسِّواك.

قال العلماء: إن الله أوحى إليه: «أما علمتَ أنَّ ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك»، ومن هنا كره الشافعي استعمال السواك في آخر نهار الصائم؛ لأن السواك يُزيلُ خلوفَ فمه.

وروى القرطبي: أن الله أوحى إليه لمّا استاك: «يا موسى لا أكلمك حتى يعود فُوكَ إلى ما كان عليه قبل»، ثم أمره بصيام عشرة أخرى من ذي الحجة، وهي العشر الأوائل من ذي الحجة، وكان كلام الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام «غداة النحر»، يوم فدى الله إسماعيل من الذبح، ويوم أكمل الله عز

وجل لمحمد ﷺ الحج.

وقد أخرج الديلمي من حديث ابن عباس مرفوعاً قال: لمّا أتى موسى ربه عز وجل، وأراد أن يُكلمه بعد الثلاثين، وقد صام ليلَهُنَّ ونهارَهُنَّ، كره موسى أن يُكلم ربه ورائحة فمه مُتغيرة، فمضغ شيئاً من النبات، فقال له ربه: «لِمَ أفطرتَ؟» وهو سبحانه أعلمُ به، قال موسى: أي رب كرهتُ أن أُكلمك إلا وفمي طيب الريح، قال عز وجل: «أوما علمت يا موسى أنَّ ريح فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك؟ اذهبْ فَصُمْ عشرة أيام ثم ائتني»، ففعل موسى ما أمره ربه، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ ﴾ [الأعراف ١٤٢]، وقد ضعَّفَ بعض المفسرين هذا السبب في زيادة العشر، ولكن يُستأنس لها في حديث صحيح وهو قوله ﷺ: «خَلوفُ فم الصائم أطيبُ عند الله تعالى من ريح المسك».

قال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ ﴾: المُراد: الليالي بأيامها، فاقتصر على ذكر الليالي؛ لأن المُواعدةَ كانت لأجل الانقطاع والتفرغ للعبادة وتلقي المُناجاةِ، والنفس في الليل أكثرُ تجرُّداً للكمالات النفسية منها في النهار؛ لأن النفوس في النهار لا يُفارقها الاشتغال بالدنيا ولو في التفكر وبمشاهدة المخلوقات، من هنا ندرك سر تحريض الشريعة على قيام الليل والدعاء فيه، قال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا ﴾ [السجدة ١٦]، وقال عز وجل: ﴿ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ ﴾ [الذاريات].

ثم إن الغالب عند العرب التوقيت بالليالي إذ هي منوطة بظهور الأهِلَّةِ.

قال القرطبي: دلت الآية: ﴿ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا

﴿ بِعَشۡرٖ ﴾: أنَّ التاريخ يكون بالليالي؛ لأن الليالي أوائل الشهور، وهكذا كان السلف من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: صُمْنا خمساً مع رسول الله ﷺ، فأخبروا أنهم صاموا خمسة أيام مع رسول الله ﷺ فقالوا: «صمنا خمساً»: أي باعتبار المعدود مؤنثاً وهو الليالي، والأعاجم خلاف ذلك فتحسب بالأيام لأن تقويمهم على الشمس.

وحساب الشمس للمنافع، وحساب القمر للمناسك ولهذا قال: ﴿ ۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ ﴾، والتمام هنا مستعمل في النماء والتفوُّق، فكان ميقاتاً أكملَ وأفضل.

قال الرازي: والفائدة في تفضيل العشر على الثلاثين: أنَّ التوراة أنزلت على موسى في العشر البواقي، وأنَّ الربَّ عز وجل كلَّمه فيه – أي في العشر الأخيرة –.

قال القاسمي: أمر الله موسى أن يصعد الجبل ليؤتيَه الشرائع، فصعد موسى الجبل، وكان مُغطىً بالغمام، فدخل وسطه، وأقام في الجبل أربعين يوماً لم يأكل ولم يشرب لِما أُمِدَّ من القوة الروحية، والتجليات القُدسية، وأوتيَ عندها الألواح التي كُتِبت فيها شرائعُهم، ولمّا رجع موسى إلى قومه كان على وجهه أشعةُ نورٍ مُدهشة، فخافوا من الدُنُوِّ منه، فجعل على وجهه بُرقُعاً، فكان إذا صعد الجبل للمناجاة رفعه، وإذا أتاهم تبرقعَ.

هنا سؤال: كيف صبر موسى بلا طعام أربعين ليلة بأيامها فلم يَجُعْ، ولمّا كان في سفره مع الخضر العبد الصالح، لم يصبر على الجوع نصف نهار؟

فقال: ﴿ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الكهف].

والجواب: إنَّ السفر إلى الخضر العبد الصالح سفرٌ إلى المخلوق، وهو سفر ابتلاءٍ واختبارٍ فجاع، أما السفر الثاني للجبل وحضوره فيه، فهو سفرٌ إلى الله للإكرام، فأغناه عن الشراب والطعام.

والميقاتُ: الوقت الذي حُدِّدَ، وإضافة الميقات إلى ربه: ﴿ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ ﴾: للتشريف وللتعريض ببعض بني إسرائيل الذين قالوا حين تأخر موسى في المُناجاة بعد الثلاثين، أنَّ موسى هلك في الجبل كما رواه ابن جريج، ويشهد له كلام التوراة في الإصحاح الثاني والثلاثين من «سفر الخروج».

قال النيسابوري: لمّا أتى موسى طور سيناء كلَّمه ربه وناجاه، وقرَّبه وأدناه.

قال القاسمي: وحين توجَّه موسى للمناجاة قال لأخيه هارون: «كن خليفتي في بني إسرائيل وراقبهم فيما يفعلون، وفيما يتركون»، وإلى هذا أشار القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢ ﴾ [الأعراف].

أي قال موسى عندما عزمَ على الصعود إلى الجبل للمُناجاة، فإنه صعد وحده، ومعه غُلامه «يوشع بن نون».

وقول موسى: ﴿ ٱخۡلُفۡنِي ﴾: أي كن خلفاً عني وخليفةً، وهو الذي يتولى عملَ غيره عند غيبته، فالخلافة هنا: وكالةٌ عن موسى في قومه بني إسرائيل.

وكلمة ﴿ قَوۡمِي ﴾ أضافهم لنفسه؛ لأنه لا يريد لهم إلا ما فيه الخير، ثم قال لأخيه: ﴿ وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾.

قال ابن عاشور: جمع موسى لأخيه هارون في وصيته هذه ملاكَ السياسة كلها؛ لأنَّ سياسة الأمة تدور حول محور الإصلاح، ومحور إبعاد الفساد

وأهله.

قال العلماء: وهذه العبارة: ﴿ وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾، فيها أمرٌ، وهو قوله: ﴿ وَأَصۡلِحۡ ﴾، وفيها نهي: ﴿ وَلَا تَتَّبِعۡ ﴾، ونحن نعلم أنَّ تكاليف الحق سبحانه تنحصر في «الأمر: افعل، والنهي: لا تفعل».

وكلمة: ﴿ وَأَصۡلِحۡ ﴾: تستلزم وتعني: أن يُبقي الصالح على صلاحه فلا يُفسده، وإن استطاع أن يزيده صلاحاً فليفعل.

وقوله: ﴿ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾: يشمل كل أنواع الفساد الجلي والخفي، واتباع سبيل المفسدين يكون: إما بالمشاركة في أعمالهم، أو مساعدتهم عليها، ويشمل حتى مُعاشرتهم والإقامة معهم في اقترافها، وهذا الكلام موجه لهارون، وهو نبيٌّ، ولا يتأتى منه الإفساد، فكيف يقول له: ﴿ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾؟

والجواب: أنَّ موسى أُعلِمَ أنَّ في رعيته مفسدون، وأنهم سيحاولون نشر فسادهم، وأنه قد تحدث فتنة، وأن هؤلاء المفسدين إن فعلوا الفساد، فعليك ألا تسكت عنهم، وذلك لِما يعلم في نفس أخيه هارون من اللين في سياسته، وخوفه من حدوث العصيان في قومه، كما حكى الله قول هارون بعد ذلك: ﴿ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي ﴾ [الأعراف ١٥٠]، وفي قوله: ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾[طه ٩٤].

قال البروسوي: كان موسى يعلمُ كثرة اختلافهم حالاً بعد حال، فأوصاه بهم، وهذه الوصية من باب التوكيد، وإلا فهارون نبي كريم.

تكليم الله لموسى:

قال صاحب كتاب «مع الأنبياء»: وبعد تمام الأربعين حضر موسى

للمكان المعين وكلَّمه ربه، وحضر في الوقت المعين ولم يتأخر، وذلك ليأخذ الشريعة، كلَّمَهُ ربه من غير واسطة مَلَكٍ، وذلك من وراء حجاب؛ لأن الله تعالى لا يُكلم أنبياءه إلا بوسائل ثلاث: الوحي، أو من وراء حجاب، أو يُرسل رسولاً، كما في [سورة الشورى]: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١ ﴾.

﴿ وَحۡيًا ﴾والوحي بالنسبة للأنبياء يكون: بإلقاء المعنى في قلب النبي دُفعةً مع العلم اليقيني بأن ذلك من الله عز وجل.

﴿ أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾: أي أن يسمع كلاماً ولا يرى مُتكلِّماً، كما في تكليم موسى.

﴿ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا ﴾: وهو جبريل الذي نزل بالقرآن مُنجَّماً، والقرآن كله نزل بهذه الطريقة، أي عن طريق جبريل، فلم ينزل القرآن بالإلهام، ولا من وراء حجاب، وإنما بواسطة جبريل وله علامات.

إذاً كلَّمَ الله موسى من وراء حجاب، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف ١٤٣]: أي كلَّمه بلا واسطة، بل كان يسمع كلامه ولا يرى ذاته، عندها حصل من موسى استشرافٌ اصطفائي، فكأنَّ نفسه حدَّثته فقالت: طالما خصَّني بالكلام وكلَّمني فقد أقدِرُ أن أراه، لأنَّ استطابةَ الأُنْسِ تفتح للنفس سُبُلَ الأمل، عندها قال موسى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾ [الأعراف ١٤٣].

قال المفسرون: وطَلَبُ موسى رؤية الله تعالى، تَطَلُّعٌ منه إلى زيادة المعرفة بالجلال الإلهي؛ لأنه لمّا كانت المواعدة، وهي قوله تعالى: ﴿ ۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ ﴾، والمواعدة تتضمن المُلاقاة، والمُلاقاةُ

تعتمد على ركنين:

الأول: رؤية الذات.

الثاني: سماع الحديث.

فلما حصل لموسى أحد رُكنَيْ المُلاقاة وهو «التكليم» أطمعَهُ التكليم في الركن الثاني: وهو «المشاهدة»، والذي يدل على أنَّ التكليم هو الذي جعل موسى يطمعُ في حصول المشاهدة، وجود «لمّا» التي تدل على شدة الارتباط بين شرطها وجوابها، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾ [الأعراف ١٤٣].

«فلما»: قال عنها سيبويه أعجبُ الكلمات كلمة «لمّا»؛ إن دخلت على الفعل الماضي كانت ظرفاً، أي بمعنى «حين»: وهي عند ذلك حرف وجودٍ لوجود: أي يقتضي وجود جوابه لوجود شرطه، فلذلك يكثر أن يكون شرطها علَّةً في حصول جوابها، كما في قوله تعالى: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا ﴾ [الأعراف ٢٢].

وإن دخلت على المضارع كانت «حرفاً»، مثل: «لمّا يأكل»، ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ٨ ﴾ [ص].

وإن دخلت على غير الماضي والمضارع تكون حرف استثناء: مثل: ﴿ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ٤ ﴾ [الطارق] أي إلاّ.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: ولا شك أنَّ موسى سأل ربه رؤيةً تليقُ بجلاله عز وجل، وهي: مثل الرؤية الموعود بها في الآخرة، فكان موسى يحسب أنَّ مثلها ممكنٌ في الدنيا، حتى أعلمه الله تعالى بأنَّ ذلك غير واقع في هذه الدار الدنيا، ولا يمتنعُ على نبي عدمُ العلم بتفاصيل الشؤون الإلهية

قبل أن يُعْلِمها الله إياه، فقد قال الله لرسوله محمد ﷺ: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه].

ماذا كان جواب الله لموسى عندما طلب الرؤية؟

كان الجواب ما ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ﴾ [الأعراف ١٤٣]، أي: لن تُطيق رؤيتي؛ لأن هذه البُنية الآدمية في هذه النشأة الدنيوية، لا طاقة لها بذلك لعدم استعدادها له.

و: «لن» تأتي تأبيدية، أي لا يتحقق ما بعدها، فهل هذا يدل على أن موسى لن يرى الله في الدنيا ولا في الآخرة؟

والجواب: أنَّ تأبيدَ «لن» تأبيدٌ إضافي، أي بالنسبة للدنيا فقط، وأما حين تبرزون للآخرة، وتُعَدّونَ إعداداً آخر، فهذا ممكن، وقد أعلن القرآن ذلك بقوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة]، لأن زمن الآخرة فيه إعادةٌ للخلق من جديد بقوانين جديدة، فالإنسان في الجنة سيأكل ولكن لا فضلات له كما في الدنيا، ولذلك قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم]، ولذلك قال البروسوي عند قوله تعالى: ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾: أي لن تراني بسؤالك الرؤية بعينٍ فانية، بل ستراني بالعطاء والنوال بعينٍ باقية، لأن التكوين البشري في هذه الدار لا طاقة له بذلك لعدم استعداده لذلك.

ثم إنَّ دلالة «لن» على التأبيد لا تشمل الآخرة، ويدل على ذلك قوله تعالى عندما أراد أن يفضح اليهود، وأنْ يُبيّن أن إيمانهم غير صحيح، فقال: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟

﴿ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [البقرة]: أي تَمَنَّوا الموت لتدخلوا الجنة على زعمكم، ثم قال تعالى مُبيِّناً أنهم لن يتمنوا الموت أبداً فقال: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [البقرة]، فالتأبيدُ هنا: لن يتمنوه في الدنيا أبداً، ولكنهم في الآخرة يتمنونه، تقرأ ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف]، أي: يا مالك ليُمِتْنا ربك فنستريح من العذاب، فأجابهم مالكٌ بعد ألف سنة كما روى الترمذي قائلاً: ﴿ قَالَ ﴾ – أي ربي – ﴿ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾.

ونقرأ قوله تعالى في [سورة الحاقة]: ﴿ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ ﴾، وذلك يوم القيامة عندما يأخذ الكافر كتابه بشماله، ويرى مصيره فيندم ويتأسف، ويتمنى الموت، فقوله تعالى لموسى: ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾: أي في هذه الدار.

قال المفسرون: ثم إن الله عز وجل علَّلَ لموسى عدم استطاعته الرؤية، فقال: يا موسى: إن ما هو أكبر جُرماً، وأشدُّ خلقاً وصلابةً وثباتاً – وهو الجبل – لا يثبت للرؤية بل يَنْدَكُّ، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ ﴾ – الذي هو أقوى وأصلب وأثبتُ منك – ﴿ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ ﴾ – أي ثبت مكانه حين أتجلى له، ولم يتزلزل – ﴿ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ ﴾: أي تثْبُتُ لرؤيتي، إذا تجليتُ عليك، وإلا فلا طاقة لك.

قال القاسمي: وفي هذا الخطاب لموسى من الله تعالى، لُطفٌ وتكريم لا يخفى، حتى لا يفهم موسى أنَّ سبب منعه من الرؤية نقصٌ فيه، أو غضبٌ من الله عليه، ثم قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ ﴾ [الأعراف ١٤٣].

وقوله: ﴿ تَجَلَّىٰ ﴾: أي ظهر وبان، فجعل هذا الظهور الجبل فُتاتاً، فلم يستقر مكانه، وذلك قوله: ﴿ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾: أي مدقوقٌ مهدومٌ، وقرأ

الكسائي وحمزة: ﴿ جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾، والدكّاءُ: هي الناقة التي لا سنام لها، أي جعل الجبل - جبل الطور - كالناقة التي لا سنام لها، وهو تشبيه بليغ: أي صار الجبل كالناقة التي لا سنام لها، والجبل عند التجلي ذهبت قُنَّتُهُ، أي قِمَّتُهُ، فاندكَّ.

قال ابن عاشور: ولعل آثار ذلك الدكِّ ظاهرةٌ فيه إلى الآن، فنبه الله تعالى على أنَّ الجبل مع شدته وصلابته لم يستقر، فالآدمي مع ضعف بُنيته أولى بأن لا يستقر، وفي هذا تسكينٌ لقلب موسى ليعلمَ أن المانع من الرؤية الشفقة عليه.

قال العلماء: ثم بيَّن الله عز وجل لنا، أنَّ موسى قد صُعِقَ لرؤية المُتَجَلَّى عليه، فكيف لو رأى المُتَجَلّي؟!! وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾، يُقال: خرَّ الشيء: إذا سقط من أعلى إلى أسفل، أي وقع موسى مغشياً عليه من هول ما رأى.

و﴿ صَعِقًا ﴾: أي مصعوقاً، يُقال: صَعِقَ الرجل: فهو صَعِقٌ، وصُعِقَ: فهو مصْعوقٌ.

قال قتادة: خرَّ موسى صعقاً يوم الخميس، يوم عرفة، وأُعطيَ التوراة يوم الجمعة، يوم النحر، قال النُحاةُ: الصعقُ: الغشْيُ من صيحة ونحوها.

قال المفسرون: ثم أفاق موسى من الصعقة، والإفاقة: رجوع الإدراك بعد زواله بغَشْيٍ أو نوم، أو غيره، فكان أول شيء قاله: ﴿ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾. ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف].

قال العلماء: أجمعت الأمة على أنَّ توبة موسى: ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾: لم تكن

من ذنب، وإنما هي بمعنى الإنابة إلى الله تعالى، وعدم طلب مثل هذا الطلب، ولا شك أن التوقف في سؤال الرؤية على الإذن كان أكمل، ولذلك ورد: «أنَّ حسنات الأبرار، سيئات المقربين».

وقوله: ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾، بجلالك وعظيم سلطانك، وأنه لا يستقر لرؤيتك أحدٌ في هذه النشأة، وأول من آمن بأنك لا تُرى في الدنيا.

قال صاحب «المنار»: لمّا نزَّهَ موسى الله عز وجل وسبَّحه وتاب إليه من هذا الطلب بشَّرهُ الله تعالى بأنه اصطفاه على الناس برسالاته وبكلامه، أي دون رؤيته، وأمره بأن يأخذ ما أعطاه، ويكون من الشاكرين له، وذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأعراف].

أي: يا موسى: لا تنظر إلى ما منعتُك، بل اذكر أني اصطفيتُكَ، وكلمْتُكَ، وعليك أن تشكر لي هذا.

وكلمة: ﴿ ٱصۡطَفَيۡتُكَ ﴾: تُظهر مدى اهتمام الله بموسى، والاصطفاء: استخلاصُ الصفوةِ.

وقوله: ﴿ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾: أي جميع الناس الموجودين في زمنه؛ لأنه رسول، والله لم يقل: «اصطفيتك على الخلق»؛ لأن الملائكة قد سمعوا كلام الله بلا واسطة كما سمعه موسى عليه السلام.

وقوله: ﴿ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي ﴾، وقُرِئَ: ﴿ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَٰمِي ﴾، فالإفراد بمعنى الاسم «رسول» من الإرسال، والجمع باعتبار تعدُّد ما أُرسِلَ به من عقائد وعبادات ومُعاملات، وأحكام سياسية وغيرها، ونحن نعلم أنَّ رسالة نبينا محمد ﷺ استمرت جُزئياتُها ثلاثاً وعشرين سنة في النزول، فكأن

كل نجم رسالةٌ، أو كل باب من أبواب الخير رسالةٌ، ورسالتُهُ ﷺ واحدة.

قد يقول قائل: إن الله اصطفى غيره، وذلك في [سورة آل عمران ٣٣]: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا ﴾، فما الفرق؟

والجواب: هناك فرق بين اصطفاء رسالة مُنفردة، وبين اصطفاءٍ في رسالةٍ ومعها شيء زائد - كما قال علماؤنا - وضربوا لذلك مثلاً، ولله المثلُ الأعلى: فإذا كنت مُعلماً في صف، وأعطيت واحداً من الطلاب هدية، كقلم مثلاً مُكافأةً، ثم أعطيت طالباً آخر قلماً وزجاجة حبر، فالأول اصطفيتهُ بقلم، والثاني اصطفيته بأن جمعت له قلماً ومحبرةً في هدية واحدة، والله اصطفى موسى بالرسالة كما اصطفى غيره من الرُسل، وأضاف له شرف التكليم: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ ﴾ [الأعراف].

قال الرازي: أي لا يضيق صدرك بسبب منع الرؤية عنك، فقد أعطيتُكَ من النِّعَمِ العظيمة من الرسالة والكلام، وكتابة الألواح، فكن من الشاكرين لي على إنعامي لأزيدك، وذلك بطاعتي، والتقرب إليَّ بفعل ما أحب، وترك ما أكره.

قال صاحب كتاب «أيسر التفاسير»: وفي هذه الآية دعوة إلى القناعة وهي خير ما يؤتى المرء في الحياة.

وقد أخرج الترمذي في «نوادر الأصول»، والبيهقي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى جلَّ شأنه ناجى موسى عليه السلام بمائة ألف وأربعين ألف كلمة في ثلاثة أيام، فلما سمع كلام الآدميين مَقَتَهم لما وقع في مسامعه من كلام الرب عز وجل».

قال بعض المفسرين: وكان من خطاب الربِّ لموسى في هذه المناجاة:

«يا موسى:

إنه لم يتصنَّع المُتصنعون بمثل الزُهد بالدنيا، ولم يتقرب المتقربون بمثل الورع عما حرَّمتُ عليهم، ولم يتعبد المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي».

فقال موسى: يا رب، ويا إلهَ البرية كلها، ويا مالك يوم الدين، ويا ذا الجلال والإكرام، ماذا أعددت لهم؟ وبماذا جزيتهم؟

فقال الرب عز وجل:

«أما الزاهدون في الدنيا فإني أُبيحهم جنتي حتى يتبوَّؤا منها حيث شاؤوا، وأما الورعون عما حرَّمتُ عليهم، فلن أُناقشهم الحساب، وأُدخلهم الجنة، وأما الباكون من خشيتي، فأولئك لهم الرفيق الأعلى لا يُشاركهم فيه أحد».

قال العلماء: لقد سأل موسى ربه أسئلة، ومنها:

قال موسى: يا رب: أي عبادك أتقى؟

قال عز وجل: الذي يذكرني ولا ينساني.

قال موسى: يا رب: أي عبادك أغنى؟

قال عز وجل: الذي يقنع بما يؤتى.

قال موسى: يا رب: أي عبادك أفضل؟

قال عز وجل: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى.

قال موسى: يا رب: أي عبادك أعلم؟

قال عز وجل: الذي يطلب علم الناس إلى علمه لعله يسمع كلمة تدله على هدىً، أو ترده عن ردى.

قال موسى: يا رب: أي عبادك أحب إليك عملاً؟

قال عز وجل: الذي لا يكذب لسانه ولا يزني فرجه، ولا يفجر قلبه، ثم على إثره قلبُ مؤمن في خُلقٍ حسن.

قال موسى: يا رب: أي عبادك أبغض إليك؟

قال عز وجل: كافر في خُلقٍ سيِّئ، ثم على إثره جيفة في الليل بطَّال في النهار.

أخرج البيهقي في «الأسماء والصفات»، وأخرج ابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى: يا رب علمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به؟ قال: يا موسى، قل: لا إله إلا الله، قال موسى: يا رب كل عبادك يقول هذا، قال الرب عز وجل: قل لا إله إلا الله، قال موسى: لا إله إلا أنت يا رب، إنما أريد شيئاً تخُصّني به، قال عز وجل: يا موسى، لو أنَّ السموات السبع، وعامِرُهُنَّ غيري، والأراضين السبعَ في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهنَّ لا إله إلا الله».

وأخرج الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» عن أبي هريرة قال: لمّا ارتقى موسى طور سيناء، رأى الجبار عز وجل في يده خاتماً، فقال لموسى: «هل مكتوب عليه شيء من أسمائي، أو كلامي؟».

قال موسى: لا يا رب، قال الرب: «فاكتب عليه: لكل أجل كتاب».

وذكر صاحب تفسير «روح البيان» البروسوي: أن موسى سأل ربه قائلاً: إلهي، أقريبٌ فأُناجيك، أم بعيدٌ فأُناديك؟

فقال الرب: « يا موسى: أنا جليسُ مَنْ ذَكَرني ».

قال الرازي: وأعطاه الله التوراة في الألواح تحوي تفصيل كل شيء

من الحلال والحرام، والحسن والقبيح، وأمره أن ينفذها بجدّ وحزم، قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الأعراف].

قال العلماء: كان إنزال الألواح على موسى أولاً، ثم أُوحيت التوراة عليها، فصارت كتاباً واحداً، فكانت الألواح أول ما أُوتيه من وحي التشريع، فكانت أصل التوراة الإجمالي، ثم كانت سائر الأحكام التفصيلية من العبادات والمعاملات، والعقوبات تنزل عليه ويُخاطبه الرب عز وجل بها في أوقات الحاجة إليها، كالقرآن، وإنما كان التفصيل لأنه لا اجتهاد عندهم، لأنه من خصوصيات هذه الأمة، وأسند الله عز وجل الكتابة إليه، إما على معنى أنَّ ذلك كان بقدرته تعالى وصُنعه من غير فعل إنسان بل بمحض قُدرته عز وجل، وإما على معنى أنَّ الألواح كُتِبت بأمره عز وجل ووحيه سواءً كان الكاتب لها المَلَكُ، أو موسى عليه الصلاة والسلام.

والألواح معروفةٌ، واللوح: قطعة مربعة من خشب أو غيره، وهي مستعملة منذ القديم؛ لأنهم كانوا يكتبون على الأشياء المبسوطة المسطّحة، وكان قُدماء المصريين يكتبون تاريخهم على الأحجار، مثل: «حجر الرشيد» الذي أتاح لهم معرفة تاريخهم، كما كان العرب يكتبون على سَعَفِ النخل، وعظام الذبائح، والجلود، وهكذا صار كل مكتوب على شيء من هذه الأمور يُسمى لوحاً.

وقوله تعالى: ﴿ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾: أي كلُّ شيء تحتاجه الأمة في أمر دينها.

وقال صاحب «أيسر التفاسير»: أي كل شيء يحتاجونه في أمر الدنيا

والدين.

والموعظة: نُصحٌ وإرشاد مَشُوب بتحذير من لحاق ضُرٍّ في الآخرة أو حثٍّ على جلب نفعٍ قد غَفِلَ عنه المنصوح.

والتفصيل في قوله تعالى: ﴿مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا﴾، والتفصيل: هو بيان للمُجملات، فالموعظة: هي الوصايا العشر التي كلَّمَ الله بها موسى في جبل سيناء.

والتفصيل: هو بيان لكل شيء يحتاجون إليه، ثم يأمر الله عز وجل موسى أن يُقبِلَ على الموعظة والتفصيلات التي في الألواح بقوة، فقال: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾، أي عليكم العمل بما في هذه الألواح بمنتهى الجدِّ والحرص، دون تأخير ولا تساهل، ولا انقطاع ولا ملل، وهذا كقوله تعالى مخاطباً يحيى عليه السلام: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ [مريم ١٢]. ولماذا كان الأمر بذلك؟

والجواب: أنَّ المُراد بهذه الأمور، وهذه الوصايا والتكاليف تكوين شعبٍ جديد، بتربيةٍ جديدة شديدة، مُخالفةٍ كلَّ المُخالفةِ لما نشأ عليه شعبُ بني إسرائيل من الذُّلِّ والعبودية لفرعون وقومه، ولما كانوا عليه من الشرك والوثنية ومفاسدها، فإذا لم يكن المُتولي تربيةَ هؤلاء القوم صاحب عزيمة قوية، وعزمٍ ثابت، فإنه يعجز عن سياستهم وتربيتهم، ويفشل في تنفيذ أمر الله فيهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾، و«الأحسنُ» هنا، تأتي بمعنى: الحُسنُ التام الكامل، وليس فيها معنى التفضيل على شيء آخر، وهذا ما يُسمى عند النُحاةِ: «وصف مسلوب المفاضلة»، أو هو اسم تفضيل على

غير بابه، أي أمُر قومك بالاستمساك والاعتصام بهذه المواعظ والأحكام المُفصلة في الألواح التي هي كاملةُ الحُسنِ، والتي كلها حَسَنَةٌ ولا تفاضل فيها بين حسنٍ وأحسن.

قال قُطرب: أي يأخذوا بحُسنها ،وكلها حسن، كقوله تعالى: ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت ٤٥]، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ [الزمر ٥٥]، ومنه قول الفرزدق:

إن الذي سَمَكَ السماءَ بنى لنا بيتاً دعائمه أعزُّ وأطولُ[1]

وقد يدل المعنى في قوله: ﴿ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾: أي أن يجمعوا بين الفرائض والنوافل، أو أن يأخذوا بالفضائل والطاعات، وأن يجتنبوا القُبح والمُخالفات.

ثم يُذَيِّلُ الحقُّ عز وجل ختام الآية بقوله: ﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾: وهذا الكلام قد يكون تهديداً لهم إن خالفوا ما أمرهم به، من أن يأخذوا ما آتاهم من الشرائع بقوة وعزم.

والمعنى: سأُبيِّنُ لكم عقاب الذين لا يأخذون بها في الألواح، فدار الفاسقين: هي النار كما قال الحسن ومُجاهد.

وقال قتادة: المقصود بقوله: ﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾: أي منازِلَ من هَلَكَ من الجبابرة والعمالقة عند دخولكم الشام.

قال القاسمي: هي الأرض التي وُعِدوا بها من فلسطين، فإنهم لم يُعْطَوها إلا بعد أربعين سنة من خروجهم من مصر، وبقائهم في البرية، فإن موسى عليه السلام، لمّا مات، خَلَفَهُ «يوشع بن نون»، فحارب الملوك الذين كانوا في

---

(١) أي: عزيزة طويلة.

أرض كنعان وفتح بلادهم.

قصة اتخاذ بني إسرائيل العجل إلهاً:

إن بني إسرائيل كانت الوثنية مُتأصلة في قلوبهم، ويحتاج الأمر إلى زمنٍ لصقل إيمانهم وترويضه.

وكانوا مُتأثرين بعبادة البقر، وبخاصة عبادة العجل «أبيس»، الذي كان الأقباط المصريون يُعظمونه، حتى إنهم كانوا إذا ماتت هذه العجول المُعظمة والمؤلَّهة حنَّطوها كما يُحنَّط الآدمي، ثم تُدفن في مقابر خاصة تُسمى: «سرابيوم»، في جهة بلدة «سقّارة».

وخُلاصة القصة في عبادتهم للعجل: أنَّ موسى لمّا أمره الله عز وجل بحضور الميقات لأخذ التوراة والمُناجاة، وأمره أن يكون معه سبعون من شيوخ بني إسرائيل ليأخذوا التوراة، فسار بهم قليلاً، ثم عَجِلَ من بينهم شوقاً إلى ربه، وأمرهم أن يتبْعوه إلى جبل الطور، فعاتبهُ ربه على هذا الاستعجال، وذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ ﴾ [طه]، وكان جواب موسى ما ذكرته الآية التي تليها: ﴿ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤ ﴾ [طه]، ثم بيَّن الله له أنَّ هذا الاستعجال ترتَّب عليه أمرٌ خطير، وشر كبير، وذلك باتخاذ بني إسرائيل عجلاً عبدوه من دون الله عز وجل، وذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ٨٥ ﴾ [طه].

قال صاحب «العرائس»: ضاق صدر موسى من معاشرة الخلق، وتذكر أيام خطاب الله له، فتعجل اللقاء شوقاً لله تعالى.

قال ابن عاشور: اعتذر موسى عن تعجُّله بأنه إنما تعجَّلَ استجابةً لأمرك

يا رب، ومُبالغةً في إرضائك، وهذا يُشبه ما فعله أبو بكر حين دخل المسجد فوجد النبي ﷺ راكعاً، فركع ودبَّ إلى الصف، فقال له النبي ﷺ: «زادك الله حرصاً ولا تعد»، وكل ذلك دلالة على شَدَّةِ الشوق، وهكذا كان الشوق عند سلفنا.

وقوله: ﴿ عَلَىٰٓ أَثَرِى ﴾: أي آتونَ بعدي.

وكانت عائشة رضي الله تعالى عنها إذا أَوَتْ إلى فراشها تقول: «هاتوا المجيدَ»، فتؤتى بالمصحف، فتأخذه في صدرها، وتنام معه، كما روى سفيان الثوري.

وكان النبي ﷺ إذا أمطرت السماء، خلع شيئاً من ثيابه، وتجرَّدَ حتى يُصيبه المطر، ثم يقول: «إنه حديث عهدٍ بربي»، وهذا منه ﷺ من قبيل الشوق لربه سبحانه وتعالى، ولذلك ورد في الحديث القُدسي: «طال شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشوق»، ثم بيَّن الله ما ترتب على هذا الاستعجال من شرٍ فقال: ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ ﴾ [طه].

وقوله: ﴿ فَتَنَّا قَوْمَكَ ﴾: أي ألقيناهم في محنة واختبرناهم بعد ذهابك، فأضلَّهم السامري بالعجل الذهبي، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأعراف].

قال القاسمي: شكَّلَ لهم السامري عجلاً جسداً لا روح فيه، واحتال بإدخال الريح فيه حتى صار يُسمع له صوت كصوت البقر.

قد يقول قائل: إن الذي اتخذ العجل هو السامري، فلماذا نُسِبَ الفعل إلى القوم؟

والجواب: أنَّ أكثرهم كانوا راضين به، فكأنهم أجمعوا عليه، ثم قد يُنسب قولٌ أو عملٌ إلى القبيلة والقائل واحد، كما تقول: بنو تميم قالوا كذا، والقائل واحد.

كان السامري صائغاً ماهراً، جعل في جوف العجل أنابيب على شكل مخصوص، وجعله في مهب الريح، فإذا دخلت الريح في الأنابيب صار له صوت كالخُوار - كما ذكر الرازي -.

وقد ذكر الدكتور عبدالوهاب النجار، أنه رأى عند صديق له بقرة من الجبس، وعند السُرَّةِ سلك صغير إذا جُذِبَ إلى أسفل ثم تركته دارت آلة داخل التمثال، ولفت الخيط عليها، وعندئذ يحدث صوتٌ يُشبه صوت العجل الصغير، ثم قال: وبعض الناس يأخذ رأس حمار - جمجمته - ثم يضع ضفدعاً داخل تجويف الرأس، ثم يُقرّبُ الجمجمة التي بداخلها الضفدع من نار أو دخان، فتنق الضفدع، فيخرج صوتها من الرأس مَضخماً حتى ليظنَّ السامع أنه صوت حمار ينهق.

وقوله ﴿ جَسَدًا ﴾، قال الزجاج: الجسدُ: هو الذي لا يعقل ولا يميز، إنما هو الجثة، أي أخرج لهم صورة عجلٍ مجسدةً بشكله وقوائمه وجوانبه، والإخراج: يدلك على إظهار شيء كان محجوباً، وفيه إشارة إلى أنَّ السامري صنع العجل بحيلة مستورة عنهم حتى أتمه ثم أخرجه لهم.

وقوله: ﴿ لَّهُۥ خُوَارٌۢ ﴾، والخوار صوت البقر، فلما أخرجه على صورة العجل «أبيس» الذي عرفوه في مصر واعتادوا عبادته، ثم رأوه أفضل من «أبيس» لأن له خوار، رسَخَ في أذهانهم الآفنةِ أنَّ ذلك هو الإله الحقيقي، فقالوا: ﴿ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [طه] وذلك لأنهم رأوه من ذهب.

وهم وإن كانوا يثبتون إلهاً محجوباً عن الأبصار وكانوا يتطلبون رؤيته جهرةً، عندها توهموا أن هذا ضالتهم المنشودة فعبدوه.

وقوله: ﴿ فَنَسِيَ ﴾، تعود على السامري، أي نسيَ السامري ما تلقاه من هُدى، ونَسِيَ خميرة الإيمان في قلبه، ونَسِيَ أنَّ هذا العمل خُروج عن الإيمان إلى الكفر - كما قال العلماء -.

وفي معنى آخر لكلمة: ﴿ فَنَسِيَ ﴾، أنَّ السامري قال لبني إسرائيل بعد أن أخرج العجل: هذا إلهكم وإله موسى، وأنَّ موسى قد ضلَّ الطريق وذهب يطلب إلهه وهو هنا، وعن ابن عباس قال: أي فنسيَ موسى أن يذكر لكم أنه إلهُهُ، أو نَسِيَ السامري أنَّ الإله لا يحلُّ فيه شيء، ولا يحُلُّ في شيء، ثم وبَّخهم الله تعالى على هذه الضلالة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [طه]: أي كيف يعبدون العجل ويدَّعون إلهيته وهم يرون أنه لا يتكلم ولا يستطيع نفعاً ولا ضراً.

قال القرطبي: بيَّن الله أنَّ المعبود يجب أن يتصف بالكلام، أما هذا الجسد، فلا يقدر على كلام، ولا يُرشد إلى سبيل.

قال ابن القيم: صنعه السامري بيده، وصاغه وملأه بالنار، ودقه بالمطرقة، وسطا عليه بالمبرد، ثم اتخذه إلهاً.

قال البروسوي: لمّا خار العجل رقصوا حوله.

وقد نقل القرطبي عن الشيخ «الطرطوشي» أنه سُئِلَ عن قوم يقرؤون شيئاً من القرآن، ثم يُنشد لهم مُنشدٌ شيئاً من الشعر، يرقصون ويطربون، ويضربون بالقضيب أو بالدف، فهل الحضور معهم جائز؟ ومن أشعارهم:

يا شيخ كُفَّ عن الذنوب   قبل التفرق والزلل

واعـــمـــلْ لنفسك صـالحـاً   مــا دام يـنـفـعـك العمل
أمـــا الـــشـبـــاب فـقـــد مضى   ومـشـيـبُ رأســـك قـد نـزل

فأجاب الطرطوشي رحمه الله عن السؤال بقوله: الإسلام كتاب وسُنَّةٌ، وأما الرقص فأول مَنْ أحدَثهُ السامري لمّا اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار، قاموا يرقصون حوله ويتواجدون، فهو دين الكفار، وعُبَّادِ العجل، وأما القضيب فأول من اتخذه الزنادقة ليُشغلوا المسلمين به عن كتاب الله عز وجل، وإنما كان النبي ﷺ وأصحابه يجلسون كأن على رؤوسهم الطير من الوقار، وعلى السلطان أن يمنعهم من الحضور في المساجد، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم أو يُعينهم على باطلهم، وهذا مذهب «مالكٍ والشافعي وأحمد وأبي حنيفة».

كيف كان موقف هارون من هذه الفتنة؟

قال الرازي: سلك هارون أحسن الوجوه في زجرهم عن الباطل قبل أن يرجع موسى من الطور، فبيَّن لهم أنهم: ضلّوا **أولاً**.

وثانياً دعاهم إلى معرفة ربهم الرحمن وعبادته ونبذ العجل وعبادته. **وثالثاً**: دعاهم إلى اتباع طريق النبوة في توحيد الله وعبادته.

ورابعاً: دعاهم إلى اتباع شريعة الله التي أُمِرَ موسى وهارون بتبليغها لهم، وذلك ما قصَّهُ الله علينا، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى** ﴿٩٠﴾ ﴾ [طه].

قال العلماء: وفي هذا الخطاب من هارون لهم، نلمس الترتيب الطبيعي الجيّدَ؛ لأنه لا بُدَّ في أول الأمر من إماطة الأذى عن الطريق، وهو هنا: زجرهم عن الباطل، وإزالة الشُبُهات، فقال: ﴿ **يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ** ﴾: أي بالعجل

وعبادته لأنه باطل، فقد عبدتم ما ليس برب، ثم دعاهم إلى معرفة الرب عز وجل، فإنها هي الأصل، فقال: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾، ونلاحظ هنا أن هارون خصَّ هذا الموضع «باسم الرحمن»، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾: تنبيهاً لهم على أنهم متى تابوا، قَبِلَ الله توبتهم؛ لأنه هو الرحمن حيث قد رأوا آثار نعمته عليهم، حين خلصهم من آفات فرعون، ثم دعاهم هارون إلى اتباع الرسول، وذلك في قوله: ﴿ فَٱتَّبِعُونِي ﴾، إذ هو رسول بينهم، ثم دعاهم إلى العمل بالشرائع: ﴿ وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴾، وبِدْءُ خطاب هارون لهم بـ ﴿ يَٰقَوۡمِ ﴾ تمهيدٌ ومُقدمةٌ لبيان النُصح لهم، والشفقة عليهم، وأي شفقةٍ أعظم من أن يرى القوم مُتهافتين على النار، فزجرهم عنها، ومنعهم منها، كما أشفق على نفسه، حيث صرَّح بالحق رغم كثرة أهل الباطل فقال: ﴿ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾، فهو مُكلف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلو قصَّرَ بذلك لحوسب.

ماذا كان جواب بني إسرائيل لهارون؟

قال الفخر الرازي: قابلوا خطاب هارون الحَسَنَ بالجحود والتقليد، فقالوا: لا نقبل حُجَّتك وسنبقى مُقيمين على عبادة العجل حتى يرجع إلينا موسى فنقبلَ قوله.

وقد قصَّ القرآن الكريم علينا قولهم فقال: ﴿ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾ [طه].

وقولهم هذا ليس وعداً منهم بترك عبادة العجل عند رجوع موسى، وإنما هو من باب التسويف والتعلُّل، واعتمدوا على ما قاله السامري لهم، حيث أوهمهم أن هذا العجل إلههم وإله موسى كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿ فَأَخۡرَجَ ﴾ - السامري - ﴿ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ

﴿وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾ [طه].

قال السامري: نسِيَ موسى أن يقول لكم إن هذا العجل إلهُهُ، وكانوا من المُشَبِّهَةِ المُجَسِّمَةِ، ولذلك كان سماعهم الحق من هارون بعيداً، إذ ماذا يُفيد السماع، إذا كان القلب مُصِراً على الهوى وعدم العمل بالحق، ورحم الله من قال:

أيا سامعاً ليس السماعُ بنافِعٍ ... إذا أنت لم تفعل فما أنت سامِعُ
إذا كنت في الدنيا من الخير عاجزاً ... فما أنت في يوم القيامة صانع

قال صاحب «التأويلات»: لم يسمعوا قول هارون؛ لأنهم عن السمع الحقيقي لمعزولون، ولذلك قالوا: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه].

قال القرطبي مُشيراً إلى ما قام به هارون وبيَّنه لبني إسرائيل: «وهذا أصلٌ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، وهو واجب، لأن هذا الواجب إذا قام به المسلم فهو دليل شفقة على نفسه وعلى الخلق.

وقد أوحى الله إلى «يوشع بن نون»: إني مُهلكٌ من قومك أربعين ألفاً من خيارهم، وستين ألفاً من شِرارهم، فقال: يا رب: هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟ فقال الرب عز وجل: «إنهم لم يغضبوا لغضبي»، فهارون عندما أمرهم بالمعروف، ونهاهم عن تقديس العجل، إنما كان شفقةً منه عليهم، وشفقةً منه على نفسه، أما شَفَقَتُهُ على نفسه، فقد حفظها من المسؤولية عند الله، فهو مُكلف من عند الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما كان مأموراً من أخيه موسى كذلك، حين أوصاه موسى قائلاً: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف]، فصان نفسه شفقةً

عليها، كما أنَّ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شفقةً على المسلمين، فقد قال ثابت البناني، قال أنس، قال رسول الله ﷺ: «من أصبح وهمُّه غير الله تعالى فليس من الله في شيء، ومن أصبح لا يهتم بالمسلمين فليس منهم».

وهكذا فَهِمَ السلف أهمية فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد نقل الرازي عن أبي الحسن الغوري أنه قال: كنت في بعض المواضع، فرأيت زورقاً فيه «دِنان»، مكتوب عليها «لطيفٌ» فقلت للملاح: إيش هذا؟ فقال لي: أنت شيخٌ فضولي، وهذه خمورٌ للمُعتَضِد، فقلت له: أعطني ذلك المِدْرى، فقال لغلامه: أعطه حتى نُبْصِرَ إيش يعمل، قال: فأخذتُ المِدْرى، وصعدتُ الزورق، وبدأت أكسر دنّاً دنّاً والملاح يصيح، حتى بقيَ واحد، فأمسكتُ، فجاء صاحب السفينة فأخذني إلى المُعتضد – وكان سيفه قبل كلامه – فلما وقع بصره عليَّ قال: مَنْ أنتَ؟ قلتُ: المحتسب، قال: من وَلَّاكَ الحسبة؟ قلتُ: الذي ولاكَ الخلافةَ، قال: لِمَ كسرت الدِنان؟ قُلت: رحمةً بك، وشفقةً عليك!! قال: فَلِمَ أبقيتَ الواحدَ؟ قُلت: إني لمّا كسرتُ هذه الدِنان، إنما كسرتُها حميَّةً عن دين الله، فلما وصلت إلى هذا الدَنِّ الأخير أُعجبتُ – أي أعجبتني نفسي – فأمسكتُ، ولو بقيتُ كما كنت لكسرتُهُ.

فقال المعتضد: اخرج يا شيخ فقد ولَّيْتُكَ الحِسبةَ، فقلتُ يا أمير المؤمنين: كنت أفعله لله تعالى، فلا أُحب أن أكون شُرَطِياً، أي آخذ أجراً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وانتبه – يا عبد الله – إلى قول الشيخ الغوري: فعلتُ ذلك رحمةً بك، وشفقةً عليك، ولذلك قال الرازي عندها: واعلم أنَّ الشفقة على المسلمين واجبة، وقد قال ﷺ فيما رواه أبو سعيد الخدري، قال ﷺ: يقول الله تعالى: «اطلبوا الفضل عند الرُّحماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم، فإني جعلتُ فيهم

رحمتي، ولا تطلبوها في القاسية قلوبهم، فإن فيهم غضبي».

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: وهكذا فوجئ هارون بأن بني إسرائيل يعبدون عجلاً ذهبياً، وانقسم الناس إلى قسمين: أقلية مؤمنة أدركت أن هذا ضلال وكفر، وأكثرية كافرة طاوعت وحنَّت لعبادة الأوثان.

وقفَ هارون بموعظته يقول: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ ﴾، وكانوا مجموعة من الجاهلين أصموا آذانهم، ورفضوا كلامه، واستضعفوه وكادوا يقتلونه، ثم أنهوا النقاش بتأجيل الموضوع إلى حين عودةِ موسى.

وخطر لهارون أن يُحطِّمَ العجل، ولكنه خاف أن تثورَ فتنة بين الفريقين، ففضل ترك الموضوع إلى حين رجوع موسى، لأن هارون يُدرك تماماً أنَّ موسى بشخصيته القوية قادرٌ على وضع حدٍّ للفتنة دون إراقة دماء، واستمر الجاهلون يرقصون حول العجل.

قال القرطبي: فلما رجع موسى، وسمعَ الصياح والجلبةَ - وكانوا يرقصون حول العجل - قال لمن معه وهم النُخبة الذين لحقوه إلى الطور، قال: هذا صوت الفتنة، فتعالوا ننظر.

ما هو موقف موسى عليه السلام منهم حين عاينَ عبادتهم للعجل؟

قال الطبري: أخبر الله موسى قبل رجوعه إلى قومه أنَّ قومه فُتِنوا بالعجل، فرجع وهو ممتلئ غضباً.

قال القرطبي: كان موسى من أعظم الناس غضباً، ولكنه كان سريع الفيئة، فتلك بتلك، وكان حزيناً لمُفارقة كلام ربه عز وجل، فلما شاهد ما شاهد من عبادة العجل ثارت ثائرتُهُ، ولذلك ورد في أثرٍ رواه البزار والطبراني

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله موسى، ليس المُعاين كالمُخبَر، أخبره ربه تبارك وتعالى أنَّ قومه فُتِنوا، فلم يُلقِ الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح».

قال مالك: وكان موسى إذا غضب لله تعالى، رفع شعرُ بدنه جُبَّتَهُ، ولذلك لما عاين عبادة العجل أسرع في توبيخه لقومه قائلاً: بئس ما عملتم من بعدي، فلم تُوفوا بعهدي، ولم تصبروا على تمام ميعاد ربكم، وهو أربعون ليلة – أي بئس ما فعلتم بعد توحيدكم الله، وإخلاصكم له أن أشركتم – ابن كثير.

وذلك ما ذكره الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ﴾؟ [الأعراف ١٥٠]

وقوله: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾: أي رجع غضبانَ من عصيان قومه، حزيناً على فساد أحوالهم.

وقوله: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ﴾: والخطاب هنا إما أن يكون لهارون ووجوه بني إسرائيل الذين آمنوا معه، فيكون المعنى: بئسما خلفتموني حيث لم تمْنعوا من عبادة غير الله، وإما أن يكون الخطاب للسامري ومن معه، فيكون المعنى: بئسما خلفتموني حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله.

وقوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ﴾، وعَجِلَ: بمعنى لم يُتِمَّ، والأمر معناه التكليف، وهو ما أمرهم به من المحافظة على الشريعة وانتظار رجوعه، فلم يُتموا ذلك، واستعجلوا فغيَّروا وبدَّلوا، ويجوز أن يكون الأمر بمعنى الوعيد هنا، ويكون عَجِلَ: بمعنى بادر وأسرع، فكأنهم لمّا أسرعوا إلى ما نهاهم الله عنه من عبادة الأوثان، جُعِلوا سابقين إلى غضب الله ووعيده وسخطه،

وذلك كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل ١]، وكقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود ٤٠].

قال العلماء: لَمّا رأى موسى ما أدهشه من عبادة العجل ورقصهم حوله، غضب لله تعالى غضباً شديداً، وكان هو في نفسه حديداً - قوياً -، كان من أثر فوران الغضب فيه أن ألقى الألواح، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ﴾ [الأعراف ١٥٠].

والإلقاء هنا: المراد به أنه وضعها على الأرض كالطارح لها، والقرآن لم يزد على هذا التعبير شيئاً، فلم يقل: تَكسَّرتْ، ولم يقل: ذهب منها شيء، ولذلك قال صاحب «اللباب»: ليس في القرآن إلا أنه ألقى الألواح، وأما من قال إنه ألقاها بحيث تكسرت، فليس في القرآن ذلك، وإنه - هذا القول - جُرأة عظيمة على كتاب الله تعالى، ومثله لا يليق بالأنبياء، ويَرُدُّ هذا القول - أنها تكسرت - قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ﴾ [الأعراف ١٥٤]، فدل ذلك على أنها لم تنكسر، ولم يَضِعْ منها شيء.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: وإلقاء الألواح كان أثراً من آثار فوران الغضب لَمّا شاهدهم على تلك الحالة، ولم يذكر القرآن ذلك الإلقاء إلا للدلالة على هذا المعنى، أما القول بأنه ألقى الألواح لأجل إشغال يده بجرِّ رأس أخيه، فلا يستقيم؛ لأنه لو كان الأمر كذلك لكان العطفُ بالفاء على «وألقى»، فيكون: وألقى الألواح فأخذ برأس أخيه، ولكن قال: ﴿وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ﴾، وأخذُهُ برأس أخيه هارون يجرُّهُ إليه، أي: إمساكُهُ بشعر رأسه، وذلك يؤلمه وهو كذلك دليلٌ على فظاعة فعل قومه وتأنيب لهارون لأنه اقتصر في إنكار المنكر على القول فقط، فإلقاء الألواح أثرٌ من آثار الغضب، وليس تأديباً لهم؛ لأنه لا يكون تأديبهم بإلقاء الألواح التي كُتِبَ فيها ما يُصلحهم،

ولأنَّ ذلك يُنافي تصرف النبوة، من هنا جزم علماء سيرة النبي محمد ﷺ بأنَّ إعراض الرسول عليه الصلاة والسلام عن كتابة الكتاب الذي هَمَّ بكتابته قُبيلَ وفاته لم يكن تأديباً لهم عندما اختلفوا عنده، بل إنما ترك الكتابة لما رأى من اختلافهم في ذلك، فرأى أن الأولى تركُ كتابته، إذ لم يكن الدين مُحتاجاً إليه.

قال ابن تيمية عند قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾: هذا دليل على أنَّ من ألقى كتاباً على يده إلى الأرض، وهو غضبان لا يُلام.

قال ابن كثير: ظن موسى أنَّ أخاه قصَّرَ في نهيهم عن ضلالتهم، فكانت هذه الشدَّةُ منه على أخيه، ولذلك لمّا توضح له وظهر له أن هارون لم يُقصّر، وأنه نهاهم، عندها قال موسى ما ذكره الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف].

قال الآلوسي: قال موسى: رب اغفر لي: أي ما فعلتُ بأخي قبل استيضاح الحال.

قال القاسمي: وقوله: ﴿وَلِأَخِي﴾: استغفر موسى لأخيه ليُرضيه، ولكي لا يُشمِتَ به الأعداء؛ لأن هارون طلب من موسى ألا يقسوَ عليه كي لا يُشمت بذلك العدوَّ، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف]: أي لقد بذلت جَهدي في منعهم حتى قاربوا قتلي، وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه].

هنا سؤال: لماذا قال هارون لموسى: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ مع أنه شقيق له من أب

وأم؟

والجواب: لأنَّ ذِكر الأم تذكيرٌ بأقوى أواصر الأُخوة، وهي آصرةُ الولادة من بطن واحد، والرضاع من لبن واحد، والأمومة مُستقرُّ الأرحام، ولذلك ترى في الواقع المشاهد أنَّ الحنان بين الإخوة لأم أشد من الحنان بين الإخوة لأب فقط، ثم إنَّ أبا موسى وهارون طوي اسمه في التاريخ، ولم يظهر عنه خبر، بينما نرى الأمَّ هي التي تحملت المشقاتِ في أمر حياته وكان لها ذِكرٌ، ولذلك جاء خطاب هارون لموسى: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ بالأمر المُشترك البارز في حياتهما، وبالأسلوب الذي يُحنِّنُهُ: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾، واسمها «يوكابد بنت لاوي».

قال صاحب «البحر المحيط»: ومن عادة العرب تتلطف وتتحنَّن بِذكر الأم، كما قال «زَبيد الطائي» يرثي أخاه:

يا ابن أمي ويا شقيق نفسي ... أنت خلَّفتني لدهرٍ شديدِ

وقال البعض إنما خاطبه بهذا اللفظ ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾؛ لأنَّ أُمهما كانت مؤمنة، وكان أبوه مقطوعاً عن القرابة بالكفر، كما قال تعالى لنوح: ﴿قَالَ يَنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود ٤٦]، فكان حقُّها أعظم ولذلك خاطبه بذلك ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾.

وقول هارون: ﴿وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾ يدُّلك على أنه عارضهم مُعارضةً شديدةً إلى درجة أنهم فكروا في قتله، فتَرَكَهُم خَشْيةَ القتل.

وقوله: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾، والشماتة: إظهار الفرح بمصيبةٍ تقع للخصم والأعداء، وهنا: هم الذين عبدوا العجل؛ لأن هارون أنكر عليهم عبادة العجل فكرهوه لذلك.

وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾: أي لا تحسَبني واحداً منهم، فجعل «هنا»: بمعنى ظنَّ، مثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ﴾ [الزخرف ١٩]، أي لا تظنَّ بي أنني منهم فتشملني بالعقوبة معهم؛ لأنَّ موسى أمر بقتل كلِّ من عَبَدَ العجل.

ونقف هنا قليلاً عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ وقلنا: إنَّ الشماتَةَ: هي إظهار الفرح بمصيبةٍ تقع للخصم، سواء كانت من المصائب الدنيوية، أو في أمر الدين، وهي محرمة ومنهي عنها؛ لأنها تحصل من العداوة والحسد، وفي الحديث: «لا تُظهر الشماتَةَ بأخيك، فيُعافيه الله ويبتليك».

وكان النبي ﷺ يتَعوذ من الشماتة، فمن دُعائه عليه الصلاة والسلام: «اللهم إني أعوذ بك من سوء القضاء، ودرك الشقاء، وشماتة الأعداء» في البخاري وغيره، لأن الشماتَةَ مؤلمةٌ.

قال الشاعر:

كلُّ المصائب قد تمرّ على الفتى   فتهون غيرَ شماتَةِ الأعداء

وكان معاوية رضي الله تعالى عنه عند موته يتمثل بقول القائل:

وتَجَلُّدي للشامتين أُريهمُ   أني لريبِ الدهر لا أَتضعضعُ

والمؤمن لا يشمتُ بأخيه حتى لا يُبتلى بمن يشْمَتُ به، وقد قيل:

إذا ما الدهرُ جَرَّ على أُناسٍ   كَلاكِلَه أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا   سيلقى الشامتون كما لقينا

قال العلماء: ثم بيَّن الله عز وجل أنَّ الذين اتخذوا العجل سينالهم غضبٌ من الله – أي عقوبة –، ولذلك لم يقبل الله توبتهم حتى قتل بعضُهم بعضا،

وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [البقرة ٥٤]، فهذا هو الغضبُ الذي ذكره الله عز وجل في [سورة الأعراف]: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢ ﴾، والغضبُ من الله: إرادة السوء بالعبد وعقابه في الدنيا والآخرة، أو في إحداهما وهو من صفات الأفعال.

والذِلَّةُ: ما يشعرون به من هوانِهم على الناس.

قال ابن عاشور: عند قوله تعالى: ﴿ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ ﴾: هذه الذِلَّةُ عقوبةٌ دنيوية قد لا تمحوها التوبةُ، لأن التوبة إنما تقتضي العفو عن عقاب التكليف، ولا تقتضي تركَ المُؤاخذةِ بمصائب الدنيا؛ لأن العقوبات الدنيوية مُسَبَّباتٌ تنشأ عن أسبابها، فلا يَلْزَمُ أنْ ترفَعَها بالتوبة إلا بعنايةٍ إلهية خاصة، والله قد يمحو العقوبة الدنيوية إذا رضي عن الجاني والله ذو فضل عظيم.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴾:

والافتراءُ: الاختلاقُ في أصول الدين بوضعِ عقائد لا تستند إلى دليل صحيح من دلالة العقل، أو من دلالة الوحي.

ونقل القاسمي في «تفسيره» عن «أبي قُلابة الجُرمي» أنه قرأ هذه الآية﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢ ﴾، فقال: هي والله لكل مفترٍ إلى يوم القيامة.

قال مالك بن أنس: ما من مُبتدع إلا ويجد فوق رأسه ذلّةً ثم تلا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢ ﴾ [الأعراف].

قال الآلوسي: وستظهر ذلّةُ مَنْ عَبَدَ العجل عند نفسه، وعند قول موسى

للسامري ﴿ لَا مِسَاسَ ﴾، وسيأتي تفصيل ذلك.

ولذلك قال صاحب «التحرير والتنوير»: «إنَّ الكذابَ يُرمى بالمَذلَّة».

من هنا نجد أن مشركي العرب قبل بعثة النبي ﷺ لم يكونوا أذِلَّةً، فلما جاء النبي ﷺ وهداهم، فافتروا واستمروا على الافتراء عاقبهم الله بالذلة، فأزال مهابَتَهم من قلوب العرب، وعمِلَ فيهم قتلاً وأسراً، فلما أسلمَ منهم من أسلَم عادوا وصاروا أعزةً بالإسلام.

البشارة الربانية للتائبين:

قال العلماء: ثم تأتي البشارةُ الربانية، أنه من تاب من السيئاتِ ولو كان كُفراً، ثم استقام على الإيمان بعد التوبة، غفر الله له ما تقدَّمَ، وذلك في [سورة الأعراف]: ﴿ **وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴿١٥٣﴾ ﴾، وهذه عادة القرآن من تعقيب الترهيب بالترغيب.

وقوله عز وجل: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴿١٥٣﴾ ﴾ يُفيدنا أنَّ التوبة تشريعٌ من الله، وذلك عز وجل منه رحمةٌ بالعباد ورحمةٌ بالمجتمع، يدعو عباده إليها.

ثم هي – التوبة – فِعْلٌ من العبد، وهي استجابةٌ لتشريع الله، ثم يأتي المظهر الثالث للتوبة، وهو قبولُ الله عز وجل لهذه التوبة، وذلك قِمةُ العطاء والرحمة.

قال العلماء: و العبد إذا تاب، ورجع عن السيئة، أصلح الله حاله وشأنه، وأعاد عليه نعَمَهُ الفائتة، فقد ذكر إبراهيم بن أدهم قال: بلغني أن رجلاً من بني إسرائيل ذبح عجلاً بين يدي أمه، فيبست يدُه، فبينما هو جالس سقط

فرخٌ من و كْره وهو يتبَصْبَص، فأخذه وردَّه إلى وكره، فرحمه الله تعالى لذلك، وردَّ عليه صحة يده وشفاها بإحسانه إلى هذا الفرخ.

فينبغي على المؤمن إذا زلت قدمُهُ بمُخالفة أن يُسارع إلى التوبة والعمل الصالح، فإن الحسنات يُذهبن السيآت.

فقد ورد عن أبي ذر قال: قلت لرسول الله: علِّمني عملاً يُقربني إلى الجنة، ويُباعدني عن النار، فقال ﷺ: «إذا عملت سيئةً فاعمل بجنبها حسنة فإنها عشر أمثالها».

قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام ١٦٠]، فقلت يا رسول الله لا إله إلا الله من الحسنات؟ فقال ﷺ: «هي أحسنُ الحسنات».

والتوبة على ضربين: توبةُ الظاهر، وتوبةُ الباطن.

فتوبة الظاهر: من الذنوب الظاهرة، وتكون بترك المخالفات، واستعمال الجوارح في الطاعات.

وتوبة الباطن: وهي توبةُ القلب من الذنوب الباطنة، وأهمها التوبة عن الغفلة عن الذكر، حتى تكون ممن إذا صَمَتَ لسانُهُ لم يصمت قلبه، ومما يُنسب إلى الشافعي رضي الله تعالى عنه قوله:

ولما قسا قلبي، وضاقت مذاهبي ... جعلت الرجا ربّي لعفوك سُلَّما
تَعاظَمني ذنبي فلما قرنتُهُ ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما

ومن جميل الشعر في هذا الباب:

أنا مذنبٌ، أنا مخطئ، أنا عاصي ... هو غافر، هو راحم، هو عافي
قابلتُهن ثلاثةً بثلاثةٍ ... وسَتَغْلِبَنْ أوصافه أوصافي

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأعراف]، يدلُّك على أنَّ عملَ السيئة يخدش الإيمان، فعليك أن تُجدد إيمانك بتوبة، فإذا تُبْتَ قَبِلَ الله منك ذلك لأن الله يقول بعدها: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا - أي من بعد التوبة والإيمان - لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل ١١٩]، فإذا كان الله قد غفر ورحم، فاحذر يا عبد الله أن تُذَكِّر مُذنباً بذنبه بعد التوبة من ذلك الذنب، لأنَّ صاحب الشأن - وهو الله عز وجل - قد غفَرَ ورَحِمَ، فإياك أن تقول لشارب الخمر - يا شارب الخمر-، ولا للنَّمام يا نمام، ولا للسارق يا سارق، فإنه عز وجل أرحمُ الراحمين، ولذلك نرى موسى عندما طلبَ المغفرةَ من الله له ولأخيه، ختم دعاءه بوصف الله بصفة الرحمة الشاملة فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأعراف].

قال البروسوي: أي أنت أرحم بنا من أنفسنا، ومن آبائنا وأمهاتنا، وذكر قصة فتىً قد اعتقل لسانه عن النُطق بالشهادة عند الموت، فأخبروا النبي ﷺ بذلك، فدخل على الفتى، وعرض عليه الشهادة فاضطرب ولم يتحرك لسانه، فقال ﷺ: «أما كان يُصلي؟ أما كان يُزكي؟، أما كان يصوم؟»، قالوا بلى يا رسول الله، فقال ﷺ: «فهل عَقَّ والديه؟»، قالوا: نعم، فقال ﷺ: «هاتوا بأمهِ»، فجاءت وهي عجوز عوراء، فقال ﷺ: «هلا عفوتِ عنه؟» فقالت: لا أعفو، إنه لطمني ففقأ عيني، فقال ﷺ: «هاتوا الحطب والنار»، قالت الأم: ما تصنع؟ قال ﷺ: «أُحَرّقه بالنار بين يديك جزاء ما عمل»، فقالت الأم: لا تفعل يا رسول الله، عفوتُ عنه، عفوت عنه، أللنار حملتُهُ تسعة أشهر؟ أللنار أرضعته سنتين، عندئذ انطلق لسانُ الفتى بالشهادة فهي رحيمةٌ فكيف بالرحمن، فهو أرحم الراحمين.

ولكن احذر – يا عبد الله – أنَّ رحمتَهُ تبارك وتعالى مشروطةٌ بالتوبة والإنابة وحفظ حدود الشريعة، أما بدون توبةٍ وإنابةٍ فطمعٌ فارغ، وأشعَبيةٌ باردة لا يلتفتُ إليها حازم كما قال صاحب «تفسير المنار» عليه رحمة الله.

لأنَّ الطمع بالمغفرة دون توبةٍ وإنابةٍ كما يفعل الفُساق يذهبُ بحرمةِ الأمر والنهي من قلوبهم، حتى استحلَّ كثير منهم المحرمات والعياذ بالله تعالى، ولذلك ورد عن رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم عن «شداد بن أوس» بسند صحيح أنه ﷺ قال: «الكَيِّس مَنْ دانَ نفسه وعَمِلَ لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني».

موسى والسامري:

قال العلماء: بعد اعتذار بني إسرائيل، واعتذار هارون، وبعد استقرار أنَّ أصلَ الفتنة كان من السامري، تتشوفُ النفس إلى معرفة موقف موسى منه، فما هو هذا الموقف؟

قال صاحب «التحرير والتنوير»: ثبَتَتْ براءة هارون، ونكَّس بنو إسرائيل رؤوسهم أمام ثورة موسى، فإذاً لم يبقَ إلا المسؤولُ الأول عن الفتنة، وهو «السامري»، التفتَ إليه موسى بالحديث وغضبُهُ لم يهدأ قائلاً: ما الذي حملك على ما صنعت؟ وذلك ما حكاه الله عز وجل في [سورة طه]: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ ﴾، فمن هو هذا السامري؟

الراجحُ عند المحققين أنه لم يكن من بني إسرائيل، بل كان من القِبط، أو من كرمان كان من عُبّاد البقر، وكان منافقاً اندس في بني إسرائيل فأظهر الإسلام، فلما أُتيحت له الفرصة في غياب موسى عاد إلى عبادة البقر.

قال قتادة: كان السامري منافقاً، فلما مرَّتْ بنو إسرائيل عند خروجهم من البحر بالعاكفين على عبادة البقر، وقالوا: ﴿ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ [الأعراف ١٣٨]، عَلِمَ السامري عندها أنهم يميلون إلى عبادة العجل فاغتنمها عند غيبة موسى؛ لأنها وافقت هوى في قلبه، كما أنه أراد أن يُرضيَ شهوة الرئاسة في نفسه ليكون ذا مكانة عند الناس.

وقول موسى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ ﴾، أي: ما شأنك فيما صنعت؟ وما الذي دعاك إلى ما فعلت؟

وهذه الكلمة «ما خطبك» أكثر ما تستعمل في الأمر المكروه، أو الحادث الجلل كما قال المفسرون، ومن ذلك قول إبراهيم للملائكة الذين نزلوا ضيوفاً عليه: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الحجر]، سألهم عن سبب نزولهم إلى الأرض؛ لأنه يعلم أنَّ الملائكة لا ينزلون إلا لأمرٍ عظيم، كما نزلوا يوم بدر لاستئصال سادة المشركين، ومنه قول العزيز للنسوة في [سورة يوسف ٥١]: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾.

ومن جميل ما قاله البروسوي في هذه الآية: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ ﴾ [طه]، قال: الخطبُ في اللغة هو الأمرُ العظيم الذي يَكْثُرُ فيه التخاطُبُ، وهو أي «الخطب» من تقاليب «الخبط»، ففي ذلك إشارةٌ إلى عظيم خَبْطِ السامري، وخاطبه أمام الناس ليُظهرَ بُطلان كيده باعترافه، ويكون ما سيُعاقبه به نكالاً لمن فُتنوا به.

ومن جميل اللفتات في هذه الآية الكريمة، ما ذكره بعضُ أهل العلم حيث قالوا في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ ﴾، ما معناه: ماهي مصيبتك التي أَصبْتَ بها القوم، حيث عدلْتَ إلى صورة العجل على الخصوص، وصنعْتَهُ من حُلِيّ القوم، حيث أخذت بقلوبهم من أجل أموالهم،

فإنَّ عيسى عليه السلام يقول لبني إسرائيل: يا بني إسرائيل قلبُ كل إنسان حيث مالهُ، فاجعلوا أموالكم في السماء تكن قلوبكم هناك، أي تصدقوا وقدِّموا للآخرة التي هي أبقى وأعلى.

وما سُمي المالُ مالاً إلا لكونه بالذات تميل القلوب إليه في نيل المقاصد وتحصيل الحوائج.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: نُلاحظ هنا أنَّ موسى لم يُغْلظ له القول، فلماذا؟

قال: أنه لم يُغْلِظِ له بالقول لسببين:

١) أنه كان جاهلاً بالدين، والجاهل لا يُتَعَجَّبُ من ضلاله.

٢) ولأن موسى مبعوثاً لبني إسرائيل خاصة، ولفرعون ومَلَئه لأجل إطلاق بني إسرائيل فكان اتِّباعُ غير الإسرائيليين لشريعة موسى أمراً غير واجب على غير الإسرائيليين، وإن كان مرغوباً فيه لما فيه من الاهتداء إلى الحق، فلذلك لم يُعنِّفْه موسى؛ لأن الأجدر بالتعنيف هم القوم الذين وَحَّدوا الله على الشريعة.

ويأتي جواب السامري لموسى بقوله في [سورة طه]: ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ ﴾.

قوله: ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ﴾، قال الزجاج: يقال: أبْصَرَ يُبْصِرُ، إذا عَلم علماً قوياً، ومنه قوله تعالى في [سورة ق]: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ

﴿فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

والغفلة: الذهولُ عن شيء من شأنه أن يُعلم، كما تُسمى المعرفة الراسخة بصيرةً، قال تعالى في [سورة يوسف ١٠٨]: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾، ويُقال للرجل العالم بالأشياء: إنه بصيرٌ بها، كما ذكر اللّحياني في «لسان العرب».

فالمفسرون الذين فسَّروا الفعل ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ﴾ بنظر العين قالوا: إنَّ السامري يقول: إني رأيتُ بعيني ما لم يَرَهُ غيري، رأيتُ جبريل على فرس الحياة، فرأيت أنَّ الأرض تخضر عند موطئ ذلك الفرس، وينقلبُ العشب أخضر بعد اصفراره، فأخذتُ قبضَةً من أثر حافر فرس جبريل ونبذتُها مع الذهب الذي صنعتُ منه العجل، فصار للعجل خوارٌ، وهذا الأمر ساقتني نفسي إليه.

قال المحققون: وهذا القول لم يرد به أثرٌ صحيح من كتاب ولا سُنَّة ولم يوجد في كتب بني إسرائيل، ولعله - كما يقول ابن عاشور - من روايات القصاصين تسرَّبتْ إلى الناس.

ويقول الرازي عليه رحمة الله: رادّاً لهذا التفسير: كيف اختُصَّ السامري من بين الناس جميعاً برؤية جبريل؟ وكيف عرفه؟

ثم كيف عرف أنَّ تُرابَ حافر فرسه له هذا التأثير.

ثم يقول الرازي: ثم في هذا التفسير لا بُدَّ من الإضمار وهو «قبضته من أثر حافر فرس الرسول»، والإضمارُ خلاف الأصل.

قال أبو مسلم الأصبهاني: ليس في القرآن تصريحٌ بما ذُكر هنا في هذا التفسير.

والآن: نستعرض القول الثاني، وهو أن: بَصُرَ يَبْصُرُ، والمقصود بها: العلمُ القوي، فيكون معنى الآية: أي علمت أموراً لم يعلموها، وهو علمُ التماثيل والصور التي بها صَنَعَ العجل، وعَلِمَ من الحيل والطرق الذي أوجدَ بها خوار العجل.

وقوله: ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ﴾ [طه ٩٦]: «والقبضة»: هنا بمعنى النصيب القليل، و«الأثر»: أي من علم الشريعة.

وقوله: ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾: أي أهملتُها، ولم أكن أعرفُ من الشريعة إلا شيئاً مجملاً، ثم طرحتُ هذا الشيء الذي عرفته - ولعلّهُ التوحيد - كما قال الشعراوي، وتركتُ لنفسي العنانَ أن تفكر بما شاءت، بدليل أنَّ السامري تابع قوله فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ ﴾ [طه].

فيكون معنى «الرسول» على هذا التفسير هو المعنى الشائع المتعارف وهو «من أُوحي إليه بشرعٍ من الله وأُمر بتطبيقه»، فالرسول هنا المقصود به موسى وليس جبريل؛ لأن جبريل رسول إلى الرُسُل فلم يره أحد.

فصار المعنى الإجمالي للآية الكريمة السابقة: أنَّ السامري قال: إني بصُنعي هذا العجل للعبادة، نقَضْتُ اتِّباعَ شريعة موسى، أي اعترف أمام موسى بصُنعه العجل، واعترف بأنه جَهِلَ فَضَلَّ، ثم اعتذر بأنَّ ذلك من تسويل النفس.

والتسويل: تزيين ما ليس بزين، وتصوير القبيح بصورة الحسن، فتحملُ النفسُ عندها الإنسان على المعصية، والتسويل لا يكون إلا في المعصية، وأي معصية أشد من أن يأخذ شيئاً من أثر الرسول ووحيه ثم يطرحه عن فكره ويتبع هوى نفسه، فما فعله يقول فيه: إنما فعلتُهُ عن هوى النفسِ الأمارةِ بالسُّوء بدون برهان عقلي، أو وحي إلهي لأنه نَبَذَ شريعة الرسول.

قد يقول قائل: كيف خاطب السامري موسى بأنه رسول في قوله: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾، مع أنه جاحِدٌ كافر به؟

والجواب: قد تُطلق كلمة «رسول» من كافر أو منافق ويُراد بها التهكُّم الضمني، وذلك كقول المنافقين: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ [المنافقون ٧].

وكقولهم في [سورة الفرقان ٧]: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾، وهم لم يؤمنوا برسالته.

وكقول المشركين في [سورة الحجر]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾، مع أنهم لم يؤمنوا بالإنزال للذكر عليه ﷺ.

ماذا كان موقف موسى من هذا الجواب من السامري، وبماذا عاقبه؟

قال الرازي: ثم إنَّ موسى لما سمع ذلك الجواب من السامري، أجابه بأن بيَّن حاله في الدنيا والآخرة أولاً، ثم بيَّن حال إلهه وهو العجل، وذلك ما قصه الله علينا في [سورة طه]: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾.

قول موسى له ﴿فَٱذْهَبْ﴾ هو أمر منه ﷺ بخروج السامري من وسط الأمة، وفيها معنى الزجر كقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾ [الإسراء]، وكقول الشاعر:

فاليوم قربْتَ تهجونا وتشْتِمُنا فاذهب، فما بك والأيام من عَجَب

قال أبو بكر الجزائري: نفاه موسى عن قومه وأمر بني إسرائيل ألا يخالطوه ولا يقربوه، ولا يكلموه عقوبةً له، قال الشاعر:

تميمُ كرهطِ السامري وقولِهِ ألا لا يُريد السامري مِساسا

قال العلماء: وهذه المسألة أصْل في نفي أهل المعاصي والبدع وهُجرانهم وألا يُخالَطوا، وهذا ما فعله النبي ﷺ مع الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: كان عقابُ السامري الأول أن خَلَعَهُ موسى من الأمة لأنه ليس من بني إسرائيل، فلم تجْر عليه أحكامُ شريعتهم، ولأن السامري لا يُرجى صلاحه ولا توبته، ويكون موسى قد عَلِمَ ذلك عن طريق الوحي، وأنه ممن حقَّت عليه كلمة العذاب مثل من قال الله تعالى فيهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٩٧ ﴾ [يونس]، أي لا يؤمنون إلا في وقت لا ينفعهم هذا الإيمان.

والله قد يُطلع أنبياءه على أهل النفاق، كما حصل مع النبي ﷺ حين قال عن رجل قاتل قتالاً شديداً ضدَّ المشركين، قال ﷺ: «هو في النار».

كما أَعلَمَ النبيُّ ﷺ حذيفةَ ببعض المنافقين.

قال المفسرون: ثم أخبرنا الله تعالى بما عاقب به السامري في الدنيا والآخرة.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: جعل الله حظَّه في الدنيا أن يقول: ﴿ لَا مِسَاسَ ﴾، وذلك قوله تعالى في [سورة طه ٩٧]: ﴿ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾.

وكلمة «مساس» معناها: لا تَمسُني ولا أَمَسُّكَ، وقد يُراد بها الاقتراب وهي مصدر فعل: ماسَّهُ، أي: لا أَمَسُّ ولا أُمَسُّ.

قال الرازي: كان إذا مسَّهُ أحدٌ حُمَّ الماسُّ والممسوسُ، فكان إذا دنا منه

أحد صرخَ «لا مساس».

قال ابن عاشور: وهي حالة فظيعة أصبح بها سُخرية.

قال أبو مسلم الأصبهاني: ويجوز حمل معنى كلمة «لا مساس» على مَسِّ النساء، فيكون من تعذيب الله إياه انقطاعُ نسله، فلا يكون له ولدٌ يؤنسه، فيُخْلِيْهِ الله إياه من زينتي الدنيا المذكورتين في [سورة الكهف ٤٦]: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، لأنَّ المسَّ يُكنى به عن النكاح كما في [سورة البقرة ٢٣٧]: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾.

وبعد بيان عقوبته الدنيوية، انتقل إلى بيان حاله في الآخرة فقال عز وجل قول موسى له: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ [طه ٩٧]، فيكون المعنى: أنك آتيهِ ولن تغيبَ عنه، فأنت يا سامري ممن خسر الدنيا والآخرة.

حرق العجل ونسفه:

ثم بيَّن موسى للسامري وللذين معه بعد بيان مصيره الدنيوي والأخروي، بيَّن لهم أن هذا العجل لا يستحقُّ الإلهية لأنه معرَّضٌ للامتهان والعجز فقال: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه].

قوله: ﴿ظَلْتَ﴾ أصلُهُ: ظللْت، والعرب قد تحذف منه اللام الأولى تخفيفاً، ومنه:

خلا أنَّ العِتاق من المطايا   أَحَسْنَ به فَهُنَّ إليه شُوسُ

أي ينظرن إليه بمؤخر العين تغيظاً وتكبراً.

والعكوفُ: ملازمةُ العبادة.

وقوله: ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ﴾: المقصود من ذلك إذابته بالنار حتى يُفْسِدَ شكله، وقد يُطلق التحريق على البرد بالمبرد، ولذلك قرأ ابن عباس وعلي وأشهب «لَنَحرُقنَّهُ»، من قولهم: أحرقتُ الشيء حرقاً: إذا بردْتَهُ وحككت بعضه ببعض، والعربُ تقول عن المِبرد: المُحْرِق، ومنه: حرقَ نابه: إذا سحقه حتى يسمع له صريف.

وقوله: ﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾، والنَسْفُ: تغريق الأجزاء الصلبة، واليمُّ: هو البحر الأحمر، وكان يُسمى «القُلزم»، واسمه في التوراة «بحرُ سُوْف»، وكانوا نازلين في ساحله في سفح جبل الطور.

قال العلماء: ذرّاهُ في البحر تذرِيةً حتى لا يُعثر على أثرٍ، وذكر بعض المفسرين بأنه أُوحي إلى موسى بأمرٍ يجعل الذهب رماداً فكان ذلك من آياته عز وجل.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: نهض موسى بعد فراغه من السامري إلى العجل، وألقاه في النار حتى صَهَرَهُ، ولم يكتفِ بصهْره أمام عيون القوم المبهوتين، وإنما نسَفَه في البحر نسْفاً، وهكذا تحوَّل إلههم الذي عبدوه من دون الله ذرّاتٍ تتطاير في البحر، وارتفع صوت رسول الله موسى عليه الصلاة والسلام قائلاً ما قصه الله علينا في [سورة طه]: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ٩٨ ﴾.

وقوله: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ﴾، هذا من موسى تكذيبٌ للسامري حين صنع لهم العجل قال: ﴿ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ ﴾.

وهنا نلاحظ أنَّ موسى التفت من خطاب السامري إلى خطاب الأمة

﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ﴾، إعراضاً عن السامري وتحقيراً له، وقصداً على تنبيههم لخطئهم، ثم لتعليمهم صفات الإله الحق، فقال: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [طه] أي: أنَّ معبودكم المستحق للعبادة ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾، لا العجل الذهبي الذي سوَّلتْ نفسُ السامري صُنْعَهُ.

قال ابن عاشور: وقد اقتصر موسى على ذكر صفتين لله عز وجل وهما: الوحدانيةُ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾، وعموم العلم ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾، لأن الوحدانية تجمعُ جميع الصفات، وعموم العلم، يدل على علم الله الشامل بجميع الكائنات لِيَرْقُبُوه في خاصَّتهم.

فهو عز وجل يعلم مَنْ أطاع ومن عصى، ويعلم استحقاق كل عبدٍ للُّطفِ أو للقهر.

ونحن كما يقول العلماء: لو وقفنا عند قوله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾لتعبْنا؛ لأنه عز وجل يعلمُ ذنوبنا، وعندها سيُجازينا عن السيئة وعن الحسنة، ومَنْ يُطيق ذلك؟

ولذلك علَّمنا الله أن نقول في [سورة غافر ٧]: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ ﴾.

وقال في [الأعراف ١٥٦]: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ ﴾، المؤمن والكافر، فما من مؤمنٍ ولا كافرٍ إلا وعليه آثارُ رحمتِهِ عز وجل ونعمتِهِ في الدنيا، ولكنها تختصُّ في الآخرة بالمؤمنين كما قال تعالى بعدها: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الأعراف]، أكتبها: أي أُثبِّتُها في الآخرة و أُعيِّنُها.

قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ ﴾، قال إبليس: أنا شيءٌ من الأشياء، فأخرجه الله تعالى من ذلك بقوله: ﴿ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾، فقالت اليهود والنصارى: نحن نتقي ونُزكي ونؤمن بآيات الله، فأخرجهم الله تعالى بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف ١٥٧].

قال المفسرون: بعد أنْ بيَّنَ موسى للأمة أنَّ الإله الحق هو الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ٩٨ ﴾ [طه]، أفهمَهُم أنكم قد ارتكبتم جُرماً عظيماً، وأنكم ظلمتُم أنفسكم ظُلماً هو في القِمَّة، وأعلَمَهُم أنَّ كلَّ ظلم يفعله العبدُ يعود ضَرَرُهُ عليه، فلو اتخذ العبدُ إلهاً من دون الله، فإنَّ هذا لن يؤثر في مُلْكِ الله شيئاً، فهو القوي العزيز الغني عنك وعن إيمانك ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣ ﴾ [لقمان]، ثم يُعذبك يوم القيامة، وإن أخذتَ أموال الناس بالباطل، فقد تتمتع بها سنوات أو أسابيع ثم تموتُ وتتركها، وتأخذ معك العذاب والمسؤولية، فكأنك في كل ظُلم ترتكبه قد ظلمتَ نفسك.

حكم الله على من عبدَ العجل:

وقد ذكر الله خطابَ موسى عليه السلام في [سورة البقرة]: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٥٤ ﴾.

قال ابن عاشور في قول موسى لهم: ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾، هذا تشريعٌ لحكمٍ لا يكونُ إلا عن وحي، ولا مجال للاجتهاد فيه، لأن الشرائعَ متفقةٌ على وجوب حفظ النفوس، وهذا يدل على أنه عز وجل كلَّفَهُم بقتل

أنفسهم حقيقةً، إمَّا بقتلِ مَنْ لم يعبُد العجل لمن عبَده، أو أنْ يقتُلَ كلُّ مَنْ عَبَدَ العجل نفسه.

قال القرطبي: المُراد بالقوم هنا، عبدةُ العجل، فلما قال موسى: ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ [البقرة ٥٤]، فقالوا عندها: ما نصنعُ؟ فقال موسى: ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾، أي اعزموا على التوبة، فقالوا: كيف نتوب؟ فقال: ﴿ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾: أي بعضكم، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [الحجرات ١١] أي ليقتل البريءُ منكم المجرم.

قال في «التفسير الكبير»: أوحى الله إلى موسى أنَّ توبة المُرتَدِّ لا تَتِمُّ إلا بالقتل.

قال الزُهري: لما قيل لهم ذلك، قاموا صفَّين، وقتلَ بعضُهم بعْضاً حتى قيل كُفُّوا، فكان ذلك شهادةً للمقتول وتوبةً للحيّ.

قال ابن جرير بسنده عن ابن عباس: أمرَ موسى قومه عن أمرِ ربّه أن يقتلوا أنفسهم، وأخبر الذين عبدوا العجلَ فجلسوا، وقام الذين لم يعبدوه وبأيديهم السلاحُ، وأصابتْهم ظُلمةٌ شديدة، فجعل يقتلُ بعضهُم بعضاً، ولما انْجَلَتْ الظُلْمَةُ، كانوا قد قُتِلَ منهم سبعون ألفاً.

والمحققون لم يذكروا عدد مَنْ قُتِل، لأنَّ العبرةَ من القصة لا تتوقف على العدد، وعندما حدثَ ذلك استصرخَ موسى وهارون ربَّهما، وقالا: "البكيةَ البكيةَ"، أي ابكوا عسى أن يعفُوَ الله عنكم، ووقفوا يبكُوْنَ أمامَ حائط المبكى، فأسرعت إليهم رحمةُ الله.

وقد ذكر الطبري: أنَّ موسى قال في دُعائه: ربَّنا هلكت بنو إسرائيل، ربَّنا البقيةَ البقيةَ، عندها أمرهم بترك السلاح، وتاب عليهم.

قال الطبري: وحزِن موسى، وبنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم، فأوحى الله إليه: ما يُحزنك؟ أمّا مَنْ قُتِلَ منكم، فحيٌّ عندي يُرزق، وأما مَنْ بقي، فقد قبلتُ توبتهُ، فبَشَّر موسى بني إسرائيل بذلك.

قال عبد الرحمن بن زيد: كان الواحدُ منهم يَقتُلُ أباه وأخاه أو ولده وهو لا يدري من الضباب وظُلمتِهِ، وكان شعارُهم بالنداء في ذلك اليوم: «رحم الله امرأً صَبّرَ نفسه حتى يبلغ الله رضاه»، ثم قرأ ابن زيد قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾، لأنَ هذه التوبة صادقةٌ، وهي خير لأنها تُنجيكم من عذاب الآخرة، وتستوجبون الثواب الجزيل.

والبارئ: معناها الذي سوّى الإنسان على أحسنِ تقويم، فالبارئُ أخصُّ من الخالق، لأنَّ الخالق: هو الذي أوجَدَ من العدم، والبارئُ هو الذي سوّى الخلق على هيئة مستقيمة، ومنه بَرَى السَّهْمَ: إذا عَدَّله.

وقوله تعالى: ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾: هنا توبتان:

الأولى: أنه شرعَ لكم الكفارة.

الثانية: تقبلُ توبتكم، والعفو عنكم.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: كانت العقوبة التي قُرّرَتْ على عَبَدَةِ العجل مَهُولةٌ، تتناسبُ مع الجُرم، لأنَّ عِبادةَ العجل إهدارٌ لكرامة العقل، وقتلٌ له، والإنسانُ بلا عقلٍ جمادٌ ولا حياة فيه، فجاءت العقوبةُ إزهاقاً للجسد مُقابل إزهاقِ العقل، ثم تاب الله عليهم.

ثم قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: وأخيراً زال عن موسى الغضب، والتفت إلى مُهمته الأصلية، بعد أن عَنَّفَ أخاه، وبعد الحكم على بني إسرائيل بقتْلِ أنفسهم، وبعد أنْ نسَفَ العجل وذرّاه في البحر، عاد فأخذ

الألواح ليستمرَّ في دعوته إلى الله عز وجل، وتبليغ الشريعة، وذلك قوله عز وجل في [سورة الأعراف]: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

قال الرازي: وأخيراً زال عن موسى الغضب، فكأنَّ الغضب إنسانٌ يُلِحُّ على موسى أنْ يفعل كذا ويفعل كذا، ثم زال الغضب وانتهى، وكانَ أولَ عملٍ قام به موسى عندما غَضِبَ أنه وضعَ الألواح على هيئة الإلقاء، وكان أولَ شيء فعله بعد زوال الغضب، أنه أخذ الألواح، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ﴾، ويُتابع الرازي قوله فيقول: عاد موسى إلى الألواح فأخذها وكانت قد نُقِلتْ عن اللوح المحفوظ؛ لأنَّ النسخَ عبارةٌ عن نقلِ أشكال الكتابة و تحويله من الأصل المنقول عنه، أمّا ما كان في هذه الألواح، فقد وصفه الله عز وجل بقوله: ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الأعراف].

قال البروسوي: فيها بيانٌ للحق، ورحمةٌ للخلق بإرشادهم إلى ما فيه الخير والصلاحُ لأولئك الذين يخافون ربَّهم حقيقة بدون رياء.

قد يقول قائل: لماذا خصَّ أهل الرهبة بأنّهم هم الذين ينتفعون بآيات الله؟

والجواب: لأنَّ العبدَ إذا رغِبَ إلى الله يَصْدُقُ في الطلب، وإذا رَغِبَ في الجنة يُحسن العمل، ويخشى من أليم العذاب، ومِنْ دخول النار، ومَنْ فعل ذلك فقد أخذ بالجناحين اللذين يطيرُ بهما العبدُ إلى رضوان الله، وهما: الخوف والرجاء، وإنما تنشأ الرهبةُ مع العلم بصفاتِ الحقّ تبارك وتعالى، وأهمُّ علاماتِ الرهبةِ من الله مُحاربةُ الهوى والشيطان، ومن جميل ما وردَ عن يحيى بن زكريا، عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام، أنه شَبعَ مَرَّةً فنام

عن حِزْبه تلك الليلة، فأوحى الله إليه: «يا يحيى: هل وجدت داراً خيراً لك من داري - أي الجنة - أو جِواراً خيراً لك من جِواري، وعزتي وجلالي، لو اطلعتَ على الفردوس اطلاعةً لذاب جسمُك، ولَزَهَقتْ نفسُك، اشتياقاً إلى الفردوس الأعلى، ولو اطلعت على جهنم اطلاعةً لبكيتَ الصَّديد بعد الدموع، وللبِسْتَ الحديد بعد النسوج»، ولذلك قال العلماء: «رهبوتٌ خيرٌ من رحموت لأنَّ التخلية قبل التحلية».

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: عاد موسى إلى هارون، واستأنف جهاده في الله عز وجل، وبدأ يقرأ ألواح التوراة على قومه، فقالوا: انشُرها علينا، فإن كانت أوامرُها سهلةً قبلناها، فقال موسى: اقبَلوا بما فيها، فراجعوه مِراراً، فأمر الربُّ عز وجل الملائكة أن ترفع الجبل فوقهم حتى كأنه غمامةٌ.

قال البروسوي: لما جاء موسى بالألواح، وقرأها عليهم، ورأوا ما فيها من التكاليف، استصعَبوها، وقالوا: لا نقْبَلها.

وقد ذكر القرطبي: أنَّ بني إسرائيل قالوا: لا نقبَلَها إلا أنْ يُكَلِّمُنا الله كما كَلَّمَكَ، فأمر الربُّ عز وجل الملائكة، فرفعوا الطورَ فوقهم حتى كان مثل الظُّلَّة، وكان رفعُ الجبل على قدرِ معسكرهم فرسخاً في فرسخ.

قال موسى: إن قبلتم بما جاءكم في الألواح فبها، وإلا أُلقي عليكم، فقالوا: نقبلُ، وسجدوا، وجعلوا يُلاحظون الجبل وهم سجود لئلا ينزل عليهم، فصار السجود عادة في اليهود لا يسجدون إلا على أنصاف وجوههم على اليسار، ويقولون: رُفِعَ عنا العذاب بهذا السجود، وكان هذا السجود توبةً منهم لله تعالى، وشكراً له سبحانه، ولذلك قالوا بعدها: لا سجدةَ أفضلُ من سجدةٍ تقبَّلها ربُّنا ورحم بها عباده، فأمَرّوا سُجودهم على شق واحد، وذلك في قوله تعالى في [الأعراف]: ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ

وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾.

وقوله: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ ﴾ أي خذوا ما أعطيناكم من أحكام الشريعة، وهي الوصايا العشر في التوراة وشرعِهِ بقوةِ عزيمةٍ، وعزمٍ على احتمال مشاقِّه، ويكونُ ذلك بالإخلاص والدرس وبالعمل بما فيه.

وقوله: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ ﴾ أي لا تغفلوا عنه وتَدَّبروهُ والتزموا به حتى تكونوا من المتقين.

ولذلك قال بعد ذلك ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾، وما أجمل قول القرطبي إذ يقول عن هذه الآية: وهذا هو المقصود من الكتب المنزلة عموماً، وهوالعملُ بها وبمقتضاها لا تِلاوتها باللسان وترتيلها.

وقوله: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ قال ابن عيينة: إنَّ التلاوةَ بدون عمل نبذٌ لكتاب الله.

وقال الشعبي: كانت التوراة بين أيديهم، لكنْ نَبَذْوا العَمَلَ بها.

وقال ابن عيينة: أدْرَجُوه في الحرير والديباج، وحَلّوْهُ بالذهب والفضة، ولم يُحِلّوا حلالهُ، ولم يُحرموا حرامه، فذلك النبذُ.

ولذلك ورد عن رسول الله ﷺ فيما رواه النسائي من حديث أبي سعيد أنه ﷺ قال: «إنَّ من شرِّ الناس رجلاً فاسقاً يقرأ القرآن، ولا يَرْعَوِي بشيءٍ منه».

وقال مالك: قد يقرأ القرآن مالا خيرَ فيه.

قال القرطبي: وما كان واجباً على من قَبْلنا، كان واجباً علينا فنحن مأمورون باتباع كتاب الله «القرآن» والعمل به ولكن تركنا ذلك كما ترك اليهود والنصارى، وبقيتْ أشخاصُ المصاحف لا تُفيد شيئاً، لغلبةِ الجهل،

واتباع الأهواء، وطلبِ الرئاسة.

وروى الترمذي عن جبير بن نفيل، عن أبي الدرداء قال: كنا مع النبي ﷺ، فشخَصَ ببصره إلى السماء، ثم قال: «هنا أوانٌ يُختلس - أي يُسْلَبُ - فيه العلمُ من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء»، فقال لبيد الأنصاري: كيف يُختلس منا، وقد قرأنا القرآن؟!! فوالله لَنقرَأَنَّهُ ونُقرِئنَّهُ نساءنا وأبناءنا، فقال النبي ﷺ: «ثكلتكَ أمكَ يا زياد إن كنتُ لأعُدُّك من فقهاء المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى، فماذا تُغني عنهم».

وفي الموطأ عن عبد الله بن مسعود، أنه قال لإنسان: إنك في زمانٍ كثيرٍ فقهاؤُه، قليل قُراؤُه، تُحفظ فيه حدود القرآن، وتضيعُ حروفه، قليل من يسأل، وكثير من يُعطي، يُطيلون الصلاة، ويُقَصِّرون الخطبة، ويبدؤون فيه أعمالهم قبل أهوائهم، وسيأتي على الناس زمانٌ قليلٌ فُقهاؤُه، كثيرٌ قُراؤه، تُحفظ فيه حروف القرآن وتُضَيَّعُ حدودُه، كثيرٌ من يسأل، قليلٌ من يُعطي، يُطيلون في الخطبة، ويقصِّرون في الصلاة، يبدؤون فيه أهواءهم قبل أعمالهم، أي: يتبعون أهواءهم، ويتركون العملَ بما افتُرِضَ عليهم.

فالطريق الموصل للتقوى، هو أخذُ التشريع بقوةٍ للعمل به، ولذلك قال: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي اجعلوا العمل بالكتاب وقايةً لكم من النار، فالتقوى: جَعْلُ وقايةٍ بينك وبين عذاب الله بالعمل بقوةٍ في كل ما أمرك به، ومنه قول عنترة:

ولقد كررْتُ المُهْرَ يُدمى نحرُهُ   حتى اتقتْني الخيلُ بابني حِذْيَم

قال صاحب كتاب «أنبياء الله» عند قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧١﴾ [الأعراف].

قال: وهكذا أثبت بنو إسرائيل أنهم لا يُسلمون وجوههم إلا إذا لُوِيَتْ أعناقُهم بمعجزةٍ حسِّيةٍ، ولعلَّ السببً أنهم تَرَبَّوا عند فرعون، واعتادوا أن يسيروا بالقوة القاهرة، ولابدَّ للإيمان في نفوسٍ كهذه أن يأخذَ بهذا المسلكِ لينقذهم من طفولتهم البشرية، وليخلِّصَهم شيئاً فشيئاً من تربية الذُلِّ التي نشؤوا عليها.

الذهاب إلى ميقات التوبة:

وقصة ذهاب موسى إلى ميقات التوبة رواها المفسرون فقالوا: إنَّ موسى بعد أن أحرق العجل وذَرّاهُ في البحر، وندم بنو إسرائيل على ما فعلوا، وقالوا: لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونَنَّ من الخاسرين، عندها اختار موسى من قومه سبعين رجلاً من خيارهم، وقال: انطلقوا إلى طور سيناء لتعتذروا إلى الله عز وجل من عبادة العجل، واسألوا ربكم التوبةَ على قومكم، فصوموا وتطهروا، وطَهروا نياتِكم، فخرج بهم موسى إلى طور سيناء لميقاتٍ وقَّتَهُ له ربُّه سبحانه وتعالى.

ففعلوا ما أمرهم به موسى من التطهير والصوم، وخرجوا للاعتذار، ولما وصلوا إلى هناك قالوا: يا موسى: اطلب لنا من ربِّنا أن يُسمعنا كلامه، فقال لهم موسى: أفعلُ، فسأل ربَّه فأجابه لذلك، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمودُ الغمام حتى تغشّى الجبلَ كلَّه، ودخل موسى فيه، وقال للقوم: ادْنُوا وادخُلوا، أي في الغمام، وخَرُّوا سجداً.

وكان موسى إذا كلَّمه ربه وقع على وجهه نورٌ ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضُرب دونهم بالحجاب، وسمعوا كلام الله وهو يكلم موسى يأمره وينهاه، افعلْ ولا تفعلْ.

وقد ذكر البغوي: أنهم سمعوا كلام الله، وأنه عز وجل خاطبهم بقوله:

«إني أنا الله لا إله إلا أنا ذو بَكَّة – أي ذو قوة – أخرجتكم من أرض مصر بيدٍ شديدةٍ، فاعبدوني ولا تعبدوا غيري».

قال البغوي: فلما فرغ موسى وانجلى الغمامُ، أقبل إليهم، فقالوا ما قالوا: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾[البقرة ٥٥].

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: ولعل معجزةً مثل هذه تكفي لحمل الإيمان إلى القلوب مدى الحياة، غيرَ أنَّ هؤلاء لم يكتفوا بما سمعوا، فطلبوا الرؤية، فقالوا لموسى: سمعنا ونحب أن نرى، وهذه مأساةٌ تُثير الدهشة، مأساة تُشير إلى قساوة القلوب، وتمسُّكها بالحِسِّيات، بعد أن رأت ما رأت، وسمعت من كلام الله ما سمعت، ولهذا كان الجواب على طلبهم عقوبةً صاعقةً، فقال عز وجل: ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [البقرة]، أخذت الصاعقةُ من طلب ذلك.

وقولهم: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ ﴾ أي لن نُقِرَّ لك بما ادَّعَيْتَهُ من التعاليم والأمر والنهي. وقولهم: ﴿ جَهْرَةً ﴾ أي عياناً، تقول: جاهر فلان بهذا الأمر: أي أظهره علانيةً بدون استتار، أي أظهره لرأي العين وأعلَنَهُ، ومنه قول الفرزدق:

من اللائي يظل الألفُ منه مُنيخاً من مَخافته جِهارا

وقوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾، والصاعقة: نار كهربائية من السحاب تحرقُ مَنْ أصابته، وقد لا تظهر النارُ، ولكن يصل هواؤها إلى الأحياء فيختنقون بسبب ما يخالِط الهواء الذي يتنفسونه من الحوامض الناشئة عن شِدة الكهربائية – كما قال ابن عاشور –.

وقوله: ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ أي ينظر بعضكم إلى بعض حين أخذكم

الموتُ.

قال الرازي في قوله تعالى: ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ أي العقوبة؛ لأن العقوبة المنظورة أشدُّ في تأثيرها من التي تأتي فجأةً، وهذا تهويلٌ وتعظيم لأمر هذه العقوبة.

قال ابن القيم: ماتوا جميعاً، أي من طلب الرؤية.

قال المفسرون: ولم يدخل موسى فيما أصابهم، وإنما قام يُناشد ربَّه ويدعو – كما ذكر الرازي – حيث قال:

قام موسى رافعاً يديه إلى السماء يقول: يا إلهي اخترتُ من بني إسرائيل سبعين رجلاً ليكونوا شهودي على قبولِ توبتهم، فأرجع إليهم وليس معي أحد منهم، فلم يزل موسى مشتغلاً بالدعاء حتى ردَّ الله أرواحهم إليهم، وقد ذكرت لنا [سورة الأعراف] دعاء موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ [البقرة]، أي مُتّم من الصاعقة، ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾، وهذا خارقُ عادةٍ جعله الله معجزةً لموسى استجابةً لدعائه وشفاعته، والبعث: التحريكُ والإرسالُ، ومنه قول عنترة:

وصاحبةٍ شمِّ الأنوفِ بعثتهم ... ليلاً وقد مال الكرى بطُلاها

– أي أعناقها –

قال قتادة: ماتوا ثم رُدُّوا إلى الحياة لاستيفاء آجالهم وأرزاقهم وكانت

تلك الموتَةُ بلا أجل، وإنما هي كالسكتةِ القلبية بالنسبة لغيرهم؛ لأنهم لو ماتوا بآجالهم لم يُبعثوا إلى يوم القيامة فصعْقَتُهم بمنزلة الإغماء، وكان موتهم يوماً وليلة.

هنا سؤال: قد يقول قائل: إنَّ موسى طلب الرؤية فصُعق ولم يمت، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣ ﴾ [الأعراف].

فموسى لم يمت من الصعقة بدليل قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ ﴾ فكانت الصاعقة له كنوع إغماء.

ولكن مع قوم موسى قال: ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ ﴾ [البقرة]، لماذا؟

والجواب: إن موسى سأل ربه الرؤية سؤالَ اشتياق وافتقار، وسؤالُ قوم موسى الرؤية سؤال اجتراء وتَعنُّت، فإنهم ظنوا أن الله تعالى يُشبه الأجسام فطلبوا رؤية الأجسام في الجهات المقابلة للرائي، وهذا مُحال.

وقوله: ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٥٦ ﴾: أي لعلكم تشكرون نعمة الإيمان فلا تعودون إلى اقتراح بعد ظهور المعجزة، أو لعلكم تشكرون بأن تأتوا بالطاعات جميعاً، كقوله تعالى: ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ ﴾ [سبأ ١٣].

والآن نقف عند قول موسى عندما دعا ربّه أن يُحيِهم قال: ﴿ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ ﴾، و أجمل ما قيل في تفسيرها، ما ذكره ابن القيم في «إغاثة اللهفان» قال: والذي يظهر والله أعلم بمُراده ومراد نبيّه، أن

هذا استعطافٌ من موسى عليه السلام لربّه، وتوسلٌ إليه بعفوه عنهم من قبلُ حين عبدوا العجل، وسُكِتَ عنهم، يقول موسى: «إلهي، إنه قد تقدم منهم ما يقتضي هلاكهم، ومع هذا وَسِعَهم عفوُكَ، ووسعتهم مغفرتك ولم تُهلكهم، فليسعهم يا رب اليوم ما وسعهم من قبل»، وهذا كمن وَاخَذَهُ سيده بجرم فيقول: يا سيدي، لو شئت واخذتني قبل هذا بِجُرمٍ هو أعظم من هذا الجُرم، ولكن وُسِعَنِي عفوكَ أولاً فليسعني عفوك ثانياً اليوم.

قال البروسوي: أراد بذلك العفو السابق، لاستجلاب العفو اللاحق.

ونلاحظ في الآية أن موسى قال: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ﴾، ولم يقل: «أهلكتنا»، وذلك لبيان الفرق بين الإهلاكين وبين المسلكين.

وقوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾؟

قال المبرد: هذا استفهام واستعطاف، أي لا تُهلكنا، والهمزة لإنكار وقوع الهلاك، وكأنه يقول: ربنا نثق بلطفك فلا تُهلكنا.

وقد يكون المعنى: أن موسى خشي أن تكون الرجفة أمارة غضب ومُقدمة إهلاك الذين عبدوا العجل، فيكون اعترافاً من موسى بمنة العفو عنهم فيما سبق، وتمهيداً لطلب العفو الآن، وهذا هو المقصود من قوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾، أي لم تشأ إهلاكهم حين تلبّسوا بعبادة العجل، فلا تُهلكهم الآن، كما قال ابن عاشور في تفسيره.

وقوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾: الفتنة: هي الاختبار والامتحان، فأنت يا رب جعلتهم مختارين، قد يصدر عنهم ما هو طاعة، وقد يصدر منهم ما هو معصية، والله هو الذي يُضِلُّ ويَهدي، وبيّن الله سبحانه من يشاء هدايته، ومن يشاء إضلاله فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة]، فالسببُ

في عدم هدايتهم ظلمُهم، وفي مكان آخر يقول الله عز وجل في [سورة البقرة]: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤ ﴾ فالكفر هنا الصادر عنهم هو الذي يمنعهم الهداية.

ثم قال موسى ما ذكرته ختام الآية: ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥ ﴾ [الأعراف].

والولي: هو الذي له ولايةٌ على أحد، والوَلايةُ: حِلْفٌ يقتضي النُصرة والإعانة والحفظ، فإن كان من جانبين متكافئين فكل المتعاقدين يُقال لهم مولى، وإن كان أحد الجانبين أقوى قيل للقوي «وليّ»، وللضعيف «مولى».

ولما كانت الولاية غير قابلة للتعدد – لأن المرءَ لا يتولى غير مواليه – كان قول موسى ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا ﴾ يقتضي عدم الانتصار بغير الله، وتلمسُ صراحة ذلك في صيغة الحصر: ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا ﴾.

قال الرازي: والمتوقع من الولي أمران: دفع الضرر، وتحصيل النفع.

ودفع الضرر مقدم على جلب النفع، ولذلك بدأ موسى به فقال: ﴿ فَٱغۡفِرۡ لَنَا ﴾ ما فعلناه من المعاصي، وقوله: ﴿ وَٱرۡحَمۡنَاۖ ﴾ بإفاضة آثار الرحمة علينا في الدنيا والآخرة.

وقال ابن الشيخ: المغفرة: إسقاط العقوبة، والرحمة: إيصال الخير، وقدَّم الأول – المغفرة – على الثاني – الرحمة – لأن دفع الضرر مقدم على تحصيل المنفعة، وهذا في القرآن كثير، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران ١٨٥]، وهذا دَرْءُ ضررٍ ومَفسدة، وقوله: ﴿ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾، وهذا جلبُ منفعة، فدرءُ المفسدة مُقَدَّمٌ على جلب المصلحة.

وبعض المفسرين ضربَ مثلاً لذلك بقوله: لو رأيت تفاحة على شجرة،

ومددتَ يدك لأخذها، ثم التفت فوجدت شخصاً يحمل قطعة لِبْنٍ ليرميك بها، فأنت في مثل هذه الحالة الانفعالية تدفع - الطوبة - أولاً، ثم تأخذ التفاحة ثانياً، فهذا يعني: درء المفسدة مقدم على جلب المنفعة.

وقوله: ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴾ لأنك تغفر السيئة وتبدلها بالحسنة، ثم إن سواك يا رب قد يغفر ويتجاوز عمن أساء إليه طلباً للثناء والمدح، أو طلباً لثواب، وقد يغفر خوفاً من بطش المقابل، أما أنتَ يا رب، فإنك تغفر ذنوبَ عبادك دون عِوضٍ، أو غَرضٍ، بل بمحضِ الفضل والكرم، فلا شك أنك خير الغافرين، وأرحم الراحمين.

وقدَّم المغفرة على الرحمة؛ لأن المغفرة سبب لرحماتٍ كثيرة؛ لأن المغفرة إنهاءٌ للغضب المُترتب على الذنب، فإذا انتهى الغضب تسنَّى أن يخلفه الرضا، والرضا يقتضي الإحسان.

قال المفسرون: وتابع موسى عليه السلام دعاءه إلى الله طالباً منه طلباتٍ جديدة، وذلك ما ذكره الكتاب الكريم في [سورة الأعراف ١٥٦]: ﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ ﴾.

قال القاسمي: المعنى أَثْبِتْ لنا في هذه الدنيا التوفيق للطاعة، والحياة الطيبة، والعافية، وكلَّ شيء حسنٍ، وأما حَسَنَةُ الآخرة فهي الثوابُ الحسن، والجنة، ورضوان الله تعالى، واستعمل لفظ الكتابة ﴿ وَٱكْتُبْ ﴾ للدلالة على الدوام والثبوت؛ لأنَّ الكتابة أدومُ، ويكون المعنى كما قال ابن عاشور: آتنا الحسنةَ تِلْوَ الحسنة في أزمان حياتنا، وفي يوم القيامة.

قال الرازي: وهذا الدعاء من موسى يشبهُ قول المؤمنين من هذه الأمة: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [البقرة] هذا دعاء المُوحِّدين يسألون الله تعالى حسنةَ

الدنيا وحسنةَ الآخرة، بينما المشركون في الجاهلية إذا قَضَوْا الحجَّ والمناسكَ، وقفوا عند الحُجُرات يُفاخرون بآبائهم حتى إن رجلاً منهم يقول: «إن أبي كان عظيمَ القُبَّةِ، عظيم الجفنةِ، كثير المال، فاعطني مثل ما أعطيته».

قال ابن عطية: كانت عاداتهم في الجاهلية ألّا يطلبوا من الله إلا مصالحَ الدنيا، ولذلك قال تعالى عن هؤلاء: ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [البقرة]، يقول: يا رب أعطني إبلاً، غنماً، أعطني بقراً، وأعطني حائطاً - أي بستاناً - ومثلُ هذا يكون ساقطَ الهمةِ لاحظَّ له في نعيم الآخرة.

ولذلك يُعلّم اللهُ المؤمنين أنْ يرتفعوا بدعائهم إلى ما هو أسمى من الدنيا وحدها، إلى ما هو أخلدُ وأبقى، ولذلك قال: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [البقرة].

فإذا طلبنا من الله الدنيا وحدها فما الفارق بيننا وبين أهل الجاهلية، وأين مزيَّةُ الإيمان عندئذ؟

ولذلك قال العلماء: هذه الآية من جوامع الدعاء التي عمّتْ الدنيا والآخرة.

ولذلك لما قيل لأنس بن مالك: ادعُ لنا الله فقال: «اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»، فقالوا: زِدْنا، فقال: ما تريدون؟! قد سألت الله الدنيا والآخرة.

وفي سنن ابن ماجة عن عطاء عن أبي رباح، أنه سُئِل عن الركن اليماني، فقال: حدثني أبو هريرة أنَّ النبي ﷺ قال: «وُكِّلَ به سبعون ملكاً، فمن قال:

اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، قالوا – أي الملائكة السبعون – آمين».

وفي الصحيحين من حديث أنس أنَّ أكثرَ دعوةٍ كان يدعوها النبي ﷺ: «اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».

أما قول موسى: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ أي رجعنا وتُبْنا مما صدر منا من طَلْبِ الرؤية، يُقال: هادَ، يَهُود: إذا رجع العبد وتاب، أي تُبْنا من تقصيرنا وهذا إخبارٌ من موسى عن نفسه وعن المختارين من قومه بما يعلم من صدق سرائرهم.

ومن هذا قول القائل:

يا راكبَ الذنبِ هُد[1]، هُد   واسجُد كأنك هُدهُد

وكقول القائل: وإني امرؤ مما جنيتُ هائد – أي راجع وتائب –

وبعدما قصَّ الله علينا دعاء موسى، أجابه الرب عز وجل بقوله: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف ١٥٦]، أي: إني قادر على تخصيص العذاب بمن عَصَوْا، وتنجيةِ من لم يَشارك في العصيان، وليس لأحدٍ اعتراضٌ،؛ لأنَّ الكل ملكي.

وقوله: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ أي لا نهاية لها، فقد وسعتْ كلَّ مخلوقٍ حتى وإنَّ البهيمة لها رحمةٌ وعطفٌ على ولدها.

قال البروسوي في تفسيره «روح البيان»: ما من مسلم ولا كافر، إلا وعليه آثارُ رحمة الله ونعمته في الدنيا، فرحمتُهُ عز وجل في الدنيا عمتْ، أما في الآخرة فهي خاصة بالمؤمنين ولذلك قال تعالى: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

---

(١) هُد: أي ارجع وتُبْ، والتكرار للتأكيد

﴿ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ﴾ [الأعراف].

قال الآلوسي: يتقون الكفرَ والمعاصي، وكذلك الشرك والفواحش، ويؤتون الزكاة المفروضة عليهم، ثم قال: وجاء ذكرُ الزكاة هنا للتعريض ببني إسرائيل لمشقَّةِ دفع الزكاة عليهم لمزيدِ حُبهم للدنيا.

ثم إن اليهود والنصارى قالوا: نحن نتقي، ونؤتي الزكاة، ونؤمن بآيات ربنا فتشملنا الرحمة والجنة، فأخرجهم الله بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ﴾ [الأعراف ١٥٧].

قال القاسمي في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ ﴾، قال: هذه بشائر الأنبياء عليهم صلوت الله وسلامه برسالة محمد ﷺ في التوراة والإنجيل.

قال الماوردي في «أعلام النبوة»: وقد تقدمتْ بشائرُ السابقين من الأنبياء بنبوة محمد ﷺ لتكون هذه البشائر حجةً على أُممِهم.

ومن الأنبياء السابقين، من عيَّنَ النبي ﷺ محمداً باسمه، ومنهم من ذكره بصفته، ومِنْ مَنْ عَزاهُ إلى قومه، ومنهم من أضافه إلى بلده، ومنهم من خصَّه بأفعاله، وقد تحقق كل ذلك فيه ﷺ.

وقد أخرج الإمام أحمد عن الجريري عن العُقَيْلي، بإسناد قوي كما قال ابن كثير، وله شاهد في الصحيح عن أعرابي قال: جَلَبْتُ حَلوبةً إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ، فلما فرغتُ من بيعها، قلت: لألفَيَنَّ هذا الرجلَ، فلأسمَعَنَّ منه.

قال الأعرابي: فتلقَّاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فتبعتُهم حتى أتَوْا على رجلٍ من اليهود ناشرَ التوراةِ يقرؤها يُعَزِّي بها نفسه عن ابنٍ له في سياق الموت، كأجمل الفتيان وأحسنها، فقال النبي ﷺ لليهودي: «أَنْشُدُكَ بالذي أنزل التوراةَ هل تجدُ في كتابك هذا صفتي ومخرجي؟»، قال الرجل اليهودي برأسه، هكذا، أي لا، فقال ابنه المريض: إي والذي أنزل التوراة إنا لنجدُ صِفَتكَ ومخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال النبي ﷺ: «أقيموا اليهوديَّ عن أخيكم»، ثم تولى النبي ﷺ كفنَه والصلاة عليه.

وفي صحيح البخاري، من حديث عطاء بن يسار، قال: لقيتُ عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلتُ: أخبرني عن صِفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل: والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحِرْزاً للأميين أنت عبدي ورسولي، سميتُكَ المتوكل، وليس بفظٍّ ولا غليظٍ ولا صخَّابٍ في الأسواق، ولا يدفعُ بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله تعالى حتى يُقيمَ به الملةَ العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعيُناً عمياء، وآذاناً صمّاء، وقُلوباً غُلفاً».

وقوله: ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الأعراف ١٥٧]:

قال ابن كثير: هذه صفةُ الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة يأمر بكل خير، وينهى عن كل شر، ولذلك ورد عند الإمام أحمد عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال: «إذا سمعتم عن رسول الله ﷺ حديثاً فظُنُّوا به الذي هو أهدى، والذي هو أهنى، والذي هو أتقى».

وقوله: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف

١٥٧].

والطيِّبُ: ما لا ضُرَّ فيه، ولا وَخامَةَ ولا قذارة.

والخبيث: ما أَضرَّ، أو كان وخيمَ العاقبة، أو كان مستقذراً لا يقبله العقلاء، كالنجاسة، وهذا ملاكُ المباحِ والمحرمِ من المأكل، ولا تدخل العادات في التحريم والتحليل، إلا ما اختار الناس من المباح، فالعنب ليس حراماً ولكن قريشاً كانت لا تأكله.

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾: لحمُ الخنزير منها، ومنها الربا والرشا، والدم والميتةُ، والمستقذراتُ، كالعقارب والأفاعي.

قال بعضهم: كلُّ ما أحلَّ الله من المآكل فهو طيب نافعٌ للبدن والدين، وكل ما حرم الله من المآكل خبيث للبدن والدين.

وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[الأعراف ١٥٧].

والإصْرُ: كل ما يَثْقُلُ على الإنسان من قول أو فعل، فالإصْر: الثِقَلُ، وقرئ: «آصارَهُم»: والإصْرُ: مَصْدَرٌ يقع على القليل والكثير، والمراد بذلك إبطالُ ونسخُ ما كان فيه شدةٌ عليهم من الشرائع الإلهية السابقة، وذلك مثل: تحريم طبخ الجدي بلبن أمّه، ومن الأثقال: تركُ الشغل يوم السبت.

وكذلك «سبتُ المزارع» حيث جعلوا سبتاً للمزارع، ففي كلّ سنةٍ سبْتٌ للأرض، لا يُزرع فيها، ولا يُقطف الكرم وتأكلها هوام البرية والفقراء، ومَنْ شتم أباه أو أمه، أو ضربهما يُقتل حدّاً، وإذا أمسكت امرأة عورة رجل قُطعت يدها، وكذلك لم تكن عندهم الدّيةُ في القتل، بل كان القصاص في العمد والخطأ.

ولم تُشرع لهم التوبة من الذنوب، ولا يُستتاب المجرم، كما كان عليهم قرضُ الثوب من موضع النجاسة وعدم الاكتفاء بغسله، ولم تحل لهم الغنائم بل تحرق.

قال مسروق: لقد كان الرجل من بني إسرائيل يُذْنب الذنب، فيصبح وقد كُتب على باب بيته: إنَّ كفارَته تنزعُ عينيك فينزعُهُما.

وقوله: ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ﴾: الأغلال: جمعُ غُلٍّ، وأصله ما يوضع في رقبة الأسير أو الجاني من سلسلة أو جلدٍ كما في قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾﴾ [غافر].

فهنا شُبهت التكاليف الشاقة عليهم بأنها أغلالٌ وقيودٌ، والعربُ تقول عندما يطلبون من أحدٍ حاجةً بإلحاح يقولون: جَعلْتُ هذا طوقاً في عنقك.

ومنه قول الصحابي «أبي محمد الضرير» يُخاطب أبا سفيان عندما أخذ له بيته في مكة، وذلك قبل إسلام أبي سفيان:

اذهب بها، اذهب بها   طُوِّقْتَها طوقَ الحمامة

فصار المعنى الإجمالي للآية: إنَّ شريعة النبي الأمي جاءت بالتيسير والسماحة، ولذلك قال النبي ﷺ «بُعثتُ بالحنيفية السمحة».

قال الجشمي: وهذه الآيات تدلك على أن شريعة محمد ﷺ أسهلُ الشرائع.

قصة البقرة:

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: مكثَ موسى في قومه يدعوهم إلى الله بهمةٍ وقوة، ولكن نفوسهم كانت ملتويةً، يظهر منها العنادُ واللَّجاج بوضوح، وبدا ذلك جلياً فيما يُعرف «بقصة البقرة» حيث الموضوع لم يكن يقتضي كلَّ

هذه المفاوضات، كلَّ هذا التعنتِ منهم، فما هي القصة؟

روى ابن حاتم عن عبيدة السَّلْماني قال:

كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له، وكان عنده مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتملَه ليلاً فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدَّعيه عليهم حتى تسلَّحُوا، وركب بعضهم على بعض - أي للقتال.

قال أهل الرأي منهم والنهي: علامَ يقتل بعضُنا بعضاً وهذا رسول الله فيكم؟!

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: والظاهرُ أنَّ المقتول كان ذا مكانة عالية في قومه من بني إسرائيل، وأنَّ خفاءَ الجريمةِ جَرَّ إلى ما يُشبه الفتنة.

عندها أتوا إلى موسى عليه الصلاة والسلام فاحتكموا إليه، عندها قال لهم موسى ما ذكرته الآية: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾ [سورة البقرة ٦٧]، حيث السورة بهذا الاسم.

ونُلاحظ أنَّ الآية بُدِئَتْ بلفظ «وإذ» أي واذكروا إذْ قال موسى إنَّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرةً، ولم تذكر الآية لماذا أمرهم بذبح بقرةٍ.

والمفروض في كل الأمور، أنَّ الأمر تسبقه علَّتُهُ، أما هنا فقد جاء بالأمر أولاً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾، ثم لا بُدَّ من قراءة الآيات كلها لتعرف العلة والسبب بعد ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [البقرة].

فلماذا أخَّر ذكر سبب ذبح البقرة، وقدَّم الأمر بالذبح؟

قال المفسرون: هنا تكمن عظمةُ القرآن الكريم، ولتنتبه إلى ذلك نقول:

إنَّ أُسلوبَ القرآن في القصص يأخذ بمجامع القلوب، ويحركُ الفكر إلى النظر تحريكاً، ويُبهر النفسَ للاعتبار هزّاً، فأحياناً نرى القرآن في قصصه عن بني إسرائيل يبدأ بذكر المِنَنِ والنِعَمِ التي منحهم إياها، ثم يذكر كيف قابلوا ذلك بالكفران والفسوق، ثم كان نتيجة فسوقهم تأديبهم بالعقوبات، وكيف كانوا يُحْدِثون بعد كلّ عقوبة توبة، ثم تأتيهم بعد التوبة نعمةٌ، ثم يعودون إلى بَطرهم وفسادهم.

إذاً كانت الآيات السابقة تذكر النعمة، فالمخالفة، فالعقوبة، فالتوبة، فالرحمة.

أما هنا فقد اختلفَ النَّسَقُ، فقد جاء ذكر المخالفة والجريمة بعد الطلب بالذبح والجريمة هي ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا ﴾، ثم تأتي المِنَّةُ في الخلاص منها في قوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾، كلُّ ذلك كان متأخراً على ذكر وسيلة الخلاص وهي «ذبح البقرة»، فكل هذا يُعجِّبُ السامعَ ويُشَوِّقُه إلى معرفة ما وراءها «وراء ذبح البقرة»، لأن موسى لما طلب ذبح البقرة لم يُبَيِنْ العلةَ والسببَ لهذا الطلب، وهذا يُثير الشوقَ في الأنفسِ إلى معرفة سبب هذا الطلب من موسى، فتَتَوجَّهُ الفكرة كُلُّها إلى تَلقِّيه، لأن الحكمة في أمر الله أمةً من الأمم بذبحِ بقرةٍ، حَفيَّةٌ وجديرةٌ بأن يعْجَبَ منها السامع، ويحرص على معرفتها.

قال العلماء: وتظهر عظمة القرآن الكريم هنا، بكون العلة جاءت متأخرة عن الأمر، بما قاله العلماء وهو: أن السؤال عن العلة مستساغٌ إذا كان الأمرُ صادراً إليك من مُساوٍ لك، فإذا قال لك إنسانٌ: افعل كذا.. تسألهُ: لماذا؟ حتى أُطيعَ الامر وأُنفذه، حيث الأمرُ من مساوٍ لك تسألهُ عن سببه وعلته، ولكن لما يأتي الأمرُ من غير المساوي، كأمر الأب لابنِه، والطبيبِ لمريضه،

والقائد لجنوده، مثلُ هذا الأمر لا يُسأل عن علّته قبل تنفيذه، لأن الذي أصدر الأمرَ أحكمُ من المأمور، ولو أنَّ كلَ مُكلَّفٍ من الله أقبلَ يسألُ عن علةِ كلِّ تكليفٍ قبل التنفيذ فيكون قد فعلَ الأمرَ من أجل العلة، ولا يكون إيماناً بالله عز وجل، وعندها يستوي أن يكونَ الإنسان مؤمناً أو غير مؤمن، وعندما يُنَفِّذُ الأمرَ من أجلِ العلةِ فلا ثوابَ عندها من الله عز وجل.

فالمؤمنُ يتلقى الأمر من الله طائعاً سواءٌ عرفَ علَّته أم لم يعرف كما قال المفسرون، ولذلك نرى أنَّ الحق تبارك وتعالى عندما يريد أنْ يكلف تكليفاً يبدأ بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ .. ﴾ بالله ربَّاً وإلهاً وخالقاً.

قال الشعراوي: هذا هو المفهوم الإيماني الذي أراد الله أنْ يلفتنا إليه في قصة البقرة، ولذلك لم يأتِ بالعلةِ أو السبب أولاً، بل أتى بالقصة ثم أخبرنا بعد كمال القصة بالسبب، وسواء أخبرنا عز وجل عن السبب أم لم يُخبرنا، فهذا لا يُغير في إيماننا بأنَّ ما حدث حقيقةٌ، وأن القصة لها حكمةٌ، وإن خفيتْ علينا هذه الحكمة.

قال العلماء: أراد الله من الأمر لبني إسرائيل بذبح بقرة، أن يختبر إيمانهم، ومدى قيامهم بتنفيذ التكليف دون تلكؤٍ أو تباطؤ، وكان الواجبَ عليهم أن يسرعوا في التنفيذ، وأن يذبحوا أي بقرةٍ كانت، لأن الأمر واضحٌ لا إشكال فيه، فهو بمنزلةِ قوله: «أعتقْ رقبة، أطعم مسكيناً، صُمْ كذا يوم»، ولكنهم تَعَنَّتوا وتَشَدَّدوا على أنفسهم فشدَّد الله عليهم.

قال أبو جعفر بن جرير الطبري، عن أبي العالية: لو أنَّ القوم حين أُمروا أن يذبحوا بقرة، استعرضوا بقرةً من البقر فذبحوها لكانت إياها، ولكنهم تشدَّدوا فشدَّد الله عليهم.

والبقرة معروفةٌ: وهي أنثى الثور، مثلُ ناقة وجمل، وسُميت بقرة من

البقرِ، وهو الشَقُّ، لأنها تبقُر الأرض أي تشقُها بالحراثة.

قد يقول قائل: لماذا كان الأمر بذبح حيوان البقر دون غيره من الحيوانات؟

والجواب: قال الماوردي: وإنما أُمِروا بذبح بقرة دون غيرها، لأنهم عبدوا العجل، وهو من البقر، فأراد الله أن يُهوِّنَ عندهم ما كانوا يُعظِّمون، وليخرجَ من نفوسهم تقديسه وتعظيمه، وليعلم مدى توبتهم فيقيمَ الحُجة عليهم.

قال العلماء: لما طلب منهم موسى ذبح البقرة، كان جوابهم يدل على منتهى سوءِ أدبهم مع نبيٍّ مُرسلٍ إذ قالوا: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ ﴾، وهذا سؤال منهم يدل على غباءٍ إضافةً إلى سوءِ الأدب، حيث قالوا لنبيهم: أَتسخرُ منا، وتجعلُنا مكانَ هُزْءٍ، نسألك عن أمر القتيل وتأمُرُنا بذبح بقرةٍ، ولا جامعَ ولا رابط بينهما.

عندما سمعَ موسى كلامهم ذُهل.

فهل هناك نبيّ يَنْقُلُ لهم أمراً من أوامر الله سبحانه وتعالى على سبيل الهَزْل.

وأدرك مدى جهلهم، فهم جاهلون بربهم وبرسولهم وبآخرتهم، فهم يريدون أنْ يأخذوا كلَّ شيء بمقاييسهم لابطال التكاليف، عندها اتجه موسى إلى السماء يستعيذُ بالله من هؤلاء الجاهلين الذين يأتيهم اليُسْرُ فيدعونه عسيراً، استعاذ بالله مُتبرئاً من الهزء، لأنه لا يليق بالعقلاء الأفاضل، فضلاً عن مقام الرسالة، ولذلك قال: ﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٦٧ ﴾ [البقرة].

والمرءُ لا يعوذ بالله إلا إذا أرادَ التغلبَ على أمرٍ عظيمٍ لا يغلبُه إلا الله تعالى «كما قال صاحب التحرير والتنوير».

والجهلُ: ضد العلم وضد الحِلْم، ومنه قول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فوقَ جهل الجاهلينا

ومنه قول السموأل:

سلي إن جهلْتِ الناسَ عنا وعنهم فليس سواءً عالمٌ وجَهولُ

وللنابغة:

وليسَ جاهل شيءٍ مثل مَنْ علما

وتَعَوُّذُ موسى يدلك على أنَّ الهزءَ بأمور الدين أو بالمسلمين كبيرةٌ، وكذلك بمن يجبُ احترامُهُ، وأنَّ المستهزئ مستحِّقٌ للوعيد.

وهنا يجب التفريقُ بين الاستهزاء والمُزاح.

ولذلك أشار البروسوي عند هذه الآية إلى ذلك فقال: وليس المُزاح من الاستهزاء، ولذلك ورد عن علي رضي الله تعالى عنه قوله: لا بأس بفكاهةٍ يَخرجُ بها الإنسان من حدِّ العُبوس.

وقد روى المؤرخون أنَّ رجلاً قَدِمَ على «عبيد الله بن الحسين» وهو قاضٍ على الكوفة، فمازحَ عُبيد الله الرجل قائلاً: جُبَّتُكَ هذه من صوف كبش، أو من صوف نعجة؟ فقال الرجل: أتجهلُ أيها القاضي؟ فقال القاضي عبيد الله: أين وجدتَ المُزاح جهلاً؟ فقال الرجل: وجدتُه في قول الله عز وجل لما طلب موسى من بني إسرائيل ذبح بقرة، فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ﴾، فأعرضَ عنه القاضي عبيد الله لأنه رآه جاهلاً لا يُميز بين المُزاح والاستهزاء.

قال المفسرون: لما تيقن بنو إسرائيل أنَّ الأمر من الله، أخذوا في التعنت لإبطال التكاليف، وذلك ما ذكره الله عز وجل في كتابه الكريم: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ﴾ [البقرة ٦٨].

والسؤال هنا: «ما هي؟» سؤالٌ عن صفتها وحالها، لأنَّ «ما» في كلام العرب يُسألُ بها عن الصفة، كمن يَسمعُ الناسَ يذكرون «الأحنف، وحاتم» فَعَلِمَ أنهما رجلان، ولم يعلم صفتيهما، فيقول: ما الأحنفُ؟ وما حاتم؟

فيقال: حليمٌ - أو كريم، وتسمع شخصاً يذكر زيداً، فتقول: ما زيد؟

فيقال: طبيب.. وهكذا.

وهنا قولهم: «ماهي؟» أي ما سنُّها، وما صفتُها من الصغر والكبر؟

وفي سؤالهم هذا يظهر قلَّةَ الإيمان عندهم حيث قالوا: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، وكأنه عز وجل رب موسى وحده.

قال العلماء: وسؤالهم هذا ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ﴾؟ لا معنى له، ولا محلَّ؛ لأن الله تعالى قال لهم «بقرة» عندما أمرهم بالذبح، ولم يقل: حيواناً مثلاً على الاطلاق، فلم يكن هنا محلٌّ للسؤال، فجاء جواب الحق عز وجل يقول لهم: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ٦٨﴾ [البقرة].

والفارضُ: المُسِنّةُ الهَرِمة، يُقال: فَرِضَتْ الناقة: إذا أسنَّت.

وأصل الفَرْضِ: القطعُ، كأنها قَطَعَتْ سنَّها وبلغت آخره ولذلك يُقال للشيء القديم: فارض، ومنه قول الشاعر:

شيَّبَ أصداغي فرأسي أبيضُ محامِلٌ فيها رجالٌ فُرَّضُ(١)

والبكْرُ: الفتية، مشتقة من البُكْرَةِ، وهي أول النهار؛ لأن البِكرَ أول سنوات عمرها، لم يلحقها الفحلُ، ولم تحملْ، والبَكْرُ: الفتى من الإبل.

---

(١) أي: هرموا

والعوانُ: هي المتوسطة السنّ، بين الفارض والبكر، أي بين السِّنَّين، وإنما اختيرت لهم العوانُ لأنها أنفسُ وأقوى، ولذلك جُعلت «العوانُ» مثلاً للشدة كما في قول النابغة:

ومن يَتَرَبَّصِ الحَدَثانَ تَنزلْ   بمَوْلاهُ عوانٌ غيرُ بِكْرِ[1]

ولهذا يقال في وصف الحرب الشديدة «حربٌ عوانٌ» حصلت مرة بعد مرة.

ثم يأتي ختام الآية فيه توبيخ من موسى عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ۝٦٨﴾، أي كفاكم مجادلةً، فأسرعوا في تنفيذ أمر الله، واذبحوا البقرة.

قال صاحب «المنار»: كان من الواجب عليهم لما سمعوا: ﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾، الاكتفاء بهذه الأوصاف، والمبادرة بعد ذلك بالامتثال للأمر، ولكنهم أبوا إلا تنطعاً واستقصاء في السؤال، وذلك ما ذكرته الآية: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ﴾[البقرة ٦٩].

قال العلماء: بعد أن سألوا عن السن، تحولوا للسؤال عن ماهية اللون، ومع أنهم خوطبوا بقوله تعالى: ﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾، فلم يفعلوا وفتحوا باباً آخر ليسألوا ما لونها؟ فجاءهم الجواب بقوله عز وجل: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ۝٦٩﴾ [البقرة].

وقوله: ﴿فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا﴾: الفاقع: الشديد الصفرة في صفاء بحيث لا يُخالطه لون آخر؛ لأن صفرة البقر تقترب من الحُمرة غالباً فأكده بالفقوع، والفقوع: خاصٌّ بالصُفرة، كما اختُصَّ الأحمرُ بقانٍ، والأسود بحالك،

(١) أي مصيبة عظيمة.

والأبيض بِيقَقٍ، والأخضر بمُدْهام، والأورقُ بِخُطْبانيٍّ، - نسبة إلى الخُطبان بضم الخاء، وهو نبت كالهليون -، والأُرْمَكْ: وهو الذي لونه لون الرماد.

وقوله: ﴿ تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾، أي تُدخِلُ رؤيةُ هذه البقرة مسرةً في نفوسهم، والمَسَرَّةُ: لذة نفسية تنشأ عن الإحساس بالملائم، والإعجاب به.

وهذا اللون كما قال ابن عاشور: من أحسن ألوان البقر، ولذلك أُسندَ فعلُ «تُسر» إلى البقرة لا إلى اللون، لأن الأصفر قد لا يكون مما يسر مطلقاً.

وقوله:﴿ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾: أي تسر من ينظر إليها عند النظر دون سائر الناس، ثم الصُفرةَ تتفاوت ولذلك قال: ﴿ فَاقِعٌ لَّوۡنُهَا ﴾.

ولذلك ورد عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال: من لبس نعلاً صفراء قلَّ همه، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ صَفۡرَآءُ فَاقِعٌ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾.

وقد ذكر بعض المؤرخين أن الخُفَّ الأحمرَ خفُّ فرعون، والأبيض خُفُّ وزيره هامان، والخفُّ الأسود، خُفُّ العلماء، وفي بعض الآثار أنه كان للنبي خفٌّ أسود.

قال صاحب «تفسير المنار»: وكان يجب عليهم أن يكتفوا بهذه المميزات، وهذا البيان، ولكنهم زادوا تَنَطُّعاً ذكره الكتاب الكريم: ﴿ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠ ﴾[البقرة]، وهذا هو السؤال الرابع، ولم يمتثلوا الأمر بعد البيان - كما قال القرطبي - والمقصود من قولهم: ﴿ مَا هِيَ ﴾؟ أي عاملة أم سائحة، وهذا الأمر يتعلق بالكرامة والنفاسة.

قال الزمخشري: وهذا الاستقصاء شؤمٌ.

وقد ورد أن عمر بن عبد العزيز، كتب إلى عامل من عُماله مرةً يقول: إذا

أمرتك أن تُعطي فلاناً شاة، سألتني: أضائنٌ أم ماعز؟ فإن بيَّنتُ لك قلتَ: أذكرٌ أم أنثى؟ فإن أخبرتك قلتَ: أسوداء أم بيضاء؟ فإن أمرتك بشيء فلا تُراجعني.

ثم جاء قولهم: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ فيه اعتذار ضمني عن تكرار السؤال؛ لأنَّ تكرار السؤال يوقع في النفس شيئاً من السآمة، أو التأكيد، ولذلك قالوا بعدها: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ تطمينٌ لموسى بِحُسْنِ قصدهم، وتأدبٌ مع الله، وقد عَلِمَ الله مرادهم بهذا السؤال، فأنبأهم به: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة].

وذَلول: من فعل ذَلَّ، وهذا الفعل له مصدران: يُقال: ذَلَّ، ذِلّاً، بكسر الذال بمعنى لانَ وسَهُلَ، وذَلَّ، ذُلّاً، بضم الذال، فهو ضدُّ العِزّ.

أي فهي بقرة ليست مروَّضة، فلا أحد قادها ولا قامت بعمل.

فالبقرة الذلول: هي المروضة المُمَرَّنة تؤدي مهمتها بلا تعب، مثلَ ما تُروَّضُ الخيول، فالفرس المُروض لا يُتعب صاحبه، وسيدنا إسماعيل هو أول من روَّضَ الخيل وساسها.

فهي بقرة سائحة لم تبلغ سِنَّ أن يُحرثَ عليها، وأن يُسقى بجرِّها للسواني - إخراج الماء من البئر -، بل هي عجِلةٌ قاربت هذا السن.

وقوله: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ﴾: مُسَلَّمة: أي من سائر العيوب، فلا رجلها عرجاء، ولا أُذنها مثقوبة، فلا عيب خِلقياً فيها.

وقوله: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ﴾: أي ليس فيها لون آخر يخالف لونها الأصفر الفاقع.

وقولهم: ﴿ ٱلۡـَٔـٰنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ ﴾: أي الحق الثابت الذي لا احتمال فيه كما تقول: جاء فلان بالأمر على وجهه، ولم يقصدوا تكذيب موسى، ولكنهم لم يكونوا يُحسنون اختيار الألفاظ التي يُخاطبون بها أنبياءهم، و كُبراءهم كما كانوا يقولون للنبي ﷺ «راعنا»، فنهانا الله أن نقول كقولهم، ولذلك قال تعالى لنا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا ﴾ [البقرة ١٠٤].

وقوله: ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١ ﴾، أي ذبحوها مُكرَهين أو كارهين لما أظْهَروا من المُماطلة – وجملة فذبحوها معطوفةٌ بالفاء على فعل مُقَدَّر، وهو فوجدوها فذبحوها.

وقوله: ﴿ وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١ ﴾، قال القرطبي: وهذا إخبارٌ من الله عن تثبيطهم في ذبحها، وقِلَّةِ مبادرتهم إلى تنفيذ أمر الله تعالى.

قال العلماء: هم يريدون أن يُماطلوا الله سبحانه وتعالى، وقد بيَّن الله لنا أنَّ من سِمات المؤمنين أن يُسارعوا إلى تنفيذ تكاليفه، فنحن نقرأ في [سورة آل عمران] قوله تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾، ثم بيَّن صفاتهم بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ ﴾ [آل عمران].

وهذا يدلك على أنَّ المؤمن يعشق التكليف، ويُسرع في كل خير، بينما بنو إسرائيل حاولوا الإبطاء في التنفيذ، وتلكَّؤُوا.

قال العلماء: ولا بد أن نذكر هنا أن تباطؤ بني إسرائيل في التنفيذ خدم قضية ربانية أُخرى، فالبقرة التي طلبها الله منهم بسبب عدم تنفيذهم للأمر

فور صدوره، كانت بقرةً نادرةً، فالمواصفات التي أُعطيت لهم في النهاية لم ينطبق إلا على بقرة واحدة، تَحكَّمَ صاحبها في ثمنها وباعها بأغلى الأسعار.

والقصة: أنه كان هناك في بني إسرائيل رجل صالح، يتحرى الحلال في الرزق، والصدق في القول، مع إيمانٍ حقيقي بالله عز وجل، ولما حضرته الوفاة لم يكن عنده إلا عِجْلةٌ، وله زوجة وولد صغير.

اتجه هذا الرجل الصالح إلى الله بالدعاء قائلا: «اللهم لا أملكُ إلا هذه العِجلة، وإني استودعتها لولدي»، ثم أطلقها في المراعي وأعلمَ زوجته بذلك.

وعندما كَبُرَ الولد، قالت له أمه، إنَّ أباكَ قد ترك لك وديعةً عند الله وهي عجلةٌ، فقال: يا أمي، وأين أجدها؟ قالت: كن كأبيك يا بني، هو تَوكَّلَ واستودع، وأنت توكل واستردَّ، فقال الولد: اللهم رب إبراهيم وربَّ موسى، رُدَّ إلي ما استودعه أبي عندك، وإذا به تأتي العجلةُ إليه وقد أصبحت بقرة، فأتى بها ليُريها لوالدته، وبينما هو سائر رآه بنو إسرائيل في الوقت الذي يُفتشون فيه عن البقرة المطلوبة، فقالوا: إن هذه هي البقرة التي طلبها الرب عز وجل.

وهكذا اشتروها منه بملء جلدها ذهباً، بعد أن رفض بيعها، وهكذا نجد صلاح الأب، يجعل الله حفيظاً على أولاده ويرعاهم، وييسر لهم أمورهم، والقصة هذه من الإسرائيليات لا نُكذبها ولا نُصدقها، لأنه لم يرد عن المعصوم ﷺ ذكر هذه القضية.

ثم يأتي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [البقرة]، هذا القول مُؤخَّرٌ لفظاً مُقدَّمٌ معنىً لأنه أول القصة، أي: وإذ قتلتم نفساً وأتيتم موسى وسألتموه أن يدعو الله تعالى ليكشِفَ لهم القاتل، فقال موسى لهم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ ﴾.

وقوله: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ﴾: أسندَ الفعلَ إلى الجميع مع أنه واقع من البعض وهذا على عادة العرب في إسناد أفعال البعض إلى الجميع، ومن ذلك قول النابغة يذكر بني حُنٍّ، وهم حي من عُذرة:

وهم قتلوا الطائيّ بالجوّ عنوةً		أبا جابرٍ واستنكحوا أم جابر

وذكرنا في الماضي القصة، وهي أن نفراً من اليهود قتلوا عَمّاً لهم أو ابنَ عم لهم ليرثوه، وطرحوه في محلة القوم، وجاؤوا بموسى يطلبون دم عمهم المقتول بُهتاناً، وأنكر المتهمون، ودافع كل واحد عن نفسه.

وقوله: ﴿ فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ ﴾ أي اختلفتم ورمى بعضكم بعضاً بالقتل.

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ أي أن الله سيخرج ما كتمتموه، أو ما تُغيبون كما قال زيد بن أسلم.

هنا سؤال: لماذا تعلقت إرادة الله ﴿ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ ﴾ بكشف حالِ هذا القتيل مع أنه ليس بأول دم أُهدرَ في الأمم؟

والجواب: كان ذلك إكراماً لموسى عليه السلام أن يضيع دمٌ في قومه وهو بين أظهرهم، وبمرأى منه ومسمع لاسيما وقد قصد القاتلون استغفال موسى وخداعه، ودبروا المكيدة في إظهارهم المُطالبة بدمه، فلو لم يُظْهِرِ الله تعالى هذا الدم في أمةٍ لضَعُفَ يقينها برسولها، ولجعلهم يشكون في صدقه فينقلبوا كافرين به، فكان إظهار هذا الدم كرامةً لموسى ورحمةً بالأمةِ.

قال العلماء: وكان التشريع في ذلك الوقت ينص على أنه إذا وجد قتيل قريباً من قرية، ولم يُعرف قاتله، فإن أهل القتيل وقريته يأخذون خمسين رجلاً من أعيان القرية التي وُجِدت الجثة بقُربها، فيُقسمون على أنهم ما قتلوه ولا علموا له قاتلاً، فإذا حلفوا يتحمل بيت المال الدية، ولكن لله أمراً آخر، أراد

إظهار الجريمة، ويجعل الميت يقف أمامهم وينطق باسم قاتله الذي ظنَّ أن جريمته لن تنكشف ﴿ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾.

كما أراد الله عز وجل أن يُري بني إسرائيل البعثَ وهم أحياء حتى ينتزع من قلوبهم الجحود باليوم الآخر، فقال عز وجل: ﴿ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٧٣ ﴾ [البقرة].

قال العلماء: انظر إلى العظمة في القصة، جزء من ميت يُضرب به ميتٌ فيحيا، فالمسألة أعدَّها الحق سبحانه بصورةٍ لا يتطرق فيها الشك إلى قلوبهم أبداً، فلو أن الله أحياه بدون أن يُضرب بجزء من البقرة، لقالوا: لم يكن قد مات، ولكن فيه حياة ثم أفاق بعد إغماء، ثم إن موسى هو الذي أمرهم بضربه ببعض البقرة، وما ضربه بنفسه نفياً للتهمة كيلا يُقال إنها حيلة، أو أنَّ عمله سحر ﴿ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ ﴾.

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾، هو حذفٌ للإيجاز والتقدير: فاضربوه فَحَيِيَ فأخبرَ بمن قتله.

روي أنهم لما ضربوه ببعضها، قام بإذن الله وأوداجه تشخب دماً وقال: قتلني فلان وفلان، ثم سقط ميتاً، فأُخِذا وقُتلا ولم يورَّث قاتل بعد ذلك.

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ أي قلنا لهم: كذلك يُحْيِي اللهُ الموتى لأن الإشارة إلى شيء مُشاهد، والتشبيه مُنْصب على التحقيق، أي كما أُحيِيَ هذا بعد موته، كذلك يُحيي الله كل من مات يوم القيامة.

و قد يقول قائل: إن بني إسرائيل كانوا مُقرين بالبعث، فما معنى إلزامهم بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾؟

والجواب: إنهم كانوا مُقرين به قولاً وتقليداً، فثبته الله عياناً وإيقاناً، و

هو كقول إبراهيم عليه الصلاة و السلام: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ ﴾ [البقرة ٢٦٠].

وقوله: ﴿ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ الدالة على كمالِ قدرته، ولتعلموا أنَّ الإنسان لا يبقى حياً بأسباب الحياة، و لكن بإرادة مُسبِّبِ الحياة، ولِتُوقِنُوا أنَّ مَنْ قَدِرَ على إحياء نفس واحدة قادرٌ على إحياء الأنفس كُلِّها، ولتمنعوا نفوسكم من هواها المُحرَّم، و لتُطيعوا الله فيما أمركم به، وذلك ما يُشير إليه قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾، أو لعلكم تفقهون أسرار الشريعة، و عظمةَ أحكامها فتخضعوا لها، وأنه يجب أن تتلقَّوا أمرَ الله في كل وقت بالقبول من غير تعنت.

موسى والخضر:

و الآن تعالوا بنا ننتقل إلى قصة من أعجب قصص القرآن الكريم، وهي قصة موسى والخِضر عليهما الصلاة والسلام.

وخلاصة القصة:

أنَّ موسى كليم الله عز وجل، وأحَد أُولِي العزم من الرسل، وصاحب المعجزات الباهرات، هذا الرسول الكريم المُعلِّم، ينقلب في القصة إلى طالبِ علمٍ متواضع يَحْتَمِلُ أستاذَه ليتعلم منه، بل يسعى إليه موسى سعياً حثيثاً.

قال العلماء: وسببُ سفر موسى إلى هذا المُعلِّم وهو الخِضر، وسببُ لقائه به، ما ذكره البخاري في صحيحه من حديث عمرو بن دينار، ويعلى بن أسلم عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أُبيّ بن كعب، عن النبي ﷺ: أنَّ موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسُئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعَتَب الله عليه إذْ لم يَرُدَّ العلمَ إليه عز وجل، فأوحى الله إليه: بلى عبدُنا خضرٌ هو

أعلمُ منك، فقال موسى: يا رب، وأين هو؟ قال عز وجل: بمجمع البحرين، قال موسى: يا رب اجعل لي عَلَماً أعلمُ ذلك به، قال تعالى: تأخذُ معك حوتاً في مِكْتَلٍ، فحيثما فقدتَ الحوتَ، فهو ثَمَّ.

فأخذ حوتاً فجعله في مِكْتل وقال لفتاه «يوشع بن نون»: لا أكفُلكَ إلا أنْ تُخبرني بحيث يفارقُك الحوتُ، قال يوشع بن نون: ما كلَّفْتَ كثيراً.

وروى هارون بن عنترة، عن أبيه، عن ابن عباس قال: سأل موسى ربَّه، فقال: يا رب: أيُّ عبادك أحبُّ إليك؟

فقال عز وجل: الذي يذكرني ولا ينساني.

قال موسى: فأيُّ عبادك أقضى؟

قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى.

قال موسى يا رب: أيُّ عبادك أعلم؟

قال: الذي يبتغي علمَ الناس إلى علمه عسى أن يُصيب كلمة تدلّه على هدىً، أو ترده عن ردىً.

قال: يا رب، فهل في الأرض أعلمُ مني؟

قال عز وجل: نعم.

قال موسى: يا رب فادْلُلْني عليه، قال الله عز وجل: الخضر.

قال: فأين أطلبه؟

قال: على الساحل عند الصخرة، تأخذ حوتاً في مِكتل، فحيثُ فقدتَ الحوتَ فهو هناك، عندها صمَّمَ موسى على لقاء ذلك الرجل الذي وصفه الله تعالى في كتابه الكريم في [سورة الكهف] بأنه عبدٌ من عباد الله، وذلك

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾.

وقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾، أي اذكر يا محمد ذلك الزمن وما جرى فيه لما فيه من العبرة في هذه القصة، والفتى: الخادمُ والتابعُ، كان اسمه «هوشع» في الأصل، استدعاه موسى وكلَّفهُ بمهمةِ استطلاعٍ في أرض كنعان في جهاتِ حلب ليختبروا بأس أهلها، وخيراتَ أرضها، وهو - أي يوشع - أحد الرجلين اللذين شجعا بني إسرائيل على دخول أرض كنعان، وقد ذكرهما القرآن في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المائدة].

ويوشع كذلك هو الذي عَهِدَ إليه موسى أن يُدبِّر أمرَ الأمةِ الإسرائيلية بعد وفاته بأمرٍ من الله تعالى، فصار نبياً من يومئذ، ودَبَّر أمرَ الأمة الإسرائيلية بعد موسى سبعاً وعشرين سنةً، وأُنزل عليه كتابٌ، وهو أول كتب الأنبياء بعد موسى، وفتح الله عليه بيت المقدس.

كان ميلاده أي ميلاد يوشع، والذي كان اسمه «هوشع» وغيّره موسى، وهذا التغيير في الاسم من باب التلطُّف والتحبُّب مثلُ قول النبي ﷺ لأبي هريرة: «يا أبا هر»، و في التوراة أن إبراهيم كان اسمه «ابرام»، فلما أمره الله بخصال الفطرة دعاهُ «إبراهيم»، وقد يكون في هذا التغيير في اللفظ تغييرٌ في المعنى، كما دعا النبي ﷺ زيد الخيل، بزيد الخير.

كان ميلاده - أي يوشع - سنة «١٤٦٣» ألف وأربعمائة وثلاثٍ وستين قبل ميلاد عيسى عليه السلام، وكانت وفاته سنة ألف وثلاث مائة وثلاثٍ وخمسين «١٣٥٣»، وعاش مائة وعشر سنين.

قال العلماء: وكان موسى قد اتخذه تلميذاً، فكان يوشع يخدمه، وفي هذه الحالة يوصف التلميذ «بفتى أو غُلام»، مثل قولهم في الإمام محمد بن عبد الواحد المطرف النحوي اللغوي «غلامُ ثعلب»، لشدَّةِ اتصاله وحضوره عند ثعلب، وأخذهِ عنه العلمَ، وثعلب هو الإمام «أحمد بن يحيى الشيباني»، وثعلبُ لقبُه.

قال البروسوي: ويُسمى التلميذُ والخادم فتى، وإن كان شيخاً مُسناً كبيراً، ومنه القول المشهور «تعلمْ يا فتى فالجهل عار»، ويكونُ لمن علَّمه بمنزلةِ العبد، ولذلك قال شعبة: «من كتبْتُ عنه أربعة أحاديث، فأنا عبدهُ إلى أن يموت».

قال العلماء: واختيار موسى يوشع لمرافقته كونُه قريباً منه، لأنَّ مَنْ أراد سفراً اختار أقربَ الناس إليه، وأعزَهم عنده، كما فعل رسول الله ﷺ في الهجرة، لذا اختار الصديق رضي الله تعالى عنه.

قال في التأويلات: في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الرفيق قبل الطريق، وأنَّ على الرفيقين أن يكونَ أحدُهما أميراً للآخر، والثاني مأموراً، وعلى الآمر أنْ يُخبر صاحبه بوُجهته، ومُدة سفره حتى يكون عالماً ومُهيَّأً لذلك، وفي الآية دليل على أنه لا حرج مِنْ تحمل المشاقِّ في طلب العلم.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: والقصة تبدأ بتصميم موسى على أنَّهُ لن يُشغل نفسه بشيء حتى يبلُغَ مجمعَ البحرين.

قال القرطبي: لما سمعَ موسى أنَّ في مجمع البحرين رجلاً أعلمَ منه تشَوَّقَتْ نفسه الفاضلة، وهِمَتُه العالية لتحصيل علم ما لم يعلم، وللقاء مَنْ قيل فيه: «إنه أعلمُ منك»، فعزمَ، فسأل سؤال الذليلَ: بكيفَ السبيلُ، فأُمِرَ

بالارتحال على كلِّ حال، وقيل له: احملْ معك حوتاً مالحاً في مِكتل - أي في زنبيل - فحيثُ يحيى الحوتُ وتفْقدُهُ، فثمَ السبيل: أي إلى اللقاء.

فانطلق مع فتاهُ لمّا واتاه، مجتهداً طالباً قائلاً ما قصَّهُ الله علينا: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ [الكهف]: أي لا أكفُّ السير حتى أبلغ مجمع البحرين، وهو المكان الذي سيجد فيه موسى مطلبَهُ.

ومجمعُ البحرين: هو مكانٌ من أرض فلسطين.

قال ابن عاشور: والأظهرُ أنه مصبُّ نهر الأردن في بُحيرة طبرية، فإنه النهرُ العظيم الذي يمر بجانب الأرض التي نزل بها موسى وقومه، وكانت تُسمى عند الإسرائيليين «بحر الجليل» فإن موسى عليه الصلاة والسلام وصلَ إليه بعد مسيرة يومٍ وليلة راجلاً، فعلمنا أنه مكانٌ ليس بالبعيد جداً.

والحُقب: اسمٌ للزمان الطويل غير مُنحصر المقدار، وجمعه أحقابٌ.

فالمعنى: لا أترك السيرَ إلى هذا المكان ولو سرتُ أزماناً طويلة، لأنه كان مشتاقاً إلى رؤية هذا الرجل الذي علَّمه الله علماً من لَدُنْه لا من البشر.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: إنَّ العبدَ الصالحَ كان يعلمُ علوماً من مُعاملة الناس لم يُعلِّمْها الله لموسى، فالتفاوت هنا تفاوتٌ بفنون العلوم.

قال القرطبي: كان الخضر أعلمَ من موسى بأحكام ووقائعَ بنوازلٍ معينة لا مطلقاً، بدليل أنه عندما التقى موسى به - أي بالخضر - قال الخضر لموسى: إنك على علمٍ عَلَّمَكَهُ اللهُ لا أعلمه، وأنا على علم عَلَّمَنِيه اللهُ لا تعلمُه أنت.

واسم هذا الرجل الصالح: بليّا، أو ايليا، و«الخضر» لقبه: أي الموصوف بالخضرة، والخُضرةُ رمز البركة، وقد اتفق المؤرخون على أنه من المعمرين.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة، أنَّ النبي ﷺ قال: «إنما سُمِّيَ الخِضر لأنه جلس على فروة بيضاء - وهو النبات اليابس - فإذا هي تهتز من خلفِهِ خضراء»، وكانت كنيته «أبا العباس».

والخضر: ليس من بني إسرائيل، وعَلِمَ موسى أنَّ الخِضر ليس من بني إسرائيل، بل من أمةٍ أُخرى لم يُبْعث إليها موسى، كما لم يكنْ الخضر مُكلفاً بشريعة موسى؛ لأنه لا يجوز أن يكون مُكلفاً بشريعة موسى ثم يُقره موسى على أفعال لا تُبيحُها شريعتُهُ، فتعين: «أن يكون الخضر نبياً موحى إليه بشرع خاص» ولكن ما الذي أتى به إلى أرض بني إسرائيل؟

والجواب: إنه أُمِرَ بالحضور إلى ذلك المكان للقاء موسى رفقاً بموسى حتى لا يطول سفره جداً، أو أنَّ الخضر كان في سياحة عبادةٍ فقد كان أهلُ الملل الأخرى يفعلون السياحاتِ للعبادة كثيراً.

قال الرازي: انطلق موسى وفتاه إلى مجمع البحرين قائلاً للفتى: إذا فارقك الحوت فأخبرني.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: وصل الاثنان إلى جوار صخرة على الشاطئ فرقد موسى واستسلم للنوم، وبقي الفتى يوشع ساهراً، وألقت الرياحُ موجةً على الشاطئ فأصابت الحوت برذاذها، فدبَّتْ فيه الحياة وقفز إلى البحر، واتخذ سبيله فيه، ولاحظ الفتى ذلك ولكنه كره أنْ يوقظ موسى، وكان تسرُّبُ الحوت إلى البحر علامةً أعطاها اللهُ لموسى لتحديد مكان اللقاء بالخضر.

ونهض موسى من نومه، ونسي الغلامُ أن يُخبره بسَرَبِ الحوتِ في البحر، فسارا معاً بقية اليوم كلِّه وقد نسيا الحوت.

ثم حلَّ بموسى التعب، وتذكر الغداء، فطلب ذلك من الفتى، عندها تذكر الفتى ما حصل للحوت، وأخبر موسى بما وقع، واعتذر إليه بأنَّ الشيطان أنساه أن يذكر ذلك له، رغم غرابة ما وقع حيث لاحظ أن الحوت يشق الماء فيترك علامةً كأنه طير يتلوى على رمال.

قال المؤرخون: سُرَّ موسى بما سمع؛ لأن ذلك هي العلامةُ التي تُشير إلى لقائه بالعبد الصالح «الخضر - بليان بن ملكان»، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الكهف].

وقوله: ﴿ فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾، أي مسلكاً كالسَّرب، أي كالنفق، وقد صحَّ أنَّ الله أمسك عن الحوت جَريةَ الماء فصار مثل الطاق، والمرادُ: البناء المقوس مثل القنطرة، كما في الصحيحين.

والغداء: طعام النهار مشتقٌ من كلمة الغدوة لأنه يؤكل في وقتها.

وضده العَشاء، وهو طعام العشي.

والنصَب: التعب.

والصخرة: صخرة معهودة لهما، إذ كانا قد أَوَيَا إليها فجلسا عليها، وكانت مجمع البحرين، وفي موضعها نهرٌ صغير يُقال له: "نهر الزيت" لكثرة ما عنده من شجر الزيتون، كما روى ذلك "معقل بن زياد".

وقوله: ﴿ نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ أي نسيت تفقُدَهُ، فانفلتَ في البحر.

وقوله: ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ ﴾ هذا نسيان آخر غير النسيان

الأول، لأن هذا نسيانُ ذِكْرِ الإخبار عنه.

والمعنى: ما أنساني أن أذكره لك إلا الشيطان، فالذِكْرُ هنا ذِكْرُ اللسان.

قال ابن عاشور: ومع كون المنسيّ أعجوبةً من شأنها أن لا تُنسى، تعيَّن أنَّ الشيطان ألهاه بأشياء عن أنْ يتذكر ذلك الحادث العجيب، وعلمَ يوشع أن الشيطان يَسوؤُه التقاءُ هذين العبدين الصالحين وما له في بثِّ العلوم الصالحة، فهو يحاول أن يؤخر لقائهما طمعاً في حدوث العوائق.

وقوله: ﴿ فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ﴾ أي يسبح في البحر بعد أن كان ميتاً زمناً طويلاً، وأنا أعجب لذلك عجباً.

قال عبد الرحمن بن زيد: وأي شيء أعجبُ من حوت كان مجهزاً ليؤكَلَ منه، ثم صار حياً حُشِرَ في البحر، وأيُّ شيء أعجبُ من أن يكون الماءُ عليه كالطاق؟!!

قال النيسابوري: ذكر الحكماء أنه كان لموسى خمسة أسفار:

١. **سفر الهرب**، وذلك واضح في قوله تعالى حاكياً عن موسى: ﴿ فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ ﴾ [الشعراء ٢١].

٢. **السفر إلى الطور** لما رأى النار: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا ﴾ [النمل ٨].

٣. **سفر الطلب**، حين خرج من مصر ببني إسرائيل بناءً على طلب الله منه ذلك: ﴿ ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٥٢ ﴾[الشعراء].

٤. **سفر الحرب**، وذلك ما ذكره الله عن بني إسرائيل: ﴿ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ ﴾ [المائدة ٢٤].

٥. **سفر النَصَب**، وهو هنا في قوله تعالى: ﴿ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا

﴿ هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الكهف].

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ أي هذا هو مطلبنا أنا وأنت لأنه علامة للفوز بلقاء الخضر العبدِ الصالح، ولذلك أسرعا عائدين في طريقهما الذي جاءا منه ماشيين على أقدامهما يتبعان آثارهما اتباعاً ويتفحصانها تفحصاً حتى أتيا الصخرة التي كانا عندها، والتي نزل الحوت هنالك للبحر.

وقوله: ﴿ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾ أي رجعا على الطريق الذي أتيا منه قاصَّيْن الأثرَ، أي تَوخَّيا متابعته كيلا يخطئا الطريق الأول.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: وأخيراً وصل موسى إلى الصخرة التي نام عندها، إلى المكان الذي تسرّبَ منه الحوت، وهناك وجد موسى رجلاً لم يذكر لنا القرآن اسمه ولا شكله ولا سِنَّهُ، وإنما وصفه الله بوصفٍ داخلي هو المقصود من القصة، بل هو الجانب الهام فيها، وغير ذلك لا يهمنا.

قال تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الكهف].

وقوله: ﴿ مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾ فيها إضافة تشريف للخضر، مثل قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا .. ﴾ [الإسراء ١].

وقوله: ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ أي جُعِلَ مرحوماً، وذلك بأنْ رَفَقَ الله به في أحواله، أو المعنى: جعلناه سَبَبَ رحمةٍ بأنْ جعل تصرفاته تجلبُ الرحمةَ العامة.

وقوله: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾، قال الشوكاني في "الفتح": أي علَّمه الله سبحانه وتعالى شيئاً من علم الغيب الذي استأثرَ الله تعالى به، وتُشير كلمةُ ﴿ مِن لَّدُنَّا ﴾ إلى تفخيم هذا العلم.

وهذا العلم اللدني الرباني على وجهين:

الأول: إلقاءُ الوحي، وهو أشرف المراتب وهو للأنبياء.

الثاني: الإلهام، ويكون لأهل النبوة، وأهل الولاية كما حصل للخضر حيث أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿ **وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا** ﴾، ولكن هذا الإلهامَ لا يكون إلا بعد التسوية، والتسويةُ: تصحيح النفس ورجوعُها إلى فطرتها، كما قال تعالى: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾** ﴾[الشمس].

وكلمةُ «عندنا»، وكلمة «لدنا» بمعنى واحد، ولكنه خالف بينهما تفادياً لإعادة الكلمة، ونوعٌ من التفنن في الكلام.

قال البخاري وغيره: إن موسى وفتاه رجعا يَقُصّان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجىً بثوبه على طِنفسة خضراء، وقد جعل طرف الثوب تحت رجليه، وطرفه تحت رأسه، فسلَّم عليه موسى، فكشف الخضرُ عن وجهه وقال: وقد استوى قائماً.

هل بأرضك من سلام؟ من أنت؟

قال موسى: أنا موسى؟

قال الخضر: موسى في بني إسرائيل؟

قال: نعم.

قال الخضرُ: وعليك السلامُ يا نبيَّ بني إسرائيل، قال الخضر: فما شأنك؟ قال: أتيتك لتُعلمني مما عُلِّمتَ رُشْداً، وذلك قوله تعالى: ﴿ **قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾** ﴾ [الكهف].

وقد ذكر الثعلبي زيادة على رواية البخاري جاء فيها: أن موسى قال

للخضر عندما ردَّ الخضرُ عليه السلام قائلاً: وعليك السلام يا نبيَّ بني إسرائيل، قال موسى له: وما أدراك بي، ودلَّكَ علماً أني نبيُّ بني إسرائيل؟

قال الخضر: الذي أعلمكَ بي، ودلّكَ عليَّ، يا موسى: لقد كان لك في بني إسرائيل شغلٌ، ماذا تريد مني؟

قال موسى: وقد بالغ في التوقير والاحترام: إنَّ ربي أرسلني إليك لأتبعك وأتعلمَ من عِلمك، فهل أتبعك على أن تُعلمني مما عُلمت رشدا؟ وذلك قوله تعالى حاكياً عن موسى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف].

قال الخضر: ألم يكفِكَ أنَّ الوحيَ يأتيك، وأنَّ التوراة بين يديك، يا موسى: لن تستطيع معي صبراً، وإنما طلب موسى زيادة العلم لأن ذلك من الفضائل، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه].

وتدل الآية على جواز التعاقد على تعليم القرآن والعلم، كما في تزويج النبي ﷺ المرأة لرجلٍ رغِبَ فيها على أنْ يُعلّمها ما معه من القرآن.

ويأتي جواب الخضر حاسماً: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف]، ونحن نُلاحظ الفرقَ بين سؤال موسى الذي يظهر فيه اللُّطف، وبين جواب الخضر الذي فيه شيء من الشدَّةِ والصَّدِّ: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾.

أي يا موسى، لا تُطيقُ ولا تتحمل أن تصبرَ على ما تراه من علمي، إذ كيف تصبرُ على أمرٍ ستراه خطأ، والأنبياءُ لا يسكتون على أمرٍ هو خطأٌ في الظاهر، أي كيف تصبرُ على أمورٍ ستراها إنْ صَحِبْتني منكرةً، وفي بواطنها

لم يُحِطْ بها علمُك.

قال الدكتور «أحمد بهجت»: احتمل موسى كلماتِ الصدِّ القاسيةَ، وعاد يرجوه أن يسمحَ له بمُصاحبته، والتعلم منه، وهذا مُراعاةُ كمال الأدب مع المُعلم، وإنْ كان المُتعلمُ أفضل منه، وذلك قوله تعالى حاكياً عن موسى ما قال: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الكهف].

قال البروسوي: تدل الآيات السابقة على أن موسى راعى كلَّ أنواعِ الأدب من مُعلمه الخضر، فهو:

أولاً: جعل نفسه تبَعاً له ﴿ هَلۡ أَتَّبِعُكَ ﴾، واستأذنه في هذه التبعيَّة.

ثانياً: أقرَّ له بالعلم، وأقرَّ موسى على نفسه بالجهل في هذا الباب ﴿ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ ﴾.

ثالثاً: لم يطلب موسى من الخضر كلَّ عِلمه، وإنما طلبَ بعضاً من عِلْمه ﴿ مِمَّا عُلِّمۡتَ ﴾ كالفقير المحتاج يطلبُ جزءاً من مال الغني.

رابعاً: اعترف للخضر بأنه آخِذٌ علمه عن الله ﴿ عُلِّمۡتَ ﴾ فكما أنعمَ الله عليك يا خضر بالتعليم، فابذُلْ من هذا العلمِ لي فإنَّ البذلَ للعلمِ من الشكر.

قال قتادة: لو كان أحد مُكتفياً من العلم لاكتفى كليمُ الله موسى، ولكنه عليه السلام قال: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴿٦٦﴾ ﴾.

قال الزجاج: وما فعله موسى مع جلالةِ قدرهِ من طلب العلم والسفر لأجله، ما يدُلُّ على أنه ما ينبغي لأحدٍ أن يترك طلب العلم وإنْ كان قد بلغ النهاية فيه.

قال الزمخشري في قول موسى للخضر: ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا

﴿ وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ٦٩ ﴾، قال: وعده موسى بالصبر مُعَلَّقاً بمشيئة الله تعالى، لحرص موسى على التعليم وأخذ المزيد منه، مع علمه عليه الصلاة والسلام بأنَّ الأمرَ شديدٌ عليه، لأنَّ الحَمية تأخذُ المُصلحَ عند مُشاهدةِ الفساد شيءٌ لا يُطاق، وهذا ما حصل لموسى عندما أخذ بشعر أخيه ولحيته عندما عاد من الطور.

قال ابن عاشور: وفي الآية ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ٦٩ ﴾: دليلٌ على أنَّ أهمَّ ما يتسمُ به طالب العلم أمران: الصبر والطاعة للمُعلم.

وتعليقه ذلك الصبر بالمشيئة ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا ﴾، استعانةٌ وتأدبٌ مع الله عز وجل، ودليلٌ بأنَّ الصبرَ والطاعة من المُتعلم الذي عنده علم، أعسرُ من صبرِ وطاعةِ المتعلم البسيط الساذج، لأنَّ البسيط الساذج ليس في ذهنه من المعارف ما يُعارض قبولَ ما يُقرّره الأستاذ، أما الذي عنده نصيبٌ من العلم وجاء إلى مُعلّم يأخذ عنه، ثم وجدَ عند أستاذه ما يُخالف ما علمه، فإنه يُسرع إلى الاعتراض والمنازعة، وهذا قد يُثير النفور بين المُعلم والتلميذ، ولذلك أراد الخضرُ أن يتجنَّبَ الخلافَ مع موسى، فقال سالفاً: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨ ﴾ أي علماً.

فأكد له موسى أنه يصبرُ ويُطيع أمره، وإذا أمره بشيء ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ٦٩ ﴾.

هنا نؤكد أنَّ طلب موسى العلم لم يكن معلوماً عنده، لا يقدح في مكانة النبوةِ لأن الله عز وجل يقول: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥ ﴾ [الإسراء].

وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾[طه]، ونحن نعلم أنَّ الاجماع مُنعَقِدٌ على أنَّ نبينا محمداً ﷺ أعلمُ الخلق وأفضلهم على الاطلاق، وقد قال ﷺ في قضية تأبير النخل: «أنتم أعلمُ بأمور دنياكم».

والإنسان عندما يخلق الله فيه ميلاً للعلم، تراه كلما عَلِمَ قضيةً اشتاق لمعرفة غيرها، ولذلك ورد عن الطبراني في «المعجم الكبير» من حديث عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «مَنهومان لا يشبعان، طالبُ علمٍ وطالب مال»، والحديث فيه راوٍ ضعيف وهو «أبو بكر الدهراني».

ثم إنَّ الإنسان إذا ازداد علماً اليوم، معنى ذلك أنه كان ناقصاً بالأمس، وهو ناقص اليوم ليعلمَ هذا كما قال المفسرون.

وما أجمل قول الشاعر:

كلما ازددتُ علوماً ... زِدْتُ إيقاناً بجهلي

ولذلك احذر - يا عبد الله - أن تخدعك نفسُك فتزهو وتتكبّر إذا كان عندك شيءٌ من علمٍ قليل أو كثير، وعليك أن تنتبه لهذا كي لا يُصيبك شيءٌ من الغرور، وجميل قول من قال:

قالت النفسُ قد علمتُ كثيراً ... قلتُ: هذا الكثيرُ نزعٌ يسير
تملأ الكوزَ غَرفةٌ من محيطٍ ... فيرى أنه المحيط الكبير

وقول موسى ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾: جعل نفسه عليه الصلاة والسلام مأموراً، فالمُعلم آمرٌ، والمُتعلمُ مأمور.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: بعد هذه المحاورة، واشتراط الخضر شرطاً واحداً حتى يقبل أنْ يُصاحب موسى، وأنْ يتعلَّمَ منه.

عندها قال موسى للخضر: وما هو؟

قال الخضر: إذا رأيتَ شيئاً صَدَرَ عني فلم يُعجبكَ أو رأيته مُنكراً، فلا تفاتحني بالسؤال عن ذلك الشيء، وذلك التصرف، حتى أشرح لك أنا بيانه، وذلك قوله تعالى حاكياً عن الخضر: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٧٠﴾ [الكهف].

وقوله: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِي﴾ نهيٌ عن السؤال، فيكون ذلك نهياً عن الاعتراض والمناقشة من باب أولى.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: أراد الخضرُ أنْ يتولّى هو بيان أعماله في الوقت المناسب؛ ليكون البيان أوضحَ، وليزيد الاتصال بين الاثنين إذ قد يسأل موسى الخضرَ في وقتٍ يكون المسؤول مشغولاً بإتمام عمله، فتضيقُ نفسه، أو تكونُ النفسُ في حينها قلقةً فيأتي الجوابُ غير شافٍ.

ولذلك قال البروسوي نقلاً عن «التأويلات النجمية»: ومن الآداب التي على الطالب مُراعاتها، أن يَسُدَّ على نفسه باب السؤال فلا يسألْ الشيخ عن شيء حتى يُحدث له منه ذكراً، إما بالمقال وإما بالحال.

ولذلك روي: أن لقمان دخل عليه داوود عليه السلام وهو يسردُ دروعاً، ولم يكن لقمان قد رأى الدروع من قبل ذلك فتعجَّبَ من عمله، فأراد أن يسأله، ولكن الحكمة منعته فأمسكَ نفسه ولم يسأله، فلما فرغ قام داوود ولبسها ثم قال: «نِعْمَ الدروع للحرب».

ولذلك قيل في الحِكم: «إنْ كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب».

ومن كلام بعض المربّينَ كما نقل البروسوي: قولهم: الصمتُ قسمين:

الأول: صمتٌ باللسان عن الحديث بغير الله.

الثاني: وصمتٌ بالقلب عن خاطرٍ كوني البتَّة.

فمن صمتَ لسانُهُ، ولم يصمتْ قلبه خَفَّ وِزْرُه.

ومن صمت قلبُهُ، ولم يصمتْ لسانه، فهو ناطق بلسان الحكمة.

ومن صمت لسانه وقلبه، تجلّى له ربُّه.

ومن لم يصمت لسانه وقلبه كان مسخرةً للشيطان.

فعلى العاقل أن يجتهد حتى يسلَمَ قلبُه من الانقباض، ولسانه من الاعتراض، ويصبرَ عند مظانّ الصبر، ويستسلمَ لأمر الله الملك الغفار، ولو تلعبَ به الأفكار، فإن لله عز وجل في كل شيء حكمةٌ، وفي كل تلفٍ عِوضاً.

قال المفسرون: بعد تلك المحاورة، ورضا موسى بما طلبه الخضرُ انطلقا يسيران في الأرض على الساحل، وعند ميناء بحري، ركبا في سفينةٍ مُعَدة لنقل الركاب، وكان أصحابُها يعرفون الخضر، فلم يأخذوا منهما نولاً أي أجرة.

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس مرفوعاً، أنهما انطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرتْ بهما سفينةٌ فكلَّموهم أنْ يحملوهم فعرفوا الخِضر، فحملوهما بغير أجر، فلما ركبا في السفينة وأقلعتْ بهما في عرض البحر، لم يفجأ موسى إلا والخضرُ قد قلعَ لوحاً من ألواح السفينة بقدوم أو بفأسٍ، قال له موسى: قومٌ حملونا بغيرِ نوالٍ عمدتَ إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا، وذلك ما ذكره الله تعالى لنا: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الكهف].

وقوله: ﴿ خَرَقَهَا ۖ ﴾، قال الرازي: والظاهر أنه خَرَق جدارها لتكون ظاهرةَ العيب، ولا يتسارع إلى أهلها الغرقُ، وقول موسى للخضر: ﴿ أَخَرَقْتَهَا

﴿لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا﴾ هذا استفهام إنكار، ومحل الإنكار هو العلة بقوله: ﴿لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا﴾؛ لأن العلَّةَ مُلازمةٌ للفعل المستفهَم عنه ﴿أَخَرَقۡتَهَا﴾، ولذلك أسرع موسى في إنكار هذا الأمر بقوله: ﴿لَقَدۡ جِئۡتَ﴾.

والإِمْرُ: العظيمُ المُفظع، أو الداهية العظيمة، أو الأمر العجيب المُنكر الذي لا يُعرف سببه، ومنه قول الشاعر:

قد لقي الأقرانُ مني نُكْرا　　　داهيةً دهياءَ إذاً إِمْرا

ومن بلاغات الزمخشري:

كم أحدثَ بك الزمانُ أمراً إمرا　　　كما لم يزلْ يضربُ زيد عَمْرا[1]

وكونه أمراً شنيعاً ظاهرٌ كما قال القاسمي: لأنه أتلف شيئاً في السفينة وعرَّضَ أهلها للغرق بدون ذنب، وكفرانُ نعمةِ الحمل بدون أجرة.

ونلاحظ هنا قول موسى: ﴿لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا﴾ ولم يقل لتغرقني، فما السبب؟

والجواب: إن عادة الأنبياء أن تكون شفقتهم على غيرهم أشد من شفقتهم على أنفسهم.

قال أحمد بهجت: كان التصرف من وُجهة نظرِ موسى شيئاً مَعيباً، وغَلَبَتْ على موسى طبيعتُه الحادّةُ المُندفعةُ، وحَرَّكَتْهُ غيرتُهُ على الحق، فاندفع يُحَدِّثُ معلَمه، وقد نسي الشرطَ الذي اشترطه عليه ذلك المُعلمُ وهو قوله لموسى: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠﴾ [الكهف]، لأنَّ مقام الأنبياء في تغيير المُنكر مقامُ شدةٍ وصراحةٍ كما قال ابن عاشور.

---

(١) أي كما ثبت دوام هذه القصة، أي قصة ضرب زيد عمراً.

فاندفع موسى يقول لمعلمه: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ [الكهف].

قال المفسرون: عندما قال موسى للخضر هذه العبارة، وجّه الخضرُ مُلاحظةً سريعة لموسى، يَلْفِتُ نظره فيها إلى أنَّ محاولة التعلُّم منه عبثٌ؛ لأنك - يا موسى - لا تستطيعُ أن تصبر، وقد فعلتُ هذا الذي رأيته مني عمداً، وقد طلبتُ منك مُسبقاً ألا تُنكرَ عليَّ ما تراه مني؛ لأن هناك سراً لا تعلمه، وهذه الملاحظة قول الخضر كما حكاه القرآن: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾ [الكهف]، وهذا تذكير من الخضر لموسى مُتَضمنٌ للإنكار على عدم وفائه بما وَعَدَ.

قال العلماء: عندما قال الخضر لموسى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾، أسرع موسى واعتذر بالنسيان فقال: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ [الكهف].

قال صاحب «التحرير والتنوير»: اعتذر موسى بالنسيان، وكان قد نسيَ التزامه بما غشي ذهنه من مشاهدةِ ما يُنكر.

وقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى﴾: أي لا تُضيّقْ عليَّ؛ لأن المؤاخذة تؤدي إلى العُسر، والمعنى: عاملني باليُسر لا بالعسر في متابَعَتِك؛ لأنه لا سبيل إلى المُتابعة إلا بذلك.

وقد ورد في صحيح البخاري قال: من حديث أبي بن كعب، قال رسول الله ﷺ: «وكانت الأولى من موسى نسياناً».

قال القرطبي: دلَّتْ الآيةُ على أنَّ النسيان لا يقتضي المُؤاخذةَ.

قال المفسرون: وجاء عصفورٌ فوقف على حَرْفِ السفينة، فَنَقَر نقرةً في

البحر، فقال – الخضر – لموسى: «ما عِلْمِي وعلمُكَ يا موسى من علم الله إلا مثلُ ما نَقَصَ هذا العصفور من هذا البحر»، ثم قَبِلَ اعتذار موسى، لأنَّ النسيانَ يُعْفى عنه فكيف إذا اقترن النسيان بالاعتذار: ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾، ولذلك قيل:

اقْبَلِ معاذيرَ مَنْ يأتيك معتذرا   إن بَرَّ عندك فيما قال أو فجرا

قال البروسوي: قَبِلَ الخضرُ عذر موسى، ثم نزلا من السفينة، وانطلقا مصطحبين.

وقد ثبتَ في الصحيح من حديث أُبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل، إذْ أبصرَ الخضرُ غلاماً يلعبُ مع الغلمان، فأخذ الخضرُ برأسه فاقتلعه بيده فقتله»، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ ﴾ [الكهف ٧٤]

قال السهيلي: ومعنى ﴿ فَقَتَلَهُۥ ﴾: أشار بأصابعه الثلاث، الإبهام والسبابة والوسطى، وقلعَ رأسه كما قال رسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿ غُلَٰمٗا ﴾، قال الآلوسي: الغُلام لم يكن بالغاً وهو قولُ جمهور المفسرين، واسمه «جيسور».

أنكر موسى على الخضر هذا الفعل الذي فعله كما أنكر في المرة الأولى عند خرق السفينة، ولكنه وصفَ الفعل الذي فعله الخضر هنا بأنه «نُكْرٌ» وذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ٧٤ ﴾ [الكهف].

وقوله: ﴿ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ ﴾، أي أنها نفسُ الغلام لم يبلغْ الحُلُمَ، فلم يقترف ذنباً، فهي نفسٌ لم تَقْتل نفساً فتُقْتَل، وهي طاهرةٌ لم تُلَوِّثْها الذنوب، ﴿ بِغَيۡرِ

نَفۡسٖ ﴾.

وقوله: ﴿ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴾ أي أمراً مُنكراً تُنْكِرُهُ العقولُ، وتنفرُ منه النفوس، لأنَّ الجريمة هنا كبيرةٌ، فهي أكبر من خرقْ السفينة؛ لأنَّ الاعتداءَ الأول على السفينة اعتداءٌ على مال أتْلَفَهُ، وهنا قتلٌ لنفسٍ بغير وجهِ حقٍّ ظاهر، ثم إنَّ الخرقَ للسفينة يُمكن تدارُكه بالسدِّ والاصلاحِ، أما قتلُ الغُلام فلا يمكن تدارُكه بوجهٍ من الوجوه.

قال العلماء: ويأتي جواب الخضر في هذه المرة فيه تأكيدٌ على تذكير موسى بالشرط الأول ولذلك جاء بكلمة «لك»، وذلك بقوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٥﴾ ﴾ [الكهف].

انظر إلى كلمة «لك» هنا، فإنها تدلُّ على شِدَّةِ العتاب، والوصف لموسى بقلَّةِ الصبْر، وذلك مثل أن يفعَلَ إنسانٌ شيئاً أمامك فنهيتَهُ عنه وعاتبتَهُ عليه، ثم أتى به مرةً أُخرى فإنَّ عتبَكَ عليه، ولومك إياه يكون أشدَّ.

هنا، لم يعتذر موسى بالنسيان،؛ لأنه لم يكنْ ناسياً، ولكنَّه رَجَّحَ تغييرَ الْمُنكرِ العظيم - وهو قتلُ النفس بلا موجب - على الوفاء بالشرط ولذلك أسرعَ موسى عندها فأعلمَ الخضرَ بأمرٍ تطمئِنُّ إليه نفسه وهو قوله تعالى:﴿ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴿٧٦﴾ ﴾[الكهف].

وهذا شرطٌ بَيَّنَهُ موسى حتى لا يُحرِجَ الخضرَ، والشرطُ لازمٌ، والمسلمون على شروطهم، وأحقُّ الشروطِ أنْ يُوفى بها ما الْتَزَمَهُ الأنبياءُ، ولهذا جاء في الحديث أنَّ النبي ﷺ قال: «كانت الأولى من موسى نسياناً، والثانية شرطاً».

وقد ثبتَ في صحيح مسلم من حديث «أُبي بن كعب» أن النبي ﷺ قال: «رحمةُ الله علينا وعلى موسى لولا أنه عَجَّلَ لرأى العجب، ولكن أخذتهُ من

صاحبه ذَمامةٌ، ولو صبرَ لرأى العجب».

والذَّمامةُ: الاستحياء من تكرار مخالفته للخضر.

وفي البخاري: أن النبي ﷺ قال: «يرحم الله موسى لَوَدِدْنَا أنه صَبَرَ لرأى العجب»، وأسنده الطبري من حديث أبيّ أنَّ النبي ﷺ قال: «كان إذا دعا لأحدٍ بنفسه، فقال يوماً: رحمةُ الله علينا وعلى موسى لو صَبَرَ على صاحبه لرأى العجب، ولكنه قال: ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾».

ومعنى: ﴿قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾ أي وصلتَ من جهتي إلى العُذر؛ لأني خالفتُك ثلاث مرات، أو قد فعلتَ معي كل ما يمكن فعله، وليس لي عذرٌ بعد ذلك.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: ويدخلان بعد ذلك قريةً، - وذكر الثعلبي أنها الناصرة - وموسى لا يَعرف لماذا ذهبا، ولا لماذا يبيتان فيها، وينفَذُ طعامُهما، ويطلبان الطعامَ من أهل القرية بدون نتيجة، إنها قريةٌ بخيلة.

وجاء عليهما الليلُ، فأويا إلى خلاءٍ فيه جدارٌ يكادُ يسقط، وفوجئ موسى بالخضرِ ينهضُ ليقضي الليل كله في إصلاح ذلك الجدار وبنائِهِ، وهذا ما قصَّهُ الله علينا: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ﴾ [الكهف ٧٧].

وفي صحيح مسلم من حديث أُبيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال: «كانوا لئاماً» - بخلاء-.

قال قتادة: شرُّ القرى لا تُضيفُ ضيفاً، ولا تعرفُ لابن السبيل حقه.

وقوله: ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ أي طلبا الطعام ضيافةً.

قال القرطبي: طافا في المجالس فلم يَعْرِضْ أحدٌ عليهما الضيافة.

قال البروسوي: إنما لم يسألاهُم الطعامَ، ولكن نزولهما عندهم بمنزلة السؤال منهم.

ولذلك قال ابن سيرين: هي أبخلُ قرية وأبعدُها عن السماء.

قال القرطبي: ويظهر أنَّ الضيافة كانت واجبةً وأنَّ الخضرَ وموسى إنما سألا ما وَجَبَ لهما من الضيافة وهذا هو الأليقُ بحال الأنبياء والفُضلاء. ثم قال: وقد أخطأ بعضُ ضِعاف النفوس في فهم هذه الآية، كما نُقِلَ عن الحريري صاحب «المقامات» أبو محمد القاسم بن علي البصري، كان أديباً كبيراً توفي سنة ٥١٦ هـ، فقد أخطأ وزلَّ في فهم هذه الآية، واستدل بها على جواز الكُدْيَةِ – سؤال الناس – ويقول أنَّ ذلك ليس عيباً فقال:

وإنْ رُدِدْتَ فما في الردِّ منقصَةٌ   عليك قد رُدَّ موسى قبلُ والخَضِرُ

قال القرطبي: وهذا لعبٌ وعبثٌ بالدين، وانسلالٌ من احترام النبيّين، وهي شنشنةٌ أدبيةٌ، وهفوةٌ سخافية، ويرحم الله السلفَ الصالح، فقد بالغوا في وصيةِ كلِّ ذي عقلٍ راجح، فقالوا:

«مهما كنت لاعباً بشيء فإياك أن تلعب بدينك».

قال صاحب «التحرير والتنوير»: وهذه الآية دليلٌ على إباحة طلب الطعام لعابر السبيل؛ لأَنَّهُ شرعُ مَنْ قبلنا وحكاهُ القرآن ولم يَرِدْ ما يَنْسَخُهُ.

وكانت الضيافةُ شائعةً من أيام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهي من المواساةِ المتَّبَعة عند الناس، ويقوم بها كِرامُ الناس، أو ممن يحرصون على استضافة أبناء السبيل، فإباءُ أهل القرية لضيافتهما لؤمٌ.

وفي حديث «الموطأ» أن النبي ﷺ قال: «.. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، جائزته يومٌ وليلةٌ – أي يبالغ في برِّه ويُتْحِفُهُ – وضيافته

ثلاثة أيام - أي إطعامٌ وإيواء بما حَضَرَ ولا يتكلف كما تكلف أول ليلةٍ - فما كان بعد ذلك فهو صدقة».

قال الجمهور: الضيافةُ مستحبةٌ وهي من مكارم الأخلاق وهذا قول مالك وأبي حنيفة والشافعي.

قال أحمد والليث: الضيافةُ فرضٌ يوماً وليلة.

﴿ جِدَارًا ﴾: هو الحائط المبني المرفوعُ، ومنه قولهم: أَجْدَرَتْ الشجرةُ: إذا طلعت، وقد لجَأا إلى هذا الجدار عندما لم يجدا مأوىً، وكانت ليلةً باردة، وكان الجدارُ على طريق، ويمر الناسُ تحته على خوفٍ.

وقوله: ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ أي قَرُبَ أنْ يسقط، كما تقول: انقضَّ الطائر: أي أسرع في سقوطه.

وقوله: ﴿ فَأَقَامَهُۥ ﴾ أي عمَّرَهُ وأصلحه، وقيل: هَدَمَهُ وأعاد بناءه.

قال ابن عاشور: كانت إقامة الجدار بأمرٍ خارقٍ للعادة، بأن أشار إليه بيده كالذي يُسَوّي شيئاً ليناً، كما ورد في بعض الآثار الصحيحة.

قال سعيد بن جبير: مسح الجدار بيده، ثم أقامه فقام.

قال القرطبي: وهذا هو الصحيح من حال الأنبياء.

قال العلماء: لما رأى موسى ما فعله الخضرُ من إقامةِ الجدارِ قال له لضرورة حاجتهما إلى الطعام: كان في إمكانك أن تجعل لنفسك أجراً على إقامةِ الجدار ولا تُقيمَه مجّاناً؛ لأنهم لم يقوموا بواجب الضيافة، ونحن بحاجة إلى نفقةٍ، وذلك ما ذكره القرآن الكريم: ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۝٧٧ ﴾ [الكهف]، وفي الآية دليل على صِحةِ جواز الإِجارة، وهي سُنَّةُ الأولياء والأنبياء، كما فيها إشارة إلى أنَّ نفقة الأتباع على المتبوع.

ويروي بعض المفسرين: أنَّ الخضرَ لمّا قال له موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾: أنسيتَ سُقياك لبناتِ يعقوب من غير أجر؟

ولما قال له موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾، قال الخضر: يا موسى ألم تنزل البحر وأنت طفل في التابوت بلا سفينة ولم تغرق؟

ولما قال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾، قال الخضر: وماذا جنى القبطي الذي قتلته؟

قال البروسوي: وهذا من لطائف المحاورات.

وقال القرطبي: وفي الآية دليلٌ أنَّ على الإنسان ألا يتعرضَ للجلوس تحت جدارٍ مائل يخاف سقوطهُ، بل عليه الإسراعُ في مَشيه إذا كان ماراً بجواره لما ورد في الأثر: «إذا مرَّ أحدكم بطربالٍ مائل فليسرع المشيَ»، والطربال: القطعة العالية من الجدار، والصخرةُ العظيمة الناتئةُ من الجبل، وطرابيلُ الشام: صوامعُها، وطرْبَلَ بوله: مدَّه إلى فوق.

وقد ورد في البخاري من حديث أُبيّ أنَّ النبي ﷺ قال: «كانت الأولى من موسى نسياناً، والوسطى شرطاً، والثالثة عمداً».

وهكذا كان وقت الفراقِ الموعود، فقال الخضر عندها ما ذكرتْهُ الآية: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [سورة الكهف ٧٨].

قال ابن عباس: كان قولُ موسى في شأن السفينة، وفي شأن الغلام، لله عز وجل، أما قوله في الجدار ففيه شيءٌ لنفسه، فقال له الخضر: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾، وقد حصل شرطٌ على هذا، والشرطُ كما يقال في الأصول: الشرط أملكُ، عليك أمْ لك.

ثم أَتْبعَ الخضرُ قوله: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾، بقوله: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ

﴿ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨ ﴾.

أي لن أتركك وفي نفسك هذه التساؤلاتُ، حتى لا يكونَ في نفسك عليَّ شيء، بل سأخبرُك بحقيقة هذه الأفعال التي اعترضت عليها.

قال القاسمي: المعنى سأخبرك بمآل ما لم تصبر على ظاهره.

قال الرازي: سأخبرك بحكمةِ هذه المسائل الثلاث، ثم أخذ الخضرُ في تفسير ما رآه موسى مشكلاً ومُنكراً، فقال:

السّر الأول: إنَّ السفينة كانت لمساكين - كما ذكر القرطبي - عن كعب، كانوا إخوةً عشرةً، خمسةٌ منهم زمنى - أمراضٌ مزمنةٌ -، وخمسة يعملون في البحر، وقد ورثوا هذه السفينة من والدهم، وكان عملُهم نقلَ الناس بها من مكان إلى مكان، ومن ساحل إلى ساحل، وكانوا ضعفاء لا يستطيعون مدافعة الظلمةِ، فقُمْتُ بخرقِ السفينة لأعيبها؛ لأنهم كانوا يمرون في رحلاتهم على سُلطانٍ ظالم يُصادر ويَغْصِبُ كلَّ سفينة جيدةٍ صالحةٍ للاستعمال، ففعلتُ ذلك لأرُدَّه عن غصْبِ السفينة؛ وذلك ما قصَّهُ القرآن علينا في [سورة الكهف]: ﴿ **أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩** ﴾.

قال القرطبي: كان هؤلاء المساكين غير عالمين بخبر السلطان الظالم، فأخبر الله الخضر حتى عيَّبَ السفينة.

وذكر البخاري أن اسم ها الظالم «هُدَدُ بن بُدد»، وكان يغْصِبُ السُفن الصالحة ليسخرها في نقل لوازم بناء قصوره ومصالحه الخاصة، كما كان الفراعنة يُسخرون الناس في بناء الأهرامات.

قال أبو الليث: أولُ فسادٍ ظهر في الأرض، قتل قابيل لهابيل، وأول فساد

ظهر في البحر، ظُلمُ هذا الملك باغتصابِ السفن لصالحه.

قال البروسوي: وأراد الخضرُ بقوله هذا أنه أراد خرق السفينة للتعييب لا للإغراق.

وكلمة «وراءَ» في وراءهم، يمكن أن تكون بمعنى: «الخَلْف» أي خلفهم، بحيث إذا رجعوا أخذوا السفينة منهم، ويجوز أن تكون «وراء» بمعنى: «أمام»، وذلك كقوله تعالى في [سورة إبراهيم]: ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ ﴾، ويؤيد هذا المعنى قراءة ابن عباس المفسرة «وكان أمامهم ملكٌ..» فإتلافُ البعض لسلامة الباقي جائز، وسفينةٌ معيبةٌ خيرٌ من لا سفينة.

قال المفسرون: ثم يكشف الخضر **السرَّ الثاني**: فيقول ما معناه: وأما التصرف في قتل الغلام، فهو تصرفٌ بوحيٍ لقَطْعِ فسادٍ خاصٍّ عَلِمَهُ الله عز وجل، وأعلمَ به الخضرَ بالوحي، وليس هذا من باب التشريع.

وأخذُ الغلام - كما قال المحققون - في سنٍ لم يبلغ الحُلُمَ، هو خير له ومصلحةٌ قبل أن تُلوثهُ المعاصي، ويدخل دائرة الحساب.

ولكن ماذا عن والديه؟

الوالدان مؤمنان، والفتنةُ بالأولاد موجودة، قال تعالى في [سورة التغابن ١٤]: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾، وقال: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [التغابن].

وعَلِمَ الله أنَّ هذا الغلام سيكون فتنةً لأبويه فأراد سلامتهما من الفتنة، فقد يحملهما حبُّهما له على الغلوّ والكفر، وذلك ما قصه الله علينا في الآية: ﴿ وَأَمَّا

﴿ ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١ ﴾ [الكهف].

وهكذا كان قضاء الله جاء خيراً للغلام، وخيراً للوالدين، وحكمةٌ بالغة تستتر وراء الفعل الظاهر الذي فعله الخضرُ، واعترَض عليه موسى عليه السلام.

ولذلك قال بعض أهل التفسير: إنه يُعَدُّ من الغباء إذا مات لدينا طفل صغير أو غلام، أن يشتَدَّ الحُزن عليه، وننعي طفولته، ونحن لا ندري ما أُعِدَّ له من النعيم، لا ندري أنَّ مَنْ أُخِذَ من أولادنا قبل البلوغ لا يُحَدَّدُ له مسكنٌ في الجنة؛ لأنها - أي الجنة - جميعاً له يجري فيها كما يشاء، ويجلس فيها أين أحبَّ، ويجلس عند الأنبياء، وعند الصحابة، لا يعترضُهُ أحد، لذلك يُسَمَّوْنَ - دعاميص الجنة - أي دخّالون في منازلها سَيَّاحون فيها، لا يُمنعون من موضع.

ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة، فقد ورد أنَّ أبا حسّان قال: قلتُ لأبي هريرة: أنه قد مات لي ابنان، فما أنتَ مُحَدِّثي عن رسول الله ﷺ بحديثٍ تُطَيِّبُ به أنفسنا عن موتانا؟ قال أبو هريرة: نعم: «صِغارهم دعاميصُ الجنة، يلتقي أحدهم أباه فيأخذُ بثوبه، كما آخُذ أنا بصِنفةِ ثوبك هذا، فلا يتناهى حتى يدخلَهُ الله وأباهُ الجنة» مسلم وأحمد.

وقوله: ﴿ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١ ﴾ [الكهف].

زكاةً: أي طُهراً وصلاحاً، و رُحْماً: أي الرحمة، وقُرئ رُحُماً: أي أوصل للرحم، وأبرّ لوالديه، ومنه قوله الشاعر:

وكيفَ بظلمِ جارية   ومنها اللبنُ والرُّحُم

ومن قول رُؤْبَة بن العجاج:

يا مُنْزِلَ الرُّحَمِ على إدريسا   ومُنْزِلَ اللعن على إبليسا

قال ابن عباس: أبدلهما الله جاريةً تزوَّجها نبي من الأنبياء.

قال قتادة: لقد فرح به أبواه حين وُلِدَ، وحزنا عليه حين قُتِلَ، ولو بقي حياً كان فيه هلاكهما، فالواجب على كل امرئ الرضا بقضاء الله تعالى، فإنَّ قضاء الله تعالى للمؤمن فيما يكره خيرٌ له من قضائِهِ له فيما يحب.

قال العلماء: ثم كشفَ الخضرُ **السرَّ الثالث**: وهو قضيةُ الجدار وبنائه، فإنه كان لغلامين يتيمين، وكان أبوهما عابداً يحبُ السياحة في الأرض، واسمه «كاشح»، واسم الصبيَّين «أحرمُ وحُريم»، وكان تحت الجدار مالٌ مدفون من ذهب وفضة، كما ذكر البخاري في «تاريخه» والترمذي والحاكم وصححه من حديث أبي الدرداء.

وورد عند ابن أبي حاتم عن أبي ذرٍّ مرفوعاً أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كان الكنز لوحاً من ذهب مُصْمَتاً، مكتوب فيه:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ عجبتُ لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، من فَوْتِ نفع، أو حصولِ ضرّ.

وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، أي الموت حق، والعمر قصير، فلا يبْطر.

وعجبتُ لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، عن محاسبة نفسه قبل أن يُحاسب.

وعجبتُ لمن يعرف الدنيا وتقلُّبها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وعند البروسوي زيادة يقول فيها:

«وعجبتُ لمن يؤمن بالنار كيف يضحك».

ثم قال: ومكتوب في الجانب الآخر: «أنا الله لا إله إلا أنا، وحدي لا شريك لي، خَلقت الخير والشر، فطوبى لمن خلقتُهُ للخير، وأجريتُه على يديه، والويل لمن خلقتُهُ للشر وأجريتُه على يديه».

وقد ورد عن ابن مردويه نحوه مرفوعاً من حديث علي، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ [الكهف ٨٢].

الكنز: هو المال المدفون المُدَّخر، وجائز أن يكون مع المال كتاب فيه علم؛ لأنه ورد عن الحسن أنه قال: كان لوحاً من ذهب عليه حِكَمٌ.

وقال عكرمة: مال من ذهب وفضة.

واليتيمُ: عند بني آدم فقد الأب، وعند البهائم بفقد الأم.

وقوله: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾: كان الناس يضعون عنده الودائع فيردُّها إليهم سالمةً، فحفظهُما الله بصلاح أبيهما في مالهما وأنفسهما، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ ﴾ [الكهف ٨٢].

قال محمد بن المنكدر: إن الله يحفظ بصلاح العبد ولدَه، وولدَ ولدِه، وعِتْرَتَهُ وعشيرته، وأهل دويراتٍ حوله، فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم.

قال سعيد بن المسيب: إني لأصلي، فأذكر ولدي، فأزيد من صلاتي، ويقول: يا بني: إني لأزيد في صلاتي من أجلك عسى الله أن يحفظني فيك.

ونلاحظ في الآية قوله تعالى: ﴿أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾، والأشُدّ: القوة، ولم تقل الآية: «رشدهما»: لأن الرشدَ هو حُسنُ التصرف في الأمور.

أما الأشُدّ: فهو القوة، والغلامان في هذه الواقعة محتاجان إلى القوة التي تحمي الكنز من هؤلاء اللئام، لأنه لو انهدم الجدارُ ولمع الذهبُ أمام هؤلاء القوم الذين منعوا موسى والخضر مجرد الطعام والإيواء، فهل يؤتمن هؤلاء القوم على هذا الذهب.

وهكذا، فالذي حصل للغلامين كان رحمةً من الله تعالى بهما لحماية مالهما، وحفظ حقهما، وإرادة الخير لهما.

قال العلماء: ثم أرجعَ الخضرُ الفضلَ لأهله «إلى الله»، وقام بنفي الغرور عن نفسه بالعلم، أو بالاستعلاء على صاحبه موسى، فصرَّح بقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف].

أي ما حدث - ياموسى - كان بأمر الله، وما علمتُك إياه من عند الله، فليس لي مَيْزَةٌ عليك، - وهذا كما قال العلماء -: درسٌ عظيم في أدب التواضع، ومعرفة الحق لأهله.

هنا سؤال: نلاحظ أنَّ الخضرَ لما خرق السفينة وعيّبها، أضاف التعييب إلى نفسه ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وفي قضية الغلام قال: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾، وفي الثالثة وهي قضية الجدار، قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾، فما السبب في ذلك؟

والجواب:

أولاً: إنَّ العربَ تؤثر اختلافَ الكلام على اتفاقه مع تساوي المعاني، لأنه أعذبُ على الألسن، وأحسنُ موقعاً في الأسماع، فيقول الرجل: قال لي فلان: كذا وكذا، وأنبأني، وخبرني..

ثانياً: ذلك من حُسن الأدب مع الله تعالى، وأنْ لا يُضاف إليه عز وجل ما يُستقبَحُ لفظُه - وهو العيب بالسفينة -، وإنْ كان الكل بتقديره عز وجل وخلقِه، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء]، ومن ذلك قول النبي ﷺ كما في مسلم: «والخيرُ بيديك، والشَّرُّ ليس إليك»، فَيُنْسَبُ الحسن الجميل إلى الله أدباً.

أما في قتل الغلام فقال: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا ﴾: فنسب القتلَ إلى نفسه، والتبديل إلى الله.

وفي الجدار قال: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾: فأسندَ الأمر إلى الله عز وجل لماذا؟ لأن القضية هنا أمرٌ غيبي لا يعلمه إلا الله، فَحَسُنَ هنا إفرادُ الله بذلك، لأنه لا يعلم الغيب إلا الله.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: ويكشف الخضرُ لموسى عن الأسرار التي غَمضت عليه وحَيَّرَتْهُ، ودفَعَتْهُ إلى الأسئلة، وإنَّ كل التصرفات التي أثارت موسى لم تكنْ حين فعلَها الخضرُ تصدُرُ عن أمره، وإنه كان يُنفذ إرادةً عُليا، وكانت لهذه الإرادة كلمتُها الخافيةُ، وهكذا: «تخفى النعمةُ في ثياب المِحْنة، وترتدي الرحمةُ قناعَ الكارثة»، وصدق الله: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف].

بعض اللطائف والفوائد في قصة موسى والخضر:

قال السيوطي في «الإكليل»: تدل هذه القصة على جواز اتخاذ الرفيق والخادم في السفر، واستحباب الرحلة في طلب العلم، وإنَّ صُنْعَ الجميل لا يترك:

مَنْ يفعلِ الخيرَ لا يَعدمْ جوازيه ... لا يذهبُ العُرف بين الله والناس

ومن ذلك قولهم:

خير أيام الفتى يومٌ نَفَع ... واصطناعُ الخيرِ أبقى ما صَنَع

وإنْ تعارضت مفسدتان، ارتكب أخفَّهما، وتدل على جواز دفن المال في الأرض.

قال البيضاوي: ومن فوائد هذه القصة: ألا يُعْجَبَ المرءُ بعلمه، ولا يتعجل بالإنكار على أمرٍ لم يَسْتَحسنه، فلعل فيه سرّاً لا يعرفه، وأنْ يُداوم على التعلم؛ لأن ميراث العلم خيرٌ من ميراث المال.

وقال: خلف الأحمر البصري ١٨٠ هـ:

خَيْرُ ما ورَّث الرجالُ بَنيهم ... أدبٌ صالح وحُسْنُ ثناء
هو خيرٌ من الدنانير والأو ... راقِ في يومِ شدةٍ ورخاء
تلك تفنى والدينُ والأدبُ الصا ... لحُ لا يفنيان حتى اللّقاء[1]
إنْ تأدبْتَ يا بنيَّ صغيراً ... كنتَ يوماً تُعَدُّ في الكُبراء

قال في «فتح الباري»: ومن فوائد هذه القصة: استحباب لقاءِ العلماء، لو تحمل الإنسان بعض المشاق، وفي القصة دليل على إطلاق اسم القرية على

---

(١) اللّقاء: الآخرة.

«المدينة»، وهذا مأخوذ من قوله: ﴿ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ﴾، ثم قال بعدها: ﴿ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ [الكهف ٨٢].

وقال الناصر في كتاب «الإنصاف»: إنَّ قصص الأنبياء لم يوردها ربُّنا عز وجل ليَسمُرَ بها الناس، ولكن ليُشَمِّرَ الخلقُ لتدبرها، واقتباس أنوارها.

وقد ذكر السهيلي في كتاب «التعريف»: أنَّ موسى والخضر لما أرادا التفرق، أوصى كلُّ واحدٍ منهما الآخر.

وقد ذكر البروسوي: أنَّ الخضر قال لموسى: يا موسى: لو صَبَرْتَ لرأيتَ ألفَ عجبٍ، كلُّ عجبٍ أعجبُ مما رأيت، فبكى موسى على فراقه وقال له: أوصني، وكان من وصايا الخضر: كن بشاشاً ولا تكن عبوساً، واطلب العلم لتعملَ به، لا لتُحَدِّثَ به.

فقال موسى: وقد أبلغتَ الوصيةَ، فأتَمَّ الله عليك نعمته، وعزك في رحمته، وكلأكَ من عدوُه.

هذه وصية جميلة ينبغي على طالب العلم أنْ يُدْركها، وهي العملُ بما عَلِمَ، ولذلك قال «المنصور الفقيه»:

أيها الطالبُ الحريصُ تعلَّمْ　　إنَّ للحق مذهباً قد ضللْتَه
ليس يُجدي عليك علمُك وإن لم　　تَـكُ مستعمِلاً لما قد عَلِمْتَه
كم إلى كم تخادعُ النفس جهلاً　　ثم تجري خِلافَ ما قد عَرَفْتَه
تصف الحـقَّ والطريقَ إليه　　فإذا ما عملتَ خالفتَ سَمْتَه

قال العلماء: ثم قال الخضر: أوصني يا موسى، فقال موسى: إياك والغضب إلا في الله، ولا تحبَّ الدنيا فإنها تخرجُكَ من الإيمان.

فقال له الخضر: قد أبلغت في الوصية، فأعانك الله على طاعته، وأراك السرور في أمرك، وحبَّبَكَ إلى خلقهِ، وأوسعَ عليك من فضله، فقال موسى: آمين.

قصة موسى مع قارون:

ذُكرتْ قصة قارون في سورة القصص، ونحن نعلم أنَّ بداية سورة القصص بدأت بقصة موسى وفرعون، وذلك قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص].

تكلمتْ هذه السورة في بدايتها لتعرض لنا سلطان القوة الغاشمة الظالمة في الحُكم، وكيف انتهتْ إلى الهلاك، حين يستعمل الطاغيةُ هذه القوة في البغي والظلم والكفران بالله، واسمع معي إلى ختام الطغيان بقوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [القصص].

ثم تأتي قصة قارون لتعرض لنا «سلطان المال والعلم»، وكيف ينتهي أمرُهما إلى الهلاك والدمار والبوار، عندما يرافقُ ذلك البغيُ والبطرُ والاستكبار على الخلق، وجحدُ نعمة الخالق.

ثم تُبرز القصة قيمةَ الإيمان والعلاج، وقيمة الاعتدال في الاستمتاع بطيبات الحياة، وتُبرز هذه القصة بعد ذلك القيَم الحقيقية التي بها سعادةُ البشر، وترخصُ من قيمة المال والزينة حين يتجردان من الخير.

والقصة - كما ذكر العلماء - ساقها الله عز وجل لمشركي مكة أيام بعثة النبي ﷺ حين آذَوا رسول الله ﷺ باعتزازهم بالمال، حيثُ كان قولُ الأغنياء والمترفين للرسل، كما قال مشركو مكة كذلك: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ].

وقال في [سورة المزمل]: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾.

وهؤلاء هم الذين كانوا يَعُدُّون الكمال في سَعَةِ العيش ووفرة المال والانطلاق في العيش بلا ضيقٍ، والإقبال على لذائذ الحياة من طعومٍ وبيوت وجنات، والانبساطِ إلى النساء والخمر والميسر، ثم ينفقون أموالهم لنصرة الباطل كما فعلوا يوم بدر، وأعرضوا عن كمالاتِ النفس ولذةِ الاهتداء والمعرفة، كما قال صاحب «التحرير والتنوير».

والنِّعمةُ: الحالةُ الملائمة لرغبة الإنسان من عافيةٍ وأمنٍ ورزق، وجمعها: نِعَمٌ، والنَّعْمَةُ، كما في الآية: اسم للترفُّه جمعُها: أَنْعُم، والنُّعْمَةُ: بضم النون اسم للمسرة تُجمع على: نُعَمٍ، مثل غرفة وغُرف.

قال العلماء: فبيَّن الله عز وجل لمشركي مكة أنَّ لكم أشباهاً من الأمم السالفة، فما لكم مع محمد ﷺ لحال قارون مع نبي الله موسى، أَبطَرَهُ المالُ فهلك، وتكبَّر وخُسِفَ به، وكما كان قارون قريباً لموسى، فأنتم يا أبا لهب ويا وليد أقرباءُ لمحمد ﷺ، وكذلك استكبرتم واعتززتم بأموالكم فستُهلكون كما هلك مَنْ قبلكم.

قال تعالى في [القصص ٧٦]: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾.

وقارون: اسم مُعَرَّب أصله في العبرانية «قَوْرَحُ» أُجري عليه حين تعريبه تغييرٌ للتخفيف، ثم أُجري وزنُهُ على متعارفِ الأوزان العربية مثل: طالوت، جالوت، قارون.

قال النخعي وقتادة وغيرهما: كان قارون ابن عم موسى لَحًّا - قريباً - وهو قول أكثر العلماء، ومع هذه القرابةِ القريبةِ صار عدوّاً لموسى وللمؤمنين به.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: أَمْر قارون أعجَبُ من أَمْرِ فرعون، لأنَّ البغيَ من القريب يكون أشدَّ إيلاماً مما لو حصل من غريب بعيد، ولذلك قال طرفة بن العبد:

وظلمُ ذوي القرى أشدُّ مَضَاضةً

على المرء من وقع الحسامِ المهند

قال ابن جريج: كان قارون يُسمى «المنوَّرَ»، لحُسن صورته، وجمال صوتِهِ بقراءة التوراة، ولكنَّ عدوَّ الله نافق كما نافق السامري.

قال البروسوي: كان قارون ممن آمن بموسى، وكان أقرأَ بني إسرائيل للتوراة، ثم تغيّر حالُهُ بسبب الغنى فنافَقَ كما نافق السامري، ودفعتْهُ كثرةُ ماله إلى البغي.

وقوله: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾، والبغيُ: الاعتداء على الأمة، والاستخفافُ بحقوقها، والكِبْرُ والتجاوز إلى منزلةٍ ليست له، وطلبُهُ أن يكونَ الناس تحت أمره.

وكان يجرُّ ثوبهُ خُيلاء، وزادَ في طوله شبراً ترفعاً على قومه، وفي الحديث: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى رجل جرَّ ثوبه خُيَلاء».

ومن بغْيه: أنه حسد هارون، فقد جعل الله هارون رسولاً بدعوة موسى حين سأل ربَّهُ أن يَشُدَّ عضده بأخيه هارون: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [طه].

ولما ذهب موسى لميقات ربه قال لأخيه هارون: ﴿ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ﴾ [الأعراف ١٤٢]، ثم كانت الحبورةُ لهارون، وهي رئاسة المَذْبحِ لتقديم القرابين، هنا غضب قارونُ؛ لأنَّ بني عمومته امتازوا عنه بالرسالة والمنزلة، رُغمَ ما كان عنده من كثرة الأموال.

ومن بغيه: أنه منعَ حقوق الفقراء في ماله، واستخفَّ بهم، ونحن نعلم أنَّ للفقراء دوْلَتهم يوم القيامة، حيث يُنْقِذون من أطعمهم أكلةً.

ويروي المفسرون: أنَّ موسى طلب من قارون زكاة ماله، دينار في كل ألف دينار، ودرهمٌ في كل ألف درهم، فرفض قارون وامتنع بل وحاول أنْ يُحرّض الناس على عدم دفع الزكاة.

فقد أخرج ابن أبي شيبة في «مصنفه»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس: أنَّ موسى عليه السلام قال لقارون: إنَّ الله أمرني أن آخذ الزكاة، فأبى قارون، ثم قال للناس: إنَّ موسى يريد أن يأكلَ أموالكم، جاءكم بالصلاة، وجاءكم بأشياء فاحتملْتُموها، فتحمَّلوه أن تُعطوه أموالكم؟

قالوا: لا نحتمل، فما ترى؟ فقال: أرى أنْ أُرسل إلى بغيٍّ من بغايا بني إسرائيل، فنرسلها إليه، فنرميه بأنه أرادها على نفسها - أورده السيوطي في «الدر المنثور» -.

وقد ذكر ابن عطية الأندلسي المتوفى ٥٤٦ هـ في تفسيره المسمى «المحرَّرُ

الوجيز»: أن قارون أتى إلى امرأة مومسةٍ وقال لها: أنا أُحْسن إليك، وأَخْلُطَكِ بأهلي على أن تجيئي في ملأ من بني إسرائيل عندي فتقولي: يا قارون اكفني أمرَ موسى فإنه يعترضني في نفسي.

وفي رواية: وأعطاها طسْتاً من الذهب، فجاءت المرأة فلما وقفت على الملأ، أحدث الله لها توبة، فقالت: يا بني إسرائيل إنَّ قارون قال لي: كذا وكذا، وفضحتْه في جميع المؤامرة، وبرَّأ الله تعالى موسى، وهنا ظهرت شدَّةُ عداوته لموسى عليه الصلاة والسلام.

كان قارون غنياً جداً وإلى هذا الغنى تُشير الآية قال تعالى:﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾ [القصص ٧٦].

والكنوز: جمعُ كنز، وهو ما اختُزِنَ من المال في صندوق أو خزانة، والعرب تقول: «كنَزتُ التمر في الوعاء» إذا ادخرته.

وكان القدماء يُطلقون الكنزَ على المقدار من المال الذي يملأ خِزانتَهُ أو صندوقاً يَسَعُ هذا المال، ولكل خزانةٍ أو صندوق مفتاحٌ، ويؤيد هذا المعنى ما ورد عن «أبي رُزين» وهو لقيط بني عامر العُقليّ، أحدُ أصحاب النبي ﷺ قال: «يكفي الكوفة مفتاح»، أي مفتاح واحد، أي كنز من المال له مفتاح واحد، فتكونُ كثرة المفاتيح كناية عن كثرة الخزائن، وكثرةُ الخزائن كنايةٌ عن وفرة المال.

والمِفْتَح والمِفتاحُ: آلةُ الفتح، و المَفْتَح: الخزانةُ.

وقوله: ﴿ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾: أي إنَّ هذه المفاتيح أو هذه الخزائن لتثقُل على مَنْ يحملها، رغمَ أنَّ الحاملين عصبةٌ من الرجال والعُصبة ما بين العشرة إلى الخمسة عشر من الرجال.

قد يقول قائل: ومن أين لقارون هذه الأموال؟

والجواب: أنَّ هذه الأموال كان قد اكتسبها في مصر وخرج بها، حيث كان ناظراً لفرعون على بني إسرائيل فظلمهم، كما ذكر الماوردي.

وقال عطاء: أصاب كنزاً من كنوز يوسف عليه السلام، كما ذكرها الماوردي في كتاب «النكت والعيون»، وكان يحمل معه هذه المفاتيح أينما ذهب.

نصائح موسى وقومه لقارون:

النصيحة الأولى:

وكان قوم قارون وعلى رأسهم موسى يُذَكِّرونه ويعظونه قائلين له ما قصه الله علينا في [القصص]: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

نَهَوْهُ أولاً عن الفرح المذموم: وهو الفرح الذي ينتج عن التعلق بمتاع الدنيا ولذات النفس.

قال العلماء: والفرح في الأصل: استنباطُ النفس لأمرٍ يَسُرُّ الإنسان، ولكن هناك فرق بين أمر يَسُرك؛ لأنه يُمَتِّعُكَ، وأمر يسُرُّكَ لأنه ينفعك.

فالمصاب بالسكري قد يأكل السكريات لأنها عُدت له مُتعةً مع أنها مضرةٌ له، فالفرح ينبغي أن يكون بالشيء النافع وإن لم تكن فيه مُتعة، كالذي يتناول الدواء المرَّ الذي يعود عليه بالشفاء بإذن الله، ولذلك يقول الله تعالى في [سورة يونس]: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾، وقوله تعالى في [سورة الروم]: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾، فسماه الله فرحاً لأنه فرحٌ

بشيء نافع، وهو انتصار الدعوة، وأي شيء أنفعُ للمؤمن أنْ يُسيطر الحقُّ ليعود عليه وعلى العالم كلّه بالنفع.

قال العلماء: ومنْ فرح المتعة المحظورِ الممقوتِ ما حكاه القرآن الكريم عن الذين تخَلَّفوا عن محبة رسول الله ﷺ، ورفضوا الخروج معه ﷺ إلى القتال في غزوة «تبوك» وذلك قوله تعالى في [سورة التوبة ٨١]: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾.

ومن هذا الفرح الذي هو البطر ما قاله الله تعالى في [سورة الرعد] عن أهل مكة: ﴿ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

ولذلك قال الرازي في تفسيره: إنَّ على الإنسان ألا يلحقهُ البطر والتمسك بالدنيا ما يُلْهِيه عن أمر الآخرة.

ولذلك قال علماؤنا: إنه لا يفرح بالدنيا – أي فرحَ مُتعة – إلا من اطمأنَّ إليها، ورضي بها، أما مَنْ يعلمُ أنه سيُفارقها، فإنه لن يفرح فرحَ بطر، ولذلك قال المتنبي:

أشدُّ الغَمِّ عندي في سرورٍ   تيَقَّنَ عنه صاحبُهُ انتقالا

وما أجمل قول ابن شمس الخلافة:

وإذا نظرتَ فإن بؤساً زائلاً   للمرء خيرٌ من نعيمٍ زائل.

فعليك – يا عبد الله – ألا تفرحَ فرحَ المُتْعَةِ الذي لن ينظر صاحبُهُ إلى عواقب الأمور، فشاربُ الخمر يشربها لما بها من مُتعةٍ مؤقتةٍ، لكن يتبعها ضررٌ بالغٌ.

وكان هُدْبَةُ بن خَشْرم العذري يقول:

ولستُ بمفراحٍ إذا الدهرُ سرَّني ولا جازعٍ من صَرْفِهِ المُتحوّلِ

قال البروسوي: وعلّةُ النهي عن البطر؛ كونه مانعاً من محبة الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦﴾ [القصص]، وإنما يُحبُّ الله من يفرحُ بإقامةِ العبودية له عز وجل، ويطلبُ السعادة الأخروية النافعة بالطاعاتِ، ثم إن شدَّةَ الفرحِ بالشيء والتعلق به تستلزمُ الإعراض عن غيره.

النصيحة الثانية:

ثم إنَّ الصالحين من قوم قارون لفتوا نظره إلى أمرٍ آخر وعظوه به بعد أنْ وعظوه بترك البطر، وهو قولهم في الآية: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ۖ﴾ [القصص ٧٧] أي: اطلب بكنوزك أسباب حصول الثواب، بالإنفاق منها في سبيل الله، من مواساة الفقراء، وصلة الرحم، وفي أبواب الخير، وأن يستغني بالحلال عن الحرام، ولذلك قال العلماء: إن كنت عاشقاً للمال – يا عبد الله – ومُحباً لبقائه في حوزتك، فانقلْهُ إلى الدار الباقية، ليكون لك نعيماً لا يُفارقك.

من هنا يأتي الحديث الذي أخرجه أحمد في «مسنده»، والترمذي في «سننه»، وقال عنه: حديث حسن صحيح، أنَّ النبي ﷺ لما سأل أمَّ المؤمنين «عائشة» عن الشاة التي أُهْديتْ له، قالت: بعد أن تصدقت بها: ذهبت إلا كتفُها، فقال ﷺ: «بل بقيت إلا كتفها».

وفي «صحيح مسلم»، و«مسند أحمد»، و«سنن الترمذي» أنه ﷺ قال: «ليس لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليت، أو تصدقت فأبقيت».

النصيحة الثالثة:

وإذا كان الله عز وجل يوصينا بأن نبتغي بالفضل من أموالنا الآخرة، فهذا لا يعني أن نترك الدنيا، ولذلك لَفَتَ الناصحون لقارون نظره إلى الأمر الثالث فقالوا ما ذكره الله عز وجل: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص ٧٧]، وهذا احتراس جميل في الموعظة، حتى لا يَظنَّ قارون أنَّ عمله للآخرة سيَحْرِمُهُ من التمتع بطيبات الدنيا، ولذلك أعلموه أن لك أن تأخذ ما أحلَّ الله لك، ولذلك قال قتادة: «فيصيبك من الدنيا الحلال كله»، وهذا أبدعُ الأقول كما قال ابن العربي.

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي من المآكل والمشارب والمساكن والأزواج في الحلال، فإنَّ لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً فأعطِ كل ذي حَقٍّ حقه.

وهذه التفسيرات يجمعها قول عبد الله بن عمر: «احرثْ لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

وقال بعضهم: إنَّ معنى الآية: أي لا تنس يا قارون أنك لن تأخذ من هذه الدنيا معك عند الموت إلا الكفن، وستتركُ مالك هنا فقدِّم الفضل أمامك، وإلى هذا أشار قول القائل:

نصيبُك مما تجمَعُ الدهرَ كلَّهُ … رداءانِ تُلوى فيهما وحَنوطُ

ورحم الله القائل:

هي القناعةُ لا تبغي بها بَدَلاً … فيها النعيمُ وفيها راحةُ البدن
انظرْ لمن مَلَكَ الدنيا بأجمعها … هل راحَ منها بغير القطن والكفنِ

وفي الحديث عنه ﷺ قال: «فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت، فوالذي نفس محمد بيده ما بعدَ الموت مستَعْتَبْ، ولا بعد الدنيا دارٌ إلا الجنة أو النار».

قال العلماء: وهذه المواعظُ كلُّها جمعها قوله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ [القصص ٧٧].

ثم تأتي **النصيحة الرابعة** لقارون من قومه: ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ ﴾ [القصص ٧٧].

قال الرازي: أُمِرَ قارون بالإحسان بالمال أولاً، ثم أُمِرَ بالإحسان إلى عباد الله في كل شيء، من الإعانة بالمال، أو الجاه، وطلاقة الوجه، وهذا يشملُ الإحسانَ إلى نفسه وقومه، ودوابِّهِ، ومخلوقات الله الداخلة في دائرة التمكين من الإحسان إليها، وفي الحديث: «إن الله كتب الإحسان في كل شيء»، فالإحسان في كل شيء بحسبه.

النصيحة الخامسة:

ثم تأتي الموعظة الخامسة: ﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ [القصص ٧٧].

قال ابن عاشور: وهذا تحذير من خلط الإحسان بالفساد، فإن الفساد ضدَّ الإحسان، فالأمرُ بالإحسان يقتضي النهي عن الفساد، وإنما نصَّ عليه هنا ليكونَ الإحسان في كل شيء، وليكون الامتناعُ عن الفساد في كل شيء من المعاصي.

قال العلماء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ لسوءِ فِعالهم، بل يُحب المخلصين لحُسْنِ أعمالهم، فإن لم تستطع الإحسان في الكون، فلا أقل أن تدعَهُ كما هو، ولا تفسد فيه.

قال الرازي مُعلِّقاً على هذه المواعظ التي وُعِظَ بها قارون: وهي ما قصه الله علينا: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص].

قال الرازي: لقد جمعتْ هذه الموعظةُ نُصحاً لم يكن عليه مزيد، ولكنه - أي قارون - رفضَ ولم يقبل هذه النصائح الخمسة، بل زاد على الرفض فكفر بالنعمةِ، فقال ما ذكرته الآية: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾ [سورة القصص ٧٨]، لقد أجاب بجملةٍ واحدةٍ تحملُ كلَّ معاني الفساد والإفساد ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾.

حاول بهذا القول إسكاتهم، وقطع مواعظهم؛ لأن هذه المواعظ أزعجت بطرَهُ وعُجْبَه بماله وعلمه، وهذا الجواب يُشبه جوابَ «عمرو بن سعيد بن العاص»، الُملقب «بالأشدق»، حين أتى إلى المدينة أميراً عليها من قِبَلِ يزيد بن معاوية سنة ٦٠ هـ، فأخذ الأشدقُ يُجهز الجيوش لقتال ابن الزبير في مكة حين خرج على يزيد وكان «أبو شريح الكعبي»، وهو صحابي جليل يُشاهد ما يفعله الأشدقُ، فقال أبو شريح للأمير: ائذن لي أيها الأمير أن أُحدثكَ قولاً قام به رسول الله ﷺ الغَدَ من يوم الفتح - أي فتح مكة - فسمعتْهُ أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرَتْهُ عيناي حين تكلم به، إنه ﷺ حمدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن مكة حرَّمها الله ولم يُحرِمْها الناسُ، فلا يحِلُّ لامرئٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفِكَ بها دماً ولا يعضِدَ شجرةً، فإنْ أحدٌ ترخَّص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أَذِنَ لرسوله ولم يأذنْ لكم، وإنما أَذِنَ لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتُها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب».

فقال عمرو بن سعيد الأشدق: أنا أعلَمُ بذلك منك يا أبا شريح، إن

الحرمَ لا يُعيد عاصياً، ولا فارّاً بدم، ولا فارّاً بخَرْبَةٍ - وهي الفعل الذي لا تُقره الشريعة.

قال صاحب «الظلال» في هذا القول الذي قاله قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ﴾ [القصص ٧٨]، قال: إنه قولُ المغرور المطموسِ على بصيرته؛ لأنه تناسى مصدر النعمةِ، وأعماهُ الثراءُ والمال.

والمقصود من قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ﴾ [القصص ٧٨] أي: أني مستحقٌّ لهذا المالِ؛ لأني عالمٌ بالتوراة قارئ لها، أو عندي علمٌ عظيم بوجوه التجارة والمكاسب.

قال العلماء: والعجيبُ الغريبُ أن يكون قارون قد بَلَغَ من العلم مرتبةً عاليةً، ثم يقول هذا القول: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ﴾ [القصص ٧٨]، مع علمه بأنَّ الله أهلكَ أُمماً من قبله على بطَرِهم النعمةَ، وإعجابهم لقوتهم.

قال البروسوي: لم ينظر قارون إلى فضل الله و مِنَّته عليه، ولذلك هلكَ، وسيهلكُ كل من كان على طريقته في الافتخار لشؤم صنيعه، ولذلك جاء التهديد من الله سريعاً وقبل تمام الآية، وذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ﴾ [القصص ٧٨] أي: أَوَلم يعلمْ هذا المغرور، مما حفظ من التوراة، أو مما أخبره موسى، أو مما ذكره المؤرخون ما حصل لمن قبله ممن هم على شاكلته وطريقته، وهم أكثر منه مالاً ورجالاً، «كالنمرود»، أو أكثر منه طاعةً وعلماً «كإبليس».

والقرون: مفردها قرن: وهم القوم المقترنون في زمنٍ واحد.

والجمع ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ﴾: الجماعةُ من الناس، وكان أشياعُ قارون مائتين وخمسين من بني إسرائيل رؤساء جماعاتٍ، ثم يأتي التذييلُ الجميل في

ختام الآية: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٧٨﴾ [القصص].

وهذا الكلام تهديد للمجرمين ليكونوا بالحذر من أن يُؤخذوا بغتَةً، وعليهم أن يتوقعوا العذاب في أي وقت، والمقصود هنا عذابُ الدنيا، وعندما نُريد أن نهلكهم؛ فإنَّ هلاكَهُم لا يتوقف على سؤالٍ لهم، أو تحقيق معهم؛ لأنه لا حاجة للسؤال والتحقيق هنا في الدنيا؛ لأننا قد بيَّنا لهم على لسان الرُسل سُبُلَ الخير والشرِّ.

هنا سؤال: ما هو موقف قارون بعد هذه المواعظ؟

والجواب: إنَّ قارون رفضَ الموعظة قولاً وفعلاً: أما القولُ فقد مرَّ معنا وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾ ورفضَ الموعظة فعلاً حيث لم يتعظَ بالمواعظ ولا زمناً قصيراً – كما قال ابن عاشور – بل أعقب سماعه المواعظ بخروجه هذه الخَرْجَةَ المليئة صَلَفاً وغطرسةً، وذلك قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ﴾ [القصص ٧٩] وتعديةُ فعل «خرج» بحرف «على» فيه إشارةٌ إلى أنه خرج على قومه خروجَ مُترفعٍ مُتعالٍ، فالموعظةُ لم يتعظ قارون بها، ورفضها قولاً وفعلاً، وكان خروجه على سبيل التحدي.

وقوله: ﴿فِى زِينَتِهِۦ ۖ﴾ قال القرآن الكريم هذه العبارة ولم يزدْ عليها، والزينةُ: ما به جمالُ الشيء، والتباهي به من الثياب والطيب والمراكب والسلاح والخدم فذكرها القرآن هنا مُجملةً، إلا أنَّ المفسرين والمؤرخين ذكروا كلاماً كثيراً في هذه الزينة، فلنذكر شيئاً أو طرفاً من هذه الزينة:

قال البروسوي: خرج قارون يوم السبت، وكان يوم عيد عندهم كما قال الغزنوي – كان آخر يوم في عمره – على بغلةٍ شهباءَ عليها قطيفةٌ من الأُرجوان، وعليها سَرْجٌ من ذَهب.

قال المؤرخون: خرج ومعه في أقرب الأقوال ثلاثمائةٍ من الغلمان، وثلاثمائةٍ من الجواري عليهن الحليُّ والديباج، ويلبسون المعصفراتِ.

قال القرطبي: وكان هذا اليوم أول يوم شوهِدَ فيه المُعَصْفرَ.

قال جابر بن عبد الله: وكانت زينَتُهُ «القِرْمِزَ» وهو شبيه بالأُرجوان، والأرجوان: صَبْغٌ أحمر كما ذكر القشيري.

قال ابن عطاء: والزينةُ عند المُتَّقين، طاعةُ الربِّ تبارك وتعالى، ومن تزيَّنَ بالدنيا فهو مغرور في زينته، لذلك قالوا:

نصيبُكَ في حياتك من حبيبٍ نصيبُكَ في منامك من خيالِ

وقال غيره من العلماء: والزينةُ عند الطائعين، وجوهٌ مُسْفِرة عليها آثارُ الدموع، ساجدة على باب الربِّ عز وجل.

كان قارون غنياً وجيهاً، حسنَ الصوتِ والصورةِ، كثير العدد كثير المال، فكيف لو أُضيف إلى هذا كلِّه أن يخرج في موكبٍ عظيم، وفي كمال الزينة والأُبَّهَةِ ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ ﴾ فلا عجبَ إذا رأيتَ البعضَ انبهروا به و بزينته، بل وانقسموا بسببه قسمين: قسم اغترَّ بالزخارف العاجلة من غير علم، والثاني: علماءُ يؤثرون الآجلَ على العاجل، وذلك ما ذكره القرآن في قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ ﴾ [القصص].

وهؤلاء الذين يريدون الحياة الدنيا عندما قُوبلوا بالذين أوْتوا العلمَ، كان المعنيُّ بهم عامةَ الناس، وضُعفاء اليقين الذين تُلهيهم زخارف الدنيا عما يكونُ في مطاويها من سوء العواقب فتقْصُر بصائرهم عن التدبُّر إذا رأوا زينةَ الدنيا فيتلهَّفون للحصول عليها، ولا يتمنَّونَ غير حصولها، فهؤلاء وإنْ

كانوا مؤمنين، لكنَّ إيمانهم ضعيفٌ؛ فلذلك عظُمَ في عيونهم ما شاهدوه من بَذْخِ قارون فقالوا ما ذكره الكتاب الكريم: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي ذو بختٍ وسعادة كما قال صاحب «التحرير والتنوير».

والحظُّ: هو النصيبُ المُقدَّرُ الذي يُعْطَاهُ المقسوم له عند العطاء، والمُرادُ به هنا: ما قُسِمَ له من نعيم الدنيا.

قال العلماء: والمؤمن يحترم قَدَرَ الله في خلق الله، فاللهُ عز وجل قد وَزَّعَ أسباب فضله على خلقه، فهذا يمتاز بالذكاء؛ وهذا يمتاز بالحِلْم، وهذا بالصحة، وهذا بالعلم، وهذا بالمال... لأنَّ بذلك تتكاملُ الحياةُ، فحينما تجد - يا عبد الله - غيركَ متفوقاً في شيء، فلا تحقد عليه، ولا تتحسَّر؛ لأن تفوقه سيعود عليك بالخير فاحمد الله على ذلك؛ وانظر حين تُمْسِكُ المِقَصَ بيدك اليمنى لتقُصَّ أظافر اليد اليُسرى فتجدُ - لمرونة اليمنى - أنها تقصُّ أظافر اليُسرى بسهولة، أما حين تقصُّ اليسرى أظافر اليُمنى فإنها لا تُعطيك نفسَ المهارة التي كانت لليمنى وهكذا - فحسنُ اليُمنى تعدى لليُسرى ونفعها -.

بل قد تنتَفِعُ أنت بنُبوغ غيرك وصنعَتِهِ ولا ينتَفِعُ هو بها، ولذلك قال العلماء: نحن نسمعُ المثل القائل «باب النجار مُخَلَّع» لماذا لا يضَعُ باباً لنفسه وهو نجار؟ قالوا: لأنه الباب الوحيد الذي لا يتقاضى عليه أجراً، فأنت انتفعت بنبوغه، ولم ينتفع هو بذلك، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ [النساء ٣٢].

وهكذا - يا عبد الله - إذا رأيت أخاك قد تفوقَ في شيء، أو أحسنَ في صُنعه، فاحمد الله؛ لأنَّ حُسنَه وتفوقه قد يعود بالفائدة عليك، وقد لا يعود عليه هو، ولا تحسد، ولا تحقد، بل ادعُ له بالمزيد.

قال العلماء: وفي مقابل أهل الدنيا الذين بُهروا بالزينة القارونية وقالوا:

﴿ يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩ ﴾ [القصص]، وهم أهل المُتَعِ والزخارف.

كان مُقابلهم أهل العلم والمعرفة، وهم الفئة المُتصلة بالله، الذين في نفوسهم قِيَمٌ غيرُ قِيَم الزينة، وهؤلاء هم العالمون بحقيقة الدنيا، وحقيقة الآخرة، والله عز وجل لا يُخْلي الناس من أمثال هؤلاء؛ لأنه بهؤلاء يعتدلُ ميزانُ حركة الحياة، على حدِّ قول القائل:

إنَّ الذي جعلَ الحقيقةَ عَلْقما   لم يُخْلِ من أهلِ الحقيقة جيلا

وما دام الأولون الذين أرادوا الدنيا وحدَها، ولم يرَوا غيرها قالوا: ﴿ يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ ﴾، وقالت الفئة الثانية ما ذكره الله عز وجل: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾[القصص ٨٠].

فدلَّ ذلك على أنَّ طلابَ زخارف الدنيا – سطحيون – كما قال المفسرون، ولم يكن عندهم علمٌ ينفعُهم؛ لذلك وَقَعوا في هذا المأزقِ الذي نجا منه أهل العلم حين أجْرَوا مقارنةً بين الطمع في الدنيا والطمعِ في الآخرة.

وقول الذين أوتوا العلم للذين فُتِنوا بزينة قارون ﴿ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ ﴾ والويلُ: اسم للهلاكِ وسُوءِ الحال، ويُستعمل هذا اللفظ «ويل» في التعجبِ المشوبِ بالزجر، أي نتعجب من تعلُّقِ نفوسكم بمال قارون وزينته دون اهتمام بثواب الله الذي تستطيعون تحصيله بالإقبال على الطاعات والعمل النّافع، وأنتم تعلمون أنَّ قارون غيرُ مُتَخَلِّق بالفضائل الدينية، ولذلك قالوا: ﴿ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾ [القصص ٨٠].

ولما كانت هذه الفضائل من الطاعات والعمل الصالح ثوابها الجنةُ،

والجنةُ خيرٌ مما تتمنَّونه من زينة الدنيا، فلا يُعطى ذلك إلا مَنْ صَبَرَ؛ لأنَّ الصبرَ وسيلةٌ لحصولِ المقاصد العظيمة.

ولذلك قالوا بعدها: ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [القصص] أي لا يُوفَّقُ إلى الأعمال الصالحة، ولا يُعطى الجنة في الآخرة إلا أهل الصبر.

ولذلك ورد عن عبد الله بن عباس قوله: أفضلُ العُدَّةِ، الصبرُ بعد الشِدَّةِ.

الصبر:

والصَّبْر - كما قال العلماء - مراحل:

فالله قد كلَّفنا بطاعات فيها أوامر، وأمرنا أن نبتعد عن معاصٍ ومخالفات، وفيها نَواهٍ، وأنزل علينا أقداراً امتحننا بها.

فالطاعات ثقيلة وشاقة على النفس، ولذلك نسمع القرآن يقول: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه ١٣٢]، وهذا دليلٌ على أنها شاقةٌ على النفس، وهناك دواعٍ كثيرةٌ تحاول حرفَكَ عن الصلاة، لذلك قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [البقرة]، فتجد نفسك عند القيام لها مُتثاقلاً كسولاً، ولكنْ إذا تعوَّدت عليها صارت قُرَّةَ عينٍ لك، وهذا هو **النوع الأول من الصَّبْرِ.**

النوع الثاني: الصبر على شهوات النفس:

وهذا النوع من الصبر هو أولُ ما يُصادِفُكَ في حياتك، فإنْ صبرتَ في هذه المواقف فأنت كريم.

قال ابن المقفع: «اللئامُ أصبَرُ أجساماً، والكِرامُ أصبرُ نفوساً».

فإذا ألحَّتْ عليك نفسُك أن تستقرضَ لقضاء شهوةِ نفسٍ عاجلةٍ، فأولى

لك أن تصبر حتى تَجِدَ سَعَةً وتيسيراً، فصبرُكَ على نفسك أهونُ من صبر الناس عليك، وإن لم تسعْك نفسُك فالناس معذورون في منعك، ولهذا قال الشاعر: «للشعراوي رحمه الله تعالى»:

إذا رُمْتَ أن تستقرضَ المالَ مُنفقاً
على شهواتِ النفسِ في زمنِ العُسرِ
فَسلْ نفسكَ الإنفاقَ من كنزِ صبرها
عليكَ وإنكاراً إلى ساعة اليُسر
فإن فعلَتْ كنتَ الغنيَّ وإن أبتْ
فكلٌّ منوعٍ بعدها واسِعُ العُذْرِ

النوع الثالث: الصبر على الأقدار المؤلمة: فالله حكيم، والذي يُجريها عليك ربك، وأنت عبده، ولا يريد لك إلا الخير، فسلّمْ له سبحانه واعلمْ أنَّ الفَرَجَ إنْ صَبَرْتَ قريبٌ، كما قالت تلك الأعرابية:

أيها الإنسانُ صبرا ... إنَّ بعدَ العُسرِ يُسرا
كم رأينا اليومَ حُرّا ... لم يكن بالأمس حُرّا
مَلَكَ الصبرَ فأضحى ... ملكاً خيراً وشرّا
اشربْ الصبرَ وإن كا ... ن من الصبرِ أمرّا

واعلم أنَّ الصبر على الطاعة، والصبرَ عن المعصية، أكملُ من الصبر على الأقدار، لأن الصبرَ فيهما صبرُ اختيارٍ ومحبةٍ وإيثارٍ، والصبرُ على الأقدار صبرُ ضرورةٍ، وهكذا كان صبرُ الأنبياء «نوح وإبراهيم وموسى وعيسى» على ما نالهم من أقوامهم أكملُ مِنْ صبر أيوبَ على ما ناله من ابتلاء بالمرض، وصبرُ

إبراهيم وإسماعيل أكملُ من صبر يعقوب على فقدِ ولده يوسف.

و ما أجمل قولَ العلماء في هذه الآية: ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [القصص] على الطاعات، وعن الشهواتِ المُحرَّمةِ، وكان بعض السلف يقول: «إن الله يُحب النظر النافذَ عند وُرودِ الشبهاتِ، والعقلَ الكامل عند حُلول الشهوات».

وقوعُ الكارثة بقارون «الخسف»:

قال تعالى في [القصص]: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾.

قال أهل التفسير: لمّا استمرَّ إيذاءُ قارون لموسى بصنوفِ الإيذاء شكا موسى إلى الله ما يُلاقيه من قارون، ودعا عليه، وكان من دعائه ﷺ: «يا ربّ: عدُوكَ لي مُؤْذِ، أراد شَيْني، يا رب سلطني عليه» كما ذكر الطبري وغيره.

وفي رواية البروسوي: أنَّ موسى خرَّ ساجداً لله تعالى، ثم قال: «اللهم إن كنتُ رسولكَ فاغضبْ لي»، فأوحى الله إليه «إني قد أمرتُ الأرضَ أن تُطيعك فيه فمُرها بما شئت» عندها خاطبَ موسى بني إسرائيل قائلاً: إن الله ابتعثني إلى قارون كنا بعثَني إلى فرعون، فمن كان معه فليثبتْ مكانه، ومَنْ كان معي فليعتزل.

قال صاحب «التحرير»: وكان قارون معتزاً بالطائفة التي اتبعَتْهُ، ثم التفتَ موسى لقارون وقال له: يا عدوَّ الله تبعثُ إلى امرأة بغيٍّ تُريد فضيحتي، ثم صَرَخَ موسى بصوتٍ مُرتفع: «يا أرض خُذِيهم» فأخذتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ [القصص٨١].

ودلّتْ الفاءُ على تعقيبِ ساعةِ خروج قارون في ازدهائهِ وزينته في وقتٍ

مِنْ تمني قوم أن يكونوا مثله، وفي وقت إنكارِ أهل العلم على هؤلاء الغافلين عن ثوابِ الآخرة، فكانَ تعجيلُ العقوبة بمرأى من الذين تمنوا أن يكونوا مثلَ قارون كما ذكر ابن عاشور.

والخَسْفُ: انقلابُ بعض ظاهر الأرض إلى باطنها، وعكسُه، وإنما يكون الخسفُ بقوة الزلزال، وهذا الخسفُ خارقٌ للعادة؛ لأنه لم يتناول إلا قارون ومَنْ معه كما تناولَ داره، وإنما تناوَلَ الخسفُ دارهُ وكنوزه؛ لأنه تردَّدَ بين سفهاء بني إسرائيل أنَّ موسى إنما دعا على قارون ليرِثَ كنوزه، فأتْبَعَ الله بدعاء موسى داره وأمواله.

ولما كان قارونُ مُعتزاً بوجود فئةٍ من بني إسرائيل معه، كما ذُكر في التوراة، وكان قد أَعَدَّهُم لينتصر على موسى رسول الله، فخسف الله بهم معه وهو يراهم، عندها لم ينتصر قارون بنفسه ولا بماله، ولا بالذين أعَدَّهم لنُصْرَتِهِ، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص].

وهكذا، وبلمحةٍ خاطفةٍ، وبجملةٍ قصيرة ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ ذهب قارون عاجزاً ضعيفاً، وبنفس الوقت رُدَّتْ هذه الضربةُ القاصمةُ لقارون، رَدَّتْ الذين جرفتهم فتنةُ المال إلى صوابهم، وكشفتْ عن قلوبهم قِناعَ الغفلةِ والضلال، وهكذا كان المشهدُ الأخير، وهو قوله تعالى في [سورة القصص]: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

وقوله: ﴿ وَيْكَأَنَّ ﴾ مُركبةٌ من ثلاث كلمات: «ويْ»، «وكاف الخطاب»، «وأنَّ»، وأهل اللغة متفقون على أنَّ «وي» كلمةُ تعجب، فهي على

الراجح اسمُ فعلٍ مضارع بمعنى «أعجبُ»، ويقال: «ويك» بمعنى «وي» أيضاً، ومنه قول عنترة العبسي:

ولقد شفى نفسي وأبرأ سُقمَها ... قِيْلُ الفوارسِ ويْكَ عنترُ أقْدِمِ

وتدخل على «أنَّ» المُشدَّدةِ والمُخففة، فالمشددة كما في الآية ﴿وَيۡكَأَنَّ﴾ والمخففة مثل قول زيد بن عمرو بن نفيل:

سألَتاني الطلاقَ أن رأتاني ... قلَّ مالي قد جئتُماني بِنُكْرِ
ويْ كأنْ مَنْ يكنْ له نشَبٌ يُحْبَبْ ... ومنْ يفتقر يعيشُ عيشَ ضُرّ

ويُرجّح المحققون أنَّ ﴿وَيۡكَأَنَّ﴾ كلها كلمةٌ مستقلة بسيطة، ومعناها: «ألم تر»، وذلك لورودها في القرآن موصولةً في الموضعين في الآية، قال تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٢﴾ [القصص].

وهذا القولُ قاله ابن كثير، وقال عنه: إنه قولٌ حسن، وقد ورد أنَّ أعرابيةً قالت لزوجها: أين ابنك ويلك؟ فقال لها: وَيْ كأنه وراء البيت، أي: ألم تَرَيْنَهُ وراء البيت.

وعلى العموم صار معنى الآية: ﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ﴾ [القصص ٨٢] أي أصبح هؤلاء الذين كانوا يتمنَّون أن يكونوا مثله، أصبحوا يجهرون بندامتهم على ما تمنوه، ورجعوا إلى التسليم لحكم الله تعالى فيما يختار ويشاءُ لعباده.

وقولهم: ﴿وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ﴾ أي:

لا دلالةَ في بسطِ المال للعبد على الكرامةِ ولا على السعادة.

وليس في القبض دلالة على الشقاوة أو دلالة على الهوان، بل يفعل الله ذلك بمحض المشيئة والحكمة، «لا لكرامةٍ تُوجِبُ البسط ولا لهوانٍ يقتضي القبض والتضييق».

و[سورة الفجر] تُشير إلى هذا قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

وقوله تعالى: ﴿ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ فيه إيماءٌ وإشارة إلى أنَّ بسْطَ الأرزاق وقبضها من الله وهو «المالك» إلى المبسوط لهم والمضيَّق عليهم، وكلهم عبيدُه، فحقُّهُم الرضى بما قَسَمَ لهم مولاهم، كما قال ابن عاشور.

وقولهم - أي بعد الخسف - ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ ﴾ أي: لولا أن مَنَّ الله علينا فحفظنا من رزقٍ ومالٍ كرزق قارون وماله لخُسِفَ بنا، أي لَكُنَّا طغينا مثل طُغيان قارون، فيُخسف بنا كما خُسِفَ به.

ثم يأتي ختام القصة بقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص].

قال العلماء: إلى هنا انتهت قصة قارون وما فيها من العبر، وأُعقبتْ بكلام عن الجزاء على الخير وعلى الشرِّ في الحياة الأبدية.

وتُلاحظ - يا عبد الله - أنَّ هذه الآية التي خُتمت بها قصة قارون بُدِئت بالإشارة إلى الجنة بلفظ ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ﴾، لذكر الخسف بدار قارون ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾، وذلك للمقابلة بين دارٍ زائلة ودارٍ خالدة.

وابتداء الآية باسم الإشارة ﴿ تِلْكَ ﴾ ابتدءٌ مشوّقٌ إلى شيء غير مذكور من قبل ليتطلع السامعُ إلى معرفة المشار إليه، ثم يَعْقُبُه بيانُ هذا الشيء بالاسم المُعَرَّفِ باللام الواقع بياناً أو بدلاً من اسم الإشارة، كما في قول عبيدة بن الأبرص:

تلك عِرسيَ غَضْبى تُريد زِيالي[1] أَلِبَين تُريد أَم لدِلالِ

والدارُ: محلُّ السكن، كقوله تعالى: ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الأنعام].

أما إطلاقُ الدار على جهنم في قوله تعالى: ﴿ وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم]، فهو من باب التهكُّم.

وقد ورد عن الفُضيل بن عياض، أنه قرأ هذه الآية، ثم قال: «ذهبت الأماني ههنا»، ويقصِد أمانيَّ الذين يزعمون أنه لا يَضُرُّ مع الإيمان شيء، وأن المؤمنين كلَّهم ناجون من العقاب، ويشير عليه رحمة الله تعالى إلى ما يقوله المرجئة:

كُنْ مسلماً ومن الذنوبِ فلا تَخَفْ حاشا المهيمنُ أن يُري تنكيدا
لو شاء أن يُصْلِيكَ نارَ جهنمٍ ما كان أَلهـمَ قلبَكَ التوحيدا

و ورد عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يردِّدُ هذه الآية ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص] حتى قُبِضَ.

وورد عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال: «إن الرجلَ ليُعجبه أنْ يكونَ شِراكُ نعله أجودَ من شِراك نعل صاحبه فيدخلُ تحت هذه الآية».

---

(١) زيالي: مفارقتي.

وقوله: ﴿ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣ ﴾ [القصص].

وقوله: ﴿ لَا يُرِيدُونَ ﴾ كناية عن لا يفعلون.

﴿ عُلُوّٗا ﴾ التكبرُ على الحق وعلى الخلق والطغيانُ في الأعمال.

و ﴿ فَسَادٗاۚ ﴾ ضد الصلاح، وهو كل فعلٍ مذموم في الشرعِ أو لدى أهل العقول الراجحة.

وقوله: ﴿ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ أي العاقبة الخيّرةُ في النعيم المقيم الدائم للذين يَتَّقُون طغيانَ السلطان والحكم والقوة، ويتقون طغيان المال.

واعلم - يا عبد الله - أنَّ الذي يتعالى على خلقِ الله، فإنه لا يتعالى إلا في غفلةٍ منه عن عظمةِ الله، فالذي يستحضرُ عظمةَ الله وكبرياءه لا بُدَّ له أن يتواضع، فالعبدُ يستحي أن يتكبر على خلق الله، فلستَ أفضلَ من أحدٍ حتى تعلوَ عليه، فالخلق كلهم عيال الله، ولكل منهم موهبةٌ فَلِمَ التعالي إذن؟

والنبي ﷺ يُعلمنا كيف نحترمُ الآخرين وكيف نتواضع لهم.

دخل عليه ﷺ عدي بن حاتم الطائي، وكان نصرانياً، وأسلم سنة ٩ هـ أو ١٠ هـ، فقام النبي ﷺ عن كرامةِ مجلسه له - يعني إن كان جالساً على وسادة يقوم عنها و يقدمها لضيفه ليجلس عليها، فقال عدي لرسول الله ﷺ: أشهدُ أنك لا تبغي علواً في الأرض، وأشهد أنْ لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وأسلم، وثبتَ على إسلامه رضي الله تعالى عنه عندما ارتدَّ بعضُ العرب بعد وفاة النبي ﷺ، شهدَ فتوح العراق، ثم سكن الكوفة، وشَهِدَ صفين مع علي، ومات بعد سنة ٦٠ هـ، كما ذكر ابن حجر في «الإصابة».

وردعن سفيان بن عُيينة، عن إسماعيل بن أبي خالد قال: مَرَّ علي بن الحسن

وهو راكبٌ على مساكين يأكلون طعاماً بسيطاً لهم، فسَلَّمَ عليهم، فدعَوْه، فنزل إليهم وتلا هذه الآية: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص] وأكل معهم، ثم قال: أَجَبْتكم فأجيبوني، فحملهم إلى منزله، فأطعمهم وكساهم، وصرفهم.

والمؤمن مُطالبٌ بالتواضع، ففي الصحيح أنَّ النبي ﷺ قال: «إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخَرَ أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحد».

وفي البخاري من حديث أبي هريرة، ومن حديث سالم عن أبيه أنَّ النبي ﷺ قال: «بينا رجل يجر إزاره إذ خُسِفَ به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة».

و قد ذكر الحافظ بن محمد بن المنذر في كتاب «العجائب الغريبة» بسنده عن «نوفل بن ماحق» قال: رأيتُ شاباً في مسجد نجران، فجعلتُ أنظر إليه، وأتعجبُ من طوله وجماله، فقال لي: ما لك تنظر إليَّ؟ فقلت: أعجبُ من طولك وجمالك وكمالك، فقال: إن الله ليعجَبُ مني، قال: فما زال ينقص وينقص حتى صار قزماً بطول الشبر، فأخذه بعض قرابته في كُمِّه وذهب.

دعوة موسى لبني إسرائيل للجهاد:

قال العلماء: أوحى الله إلى موسى أن يدعوَ بني إسرائيل للجهاد وقتال الجبارين، وموسى عليه الصلاة والسلام عرفَ بني إسرائيل وجرَّبهم، وعَلِمَ منهم التردد والفساد، وجرَّبهم في مواطن كثيرة في هذا الطريق الطويل الذي رافقهم فيه، جرَّبهم حين أخرجهم من الذل في مصر، وفَرَقَ لهم البحر، وأغرقَ عدوهم، فقالوا: ﴿يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾ [الأعراف ١٣٨]، وذلك حين مرُّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، ثم اتخذوا العجل إلهاً حين غاب موسى عنهم ليكلمه ربُّهُ، وجرَّبهم في قصة البقرة، وغيرها من

التجارب.

وهاهم الآن على أبواب الأرض المقدسة التي مِنْ أجلها خرجوا من مصر، وطلبَ الله منهم دخولها، قبل أن يطلب منهم موسى الاستجابة للجهاد، خطب فيهم وذكَّرهم وحشَدَ لهم أجمل الذكريات، وبشَّرهم أكبر البُشريات، وشجعهم بأفخم المُشجعات، وحذرهم بأشد التحذيرات، مُبدئاً بتذكيرهم ببعض نِعَم الله عليهم، وذكر من هذه النِعم الدينية والدنيوية ثلاثاً جمعها قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المائدة].

فالنعمة الأولى: ﴿ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ ﴾:

أي جعل في سلسلة نسبكم كثيراً من الأنبياء، مثل يوسف وهارون وموسى، بل ويذكر الطبري أنَّ السبعين الذين صعدوا مع موسى في المناجاة صاروا كلهم أنبياء بعد ذلك.

قال البيضاوي: لم يُبعث في أمةٍ ما بُعِثَ في بني إسرائيل من الأنبياء.

قال ابن كثير: كلما هلكَ نبيٌّ قام نبيٌّ من لدن إبراهيم إلى مَنْ بعده، حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى عليه السلام، ثم أُوحي إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ الذي هو من ولد إسماعيل.

النعمة الثانية: ﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾:

هذا تشبيه بليغ، أي كالملوك في تصرفكم في أنفسكم، وسلامتكم من العبودية التي كانت عليكم للأقباط، فمَلَكَ كل واحد منكم نفسه وأهله وماله.

قال الزجاج: المَلِكُ: هو من كان مُستقلاً بأمر نفسه ومعيشته، ولم يكن محتاجاً في مصالحه إلى أحد.

وقال الحسن البصري: هل المُلْكُ إلا مركبٌ وخادم ودار.

قال الضحاك: كانت منازلهم واسعة، وفيها مياهٌ جارية، وكانت لهم أموال كثيرة وخدم، ومن كان كذلك كان ملكاً.

وفي صحيح مسلم عن أبي عبد الرحمن الحُبُلِيّ قال: سمعتُ عبد الله بن عمرو بن العاص، أن رجلاً سأله فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال عبد الله بن عمرو: ألك زوجةٌ تأوي إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال عبد الله: فأنت من الأغنياء، قال الرجل: فإن لي خادماً، قال عبد الله: فأنت من الملوك.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم زوجةٌ و خادم ودابة سُمي ملكاً».

وهذا الحديث مرسل غريب كما قال ابن كثير، وما ذكرناه يؤيد قول النبي ﷺ فيما رواه الترمذي وصححه، من حديث عبد الله بن مُحَصَّن: «من أصبح منكم معافى في بدنه، آمناً في سربه، عنده قوتُ يومهِ فكأنما حِيْزت له الدنيا بحذافيرها».

النعمة الثالثة: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾:

أي عالِمِي زمانهم؛ حيث كانوا أفضل من بقية الأمم من اليونان والقبط وغيرهم، حيث آتاهم الله شريعةً واسعة الهدى، وأيدهم بالنصر، وساق إليهم رزقهم من المن والسلوى أربعين سنة، والحجرَ والغمام.

قال ابن كثير: فضَّلهم على عالمي زمانهم، وإلاّ، فهذه الأمة، أمة محمد ﷺ

أشرفُ منهم، وأفضل عند الله، وأكملُ شريعة، وأقومُ منهاجاً، وأكرمُ نبياً، وأغزرُ أرزاقاً، وأكثر أموالاً وأولاداً، وأوسع مملكةً، وأدوم عزاً، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ ﴾ [البقرة ١٤٣].

قال الرازي: بعد أنْ ذكَّرهم موسى هذه النِعم، وشرحها لهم، أمرهم بمجاهدة العدو، فكان خطاب موسى وموعظته لهم مُقدمةً لما سيطلبه منهم.

قال القاسمي: ومقتضى هذه النِعم الإسراعُ إلى طاعة أوامر المُنعم عز وجل ولكن: ماذا كان الطلبُ الذي طلبه موسى منهم؟

والجواب: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [المائدة].

كرر الخطاب ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ لزيادة استحضار أذهانهم، والأمر بالدخول إلى الأرض المقدسة هو المقصد، كما أنَّ الأمر بالدخول، أمرٌ بالسعي في الأخذ بأسبابه، أي تهيَّؤوا للدخول.

والأرض المقدسة: هي أرضُ بيت المقدس وما حولها من بلاد الشام.

قال قتادة: دمشق، وفلسطين، والأردن.

وروى ابن عساكر عن معاذ بن جبل، أن الأرض المقدسة ما بين العريش إلى الفرات.

والأرضُ المقدسة: هي الأرض المباركة التي بوركت بسكنِ مَنْ مضى من الأنبياء فيها، ثم تلوثت بسكنِ الأعداء من جبابرة الكنعانيين، فأراد الله تطهيرها بإخراج الكنعانيين منها، وإسكان بني إسرائيل فيها.

فالبيت المقدس: كان في أيديهم زمن أبيهم يعقوب إلى أن ارتحل هو

وأولاده وأهله إلى مصر أيام يوسف، وبقوا في مصر إلى أيام موسى حيث خرجوا من مصر هرباً من فرعون حيث كانت الأرض المُقدسة بيد العماليق الجبارين، فأمرهم موسى بالدخول إليها وقتل العمالقة الذين استحوذوا على الأرض المقدسة، وبشَّرهم موسى بالنصر والظفر، ولكنهم عصوا وخالفوا.

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ أي فرَض دخولها عليكم، ووَعدكم دخولها وسكنها إن أطعتم وآمنتم، ولذلك لما عصوا قال لهم: ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ ﴾.

وقوله: ﴿ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ ﴾ أي لا تتقاعسوا عن الجهاد، ولا ترجعوا عن الطاعة ولا تنكِصوا على أعقابكم مُدبِرين من خوف الجبابرة جُبْناً وهلعاً، فإنكم عندها ترجعون بالخيبة والعقوبة وذلك قوله تعالى: ﴿ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١ ﴾ ولا يخفى أنَّ المُراد بالخُسرانِ، خُسرانُ الدنيا والآخرة؛ لأنَّ الانهزام من العدو أكبر أسباب الفشل.

قال القرطبي: أمرهم موسى بدخول «أريحا» من أرض فلسطين فقالوا: لا عِلمَ لنا بتلك الديار، فأرسل موسى اثني عشر نقيباً من كل سِبط نقيب، فذهب هؤلاء يتجسسون أرض كنعان حتى وصلوا إلى «حماة»، فوجدوا الأراضي ذاتَ ثمارٍ وأعناب وعسل ولبن، ووجدوا القوم مُعْتَزّين بقوتهم وضخامة أجسامهم، وحصانة مُدنهم، فلما سَمِعَ بنو إسرائيل بذلك جبُنوا وتذمروا على موسى، وقالوا: «لو متنا في مصر كان خيراً لنا من أن تُغنَمَ نساؤنا وأطفالنا»، وصار الرجل يقول لصاحبه: تعال نجعل لنا رأساً - زعيماً - ينصرف بنا إلى مصر.

وقد قصَّ الله علينا جبنَهم وخوفهم في [سورة المائدة]: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا

دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾.

و«الجبار»: هو الذي تُنَفَّذ مشيئتُهُ في كل أحد، ولا تُنَفَّذ فيه مشيئة أحدٍ، والذي لا يخرج أحدٌ عن قبضته، وهذه الصفةُ صفةُ كمال للحق عز وجل؛ لأنَّ الله عز وجل لا يستعمل جبروته إلا في الخير وقهر الظالمين والمُعاندين والمُكابرين.

فالجبار: اسمٌ يجمع القوة والعظمة والعُلو على خلقه، فهو عز وجل لا يُقهر.

وقد يُطلق «الجبار» هو المُصلحُ على سبيل القهر.

ولهذا يُطلق اسم «المُجبِّر»: على الذي يُصلح كُسور العظام، فهو يؤلم ولكن يُحافظ على حياة الإنسان بعمله.

أما «الجبار» كصفةٍ في الخلق فهي مذمومة؛ لأنه يستعمل قوته في البطش والظلم وإجبار الناس على ما يُريد.

فالتجبُّر: صفةُ كمالٍ ذاتية لله عز وجل لا تنفكُ عنه، أما العبد المخلوق فتجبُّره بدون أصالةٍ، فهذا المُتَجَبِّر قد يُصاب بصداعٍ فيُحمل على نقالةٍ إلى المستشفى كما قال العلماء.

ولذلك قال صاحب «الكافية الشافية»: ابن القيم:

وكذلك الجبَّارُ من أوصافه ... والخيرُ في أوصافهِ قسمانِ
جبرُ الضعيف وكلِّ قلبٍ قد غدا ... ذا كسرةٍ فالجَبْرُ منه دانِ
والثانِ جبرُ القهرِ بالعزِّ الذي ... لا ينبغي لسواهُ من إنسانِ
وله مُسمىً ثالثٌ وهو العلو ... فليس يدنو منه مِنْ إنسانِ

مِـنْ قولهم «جـبـارةٌ» للنخلةِ   العُليا التي   فاتت بكلِّ بنانِ

والجبارين في الآية: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾: هم الكنعانيون، والحثّيون والآموريون، والعمالقة، واليبوسيون.

وقولهم: ﴿حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾: يريدون أن يكون إخراج العمالقة بسبب آخر، كأنْ يُقاتل العمالقةَ قومٌ غيرهم، أو أن يكونَ إخراجُهُم بقوة الخوارق والآيات لتكون غنيمةً باردةً لهم، وجهلوا - كما قال صاحب المنار - أنَّ هذا يستلزم بقاءَهم دائماً على جُبْنٍ وضعف، وأن يعيشوا بالخوارق ما داموا في الدنيا، فلا يستعملون قواهم البدنية والعقلية في جلبِ خيرٍ لهم أو دفعِ شرٍّ عنهم، وحينئذ يكونون أكفرَ خلق الله بنِعَم الله.

قال الآلوسي: وقولهم هذا هو امتناعٌ عن الجهاد والقتال بأتم وجْهٍ.

وقولهم: ﴿فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ هذا تأكيدٌ لكلامهم السابق مؤذنٌ بأنه لا علَّةَ لامتناعهم عن دخولها إلا ما ذكروه، عندها تقدم رجلان أنعمَ اللهُ عليهما بِحُسنِ الفهم عن الله عز وجل وهما «يوشع بن نون» - هكذا ينطق به العرب، وأهل الكتاب يقولون: «يشوع»، والثاني «كالبُ بن يَفُنَّهْ»، وقدَّما موعظةً صغيرة لبني إسرائيل فقالا: إن رضي الله عنا يُدخلنا إلى هذه الأرض، ولكن لا تعصُوا الربَّ ولا تخافوا من أهلها - الجبارين - فالله معنا، وذلك ما أشارت إليه الآية بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة].

قال الجمهور: هذان الرجلان هما: يوشعُ بن نون وكالبُ بن يوفَنَّه.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي يخافون الله دون العدو، فهما يخافان

النكوصَ عن أمر الله، فحين يأمر الله الإنسان بعملٍ، يكفيه أن يتوجَّهَ إلى ذلك العمل بقدر طاقته، والمعونةُ من الله بعد ذلك.

وقوله: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بنعمةِ الشجاعة؛ لان الشجاعةَ في نصر الدين نعمةٌ، ويجوز أن يكون الإنعام بالتثبيت، والإيمان، واليقين بوعد الله تعالى.

وقولهما: ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ أي باب بلدهم، والمقصودُ بتلك المفاجأةُ، أي فاجئوهم في المدينة، وامنعوهم من البروز للصحراء والفلاة، لئلا يجدوا مجالاً للكرِّ والفر.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: المقصود بدخول الباب، باب البلد، والمرادُ بها «أريحا» التي في فلسطين، وكانت حاضرة العمالقة يومئذ والراجح هي القدس.

ثم أكدا أنَّ النصر سيحصل بمجرد دخولهم على العماليق من الباب، حيث قالا: لا يهولنكم يا بني إسرائيل عِظَمُ أجساد العمالقة، فقلوبُهُم مُلِئت رعباً منكم، فأجسامهم عظيمة؛ وقلوبهم ضعيفة خوارة، وذلك قولهما: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ﴾، ثم ختما موعظتهما بقولهما: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ أي توكلوا على الله لا على قوةِ أنفسكم، فهو وعدكم النصرَ عليهم، فما عليكم إلا أن تأخذوا بالأسباب، وتبذلوا وُسْعَكم في مراعاة السنةِ وامتثال أمره عز وجل، إن كنتم مؤمنين بنبوة موسى، ومؤمنين بما وعدكم الله على لسانه من الحق والنصر، وأنه عز وجل قادر على الوفاء لكم بما وعد.

وقولهما: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لأن الشك في صدق الرسول مبطلٌ

للإيمان، فماذا كان جواب بني إسرائيل على هذا الأمر وعلى هذا التوضيح؟

قال العلماء: كان جوابهم الإصرار على التمرد وعدم الجهاد، بل وكشفَ الجوابُ عن قلةِ أدبٍ واضحة، فقالوا ما قصَّهُ الله علينا في الآية: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة].

أكدوا إصرارهم على عدم الدخول بثلاث مؤكِّدات «إنا، لن، أبداً» فكان ذلك نُكولاً عن الجهاد كما قال ابن كثير.

قال الرازي: لما قالوا هذا القول على وجه التمرد عن الطاعة، فسَقوا لأن المعصية بترك الجهاد كبيرة، ولذلك قال تعالى لموسى بعد ذلك كما سيأتي: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾ [المائدة]، وقال: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾ [المائدة].

وقولهم: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة]، أرادوا بذلك أن يأتي بمعجزة ينتصرون بها، أما القتالُ فلا نتقدمُ ولا نُقاتل.

وقد قارن ابن كثير بين موقف بني إسرائيل من موسى حين طالبهم بالجهاد وبين موقف أصحاب النبي ﷺ يوم بدر، فقد ورد عن ابن مسعود أنه قال: لقد شهدتُ من «المقداد بن عمر الكندي» مشهداً، لأن أكونَ أنا صاحبَه أحبُّ إليَّ مما عُدل به، أتى المقدادُ رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين «يوم بدر»، فقال: والله يا رسول الله لا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة]، ولكن نقاتل عن يمينك، وعن يسارك، ومن بين يديك، ومن خلفك، فقال

ابن مسعود: فرأيت وجه النبي ﷺ أشرق لذلك، وسرَّه ذلك.

وهذه الآية التي قرأها المقداد بن الأسود الكندي لم تكن مقروءةً يوم بدر لأن سورة المائدة نزلت بعد بدر، ولكنَّ هذا مما سمعه المقداد من رسول الله ﷺ حين كان يُحدثهم عن بني إسرائيل، ثم نزلت الآية بذلك اللفظ الذي ذكره المقداد، وكان قد سمعه من رسول الله ﷺ.

قال البروسوي: عندما رأى منهم موسى ما رأى من العناد والعصيان قال ما ذكرته الآية من [المائدة]: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥ ﴾.

قال صاحب «المنار»: هذا القول من موسى صورتُهُ خبر، ومعناه إنشاء، فهو بثٌّ للحزن والشكوى إلى الله، وفيه معنى الدعاء، فصار معنى العبارة: «يا رب إني لا أملك أمرَ أحدٍ أحمِلُهُ على طاعتك إلا أمرَ نفسي وأخي، ولا أثق بغيرنا أن يُطيعك في اليسر والعسر، فاحكمْ - يا رب - لنا بما نستحق، و احكم عليهم بما يستحقون» فهذا دعاء على بني إسرائيل الذين خذلوه.

وقد يكون بمعنى «يا رب خَلِّصنا من صُحبَتهم» وهذا مقتضى دعاء موسى ﴿ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾، وهذا المعنى وارد على حدِّ قول الشاعر:

يا رب فافرُقْ بينه وبيني   أشدَّ ما فرقتَ بين اثنين

وقد يكون معنى ﴿ فَٱفۡرُقۡ ﴾ بمعنى اقضِ، كما ورد عن ابن عباس.

وقد ذكر ابن كثير: أنهم لما امتنعوا عن الجهاد، وعزموا العودة إلى مصر سجد موسى وهارون لله تعالى أمام بني إسرائيل إعظاماً لما همُّوا به، وشق يوشع وكالب ثيابَهما، ولاما قومَهما، حتى همَّ قومُهما برجمهما عندها

دعا موسى عليهم ﴿ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا ﴾ وقد استجاب الله دعاءه، وفرَّق بينهم وبينه، وذلك قوله تعالى في [المائدة]: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦ ﴾.

بنو إسرائيل في التيه:

والتِيْهُ، والتَّيْهُ، هو الحَيْرَةُ، والسيرُ على غير هدى، كما نقول: فلانٌ تاه: أي لم يعد يعرف لنفسه مدخلاً ولا مخرجاً.

والتيهُ الذي دخله بنو إسرائيل، هو الصحراءُ التي تُشكل الحدَّ الفاصل بين بلاد الشام ومنها فلسطين وبين مصر في قلب شبه جزيرة سيناء.

قال المؤرخون: في سنة «٦٥٢» هـ الموافق ١٢٥٤ - ١٢٥٥ م انهزم المماليك البحرية من القاهرة، وهرب قسمٌ منهم في صحراء سيناء وساروا خمسة أيام، وفي اليوم السادس عثروا على مدينة كبيرة مهجورة في الرمال، ووجدوا فيها أواني وملابس قديمة، ولما لمسوا هذه الملابس استحالت تراباً، وكان فيها صهريج ماء يُبرَّدُ ماؤهُ بالثلج.

فلما وصل المماليك المنهزمون إلى مدينة الكرك، اشتروا منها سِلعاً ودفعوا ثمنَ ما اشتروه دنانير ذهبية كانوا قد عثروا عليها في هذه المدينة الصحراوية المطمورة في الرمال، ثم ثبتَ أنَّ هذه الدنانير تعود إلى أيام موسى، وأن هذه المدينة كانت من مُدن بني إسرائيل اسمها «الخضراء»، وكانت طرق القوافل التجارية، والعسكرية الآتية من القاهرة إلى الشام لا تمر في الصحراء - صحراء التيه - وإنما تمر القوافل على الجفار، ثم أُنشئ الطريق الصحراوي - في صحراء التيه - لأغراضٍ حربية عندما قُطِعَ الطريق الأول أيام حروب الفرنجة.

وقد أخرج ابن جرير الطبري، أن موسى لما دعا على بني إسرائيل واستجاب الله دعاءه، ندم على دُعائه عليهم، وظن أنه تعجل في ذلك، فأوحى الله إليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي لا تحزن عليهم ولا تأسف لما أصابهم فهم مُستحقون لذلك بسبب فسقهم.

قال الحاكم: وفي قوله تعالى لموسى ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: دليلٌ على أنَّ مَنْ لحقَهُ عذاب الله، أنه لا يجوز أن يُحزَنَ عليه، بل يحمد الله على إهلاك العدو.

وكان هذا التيهُ كلَّ هذه المدة يُشبه القُعود، فعوقبوا به لأنهم قالوا لموسى: ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.

قال الغرناطي: كان موسى وهارون في التيه مع بني إسرائيل، فكان هذا التيهُ عقوبةً لبني إسرائيل، ورَوْحاً وسلاماً على موسى وهارون كما كانت النارُ برداً وسلاماً على إبراهيم.

قال صاحب «التأويلات»: كان هارون وموسى مع بني إسرائيل في التيه، وببركتهما أكرمَ الله عز وجل بني إسرائيل في التيه بالمن والسلوى، والغمام وغير ذلك، ثم قال صاحب «التأويلات»: ليعلم الإنسان أثرَ البركة في صُحبة الصالحين، وأثرَ شؤمِ صُحبةِ العُصاة.

وقال الآلوسي: لما ابتلى الله بني إسرائيل بالتيه، شكوا لموسى حرَّ الشمس فلطف الله بهم بإظلال الغمام.

وقال الغرناطي: لما دخلوا التيهَ قالوا لموسى: من لنا بحرِّ الشمس؟ فأظلهم الغمامُ حين ارتحالهم.

وقالوا: من لنا بالطعام؟ فأنزل الله عليهم المنَّ والسلوى.

وقالوا لموسى: من لنا بالماء؟ فأُمِرَ موسى بضرب الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، فشربَ كل سِبط من عين.

ثم قالوا لموسى: بم نستصبح؟ فضُرِبَ لهم عمود من نور في وسط محلّتهم ليلاً.

قال البروسوي: كان هذا العمود من نورٍ يُدلّى من السماء إذا لم يكن قمرٌ.

وقالوا: من لنا باللباس؟ فأعطاهم الله ألا تَبلى ثيابُهم ولا تَدْرَنُ، وأن تنمو صغارُ الثياب حسبَ نمو الأولاد.

وتقرأ في [سورة البقرة] طرفاً من هذه النِعم عند قوله تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

والغمامُ: هو ما ابيضَّ من السحاب، وسُمي غماماً لأنه يستُر وجه السماء ويَغُمُّه، ولذلك قال ابن المُنيّر في كتابه «التيسير العجيب»:

أصلُ الغمامِ أبيضُ السحائب   يَغُمَّ ما وارى من الجوانب

قال ابن كثير: قال مجاهد: هو الغمام الذي جاءت به الملائكة يوم بدر، وهو الغمام الذي يأتي فيه الله يوم القيامة كما قال الله تعالى في [البقرة]: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾.

وفي حديث الصور المشهور المروي عن أبي هريرة أنَّ الله تعالى يُشَفِّعُ محمداً يوم القيامة في قضية الفصل والقضاء، ويأتي الربُّ عز وجل في ظُلَلٍ من الغمام بعدما تنشق السماءُ الدنيا وينزل مَنْ فيها من الملائكة، ثم السماء الثانية، والثالثة إلى السابعة، وينزل حملةُ العرش والكروبيون.

قال النبي ﷺ: «وينزل الجبار في ظللٍ من الغمام، والملائكة ولهم زجل بالتسبيح يقولون: سبحانه ذي المُلكِ والملكوت، سبحانه ذي العزةِ والجبروت، سبحانه الحي الذي لا يموت، سبحانه الذي يُميت الخلائق ولا يموت، سُبُّوح قُدُّوس، رَبُّ الملائكة والروح، سبوح قدوس ربُّنا الأعلى، سبحان ذي السلطة والعظمة، سبحانه سبحانه، أبداً أبداً».

والمنُّ: قال الآلوسي: هو شيء يُشبه الصمغَ، حُلْو مع شيء من الحموضة كان ينزل عليهم كالطَّلِّ من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس في كل يوم إلا يوم السبت، يأخذ منه الشخص ما يكفيه ليوم وليلة، فإن ادُّخِرَ منه شيء فسد، إلا في يوم الجمعة فإنهم كانوا يدخرون منه ليوم السبت فلا يفسد لأن يوم السبت يومُ عبادة، وما كان ينزل عليهم يوم السبت من شيء.

قال العلماء: والمنُّ موجود حتى الآن في العراق، ويكثر جداً في وادي تركستان، يُشبه أولَ الأمر الصمغَ ثم يقسو، يأتي الناسُ إلى أشجاره في الصباح الباكر ويفرشون تحتها ملاءاتٍ بيضاء، ثم يهزون الأشجار بعنف فتسقط هذه المادة على الملاءات فتُجمع وتُطبخ، ويكون منها نوعٌ من الحلوى اللذيذة المغذية التي لها طعم القشدة بحلاوة العسل.

وقد يطلق اسم المن على كل ما مَنَّ الله به على عباده بدون تعب منهم، ولذلك سُميت الكمأةُ منّاً؛ لأنه لا مؤونة لها ببذر، ولا سقي، ولا علاج، ولا تعب، ولذلك ورد عن رسول الله ﷺ قوله كما في صحيح مسلم: «الكمأة من المنّ الذي أنزله الله على بني إسرائيل، وماؤها شفاء للعين».

أما السلوى: فهو كما قال ابن عباس: هو طائر يُشبه السُّمانى، بل هو السُّمانى بعينه كما قال البروسوي، تحشره عليهم ريح الجنوب.

قال السدي: كان بنو إسرائيل يختارون السّمينَ منه، ويتركون الهزيلَ،

فإذا سَمنَ رجع إليهم، وإذا كان المنُّ ينزل عليهم من طُلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فإنَّ طائر السلوى كان يأتيهم بكرةً وعشياً.

ثم خاطبهم الله عز وجل بقوله: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة ٥٧] الحلالُ الطيبُ، مع الشكر لله، ولكنهم عَصوا ولم يُقابلوا هذه النِعَم بالشكر.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة] أي ما فعلوه من القبائح لا تضرُّنا ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ وإنما وقع ضَرَرُ ذلك عليهم؛ لأنهم سيُعاقبون عليها في الآخرة، وينقطع عنهم الرزق الذي كان يأتيهم بلا مشقةٍ ولا كُلْفةٍ، وليس عليه حسابٌ في العقبى.

سُقياهم الماء في التيه:

نتنقل الآن لبيان حالٍ آخر من أحوال بني إسرائيل في هجرتهم، وعناية الله بهم في هذه الهجرة.

قال العلماء: أصابهم الظمأ، فعادوا يلومون موسى أنْ أخرجهم من أرض مصر الخصبة المتدفقة بالأمواه، وكانوا عند كلِّ حينٍ يصيبُهم يَمنُّون على موسى أنْ خرجوا معه، ويجهرون بالندم على ذلك.

فاستغاث موسى بربه، واستسقاه لقومه كما قصَّ الله تعالى علينا بقوله: ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة].

قال المفسرون: هنا تذكير لبني إسرائيل بنعمةٍ أُخرى جمعت ثلاث نِعَم، وهي: الريُّ من العطش، وكونُ العيون اثنتي عشرة ليستقلَّ كل سِبْطٍ بمشربٍ

فلا يتدافعوا، والثالثة: كون السقي في مظنَّةِ عدم تحصيله.

والاستسقاء طلب السُّقيا من المطر.

وقوله: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ صريحٌ في أنَّ طالبَ السقي هو موسى وحده من الله تعالى، ولم يُشاركه قومه في الدعاء لتظهر كرامتُه وحده.

وكذلك كان استسقاء نبينا ﷺ يوم الجمعة على المنبر، حيث دخل الأعرابي وقال له: يا رسول الله: هلك الزرعُ والضرعُ، فادعُ الله يسقينا، والحديث في الصحيحين.

وقوله: ﴿ لِقَوْمِهِۦ ﴾ يدلّك على أنَّ موسى لم يصبْه العطش؛ لأنه خرج في تلك الرحلة موقناً أنَّ الله حافظهم ومبَلِّغُهم إلى الأرض المقدسة، فلذلك وقاه الله تعالى أن يُصيبه جوعٌ أو عطشٌ أو كلل، وذلك شأن الأنبياء، فقد قال ﷺ في حديث وصَالِ الصوم: «إني لستُ كهيئتكم، إني أبيت عند ربي يُطعمني ويَسقيني».

طلب موسى من ربه الاستسقاء، وذلك عن طريق المطر، والله قادر على أن يُنَزِّلَ على بني إسرائيل مطراً من السماء، ولكن الله أراد المعجزة ليُرِيَهُم آياته، ويُريهم إكرامه لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام، فأعطاهم الماء من الحجر الذي تحت أرجلهم، فكان ما أعطاهم من تفجير الحجر بالماء أعلى من الإجابة بإنزال المطر.

ويأتي جواب الاستسقاء ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ ﴾.

هنا سؤال: مَنْ الذي يتأثر بالضرب؟ الحجر أم العصا؟

لا شك أنَّ العصا هي التي تتأثر وتتحطم، والحجر لا يُصيبه شيء ولكنه

مُرادُ الله وقدرةُ الله، ولذلك قال الشاعر:

أيا هازِئاً مِنْ حُـروفِ القَدَرِ بنفسكَ تَـعْـنُـفُ لا بالقَدَر
ويـا ضـاربـاً صخرةً بالعصا ضربْتَ العصا أم ضربْتَ الحجرَ

وقوله تعالى لموسى: ﴿ ٱضۡرِب ﴾ أراد بذلك أن يُعَلِّمهم ربط الأسباب بالمُسبَّبات ليصِلوا إلى مُرادهم، وليترَتَّبَ على ذلك الثواب والعقاب في المعاد.

وقوله: ﴿ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ ﴾ أي انبجست وانسكبتْ، وتبدأ رَشْحاً ثم رشّاً، ثم يكون الانسكاب، وكان موسى يضربُهُ إذا نزل فيتفجر منه الماء، ويضربه حين يريد الرحيل فيجفُّ.

قال عطاء: كان يظهرُ في كلِّ موضع من ضرب موسى كثدي المرأة على الحجر فيفْرَقُ ثم يسيلُ، وكان للحجر أَربعةُ أوجه، يخرج منْ كل وجه ثلاثةُ أعينٍ لكل سبط عينٌ خاصةٌ بهم كي لا يختلفوا لأن العدَدَ كثيرٌ، وكان بينهم عصبيةٌ ومباهاةٌ بحيث لا يتزوج سبط من سِبْط إلا نادراً، وذلك قوله تعالى: ﴿ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ ﴾، والمراد بالأُناس: كلُّ ناسِ سِبْطٍ من الأسباط.

والمشربُ: موضعُ الشُّرب ليستقوا ويسقوا دوابَّهم، وكل ذلك دالٌّ على وجوه الإعجاز: فظهور الماء معجز، وخروج الماء الغزير العظيم من الحجر الصغير معجزٌ، وخروج الماء بقدر حاجتهم معجزٌ، وخروج الماء عند الضرب بالعصا معجزٌ رابع، وانقطاعُ الماء عند الاستغناء عنه معجزٌ خامس.

ثم أمرهم الله عز وجل بالشكر لِما أعطاهم من المأكول والمشروب، وفيه إشارةٌ إلى ما تقدم من الإنعام بالطعام وهو المن والسلوى، ثم الماء الذي منه شربُهم وسقيُ دوابهم وذلك قوله تعالى: ﴿ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ ﴾.

قال المفسرون: قد يكون الإنسان في حال الاضطرار مُستجيباً لما يَطْلُبُه الله منه رجاءَ أنْ يكشف الله عنه الغم والهم، ولكنه لما يزول عنه الهمُّ والغمُّ ويعود إلى راحته ونِعمَتِهِ قد يرجع إلى الطغيان والفساد ولما كان بنو إسرائيل هم أسرعُ الناس إلى هذه العادة حذرهم الله بقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٦٠﴾ [البقرة].

وقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ﴾: الماضي منه: عَثِيَ - يَعْثى، مثل: رضيَ - يرضى، وهذه لغة أهل الحجاز التي نزل القرآن بها، والمصدر: العَثْيُ: وهو أشد الفساد.

ولذلك قال ابن المنيّر في «التيسير العجيب في تفسير الغريب»:

تَعْثَوا من العَثْيِ وذاكَ أشنعُ   جنسِ الفساد كلِّه وأبشعُ

فصار المعنى: لا تنشروا فسادكم في الأرض، وتكونوا قُدوةً سيئةً للناس.

يُقال: عثا: إذا نشر الشرّ والفساد وأثار الخُبث.

قال البروسوي: وهكذا، رغم أن الله أدَّبهم بسوطِ الغُربةِ، فقد أدركهم بالرحمة في وسْطِ الكُربةِ، فأكرمهم بالأنعام، وظلَّلهم بالغمام، ومَنَّ عليهم بالمَنِّ، وسلّاهم بالسلوى.

وهكذا يكونُ اختيار الربّ لك خيراً مما تختاره لنفسك.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: ما أدخلَكَ الله فيه تولى إعانتكَ عليه، وما أدخَلْتَ نفسك فيه وكَلَكَ إليه، فلا تكفر نعمةَ الله عليك فيما تولاك به من ذلك.

وقد ختم صاحب «تفسير المنار» كلامه عن بني إسرائيل في آيات عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٦﴾ [سورة المائدة] بقوله:

إن الشعوب التي تنشأ في مهد الاستبداد، وتُساس بالظلم والاضطهاد تَفسُد أخلاقُها، وتّذِلُّ نفوسُها، ويذهبُ بأسُها.

ثم قال: أفسدَ الفراعنة فطرةَ بني إسرائيل في مصر، وطُبع عليها بطابع الذل، فعلينا أن نعتبر بهذه الأمثال التي بيَّنها الله تعالى، ونعلمَ أنَّ إصلاحَ الأمم بعد فسادها بالظلم والاستبداد إنما يكون بإنشاء جيل جديد يجمع بين حرية البداوة واستقلالها وعِزَّتها، وبين معرفة الشريعة وتعلمُّ فضائلها والعمل بها.

وقد كان يقوم بهذا في العصور السالفة الأنبياء، وإنما يقوم به الآن وبعد ختم النبوة ورثةُ الأنبياء الجامعون بين العلم بسنن الله في الاجتماع وبين البصيرة والصدق والإخلاص في حب الإصلاح، وإيثاره على جميع الأهواء والشهوات، ومَنْ يُضلل الله فما له من هاد.

ننتقل الآن إلى صورة جديدة من صور سوء أدبهم مع المُنعم عز وجل، ومع الرسول موسى عليه الصلاة والسلام، وهو ما قصَّه الله علينا بقوله حاكياً عنهم: ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ** ﴾ [البقرة ٦١].

وهذه الآية عند المحققين فيها انتقالٌ من تعدادِ النِعَم المتعاقبة عليهم إلى بيان سوء اختيارهم في شهواتهم، والاختيارُ دليلٌ على عقلِ اللبيب كما يقول الحكماء، مما دفع بعض المفسرين إلى القول عن بني إسرائيل: إنهم كانوا نَتانى أهلَ كُرَّاثٍ وأبْصَالٍ وأعْدَاسٍ فَنزعُوا إلى عِكْرهم السُّوءِ، واشتاقتْ طِباعُهُم إلى ما جَرَتْ عليه عاداتُهُم فقالوا: ﴿ **لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ** ﴾.

وجميل قول بعض أهل التفسير: إن الحق عز وجل أراد أنْ يرفع قدرهم، فأنزل عليهم المنَّ والسلوى، ولكنهم لما كانوا في السابق مستعبدين لفرعون، والظاهر أنهم أحبوا حياة العبودية واستطعموها، طلبوا عندئذ طعام العبيد منْ بقْلٍ وقثاءٍ وفوم وعدس وبصل.

قال صاحب «المنار»: كان بنو إسرائيل يظنون أنَّ موسى عليه السلام قد خدعهم بإخراجهم من مصر، وجاء بهم في البراري ليهلكَهم، فلذلك دأبوا على إحراجه وإعناته، والإكثار من الطلب فيما يُستطاع وما لا يُستطاع، حتى ييأس منهم فيرتدَّ بهم إلى مصر حيث ألفوا الذِلَّةَ وتأملوا الخلاص من الهلكة في البراري.

وانظر إلى قولهم: ﴿لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ﴾ حيث عبّرَ القرآن عن مسألتهم بحرف النفي «لن» الذي يأتي للدلالة على عدم الفعل في مستقبل الزمان مع تأكيده، فكأنهم قالوا: يا موسى: إنه لم يبقَ لك أملٌ في بقائنا معك على هذه الحالة، وهي البقاء على طعام واحد، فإنْ كانت لك منزلة عند الله – كما تزعم – فادعُه يُخرجْ لنا من كذا وكذا لنبقى معك، وهم يعلمون أنهم في أرضٍ خلاءٍ غيرِ مُنبتَةٍ.

فهل يُفسَّرُ هذا الطلبُ منهم إلا بالإعناتِ والنزقِ، وطلب الخلاص من تكاليف الجهاد والعودة إلى مصر تحت ذل العبودية.

وقولهم: ﴿عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ﴾ والطعام يطلق في اللغة على ما يُطعَم ويُشربُ، وشواهد ذلك في الكتاب الكريم والسنة كثيرة، فمن ذلك قوله تعالى في [سورة المائدة ٩٣] وذلك قبل تحريم الخمر: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٣﴾.

فقوله: ﴿ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ﴾ أي شربوا من الخمر، وأكلوا الميسر، قبل نزول التحريم، وكونُ المشروب طعاماً حتى لو كان ماء، لأنَّ طعمه يكون في الفم.

وهذه الآية يروى في سبب نزولها: أنه لما حُرِّمت الخمر، قال الصديق: يا رسول الله، كيف بإخواننا الذين ماتوا وقد شربوا الخمر، وأكلوا الميسر، وكيف بالغائبين عنا في البلدان ولا يشعرون أنَّ الله حرَّمَ الخمر وهم يَطْعَمونها، فأنزل الله الآيات في ذلك، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾[المائدة].

وسؤال الصديق رضي الله عنه يدلك على شفقته بالمؤمنين ويدلك على أنَّ السلف الصالح كان حريصاً على السؤال في أدق التفاصيل بما يتعلق بالحلال والحرام حتى يؤدوا ذلك على أكمل وجه حرصاً على الاستقامة وخوفاً من نُقصان الثواب.

وفي [سورة البقرة ٢٤٩] قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

فقوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ ﴾ دلَّ على أن الماء طعام، وبه تقوم الأبدان.

وورد في السنة قوله ﷺ في ماء زمزم: «إنها طعامُ طُعْم، وشِفاءُ سُقم».

قال القرطبي: سَمُّوا المنَّ والسلوى طعاماً واحداً لتكرارهما في كل يوم، فهو على نهجٍ واحدٍ لا يختلفُ ولا يتبدَّل، مما يدلك على مَلَلهم.

ولذلك قال ابن المُنيّر:

ووَاحِدٍ أي دائمٍ ملتزمِ   أدركهُم منه ملالُ السَأَمِ

والعربُ تقول لمن يأكلُ كلَّ يوم طعاماً لا يتغير ولو كان عدة ألوان يقولون: «إنه يأكلُ من طعام واحد»، فهم ينظرون إلى مجموع الألوان التي هي غذاؤُه الذي لا يتغيَّر على أنه طعام واحد، فإذا تغيرتْ الألوان تغيَّرَ نوع الغذاء فكان طعاماً مُتعدداً.

قال الحسن: كانوا قوماً فلّاحَةً فَنَزَعوا إلى عِكْرِهم، أي أصلهم.

و«البقْلُ»: ما تُنبته الأرض من الخُضر التي تأكلها الناس: كالنعناع والكراثِ، والكرفس وأشباهها، وكل نباتٍ ليس له ساق، وما له ساق فهو شجر، والبقْل إذا رُعي لم يبق له ساقٌ، والشجر يتبقى له سوق ولو كانت نحيلةً دقيقة، والبقْل: يُغْري بالقضم، ويُعين على الهضم.

و «القثاءُ»: هي أخت الخيار ويُسميها العامةُ «القتة».

أما «الفوم»: فالراجح أنه الثوم، وابدالُ الثاء فاءً شائع في كلام العرب، كما قالوا: جَدَثٌ، وجَدَفٌ، ثَلَغ، وفَلَغَ.

وقال بعض اللغويين هو الحنطةُ؛ لأنَّ الخبز منها، واستشهدوا بقول «أُحيحة بن الجَلاح»:

قد كنتُ أغنى الناس شخصاً واحداً ... وردَ المدينة من مزارع فوم

وقال بعضهم: هو الحمصُ بلغة أهل الشام، والراجحُ: الثوم، لقراءة ابن مسعود «وثومها»، ولقول حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه في شعره:

وأنتم أناسٌ لئامُ الأحوال ... طعامُكم الفومُ والحوقَلُ[١]

«والعدس والبصل» معروفان، وكان «عمر بن عبد العزيز» يأكل يوماً

(١) أي الثوم والبصل ولأن التوراة صرَّحَتْ به في هذه القصة.

خبزاً بزيت، ويوماً خبزاً بلحم، ويوماً خبزاً بعدس.

ما حكم أكل البصل والثوم؟

الجمهور على إباحة ذلك، ففي حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال حين أكلَ بعضُ الصحابة الثوم في خيبر يوم فتحها قال: «أيها الناس إنه ليس لي تحريم ما أحلَّ الله، ولكنها شجرةٌ أكرهُ ريحَها»، فحكمُ المنع من أكلها خاصٌّ به ﷺ لأنه يناجي جبريل.

ورد عن عمر بن الخطاب أنه قال: إنكم أيها الناس، تأكلون شجرتين لا أراهما إلا خبيثتين، هذا البصلُ والثوم، ولقد رأيتُ رسول الله ﷺ إذا وجَدَ ريحهما من الرجل في المسجد، أمرَ به فأُخرج إلى البقيع، فمن أكلهُما فلْيمتْهما طبخاً.

ماذا كان جواب موسى على طلبهم هذا؟

كان جوابه ﷺ توبيخاً لهم وإنكاراً لتبرُّمِهم و مَلَلِهم فقال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ﴾ أي: أتستبدلون الذي هو رزقٌ مباشرٌ من الله تعالى، وهو المنُّ والسلوى يأتيكم بقول «كنْ» فهو يُشبه رزق الآخرة، بما هو أقلُّ منه درجةً، وهو رزق الأسباب في الدنيا، فالله يخلقُ بالأسباب ويخلقُ بالأمر المباشر، وما كان بالأمر المباشر بكلمة «كنْ» يكون خيراً مما جاء بالأسباب، لأن الخلق المباشر لا صنعَةَ للعبد فيه، وهو عطاءٌ خالصٌ من الله، أما الخلقُ بالأسباب فقد يكون لك دورٌ فيه، كحراثة وسقي وبذر..

قال القاسمي: في قوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ﴾ قال: المنُّ فيه الحلاوة، والحلاوةُ تألفها أغلبُ الطباع البشرية.

والسلوى: من أطيب لحوم الطير، وكلاهُما غذاءٌ تقوم به البِنْيَةُ، والبُنْيَةُ: بكسر الباء للمحسوسات، وبالضم في المعاني والمجد.

وليس فيما طلبوه من الثوم والبصل ما يُساويهما - أي المن والسلوى - في اللذة والتغذية.

ولذلك قال ابن زيد: كان طعام بني إسرائيل في التيه واحداً، وشرابهم واحداً، كان شرابهم عسلاً ينزل من السماء يُقال له «المنُّ»، وطعامهم طيرٌ يُقال له «السلوى»، فيأكلون الطير ويشربون العسل، فطلبوا الاستبدال فَذُمُّوا على ذلك.

ثم قال ابن زيد عليه رحمة الله: فكيف الذي يستبدلُ الضلالَ بالهدى، والغيَّ بالرشاد، والشركَ بالتوحيد، والبدعةَ بالسنة، وخدمةَ المخلوق بخدمةِ الخالق، والعيشَ الطيبَ في جوار الله تعالى بحظه من العيش النكد الفاني في هذه الدار.

قال القرطبي: ثم إنَّ ما أُعطوه من المنِّ والسلوى لا كلفَةَ فيه، والذي طلبوه لا يجيءُ إلا بالكُلفةِ، فكان أدنى مما أعطاهم الله، ثم إن ما أُنزل عليهم حلالٌ خالص لنزوله من عند الله تعالى، وزراعة الأرض يتخللها الغصبُ والشُّبَهُ، فكانت أدنى من الرزق الخالص الحلال.

قال القرطبي: وفي هذه الآية دليلٌ على جواز أكل الطيبات والمطاعم المُستلذَّات، وكان النبي ﷺ يحب الحلوى والعسل، ويشرب الماء البارد العذب.

ثم قال لهم موسى بعد هذا التوبيخ: ﴿ **ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ** ﴾ [البقرة ٦١]: أي كانت هذه همتكُم، وهذا همكُم، فاهبطوا مصراً

من الأمصار فستجدون ما سألتم، أما هذه الأرض التي قضى الله أن تُقيموا فيها إلى أجلٍ محدود، فليس من شأنها أن تُنْبِتَ هذه البقول، وإن الله جلَّ شأنه لم يقضِ عليكم بالتيه في هذه البرية إلا لجُبنكم عن مقاومة عدوكم، فإن أردتم الخلاصَ مما كرهتم، فأقدموا على قتالِ عدوكم في الأرض الموعودة، وعندها يكفَلُ الله لكم النصر عليهم، وعندها تجدون ما تطلبونه، فالتمسوا الخير قولاً وفعلاً فإنَّ الله لا يُضيع أجر العاملين كما قال صاحب «المنار».

وقوله: ﴿ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا ﴾ جاءت منونةً ومصروفة، فهل المقصود منها مصر المعروفة؟

والجواب: إن العلماء في هذا الموضوع قولين:

الأول: أنها مدينةُ مصر المعروفة التي خرجتم منها يا بني إسرائيل، قالها موسى توبيخاً لهم، وتهديداً كأنه يقول لهم: ارجعوا إلى ما كنتم فيه إذ لم تُقَدِّروا نعمة الحرية، وقيمة الفضائل النفيسة، لأنه من المستحيل رجوعُهم إلى مصر.
- ونُوِّنَتْ لأنه اسم علم ثلاثي ساكن الوسط ففيه الوجهان التنوين وعدمه.

الثاني: وهو الراجح أن المقصود بقوله تعالى: ﴿ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا ﴾ أي بلداً من البلدان، لأن كلمة «مصراً» هنا جاءت منونةً، مع أنَّ القرآن الكريم عندما يأتي بكلمة مصر ويُراد وادي النيل فإنها تأتي غيرَ منونةٍ وتقرأ هذا في عدةِ مواضع من القرآن الكريم، ففي [سورة يونس ٨٧]: ﴿ تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ ﴾ [يوسف ٢١]، وقال تعالى: ﴿ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩ ﴾ [يوسف]، وقال تعالى: ﴿ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٥١ ﴾ [الزخرف].

قال ابن كثير: هذه الأشياء طلبتموها بديلاً عن نِعَمِ الله المنُّ والسلوى،

موجودة عند أهل الأمصار الكبيرة والصغيرة، فإذا هبطتم وجدتُم هذه المآكل.

ثم قال تعالى عنهم مُبيناً عاقبة كفرهم بآيات الله وعصيانهم، وهي أنْ ضَرَبَ الله تعالى عليهم الذِلة والمسكنة، وباؤوا بغضب الله الموصل إلى عذاب النار يوم القيامة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة].

قال صاحب «أيسر التفاسير»: وهذا الحُكم والخطاب عامٌ لليهود المعاصرين لبعثة النبي ﷺ ومن قبلهم، ومن يأتي بعدهم؛ لأنَّ عصيانهم واعتداءَهم مُلازمٌ لهم حتى اليوم.

وقوله: ﴿وَضُرِبَتْ﴾أي طبعت عليهم طبعة قوية، وتدل الكلمةُ على معنى الإحاطة بهم، ومُلازمةِ الذِّلَةِ لهم، والذِلَّةُ: خُلُقٌ خبيثٌ يُضاد الإباء والعزة.

قال العلماء: ولكنَّ إحاطةَ الذُلِ والمسكنةِ بهم قد تُرفع عنهم في حالتين كما ذكر الله في [سورة آل عمران ١١٢]: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾: أما الحبل من الله: فذلك يكون بإسلامهم، أو حين عاهدهم رسول الله ﷺ في المدينة فعاشوا في حمى العهد في يثرب وخيبر والنضير وقريظة، ثم عمتْهم المذلة في سائر الدنيا.

ومعنى ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ أينما وجدوا.

وأما الحبلُ من الناس: فهو معاهدتهم وارتباطهم بدولٍ قوية كما هو اليوم.

أما هم في أنفسهم فلا نصر لهم.

عجائب بني إسرائيل:

فمن ذلك سؤالهم لموسى: يا موسى هل ينام ربك؟

فقد روى ابن أبي حاتم عند تفسيره آية الكرسي، أنَّ بني إسرائيل قالوا لموسى: يا موسى هل ينام ربك؟

فقال موسى مجيباً لهم: اتقوا الله!!

فناداه ربه عز وجل: يا موسى سألوك هل ينام ربك؟ فَخُذْ زجاجتين في يدك فقم الليل، ففعل موسى، فلما ذهب ثلثا الليل نعِسَ موسى فسقطت الزجاجتان فانكسرتا، فقال عز وجل: «يا موسى لو كنتُ أنام لسقطت السماوات والأرض فهلكن كما هلكت الزجاجتين في يديك».
قال: فأنزل الله على رسوله محمد ﷺ آية الكرسي.

وأخرج ابن عساكر عن أنس أن بني إسرائيل قالوا: يا موسى هل يُصلّي ربك؟

فقال موسى: اتقوا الله يا بني إسرائيل، فقال الله: يا موسى: ماذا قال لك قومك؟ قال: إلهي ما قد علمتَ، قالوا: هل يُصلي ربك؟ قال تعالى: «فأخبرهم أن صلاتي على عبادي أن تسبقَ رحمتي غضبي».

حجّ موسى عليه الصلاة والسلام إلى البيت العتيق:

كان الأنبياء والمرسلون يحجون البيتَ العتيق، يتقربون إلى الله بذلك.

فقد روى الإمام أحمد من حديث ابن عباس، أن النبي ﷺ مَرَّ «بوادي الأزرق»، فقال ﷺ: «أي وادٍ هذا؟» قالوا: وادي الأزرق، قال ﷺ: «كأني

أنظر إلى موسى وهو هابطٌ من الثَّنِيَّة، وله جُؤَارٌ إلى الله بالتلبية»، فلما وصل ﷺ إلى ثنيَّة هرشاء فقال: «أيُّ ثنية هذه؟» قالوا: ثنيةُ هرشاء، قال: «كأني أنظر إلى يونس بن متى على ناقةٍ حمراء، عليه جبةُ صوفٍ، خِطام ناقتِهِ خُلْبَة – أي ليف – وهو يُلبِّي».

وفاة هارون:

قال صاحب كتاب «نظرات في أحسن القصص» لمؤلفه «محمد السيد الوكيل»:

توفي هارون عليه السلام قبل موسى في فترة التيه، وكانت وفاته سنة «١٩٧٢» قبل الهجرة، قبل وفاة موسى بسنتين كما قال المؤرخون، وعلى رأسهم ابن كثير في تاريخه «البداية والنهاية»، وكان عُمر هارون عند وفاته مائة وتسعة عشر عاماً؛ لأنه وُلِدَ قبل موسى بعام، وقد ورد عن عدد من الصحابة منهم ابن عباس وابن مسعود، أن الله أوحى إلى موسى: إني مُتَوفٍّ هارون فأت به جبل كذا.

وفاة موسى:

فقد جاء في «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة قال: أُرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام، فلما جاءه صَكَّه، فرجع ملكُ الموت إلى ربه فقال: إلهي: أرسلتني إلى عبدٍ لا يريد الموت، فقال تعالى: «ارجع إليه فقل له: يضع يده على متن ثور، فله بما غطّت يده بكل شعرة سنة»، فقال موسى: أي رب: ثم ماذا؟ قال: الموت، قال: فالآن، قال: فسأل الله أن يُدنيه من الأرض المقدسة رمية حجر.

قال أبو هريرة، فقال رسول الله ﷺ: «فلو كنتُ ثَمَّ لأريتُكم قبره إلى

جانب الطريق عند الكثيب الأحمر».

قال صاحب كتاب «حياة الأنبياء»: مات هارون قبل موسى ودُفن في جبل «هور» من جبال سيناء، وأما موسى، فأمره الربُّ بالصعود إلى جبل «بَنُو» وأن ينظر إلى الأرض المقدسة أرض الموعد، ففعل موسى ثم مات على أكمةِ الجبلِ ذات الرمل الأحمر، ودُفن هناك، ثم خُفيت آثارُ قبره.

قال العلماء: أما حديث البخاري السابق، فقد ذكره ابن حبان في «صحيحه» وقال: إنَّ مَلَكَ الموت لما جاء إلى موسى ولم يعرفه، لمجيئه له على غير صورة يعرفها موسى، كما جاء جبريل إلى النبي ﷺ بصورة أعرابي، وكما وردت الملائكة على لوط وإبراهيم ولم يعرفهم لا لوط ولا إبراهيم، وكذلك موسى لم يعرفه، ولذلك لطمه ففقأ عينه؛ لأنه دخل داره بغير إذنه، وهذا موافق لشريعتنا وبخاصة وأنَّ موسى كان يريد تحقيق أمور كثيرة كان يجب وقوعها في حياته كخروجه من التيه، وفتحه بيت المقدس، ولكن القدر قد سبق بأن يموت هارون وموسى في التيه.

قال الآلوسي: وبعد وفاة موسى بثلاثة أشهر فتح «يوشع بن نون» وكان قد تنبأ، بلاد الشام، وانتصر على أحدٍ وثلاثين ملكاً من ملوك الشام.

قال ابن كثير: مكث يوشع بن نون بعد فتح بيت المقدس يحكم بكتاب الله بينهم وهو التوراة حتى قبضه الله تعالى وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة، فكانت مدة حياته بعد موسى سبعاً وعشرين سنة.

بعض الأحاديث القدسية الواردة عن موسى:

ذكر صاحب كتاب «حياة الأنبياء» للدكتور «صباحي عوض الله» أنَّ الخرائطي أخرج عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن موسى عليه الصلاة

والسلام سأل ربه فقال: «يا رب: أيُّ عبادك أعزُّ عليك»؟. قال عز وجل: «الذي إذا قدر عفا».

وفي البخاري من حديث أنس، أن الله أوحى إلى موسى:

«يا موسى: إنَّ من عبادي مَنْ لو سألني الجنة بحذافيرها لأعطيتُهُ، وإنَّ منهم لو سألني غِلاف سوط لم أُعطه؛ ليس ذلك من هوانٍ له علي؛ ولكن أُريدُ أنْ أدَّخرَ له في الآخرة من كرامتي وأحميَه من الدنيا، كما يحمي الراعي غنمه من مراعي السوء.

يا موسى: ما ألجأتُ الفقراء إلى الأغنياء، لأنَّ خزائني ضاقت عليهم، وأنَّ رحمتي لم تسعهم؛ ولكني فرضتُ للفقراء في أموال الأغنياء ما يسعهم، أردتُ أن أبلوَ الأغنياء كيف مُسارعتُهم فيما افترضتُ للفقراء في أموالهم.

يا موسى: يا موسى: إن فعلوا ذلك أنعمتُ عليهم نعمتي وأضعفتُ لهم في الدنيا للواحد عشرُ أمثالها.

يا موسى: كن للفقراء كنزاً، وللضعفاء حِصْناً، وللمستجيرين غيثاً، أَكُنْ لك في الشدة صاحباً، وفي الوحدة أنيساً، أكلؤُكَ في ليلك ونهارك».

وعند الترمذي من حديث ابن عباس قال: يقول الله تعالى:

«يا موسى: إنه لن يلقاني عبدي في حاضر القيامة إلا فتشتُ عما في يده إلا الورعين فإني أستحييهم وأُجِلُّهم وأُكرمُهم، وأُدخلهم الجنة بغير حساب».

وهذا القول صحيح لقول علي رضي الله تعالى عنه للمتحدث في المسجد، ما رأسُ الدين؟ قال المُتحدث: الورع، فأقره عليٌّ على التدين.

وأخرج أبو نعيم في «الحلية»: أوحى الله إلى موسى:

«يا موسى: لولا مَنْ يشهد أن لا إله إلا الله لسلَّطْتُ جهنم على أهل الدنيا.

يا موسى: لولا مَنْ يعبُدُني، ما أمهلتُ منْ يعصيني طرفةَ عين.

يا موسى: إن كلمةً من العاقِّ تزن جميعَ رمال الأرض».

قال موسى: إلهي مَنِ العاقُّ؟

قال عز وجل: «إذا قال لوالديه لا لَبَّيْكَ».

قال ابن كثير: وبالجملة، فشريعة موسى كانت شريعةً عظيمة، وأُمتُهُ أمةً كثيرة، وُجد فيها أنبياء وعلماء، وعُبَّادٌ وزُهاد، وملوك وأُمراء، ولكنهم كانوا فبادوا، وتبدَّلوا كما بُدلت شريعتهم فمُسخوا قردةً وخنازير، ثم نُسِخت ملتُهم.

وفي البخاري من حديث ابن عباس قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: «عُرِضت عليَّ الأمم، ورأيتُ سواداً كثيراً سدَّ الأُفق فقيل هذا موسى في قومه».

وفي «الصحيحين» من حديث «مالك بن صعصعة» أن النبي ﷺ مرَّ ليلة أُسري به بموسى في السماء السادسة، فقال جبريل للنبي ﷺ: «هذا موسى فسلّم عليه»، قال ﷺ: «فسلَّمتُ عليه»، فقال: أهلا بالنبي الصالح، والأخ الصالح، «فلما تجاوزتُ بكى»، قيل له: ما يُبكيك؟ قال: أبكي لأنَّ غلاماً بُعِثَ بعدي يدخل الجنة من أُمته أكثرُ مما يدخلها من أُمتي.

دروس من قصة موسى:

أولاً: الصبر: فحياة موسى كلها محِن وابتلاء، دعا فرعون أربعين سنة ولم يملَّ، وكلما ازداد فرعون عتواً ازداد موسى إصراراً على الدعوة.

ثانياً: الإيمان: حين تُخالط بشاشته القلوب كانت له آثار هائلة في النفوس، وهكذا كان شأن السحرة ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ ﴾ [طه].

ثالثاً: الثقة بنصر الله عز وجل: حين وصل موسى وقومه إلى البحر قال بنو إسرائيل: إنا لمدركون أي سليحقنا فرعون وجنده: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء]، قال موسى عليه السلام بيقين وثقة بنصر الله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء]، فأنجاه الله وقومه، قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء].

يونس
عليه الصلاة والسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

يونس عليه الصلاة والسلام

الحمد لله، الحمد لله الذي لا مانِعَ لما وهب، ولا واهبَ لما سلب.

طاعتُهُ عز وجل، أفضَلُ مُكتَسب، وتقواهُ – للمُتقي – أعلى نَسب.

والصلاة والسلام على محمدٍ عبده ورسوله الذي اختارهُ وانتخب، وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد:

يونس عليه السلام، وهو مِنْ أنبياءِ بني إسرائيل.

مولده ونشأته:

«يونس بن متى»، واسمه في العبرانيةِ «يونان بن أَمَتَّاي»، كان مولده في فلسطين، في بلدة يُقال لها: «غاثُ أيفر»، وعند القاسمي: «جت حافر» في شمال الأرض المُقدسة، ثم نشأ في «نينوى»، أرسلهُ الله إلى بلاد الآشور في العراق، وكانت مِنْ أراضي الموصل بلدةٌ يُقال لها «نِيْنَوى».

و«نَيْنَوى»، كانت عاصمة لدولة آشور، وآشور كانت دولة قوية بسطت سلطانها على معظم بلاد آسيا، وكانت مِنْ أغنى دول الشرق آنذاك.

وهذه المدينة تقع على الضفة اليُسرى من نهر دجلة، بناها الملك «آشور» المُلقب «نِينُوسْ» مِنْ أولاد النمرود، وكان بناؤه لها سنة «٢٢٢٩» ق.م، وكان مُلوك الآشور يتخذونها مصيفاً، وكانت مدينة ضخمة تقع على مسيرة ثلاثة أيام – محيطها –.

قال القاسمي: كانت من أقدم مدن العالم وأشهرها، وكان المؤرخون الوثنيون يصفونها بارتفاعِ أسوارها، حيث بلغَ ارتفاعُ بعضِها مائة قدم،

ودائِرَتُها ستون ميلاً، وكانت مُحصَّنَةً بألف وخمسمائة قلعةٍ.

وكان سُكان نينوى خليطاً مِنَ الآشوريين واليهود الذين كانوا أسرى عند الآشوريين، وكان زمنُ يونس في أول القرن الثامن قبل الميلاد.

وقد ذكره القرآن الكريم مع الأنبياء في [سورة الأنعام] بعد أن ذكرَ عدداً مِنَ الرُسل قال: ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

إرسالُ يونس عليه السلام إلى أهل نينوى:

وردَ عن ابن مسعود، وسعيد بن جبير وغيرهم:

أنَّ أهلَ «نينوى»، كانوا أهلَ كفر وشرك، وكانوا يعبدون الأصنامَ، ثم دفعتهم كثرةُ الأموال إلى ارتكاب الموبقات والمعاصي، فجمعوا بين الكفر والفواحش، فأرسلَ الله لهم يونس عليه السلام، فدعاهم إلى التوحيد وإلى الفضائل، وبقيَ يدعوهم تسعَ سنين كما ذكر القرطبي، فلم يستجيبوا حتى يئسَ مِنْ إيمانهم.

وكانت بعثةُ يونس إلى نينوى بعد خراب بيت المقدس في حدود القرن الحادي عشر قبل الهجرة، دعاهم تسعَ سنين فلم يستجيبوا فيئسَ منهم.

قال القرطبي: فأخبرهم أنَّ العذاب مُصْبِحُهُم إلى ثلاثٍ، فقالوا لبعضهم: ارقبوه، فإنه رجلٌ لا يكذب، فإن أقامَ معكم فلا عليكم، وإنْ ارتحلَ فهو نزول العذاب لا شكَّ في ذلك.

خروج يونس عليه السلام وإيمان قومه:

قال القاسمي: فلما كان الليل خرج يونسُ من بينهم فأصْحَرَ، فلما فقدوهُ ووصلَ قولُ يونس إلى مسامعِ مَلِكِهم – وهو إنذارُهُ لهم بالعذاب – تخوَّفوا

نزول العذاب الذي أُنذروا به، فَقَذَفَ اللهُ في قلبِ أميرهم الإيمانَ والتوبةَ، فنزلَ عن عرشه، وألقى عنهُ حُلَّتَهُ، ثم التفَّ بِمِسْحٍ - ثوبٌ غليظ من الشعر - وجلسَ على التراب، وأعلنَ إيمانَهُ بالله، وآمنَ معه أهل نينوى، ثم أمرَ أنْ يُنادى بأهلِ نينوى بالصيامِ يوماً فلا يذوقُ الناسُ طعاماً ولا شراباً، وألا تُرعى البهائمُ ولا تُسقى، وأنْ يلبسَ الناسُ المُسوحَ، وأنْ يجتمعَ الصغار والكبار في صعيدٍ واحدٍ يجهرونَ بتسبيحِ الله والإنابَةِ إليه، والاستغفارِ له، والتوبة عما أسلفوا من الظلم - كانوا يُغيرون وينهبون -، وأنْ يُحضِروا أهليهم ومواشيهم معهم، ففعلوا، وتَضَرّعوا إلى الله واستكانوا لجلاله عز وجل، وسألوه أنْ يرفَعَ عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيُّهم، فاستجابَ الله لهم لعلمِهِ الصدق منهم، والإخلاصَ في توبتهم.

وفي ذلك وردَ قوله تعالى في [سورة يونس]: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾.

والمعنى: لولا: أي هَلّا، لولا: في الأصل حرفٌ للتحضيضِ والحثِّ على الفِعل، ولكنها إذا دخلت على الفِعل الماضي، صارَ التحضيضُ يُقصدُ به التوبيخَ على تَركِ شيءٍ مُهِمّ، والمقصودُ من هذه الآية هنا توبيخ أهل مكة لإصرارهم على الكفر وعدم توبتهم كما تابَ قوم يونس حتى ينجوا مِنَ العذاب كما نجَّى قومَ يونس.

قال ابن مسعود: لقد بَلَغَ مِنْ توبَةِ قومِ يونس وصدقهم لهذه التوبة، أنهم ردّوا المظالمَ فيما بينهم، حتى كان الرجل يأتي إلى الحَجَرِ، وقد وضَعَ عليه أساسَ بنائِه، فيقلعُهُ فيَرُدُّهُ.

قال الصاوي عن وهب: غامت السماءُ غيماً أسودَ هائلاً، يُدَخّنُ دُخاناً

شديداً، فلما اقتربَ من مدينتهم طلبوا يونسَ فلم يجدوه، فقذفَ الله في قلوبهم التوبَةَ، فخرجوا إلى الصحراء بأنفسِهم وأهليهم ودوابهم، وأظهروا الإيمانَ والتوبةَ، وفرَّقوا بين الوالدةِ وولدِها، وبينَ الدواب وصِغارها، فَحَنَّ البعضُ للبعضِ، وعلتْ الأصواتُ بالبكاء، وتضرعوا إلى الله وقالوا: آمنا بما جاء به يونسُ، وتابوا وأخلصوا النيةَ، فَرَحِمهم ربهم، واستجابَ لهم.

قال ابن كثير: جأرت الأنعامُ والدواب، وَرَغت الإبل وفُصلانُها، وخارتْ البقر وأولادُها، وثَغَتْ الغنم وحِملانُها، وكانت ساعةً عظيمةً هائلةً.

قال أهل العلم: وكان ذلك في يوم جمعة، ووافَقَ يومَ عاشوراء - ١٠ محرم.

قال ابن عباس: إنَّ العذابَ كان أُهْبِطَ على قوم يونس حتى لم يكن بينهُ وبينهم إلا ثُلُثي ميلٍ، فلما دَعَوْا كَشَفَهُ الله عنهم.

وقال البروسوي: لما كان بينهم وبين العذاب قَدْرَ ميلٍ أخلصوا لله.

وروى الطبراني بمسنده: قال: لما غَشِيَّ قومَ يونس العذابُ مشَوا إلى شيخ كبير من بقيةِ عُلمائهم، فقالوا: إنا قد نزلَ بنا مِنَ العذابِ ما ترى، فماذا نفعل؟ قال: قولوا يا حيُّ حين لا حيَّ، يا حيُّ يُحيي الموتى، يا حيُّ لا إله إلا أنت.

فلجُّوا في قولها فكشفَ الله عنهم.

وورد عن «الفُضيل بن عياض» قال: كان مِنْ دُعائهم قولهم: اللهم إنَّ ذنوبنا قد عَظُمت وجلَّت، وأنت أعظمُ وأجلُّ، فافعل بنا ما أنت أهلُهُ، ولا تفعل بنا ما نحن أهلُهُ.

وإلى ما ذكرنا أشارت الآية: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ ﴾، فهذا بيانُ نفي إيمان أهل القرى فعُذبوا، ثم استثنى قومَ يونس بقوله تعالى:

﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾ [يونس].

قال ابن عاشور: والمُستخلصُ من الآية أنهم بادروا وأسرعوا بالإيمان بعد أنْ فارقَهم يونس، فاستُثنوا مِنَ العذاب لأنهم آمنوا قبل مجيئه إليهم، ولذلك قال تعالى: ﴿كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ﴾: والكشف إبطالُ الشيء قبل وقوعه، أو إزالةُ ما هو ساتر للشيء، والمُراد إبطالُ العذابِ قبل وقوعه، فعبَّرَ عنه بالكشفِ لقُربِ وقوعه.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: ولعلَّ الحكمة في نجاة قوم يونس تتمثلُ في أمرين:

الأول: أنَّ الله عَلِمَ أنَّ تكذيبهم ليونس في ابتداء الدعوة لم يكن ناشئاً عن تصميمِهم على الكفر، أو الاستخفاف بعظمةِ الله تعالى، ولكنهم كانوا شاكّين في صدق يونس ونُبوَّته، ثم إنهم كانوا على بَقِيةٍ من شريعة موسى عليه السلام، ولكن قد غَيَّروا وحَرَّفوا فيها وحادوا عن طريق الإيمان.

ثم إنه كان في نينوى كثيرٌ من أسرى بني إسرائيل فلما توعَّدَهم يونس بالعذاب ورأوْا علاماته، اهتدوا وآمنوا إيماناً خالصاً.

الثاني: قدَّرَ الله إيمان قوم يونس لِما عَلِمَ من كمال الإيمان والتسليم منهم، وفي هذا التقدير عِتابٌ ليونس على عدم صبره عليهم.

قال ابن عاشور: وقد كان حال أهل مكة كحال قوم يونس، إذ بادروا إلى الإيمان بمجرد دخول جيش الفتح مكة، وقبل أنْ يقعوا في قبضةِ الأسر، ولذلك لم ينجُ منهم «عبد الله بن خطل» لأنه لم يأتِ مؤمناً قبل أنْ يتمكن منه المسلمون، ولم ينفعه تعلُّقُه بأستار الكعبة، لأنَّ ذلك التعلُّقَ ليس بإيمانٍ وإنما

هو مِنْ شعار العوْذِ في الجاهلية وقد أبْطَلَهُ الإسلام بقوله ﷺ: «إنَّ الحرمَ لا يُعيذُ عاصياً».

قال القرطبي: وبالجملة فقد كان أهل نينوى مِنَ السُعداءِ في سابق علمِهِ عز وجل.

وقد وردَ عن علي رضي الله تعالى عنه وأرضاه أنه قال: «إنَّ الحذر لا يُنجي من القَدر، وإنَّ الدعاء ليرُدُّ القَدرَ، وذلك أنَّ الله تعالى قال: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس ٩٨]، وكان ذلك يومَ عاشوراء»، أخرجه ابن أبي حاتم.

قال القاسمي في الآية إشارةٌ إلى أنه لم يوجد قريةٌ آمنت بأجمعِها بنبيِّها المُرسلِ بعدَ إنذاره وبعثته إلا قوم يونس، وبقيةُ القرى دأْبُهم التكذيب كلُّهم، أو أكثرهم كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾[الزخرف].

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: الدعاء يردُّ القضاءَ، وقد نزل من السماء، اقرؤوا إن شئتم: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

وأخرج ابن مردويه عن عائشة مرفوعاً في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا﴾، قالت: قال ﷺ: "دَعَوْا"، والدعاء: مِنْ أعظم مظاهر العبادة.

والدعاءُ لغةً: هو النداء والشرعُ لا يمنع أنْ تُناديَ إنساناً حياً يسمعُ صوتك ليُعينك بقوته أو بعلمه على أمر مِنَ الأمور.

ولكن الدعاء الذي هو مُخ العبادة: هو طلبُ جلبِ نفعٍ، أو دفع ضرٍّ بلا

سَبَبٍ مادي ظاهر وهذا لا يوجد إلا لله وحده بلا واسطة.

قال الشوكاني: الدعاءُ مِنْ قَدَرِ الله عز وجل، فقد يقضي على عبدٍ قضاءً مُقيَّداً – بأن لا يدعوه – فإن دعاهُ اندفع عنه.

وفي الحديث الذي أخرجه الحكيم الترمذي عن أبي هريرة أنه ﷺ قال: «الدعاء سلاحُ المؤمن، وعمادُ الدين، ونور السماوات والأرض».

فالدعاء سلاحٌ يُقاتل به المؤمن ما يعترَيه مِنَ المصائب.

وقوله: «عماد الدين»، هذا تعظيمٌ لأمر الدعاء لا يُقدَّر.

وقوله تعالى: ﴿كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾، الخزي: الإهانة والذُلُّ من خسفٍ وغرقٍ وحَرْق.

وأشنعُ الخزي ما كان بيد أُناسٍ أمثالهم، وهو عذاب السيف الذي حلَّ بصناديد قريش يوم بدر، والذي كاد أنْ يَحِلَّ بجميع قريش يومَ فتح مكة فنجّاهم الله منه كما نجّى قومَ يونس.

وقوله: ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾، التمتيعُ: الإمهالُ.

والحينُ: هنا مُختلفٌ باختلاف الأجل، ولذلك جاء مُبهماً لأنَّ لكل واحدٍ منهم أجلاً يختلف عن الآخر، والتمتيعُ هنا ببقيةِ آجالهم، لا بكشف العذاب عنهم.

ما حال يونس بعد أنْ دعاهم فلم يستجيبوا أولَ الأمر؟

قال المفسرون: كان حاله ما ذكره الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ١٤١ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢﴾ [الصافات].

قال صاحب «أيسر التفاسير»: أي إنَّ يونس من جُملةِ المرسلين مَنَنَّا عليه بالنبوةِ، دعا قومه فلم يستجيبوا له، عندها هربَ مِنْ قومه وواعدهم العذاب.

قال ابن عاشور: ذهب يونس من القدس إلى يافا أولاً، ثم ركبَ سفينةً للفينيقيين لتذهبَ به إلى مدينة طرطوسية، وهي من موانئ بلاد الشام، أو إلى مدينة تقع غربيَّ صور على البحر، وذلك بعد أن ترك نينوى مغاضباً قومه.

وأمّا قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الصافات]، - انتبه يا عبد الله - إلى كلمة «أَبَقَ» تدلُّكَ على أنه هروبُ عبدٍ مِنْ سيده، لتلحَظَ فيه معنى العبودية المطلقةِ لله تعالى، فاللهُ سيّدُهُ، وهو عبدُهُ، وقوله: ﴿ أَبَقَ ﴾ ليست مأخذاً على يونس لأنها تعني أنه معترفٌ أنه عبدٌ لربه.

والمعنى: أنه تركَ قومَهُ دون إذْنٍ من ربه.

و﴿ ٱلْفُلْكِ ﴾: السفينة.

و﴿ ٱلْمَشْحُونِ ﴾: الممتلئ.

وهذا يدلنا على أنَّ للسفينة حِملاً خاصاً ينبغي ألا يزيد وإلا تَعَرَّضتْ السفينةُ للغرق وِفقَ قانون «أرخميدس».

وبهذه القاعدة تطفو الأشياء، وعليها تقوم فكرة الغواصات، فالغواصة تغوص تحت الماء لأنَّ وزنها أثقل من الماء التي تُزيحه.

ولذلك قالوا: «خِفْ تعوم».

قال العلماء: وما دامَ أنَّ الفُلكَ مشحونٌ، والعَدَدُ أزيدُ مِنْ حِمل السفينة، فقرَّرَ القبطان أنْ يُلقيَ بأحدِ الركاب ليخفَّ الحِملُ، فأجْرَوا القُرعةَ فخرجَ سهمُ يونس، وهذا معنى قوله: ﴿ فَسَاهَمَ ﴾: أي قارعَ، وساهَمَ مُشتق من اسم السَّهم، لأنهم كانوا يقترعون بالسهام، وهي أعوادُ النِّبالِ، وتُسمى

«الأزلام».

وقد ذكر بعض المؤرخين كما في كتاب «يونان»: أنَّ بعضهم قال لبعض عندما هالَ البحر واضطرب، هلمَّ نُلقِ قُرْعَةً لنعرفَ مَنْ هو سبب هذه البليَّةِ، فألقوا قُرعةً فوقعت على يونس.

وورد عن ابن عباس ووهب بن منبه، أنَّ القرعة خرجت ثلاث مرات على يونس.

قال العلماء: وسُنَّةُ الاقتراع كانت مُتَّبعةً في أسفار البحر عند الأقدمين، إذا ثَقُلت السفينة بوفرةِ الراكبين أو بكثرةِ المتاع، وكانوا يلجؤون إليها – أي إلى القرعة – لتبرئةِ مالكِ السفينةِ مِنْ أنْ يُتَّهمَ بالتحيُّز أو المُحاباة.

وقد ذكر الصفدي في شرح القصيدة المُسماةِ «لاميةَ العجم»، عند شرحه لأحد أبياتها وهو:

إنَّ العُلا حدثتني وهي صادقةٌ　　　فما تُحَدِّثُ أنَّ العِزَّ في النُّقَلِ

قال: إنَّ بعض الأصحابِ قال: إنَّ مركباً فيه كُفارٌ ومسلمون، أشرفَ على الغرق، وأرادوا أن يرموا بعضهم في البحر ليخفَّ المركبُ فينجوَ قسمٌ ويسلمَ المركبُ فقالوا: نقترعُ فمن وقعت القرعةُ عليه ألقيناهُ، فنظر رئيس المركب إليهم وهم جالسون على هذه الصورة فقال: ليس هذا حُكماً مُرْضياً، وإنما نَعُدُّ الجماعةَ، فمن كان تاسعاً ألقيناه، فارتضوْا ذلك، فلم يزل يَعُدُّهم ويُلقي التاسعَ فالتاسعَ إلى أنْ ألقى الكفارَ وسَلِمَ المسلمون.

وهذه صورة ذلك «وصوَّر دائرةً فيها علاماتٌ حُمر، وعلاماتٌ سود، فالحُمْر للمسلمين ومنهم ابتداء العَدِّ، وهو مِنْ جهة الشمال».

قال الراوي: وقد ذكرتُها «لنور الدين علي بن إسماعيل الصفدي»

فأعجبتهُ وقال: كيف أصنعُ بحفظ هذا الترتيب؟ فقلتُ له: الضابطُ في هذا البيتِ تجعل، حروفُهُ المُعجمَةُ للكفار، والمُهملةُ للمسلمين، وهو:

اللهُ يقضي بكلِّ يُسرٍ ويرزُقُ الضيفَ حيثُ كانا

وقوله: ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الصافات]، أي كان من المغلوبين في القُرعة، و«مِن» هنا: للتبعيض، وهذا يدل على أنَّ القرعةَ أصابتْهُ وأصابت غيره مِنَ المدحضين، أي الذين غُلبوا في القرعة، ومنه قول الشاعر:

قتلنا المُدْحَضين بكلِّ فجٍّ فقد قرَّتْ بِقتلهِمُ العيونُ

يونس عليه السلام في بطن الحوت:

وقوله: ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الصافات].

الالتقام: البلعُ دون العض للأسنان، ودون مَضْغٍ.

قال العلماء: وهو حوت مِنْ كِبار الحيتانِ يكون في البحر المتوسط، واسعُ الحلقوم، حتى إنه ليبتلعُ الرجل بِرمَّته دون شرخ أو جرح، وهو حوت يُسمى عند الفرنجةِ «بالين» لأنَّ غرقَ يونس كان في البحر المتوسط، وكان يُسمى في أيامهم: «بحر الروم»، ولم يكن بنهر دجلة كما ذكر بعض المفسرين.

وهذا الحوت الكبير يُعرف عند الصيادين باسم «الزَّفَا».

وقوله: ﴿ مُلِيمٌ ﴾، مُليمٌ: اسم فاعل مِنْ ألامَ فهو مُليم، وهو مَنْ فعلَ شيئاً يلومُهُ عليه الناسُ، فهو بفعله هذا الشيء جعلهم لائمينَ له، فهو ألامَهم على نفسه، بكونه سافرَ دون أمر ربه له.

قال أهل العلم: واللوم نوع من العتاب، وفَرْقٌ بين: ما تُلام عليه، وما تُعاقب عليه.

فيونس فعلَ ما يُعاتَبُ عليه من ربه – عز وجل – وكأنَّ الله تعالى بقوله له: «لقد تسرَّعت حين تركتَ قومك وضِقْتَ بهم لأولِ إيذاءٍ تتعرضُ له، وكان عليكَ أن تصبر، وأن تتحمل الأذى في سبيل دعوتك».

إذاً، اللوم نوعٌ مِنَ العتاب، لا يصل إلى درجة العقاب، وغالباً ما ينشأ العتابُ بين الأحبة لاستبقاءِ المودة، لذلك كان من شعر «أحمد شوقي» أمير الشعراء المتوفى سنة ١٩٣٢م عن ستةٍ وستين عاماً، قصيدةٌ عدد أبياتها اثنا عشرَ بيتاً مِنَ البحر الكامل، مطلعُها – وهو محل الشاهد –:

أما العتابُ فبالأحبةِ أَخْلَقُ ... والحبُّ يَصْلُحُ بالعِتابِ ويَصْدُقُ

ولابن الرومي قصيدةٌ جميلةٌ في عتاب أحد أصدقائه المحبوبين، منها:

والذي أطلق اللسان فعاتبْـ ... ـتك عدِّيك أولَ الفهماء

ومعلوم أنك لا تُعاتب إلا مَنْ تُحب وتحرص عليه لتدومَ الصُحبةُ بينكما.

النجاة وسببها:

ثم يأتي قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات].

قال القرطبي: بيَّنَ الله عز وجل سبب نجاة يونس، وهو كونه كان مُسبِّحاً: أي ذاكراً الله عز وجل مُنيباً إليه وهو في بطن الحوت وقبل ذلك، ولذلك قيل في الأمثال والحِكم: «إنَّ العملَ الصالح يرفعُ صاحبهُ إذا عَثَرَ».

قال الحسن: ما كان ليونس في بطن الحوت صلاةٌ، ولكنه قدَّمَ عملاً صالحاً في حال الرخاء، فذكره الله به في حال البلاء، وإنَّ العمل الصالح ليرفعُ صاحبهُ، وإنْ عَثَرَ وَجَدَ مُتكأً، وقد جاء في الحديث: «مَنْ استطاع منكم أنْ تكون له خبيئةٌ مِنْ عمل صالح فليفعل».

وقال ابن عاشور: أنجاهُ الله بسبب تسبيحه، فقذفهُ الحوت من بطنه إلى البرّ بعد أن بقيَ مُدة يومٍ وليلة، وقيل: أربع ساعات.

غضب يونس عليه السلام وأسبابه:

قال تعالى في [سورة الأنبياء]: ﴿ **وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧** ﴾.

«ذو النون»: هو سيدنا يونس عليه السلام، والنون: اسم من أسماء الحوت، وجمعه «نينانٌ»، مثل: حوت: تُجمع على حيتان، ومنه قول الشاعر يمدحُ أميراً اجتمع له في قصره صيدُ البر والبحر وأهل المال والظهر، وأهل البدو والحضر:

يا جيد القصر نعم القصرُ والوادي ... وجيداً أهله من حاضرٍ بادي
تُوفي قَراقرهُ والوحش رائعة ... والضبُّ والنونُ والملاحُ والحادي

وقوله: ﴿ **إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا** ﴾، عندنا كلمة «غاضب» تأخذ منها المعنى المفرد، غاضبٌ وغضبانٌ، أما كلمة «مُغاضبٌ» فتدل على مُشاركةٍ، وتحتاج إلى عنصرين.

ولكن لمنْ غاضبَ يونس؟

والجواب: غاضبَ قومه؛ لأنهم كانوا سبَبَ غضبه فهم شاركوه، كما حدثَ في هجرة النبي ﷺ، فالرسول ﷺ هاجر مِنْ مكة، لكنه لم يَهْجُرْها، فسُميت هجرةً؛ لأنَّ أهل مكة هجروا رسول الله ﷺ أولاً، ثم هجروا دعوته، واضطروه إلى الهجرة وترك مكة، فهم طرفٌ في هجرته ﷺ، وسبب لها كما قال أهل العلم، لذلك قال ﷺ مُخاطباً مكة حين خروجه منها مهاجراً: «والله

إنك لخير أرض الله، وأحبُّ أرض الله إليَّ، ولولا أنَّ أهلك أخرجوني منك ما خرجتُ»، وهذا القول ذكره ابن ماجة في سُننه، والدارمي في سُننه مِنْ حديث «عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري» قال: رأيتُ رسول الله ﷺ وهو على راحلةٍ واقفاً بالخرورةِ يقول: وذكر الحديث السابق.

وأصل معنى «الخرورة»: هي الرابيةُ المرتفعةُ، كانت سوقاً لمكة، ثم لما وسَّعوا المسجد الحرام دخلت فيه، وعند هجرته ﷺ وقف عندها وقال مُخاطباً مكة ما ذكرناه - الحديث السابق -، وقد أخذ المتنبي هذا المعنى، وعبَّر عنه بقوله:

إذا ترحَّلْتَ عن قومٍ وقدْ قَدَروا   ألا تُفارقَهُم فالراحلون هُمُ

ويجوز أن يُقال في تفسير ﴿ مُغَاضِبًا ﴾: أي مُغاضباً لربه، أي لأجلِ ربه سبحانه، أي كان غضبه لله عز وجل حيث عصاهُ قومه، وهذا قولٌ حسنٌ، لأنَّ العربَ تقول: «غضبتُ لكَ»، أي من أجلك، والمؤمن يغضب لله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ [الأنبياء ٨٧]، أي ظنَّ يونس لما خرج مِنْ بلده نينوى مُغاضباً لقومه، ظنَّ أنَّ الله لن يُضيّق عليه، بل سيُوسع عليه، ويُبْدِلُهُ ببلده التي خرج منها مكاناً أفضل منها، لأنَّ يونس ظنَّ أنه مُخيَّرٌ إن شاء أقامَ، وإن شاء خرجَ، وأنَّ الله لن يُضيق عليه في اختياره، ولكن البقاء كان هو الأصلح، وكان مِنَ المفروض أن يتحمل الأذى الصادرَ مِنْ قومه تُجاهه.

وظنُّ يونس - والظنُّ ترجيحُ حكم على حكم - يَدُلُّنا على أنَّ مُعارضة دعوته مِنْ قومه كانت شديدة تُغضِبُ، وتملأُ القلب ألماً وتعباً، وكان عليه أن يُوطِّن نفسه على مواجهة مشاقِّ الدعوة إلى الله - كما قال العلماء -.

والعرب تقول: فلان مُقَدَّر عليه، ومقتَّرٌ عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ ﴾ [الطلاق ٧].

ومِنْ ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ ﴾[الإسراء ٣٠].

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الفجر].

هنا لا بُدَّ مِنَ الإشارة إلى أمرٍ عَقَدِي في هذه الآية: ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ﴾، إذ قال بعضُ الجَهلةِ إنَّ يونس ظنَّ أنَّ ربَّه لن يَقْدِرَ عليه، وهو مِنَ القُدْرَةِ، وهذا القولُ يَنْسِبُ العَجَزَ إلى الله مما دَفَعَ المحققين إلى الإغلاظ لمن قال بهذا القول.

قال ابن حزم وغيره: لا يظنُّ هذا الظنَّ السخيفَ إلا إنسانٌ بَلَغَ الغايةَ مِنَ الجهل، بل مِنَ الُمحال أنْ يظنَّ نبيٌّ بربِّه عز وجل هذا الظنَّ، فالنبي يعلم أنَّ الله أرسله بدينِهِ، فكيف يظنُّ أنَّ الذي أرسلَهُ لا يقدرُ عليه.

ومما يؤيد بُطلانَ هذا القول قوله تعالى بعدها حاكياً عن يونس: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾[الأنبياء].

فهو هنا يطلبُ مِنْ ربه تنفيسَ كُربَتِهِ، وتنفيسُ الكُربةِ لا يكون إلا بصفةِ القُدرةِ له عز وجل فكيف يستقيم المعنى إذا قُلنا: إنَّ الله لا يقدر على يونس، فالمعنى ظنَّ أن لن نُضيق عليه، أما تقدير المعنى بالعجز وعدم الاستطاعة، فهو قولٌ مردود لأنه كُفر، كما قال القرطبي.

وقد ذكر النسفي في تفسيره: أنَّ عبد الله بن عباس دخل على معاوية

يوماً، فقال معاوية: لقد ضربتْني أمواج القرآن البارحة فغرقتُ فيها، فلا أجدُ لنفسي خلاصاً إلا بك؟

قال ابن عباس: وما هي يا معاوية؟

فقرأ معاوية عليه الآية: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء].

فقال ابن عباس: هذا مِنَ القَدَرِ لا مِنَ القُدْرَةِ، أوَ يظُنَّ نبيُّ الله أن لا يقدِرَ عليه ربُّه: أي مِنَ التضييق، وكان ذلك ابتلاءً وتمحيصاً، وزجراً أنْ يعودَ لمثلها.

وقوله: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾، قال ابن مسعود: ظُلمةُ البحر، وظُلمةُ بطن الحوت، وظُلمةُ الليل.

وقد ذكر ابن أبي الدنيا عن ابن مسعود قال: لما ابتلعَ الحوت يونس أهوى الحوت إلى قرارِ الأرض، فَسَمِعَ يونسُ تسبيحَ الحصا فنادى في الظُلمات الثلاث: ﴿أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ﴾.

قال الصاوي: وهذا الدعاء: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ﴾: عظيم لاشتِمالِهِ على: التهليل، والتسبيح، والإقرار بالتقصير.

ولذلك وردَ في الحديث الذي رواه أبو داوود أنَّ النبي ﷺ قال: «دُعاء ذي النون في بطن الحوت، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدعُ به رجلٌ مسلمٌ في شيءٍ قطُّ إلا استُجيبَ له».

وروى أحمد والترمذي مِنْ حديث أنس أنَّ النبي ﷺ قال: «ما مِنْ مكروبٍ يدعو بهذا الدعاء إلا استُجيبَ له».

وقوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قال عوف الأعرابي: لما صارَ يونس في بطن الحوت، ظنَّ أنه قد ماتَ، ثم حَرَّكَ رجليه، فشعرَ بالحياةِ، فسجدَ مكانه ثم نادى مِنْ مكانِهِ: «يا رب، اتخذتُ لك مسجداً في موضعٍ لم يبْلُغْهُ أحدٌ مِنَ الناس».

قال ابن إسحق: ثم سَبَّحَ.

وأخرج محمد بن إسحق عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة رضي الله تعالى عنها، قالت: سمعتُ أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا أرادَ الله حبسَ يونس في بطن الحوت، أوحى الله إليه - إلى الحوت - أن خذهُ ولا تخدِشْ له لحماً، ولا تكسر له عظماً، فلما انتهى به إلى أسفل البحر، سَمِعَ يونس حِسّاً، فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت، أَنَّ هذا تسبيحُ دواب البحر، قال: فسبَّحَ وهو في بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسبيحَه».

وروى ابن أبي حاتم مِنْ حديث أنس بن مالك، أنَّ النبي ﷺ قال: «إنَّ يونس حين بدا له أن يدعوَ بهذه الكلمات لا إله إلا أنت سبحانك أقبلت الدعوةُ تحتَ العرشِ، فقالت الملائكةُ: يا رب: صوتٌ ضعيفٌ معروفٌ مِنْ بلادٍ غريبة؟ فقال عز وجل: أما تعرفونَ ذاك؟ قالوا: يا رب: مَنْ هو؟ قال عز وجل: عبدي يونس، قالوا: عبدُكَ الذي لم يزل يُرفعُ له عملٌ صالح، ودعوةٌ مُستجابة؟ قالوا: يا رب: أولا ترحَمُ ما كان يصنعُ في الرخاءِ، فتُنجيه مِنَ البلاء؟ قال عز وجل: بلى، فأمرَ الحوتَ فطرحَهُ في العراء».

قال الشافعي: أفضل ما يُداوى به الطاعونُ التسبيح؛ لأنَّ الذِكرَ يرفعُ العقوبة والعذابَ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ

﴿يُبۡعَثُونَ ١٤٤﴾[الصافات].

قال كعب: سبحان الله تمنع العذاب.

وعن عمر، أنه أمرَ بجلد رجلٍ تعزيراً، فقال الرجل بعد أول جلدةٍ: سبحان الله، فتركهُ عمر وعفا عنه، ولهذا جاءت الاستجابة سريعةً ليونس:﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ ﴾ [الأنبياء].

قال أهل العلم: نجاه مِنَ الكرب:﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ ﴾، وهذه ليست ليونس خاصة، بل كل مؤمن يدعو بهذا الدعاء يُذْهِبُ الله هَمَّهُ، ويُفرج كربه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾: أي مثل هذا الإنجاءِ الذي نجينا يونسَ، نُنجي المؤمنين الذين يفزعونَ ويلوذونَ بجنابِ الله عز وجل.

لذلك يقول ابن مسعود: نَوِّروا القرآن: أي أنيروه، ونقبوا عن معانيه، ونَقِّبوا في آياته لتستخرجوا كنوزه وأسراره.

قال شُمَّرُ: تنوير القرآن: قراءته، ومُفاتَشَةُ العلماء به في تفسيره ومعانيه. «لسان العرب، مادة: نَوَرَ».

القرأن دواء لكل داء:

وكان جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه مِنَ المُنورين للقرآن، المُتأملينَ في معانيه – كما قال أهل العلم – حيث كان يُخرج مِنْ آياته الدواء لكل داءٍ.

يقول رضي الله تعالى عنه – أي جعفر الصادق – يقول: عجبتُ لمن خافَ ولم يلجأْ إلى قوله تعالى: ﴿ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ ﴾ [آل عمران]، فإني سمعتُ الله عز وجل يقول بعدها: ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ ﴾ [آل عمران ١٧٤].

وعجبتُ لمن اغتمَّ، ولم يفزعْ إلى قوله تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء]، فإني سمعتُ الله بعدها يقول: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الأنبياء].

وعجبتُ لمن مُكِرَ به ولم يفزعْ إلى قوله تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [غافر ٤٤]، فإني سمعتُ الله بعدها يقول: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ﴾ [غافر ٤٥].

وعجبتُ لمن طلبَ الدنيا وزينتها، ولم يفزعْ إلى قوله تعالى: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [الكهف ٣٩]، فإني سمعتً الله بعدها يقول: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾ [الكهف ٤٠].

قال أهل العلم: وهكذا يجب على المؤمن أن يكون مطمئناً واثقاً مِنْ تأييد الله له، ومعيَّتِهِ معه؛ لأنه يفزع إلى الله في كل أحواله، لأنَّ المؤمن يتقلب في أحوالٍ مُتعدِدَةٍ، شأن كل البشر.

فقد يشعر بالخوف مِنْ جبارٍ يُهدِّدُهُ، أو خوفٍ مِنْ فواتِ نِعمةٍ.

وقد يشعر بانقباضٍ وضيقٍ لا يدري سببه، وهذا هو الغمُّ.

وقد يتعرضُ لِمكر الماكرين، وكيدِ الكائدين.

كل هذه الأحوال تَعْتَري الإنسان ويحتاجُ فيها لمن يُساعده ويُسانده، ويُخرجه مما يُعانيه، وليس له حولٌ ولا قوةٌ.

وقد تُراوده زهرةُ الدنيا وزُخرفُها، ويطلب المزيدَ منها؛ لأنَّ الإنسان لا نهاية لطموحاته، كما قال الشاعر:

تموتُ مع المرءِ حاجاتُهُ ... وتبقى له حاجةٌ ما بقي

والناس حريصون على أن يستوعبوا نِعَمَ الحياة وراحاتها، وهم في ذلك مُخطئون، لأنَّ تمامَ الشيء بدايةُ نقصه وزواله:

إذا تم شيءٌ بدا نقصُهُ ترَقَّبْ زوالاً إذا قيل تم

وقد نرى أُناساً يتذمرون إذا فاتهم شيءٌ مِنْ نعيم الدنيا وراحتها، ولا يدرون أنَّ هذا النقصَ مِنَ الراحة أو مِنَ النِعَم، فالله هو الذي يحفظُ عليك النِعمة، ويدفعُ عنك عيون الحاسدين، فَيُسَلِّمُ لك ما عندك.

قال أهل العلم: قد تجدُ - مثلاً - أُسرةً طيبةً حازت اهتمامَ الناس وتقديرهم، لكنَّ شخصاً شِرّيراً بها يعيبُ الأسرةَ، فهذا الشخصُ يدفعُ عنها حسدَ الحاسدين، وقد أخذ المتنبي هذا المعنى، ومدحَ سيف الدولة وقال:

شَخَصَ الأنامُ إلى كمالِكَ فاستعذْ مِنْ شَرِّ أعيُنِهم بعيبٍ واحد

قال القرطبي: إنَّ تسبيحه - يونس - كان سببَ نجاته.

وقال صاحب «التحرير والتنوير»: إنما أنجاهُ بِسَبَبِ تسبيحه، فقذَفَهُ الحوت مِنْ بطنه إلى البرِّ بعد أن بقيَ فيه يوماً وليلةً، أو أربع ساعات.

وذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الصافات].

إذاً كان تسبيحُهُ قبل المِحنةِ وأثناءَ المِحنَةِ سببَ نجاته، قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء].

كيف كان إنجاؤه؟

قال ابن عاشور: الصحيح أنه مكثَ في بطن الحوت أقل من يوم، ثم

أنجاهُ الله، وكان إنجاؤه بتكوينٍ في مِزاج الحوت، حتى خرج الحوت إلى قُرب الشاطئ، فتقاياه، فخرجَ يسبحُ مُنهكاً إلى الشاطئ، واسمع إلى قوله تعالى: ﴿ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ١٤٥ ﴾ [الصافات].

والنبذُ: الإلقاءُ والطرحُ، ونَسَبَهُ إلى الله تعالى؛ لأنَّ الله هو الذي سَخَّرَ الحوتَ لقذفه مِنْ بطنه إلى الشاطئ.

والعراءُ: الأرض التي لا شجر فيها، ومنه قول الخُزاعي الشاعر:

ورفعتُ رِجلاً لا أخافُ عِثارها ... ونبذْتُ بالبلدِ العراءِ ثيابي

قال بعض أهل العلم: وكان يونس خرج من بطن الحوت سقيماً، لأنَّ أمعاءَ الحوت قد أضَرَّتْ بجلده بحركتها حوله لكونه عند إلقائِه في البحر قد نزعَ لباسهُ ليخِفَّ للسباحة، ثم قال: ولعل الله عز وجل قد أصابَ الحوتَ بِشبه إغماء، فتعطلت حركةُ هضمه، فَبَقِيَ كالخَدِرِ لئلا تضُرَّ أمعاؤه لحمَ يونس.

وكلمة: ﴿ سَقِيمٌ ﴾: تحتمل السَقَمَ المادي مِنْ ضعفٍ أو مرضٍ أو تعب، وتحتمِلُ السَقَمَ المعنويَ، وهو التفكير فيما حدث منه وما حدثَ مِنْ قومه، ثم لم يترُكْهُ ربه بهذا العراءِ بعد أن أصابَهُ ما أصابَهُ مِنْ إفرازاتِ بطن الحوت، بل أنبتَ عليه شجرةَ اليقطين: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ١٤٦ ﴾ [الصافات]، وهي شجرةٌ عريضةُ الأوراق، واليقطينُ: هو القرع أو الدُبّاءُ، كثيرة الأوراق وتتسلق أوراقُها وأغصانُها على الشيء المرتفع.

واليقطين عند العرب: كل شجرة لا تقوم على ساق، كالدُّباءِ - يقطين نجد -، والبطيخ، والحنظل ونحوِ ذلك، ولذلك لما سُئِلَ النبي ﷺ عن شجرة اليقطين قال: كما في صحيح مسلم وفي سنن النسائي: كان ﷺ يُعجبه القرع،

«كان ﷺ يُحبُّ القرعَ ويقول: إنها شجرة أخي يونس».

قال ابن جَزيء: إنما خصَّ القرعَ بالذِّكر لأنه: يجمعُ كِبَرَ الورق، وبَرْدَ الظل، والذباب لا يقربُه، لأنَّ لحمَ يونس لما خرجَ مِنَ البحر كان لا يحتمل الذباب، وهذا مِنْ تدبير الله ولطفه.

وقال ابن عاشور: والظاهر أنَّ أغصانَ اليقطين تسلقت على جسدِ يونس فكستْهُ، وأظلتْهُ، واختيرَ له اليقطينُ ليستطيعَ أنْ يقتاتَ على غَلَّتِهِ، فيَصْلُحَ جسده لطفاً مِنْ ربه عز وجل بعد أن أجرى عليه تلك المشقةَ، شأنُ الرب تبارك وتعالى مع عبيده أن يُعقِبَ الشدةَ باليُسر، فنحن في الحقيقة أمام سلسلة مِنَ الرحمات بيونس، ابتداءً مِنَ التقام الحوت؛ لأنه - حتى التقامُ الحوت- رحمة له، فهو خير مِنْ ضياع يونس في البحر الواسع تتقاذفه الأمواج ولا يدري أين تذهبُ به، فالحوت له إرادةٌ مكَّنتهُ مِنَ الاحتفاظ به ثم قذفه إلى البر، وكل ذلك رحماتٌ تتوالى عليه ﷺ.

وهذا الحدث الأخير - إخراج الشجرة - لم يسبق لأحد مِنَ الرُسل.

ولذلك قال ﷺ: «ما ينبغي لأحدٍ - يقصد ﷺ نفسه - أن يقولَ أنا خير مِنْ يونس بن متى»، أي إنَّ اجتهادَهُ الخطأَ لم يسلبْهُ النبوةَ.

فرحماتُ الله تعالى توالت عليه، قال «أمية بن أبي الصلت»:

فأنبتَ يقطيناً عليه برحمةٍ مِنَ الله لولا اللهُ أصبحَ ضاويا

كما كان الحوت مِنْ نوع خاص، مِنَ النوع الذي يُرضع فِراخَهُ، فهو يقترب مِنَ السواحل الخاليةِ المُترامية خوفاً على فِراخه ونفسه.

قال المفسرون: وقد رحمهُ الله تعالى بـ «أروية وحشية»: أُنثى الوعل، تُرضعه، فكانت تأتيه صباحَ مساءَ فتفشَحُ عليه، أي تفتحُ رجليها، وتُدني

ضرعها منه، فيرضعُ حتى يشبعَ إلى أن تماثَلَ للشفاء.

ذكر هذا الإرضاعَ صاحب «أيسر التفاسير»، ولم يُشِرْ إلى مصدره، ولكنَّ أثراً رواه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة يُشير إلى ذلك، فقد وردَ عن أبي هريرة قال: «وهيأ الله له أرويةً وحشيةً تأكل مِنْ خَشاش الأرض، فتفشَخُ عليه فتَرَوّيه مِنْ لبنها كلَّ عشيةٍ وبُكرةٍ».

قال الجزائري: ثم عادَ إلى قومه فوجدهم مؤمنين لتوبةٍ أحدثوها عند ظهور بوادر العذاب، فطمأنهم يونس بقبولِ توبتهم.

واحذر أن يخطر ببالك - يا عبد الله - أنَّ اجتهادَ يونس بالخروج مِنْ بلده، وخطأَهُ في هذا الاجتهادِ يقدحُ في رسالته، ولذلك قال الله فيه: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الصافات].

عادَ إليهم فوجدهم قد آمنوا بالله رباً، وبيونس رسولاً، وتابوا مِنَ الشرك والكفر، فكشفنا عنهم العذاب الذي أظلهم قبل وقوعه.

وقوله تعالى: ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾: قال العلماء: إنَّ ﴿ أَوْ ﴾ هنا بمعنى «بل» وهو قول أبو علي والكوفيون وابن بُرْهان، وأبو الفتح، ومنه قول جرير:

ماذا ترى في عيالٍ قد بَرِمْتُ بهم ... لم أُحصِ عِدَّتَهُم إلا بِعَدّادِ
كانوا ثمانين أو زادوا ثمانيةً ... لولا رجاؤُكَ قد قتّلتُ أولادي

وهل يشك الله بِعدَدِهم، أو لا يعلم عدَدَهم على وجه التحديد؟

حاشا، وإنما القصدُ تأكيدَ العدد السابق «وهو المائة ألف»، كما تقول: أعطيتُ فلاناً حقه وزيادة، أو «ويزيد» فأنتَ لا تتحدث عن الزيادة، إنما تؤكد هذا العدد وأنه غير ناقص؛ لأنَّ الألفَ يُطلق عادةً عند العرب على ما يُقارب الألف مثل: تسعمائةٍ وتسعين أو وتسعةٍ وتسعينَ.

ويجوز أن تكون «أو» الألف «أو» بمعنى الواو عند أمْنِ اللَّبسِ كقول الصحابي « حميد بن ثور الهلالي»:

قومٌ إذا سمعوا الصريخَ رأيتَهم ما بين مُلجِمِ مُهرِهِ أو سافع

فهي هنا بمعنى «الواو»؛ لأنَّ بَيْنَ لا يُعطف فيها إلا بالواو.

وقد روى الترمذي مِنْ حديث «أبيّ بن كعب» أنَّ النبي ﷺ قد بيَّنَ هذه الزيادة.

قال كعب: سألتُ النبي ﷺ عن هذه الآية عن الزيادة ﴿أَوۡ يَزِيدُونَ ﴾، فقال ﷺ: «عشرون ألفاً »، وهو حديث غريب: وهو ما انفردَ به راوٍ واحد أي خبر الواحد، وخبر الآحادِ: إما مشهور، أو عزيز، أو غريب.

ما هي الدروس المستفادة مِنْ قصة يونس عليه السلام؟

قال العلماء:

أولاً: في قصة يونس قدوةٌ لنا في ذلك الدعاء العظيم: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء ٨٧]، فقد قال الله عندها مُستجيباً له: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ ﴾ [الأنبياء].

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾: أي وهذا صنيعُنا مع كل مَنْ دعانا واستجار بنا.

قال ابن جرير: ورد عن سعيد بن المسيب قال: سمعتُ سعد بن أبي وقاص يقول، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اسم الله الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى، دعوةُ يونس بن متى»، قال: فقلت يا رسول الله: هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟

فقال ﷺ: «هي ليونس خاصة، وللمؤمنين عامة، إذا دَعَوا بها، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾، فهو شرط مِنَ الله لمن دعاه به».

ثانياً: في قصة يونس، أمرٌ بالصبر على مشاق الدعوة، وتحمُّلِ المدعوين.

قال قتادة: إنَّ الله يأمر نبيه محمداً ﷺ بالصبر، ويحثه عليه، ويُغْريه به، ولا يعجلْ كعجلةِ يونس عليه السلام، فقال لحبيبه محمد ﷺ: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القلم].

والمعنى: اصبر يا محمد فلا يُصيبك ما أصاب يونس، وقد نَزَلَتْ على رسول الله ﷺ حين أرادَ أن يدعوَ إما على أهل الطائف، في قول، وإما على الذين انهزموا يوم أُحد في قول آخر.

قال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾، أي على أعباء الدعوة، وهذا أمرٌ كررهُ الله كثيراً على النبي ﷺ كقوله تعالى: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴿٧﴾ ﴾ [المدثر].

لأنَّ الصبر يستدعي الوعد بالنصر، وعدَمَ الضجر مِنْ تأخُّرِهِ إلى المدةِ التي قدرَّها الله عز وجل.

وقوله: ﴿ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴾، تُطلق على المحبوس، ومنه قولهم: «كَظَمَ غيظه»: أي حبسَ غضبه.

وكَظَمَ الباب: أغلقه، ويُطلق على الشيء المملوء إلى أعلاه، ومنه قولهم: «كَظَمَ السِّقاء»: إذا ملأه، ومنه قول ذي الرِّمة:

وأنت مِنْ حُبِّ ميٍّ مُضمِرٌ حَزَناً   عاني الفؤاد، قريحُ القلب مكظومُ

قال أهل العلم: واعلم أنَّ الغرض مِنْ ذِكر يونس للنبي ﷺ: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾، تسليةُ النبي ﷺ فيما يلقاهُ مِنْ ثِقل الرسالة - أي اصبر على ثِقل الرسالة - فإنَّ الرُسل قبلكَ قد أُثقلوا.

وهنا بَرَزت وظهرت مرتبةُ النبي ﷺ في صبره وعَدَم تذمُّره وليعلم الناس بأنه مأمور مِنَ الله تعالى بمُداومة الدعوة للدين؛ لأنَّ المشركين كانوا يلومونه على إلحاحه ودعوته لهم في مختلف الأزمان والأحوال وكانوا يقولون للنبي ﷺ - والقائل: عبد الله بن سلول -لا تَغْشَنا في مجالسنا، فمن جاءك منا فأسمعهُ، فقال الله تعالى لهم: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة ٦٧].

وليعلمَ الناس أنَّ الله إذا اصطفى أحداً للرسالة، لا يُرَخِّصُ له الفتور عنها، ولا ينسخ أمرهُ عز وجل.

ثالثاً: درسٌ للدُعاة ليكونوا رُحماءَ بمن يدعونهم، وهذه صِفةُ النبي ﷺ الجليةُ فيه.

وقد ذكر بعض أهل العلم قصةً وخبراً منقولاً عن أهل الكتاب، لا نُكذبه ولا نُصدقه، وهو: أنَّ يونس استيقظ مرةً فرأى الشجرة قد ذَبُلت وجَفَّت - وهي شجرة اليقطين -.

قال بعض أهل العلم: إنها شجرة يقطين، لها ساق تُسمى «يقطين نجد»، ذَبُلت وجَفَّت، فحَزِن عليها فأوحى الله إليه: «أتحزنُ على شجرة لم تخلُقْها أنت، ولم تُنبتها، ولم تُربِّها، وأنا الذي خلقتُ مائة ألف أو يزيدون، أرسلتُكَ إليهم فأزعجوك، ثم تريد مني أن أستأصِلهم في ساعة، وقد تابوا فتُبْتُ عليهم، وأنا التواب الرحيم».

ولذلك قال أبو صخر: إبقاءُ النشأةِ خير مِنْ هدمِها، إلا حين ينقطعُ الأمل.

ثم إنَّ الله اجتباهُ وقرَّبَهُ، قال تعالى: ﴿ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القلم].

قال الكاشاني: ﴿ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ ﴾: أي قرَّبه، لمكانِ سلامَةِ فطرته، وبقاء نور استعداده، وعدم رسوخ الهيئةِ الغضبية بعد الابتلاء.

وقوله: ﴿ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾: شَفَّعهُ في نفسه، وفي قومه، فأعادهُ لهم.

﴿ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾: أي الكاملين في الصلاح، وهي درجةٌ لا ينالُها إلا أهل القُربِ، وهذا يدُلك على أنَّ يونس كان عند الله مُقرباً مُكمَّلاً قبل المحنةِ وبعدها، حتى لا يتوهم مُتوهمٌ في شأنه شيئاً، ولذلك قال ﷺ: «لا ينبغي لأحدٍ - يعني نفسه - أن يقولَ أنا خير مِنْ يونس» في الصحيحين.

قال المؤرخون: مَكَثَ يونس في قومه بعد عودته إليهم ثلاثين سنة، ثم توفي في أرض فلسطين، وقبره في بلدةٍ بين القدس والخليل اسمها «جلجون»، فصلاة الله وسلامه عليه وعلى نبينا.

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام	٥
نسب موسى عليه السلام	١٢
مولده	١٢
الحمل بموسى وولادته	١٩
ما هو هذا الوحي؟	٢٠
حال أم موسى بعد وقوع التابوت في يد فرعون:	٣٠
وعد الله يتحقق	٣١
البُكاء والإرضاع	٣٢
قتل موسى للقبطي، وهربه إلى مَدْيَن	٣٧
العودة لمصر:	٦٩
تكليم الله عز وجل لموسى عليه السلام	٧٠
العصا فائدة ومعجزة	٨١
بياض اليد	٩٢
دعوة فرعون	١١٦
طلب فوعون للمعجزة	١٤٦
حشر السحرة	١٤٩
أنواع الكفر	١٥٢

تحديد يوم اللقاء «يوم الزينة»	١٥٥
أنواع الأعياد	١٥٩
المواجهة ووعظ السحرة	١٥٩
ماذا نتج عن موعظة موسى؟	١٦١
يوم الزينة	١٦٤
ماذا كان مصير السحرة؟	١٨٣
والآن: ماذا جرى بعد هذه الوقائع؟	١٨٦
مؤمن آل فرعون	١٩٩
أنواع العذاب قبل الغرق	٢١٩
الاستعداد للرحيل	٢٣٢
الأمر بالخروج	٢٣٥
انفلاق البحر	٢٤٢
غرق فرعون وقومه	٢٤٦
ماذا حصل لفرعون؟	٢٥٠
لماذا لا ينفع الإيمان صاحبه عند حلول عذاب الاستئصال؟	٢٥١
هل انتفعَ فرعون بهذا الإيمان الذي جاء في غير وقته؟	٢٥٤
أخبار بني إسرائيل بعد نجاتهم من فرعون وتجاوز البحر:	٢٦٣
طلب بني إسرائيل من موسى ما وعدهم به في مصر قبل خروجهم	٢٦٨
تكليم الله لموسى	٢٧٢

قصة اتخاذ بني إسرائيل العجل إلهاً	٢٨٥
كيف كان موقف هارون من هذه الفتنة؟	٢٨٩
ماذا كان جواب بني إسرائيل لهارون؟	٢٩٠
ما هو موقف موسى عليه السلام منهم حين عاينَ عبادتهم للعجل؟	٢٩٣
البشارة الربانية للتائبين	٣٠٠
موسى والسامري	٣٠٣
حرق العجل ونسفه	٣١٠
حكم الله على من عبدَ العجل	٣١٣
الذهاب إلى ميقات التوبة	٣٢٠
قصة البقرة	٣٣٢
موسى والخضر	٣٤٦
بعض اللطائف والفوائد في قصة موسى والخضر	٣٧٧
قصة موسى مع قارون	٣٧٩
نصائح موسى وقومه لقارون	٣٨٤
الصبر	٣٩٥
وقوعُ الكارثة بقارون «الخسف»	٣٩٧
دعوة موسى لبني إسرائيل للجهاد	٤٠٣
بنو إسرائيل في التيه	٤١٣
سُقياهم الماء في التيه	٤١٧

عجائب بني إسرائيل ٤٢٩
حجّ موسى عليه الصلاة والسلام إلى البيت العتيق ٤٢٩
وفاة هارون عليه السلام ٤٣٠
وفاة موسى عليه السلام ٤٣٠
بعض الأحاديث القدسية الواردة عن موسى ٤٣١
دروس من قصة موسى ٤٣٣
يونس عليه الصلاة والسلام ٤٣٥
مولده ونشأته ٤٣٧
إرسالُ يونس عليه السلام إلى أهل نينوى ٤٣٨
خروج يونس عليه السلام وإيمان قومه ٤٣٨
ما حال يونس بعد أنْ دعاهم فلم يستجيبوا أولَ الأمر؟ ٤٤٣
يونس عليه السلام في بطن الحوت ٤٤٦
النجاة وسببها ٤٤٧
غضب يونس عليه السلام وأسبابه ٤٤٨
القرأن دواء لكل داء ٤٥٣
كيف كان إنجاؤه؟ ٤٥٥
ما هي الدروس المستفادة مِنْ قصة يونس عليه السلام؟ ٤٥٩
الفهرس ٤٦٣